سورة النمل

تسعون وثلاث او اربع او خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾

اعلم أن قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن، فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات، وإنما نكر الكتاب المبين ليصير مبهمًا بالتنكير فيكون أفخم له كقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] وقرأ ابن أبي عبلة: (وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ) بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؟ قلت: لا فرق؛ لأن واو العطف لا تقتضي الترتيب.

أما قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو في محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أي هادية ومبشرة، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة، والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هي هدى وبشرى، وعلى البدل من الآيات، وعلى أن يكون خبرًا بعد خبر، أي جمعت آياتها آيات الكتاب وأنها هدى وبشرى، واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين: الأول: المراد أنه يهديهم إلى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] فلهذا اختص به المؤمنون. الثاني: المراد بالهدى الدلالة ثم ذكروا في تخصيصه بالمؤمنين وجوهًا: أحدها: أنه إنما خصه بالمؤمنين؛ لأنه ذَكَرَ مع الهدى البشرى، والبشرى إنما تكون للمؤمنين. وثانيها: أن وجه الاختصاص أنهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]. وثالثها: المراد من كونها ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أنها زائدة في هداهم، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦].

أما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالأقرب أنها الصلوات الخمس؛ لأن التعريف بالألف واللام يقتضي ذلك، وإقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها، وكذا القول في الزكاة فإنها هي الواجبة، وإقامتها وضعها في حقها.

أما قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ففيه سؤال وهو: أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لا بد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة، فما الوجه من ذكره مرة أخرى؟ جوابه من وجهين:

الأول: أن يكون من جملة صلة الموصول، ثم فيه وجهان: الأول: أن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته، والخبر لأجل العمل به، وأما عرفان الحق فأقسام كثيرة لكن الذي يستفاد منه طريق النجاة، معرفة المبدأ، ومعرفة المعاد، وأما الخير الذي يعمل به فأقسام كثيرة وأشرفها قسمان: الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى معرفة المبدأ، وقوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إشارة إلى الطاعة بالنفس والمال، وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفًا أولاً، ومعرفة المعاد طرفًا أخيرًا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطًا بينهما. الثاني: أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، منهم من هو جازم بالحشر والنشر، ومنهم من يكون شاكًا فيه إلا أنه يأتي بهذه الطاعات للاحتياط، فيقول: إن كنت مصيبًا فيها فقد فزت بالسعادة، وإن كنت مخطئًا فيها لم يفتني إلا خيرات قليلة في هذه المدة اليسيرة، فمن يأتي بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن في الحقيقة مهتديًا بالقرآن، أما من كان حازمًا بالآخرة كان مهتديًا به، فلهذا السبب ذكر هذا القيد الثاني: أن يجعل قوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، وهذا هو الأقرب ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو (هُمْ) حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، واختلف الناس في أنه كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته مع أنه أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[النحل: ٦٣]؟ فأما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك؛ لأن الإنسان لا يفعل شيئًا ألبتة إلا إذا دعاه الداعي إلى الفعل والمعقول من الداعي هو العلم والاعتقاد والظن بكون الفعل مشتملاً على منفعة، وهذا الداعي لا بد وأن يكون من فعل الله تعالى لوجهين: الأول: أنه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه إلى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال. الثاني: وهو أن العلم إما أن يكون ضروريًا أو كسبيًا، فإن كان ضروريًا فلا بد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبًا؛ لأن المكتسب إن كان شاعرًا به فهو متصور له، وتحصيل الحاصل محال وإن لم يكن شاعرًا به كان غافلاً عنه والغافل عن الشيء يمتنع أن يكون طالبًا له، فإن قلت: هو مشعور به من وجه دون وجه، قلت: فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم في كل واحد من هذين الوجهين، وإذا ثبت أن التصور غير مكتسب ألبتة والعلم الضروري هو الذي يكون حضور كل واحد من

تصوريه كافيًا في حصول التصديق، فالتصورات غير كسبية وهي مستلزمة للتصديقات، فإذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة، ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق ألبتة، فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب، ثم إن التصديقات البديهية إن كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية؛ لأن لازم الضروري ضروري، وإن لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الأشياء التي فرضناها علومًا نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية؛ لأنه لا معنى لاعتقاد المقلد إلا اعتقاد تحسيني يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية، وثبت أن مبادىء الأفعال هي العلوم فأفعال العباد بأسرها ضرورية، والإنسان مضطر في صورة مختار، فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله. والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات، فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها، أما المعتزلة فإنهم ذكروا في تأويلها وجوهًا: أحدها: أن المراد بينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب؛ لأن التزيين من الله تعالى للعمل ليس إلا وصفه بأنه حسن وواجب وحميد العاقبة، وهو المراد من قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] ومعنى ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يدل على ذلك؛ لأن المراد فهم يعدلون وينحرفون عما زينا من أعمالهم. وثانيها: أنه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا إنعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف، فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم وإليه إشارة الملائكة عليهم السلام في قولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ [الفرقان: ١٨] وثالثها: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه. والجواب: عن الأول أن قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنًا كان العمل أو قبيحًا ومعنى التزيين قد قدمناه، وعن الثاني أن الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الأمور أثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها أوليس لها فيه أثر، فإن كان الأول فقد دللنا على أن الترجيح متى حصل فلا بد وأن ينتهي إلى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وإن لم يكن فيه أثر صارت هذه الأشياء بالنسبة إلى أعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب، وذلك يمنع من إسناد فعلهم إليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذي ذكروه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق.

أما قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه القتل والأسر يوم بدر. والثاني: مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه.

وأما قوله: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أنه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا

ويسلم في الآخرة إلى العذاب العظيم.

الثاني: المراد أنهم خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا، فإنه لا مكلف إلا وعين له منزل في الجنة لو أطاع فإذا عصى عدل به إلى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

اما قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ فمعناه لتؤتاه (وَتُلَقَّاهُ) من عند أي حكيم وأي عليم، وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، و(إِذْ) منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى، ويجوز أن ينتصب بعليم فإن قيل: الحكمة أما أن تكون نفس العلم، والعلم إما أن يكون داخلًا فيها، فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم؟ جوابه: الحكمة هي العلم بالأمور العملية فقط والعلم أعم منه؛ لأن العلم قد يكون عمليًا وقد يكون نظريًا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية، فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية، ثم ذكر العليم وهو البالغ في كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونًا عن كل التغيرات، وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة إلا في علمه سبحانه وتعالى.

واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة أنواعًا من القصص.

القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

أما قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ فيدل على أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام، وقد كنى الله تعالى عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [القصص: ٢٩].

أما قوله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فالمعنى أنهما كانا يسيران ليلًا، وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق، ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وقد اختلفوا فقال بعضهم: المراد أبصرت ورأيت، وقال آخرون: بل المراد صادفت ووجدت فآنست به، والأول أقرب؛ لأنهم لا يفرقون بين قول القائل آنست ببصري ورأيت ببصري.

أما قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضل، ثم في الكلام حذف وهو أنه لما أبصر النار توجه إليها وقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعرف به الطريق.

أما قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة. وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبسًا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم هاهنا أسئلة:

السؤال الأول: ﴿سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ و ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩] كالمتدافعين لأن أحدهما ترجٍّ والآخر تيقن؟ نقول: جوابه: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

السؤال الثاني: كيف جاء بسين التسويف؟ جوابه: عِدَة منه لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة.

السؤال الثالث: لماذا أدخل (أو) بين الأمرين وهلا جمع بينهما لحاجته إليهما معًا؟ جوابه: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى؛ لأنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده.

وأما قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فالمعنى لكي تصطلون وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء وحينئذ لا يكون ذلك إلا في حال برد.

أما قوله تعالى: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: (أن) هي المفسرة؛ لأن النداء فيه معنى القول، والمعنى قيل له: بورك.

البحث الثاني: اختلفوا فيمن في النار على وجوه: أحدها: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من في النور، وذلك هو الله سبحانه ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وإن كنا نقطع بأن هذه الرواية موضوعة مختلفة وثانيها: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو نور الله، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة، وهو مروي عن قتادة والزجاج. وثالثها: أن الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة في البقعة المباركة فكانت الشجرة محلاً للكلام، والله هو المكلم له بأن فعله فيه دون الشجرة. ثم إن الشجرة كانت في النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وهو قول الجبائي. ورابعها: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو موسى عليه السلام لقربه منها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة، وهذا أقرب؛ لأن القريب من الشيء قد يقال: إنه فيه. وخامسها: قول صاحب (الكشاف): ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي من في مكان النار ومن حول مكانها هي البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِن شَٰطِيِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ويدل عليه قراءة أُبيّ (تبارَكَتِ الأَرْضُ وَمَنْ حَوْلَهَا) وعنه أيضًا (بُورِكَتِ النَّارُ).

البحث الثالث: السبب الذي لأجله بوركت البقعة، وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الأمر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولاً وإظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا

﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] وحقت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم، ومهبط الوحي وكفاتهم أحياء وأمواتًا.

البحث الرابع: أنه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه في أرض الشام كلها. وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه فائدتان: **إحداهما:** أنه سبحانه نزَّه نفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته؛ ليكون ذلك مقدمة في صحة رسالة موسى عليه السلام. **الثانية:** أن يكون ذلك إيذانًا بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين تنبيهًا على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الوقائع.

أما قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقال صاحب (الكشاف) الهاء في (إِنَّهُ) يجوز أن يكون ضمير الشأن و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر، وأن يكون راجعًا إلى ما دل عليه ما قبله يعني أن مكلمك ﴿أَنَا﴾ والله بيان لأنا والعزيز الحكيم صفتان (لِلتَّعْيِينِ) وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية، الفاعل (كل) ما أفعله بحكمة وتدبير. فإن قيل: هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى، فكيف علم موسى عليه السلام أنه من الله؟ جوابه: لأهل السنة فيه طريقان: الأول: أنه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والأصوات فعلم بالضرورة أنه صفة الله تعالى. الثاني: قول أئمة ما وراء النهر وهو أنه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول: إنما عرف أن ذلك من الله تعالى لأمور: أحدها: أن النداء إذا حصل في النار أو الشجرة علم أنه من قبل الله تعالى؛ لأن أحدًا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال: الشيطان دخل في النار والشجرة ثم نادى. وثانيها: يجوز في نفس النداء أن يكون قد بلغ في العظم مبلغًا لا يكون إلا معجزًا، وهو أيضًا ضعيف؛ لأنا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر إلا ويجوز صدوره منهم. وثالثها: أنه قد اقترن به معجز دل على ذلك، فقيل: إن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز، وهذا هو الأصح، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن أكثر ما في هذا الآيات قد مر شرحه، ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع: يقال علام عطف قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾؟ جوابه: على ﴿بُورِكَ﴾ [النمل: ٨]؛ لأن المعنى: نودي أن بورك

من في النار وأن ألق عصاك، كلاهما تفسير لنودي.

أما قوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ فالجان الحية الصغيرة، سميت جانًا؛ لأنها تستتر عن الناس، وقرأ الحسن (جأن) على لغة من يهرب من التقاء الساكنين، فيقول: شأبة ودأبة.

أما قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه لم يرجع، يقال: عقب المقاتل إذا (مَرَّ) بعد الفرار، وإنما خاف لظنه أن ذلك لأمر أريد به، ويدل عليه ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقال بعضهم: المراد إني إذا أمرتهم بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل أو الصغيرة، ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة. قال الحسن رحمه الله: كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطي ثم بدل، فإنه عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] وقرئ (أَلاَ مَنْ ظَلَمَ) بحرف التنبيه.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب، وعن أبي بكر في رواية عاصم (حَسَنًا). أما قوله: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ فهو كلام مستأنف، وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف، والمعنى اذهب في تسع آيات إلى فرعون، ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة، اثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ فقد جعل الإبصار لها، وهو في الحقيقة لمتأملها، وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها، أو جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهتدي، وقرأ علي بن الحسين وقتادة (مَبْصرة) وهو نحو مجبنة ومبخلة، أي: مكانًا يكثر فيه التبصر.

أما قوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ فالواو فيها واو الحال، وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم، والاستيقان أبلغ من الإيقان.

أما قوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى، ثم كابر بتسميتها سحرًا بينًا. وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] وقرئ (عُلِيًّا) و(عِلِيًّا) بالضم والكسر، كما قرئ ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨، ٦٩]، والله أعلم.

القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ

وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ
ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا
مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

أما قوله تعالى: ﴿عِلْمًا﴾ فالمراد طائفة من العلم أو علمًا سنيًا (عزيزًا)، فإن قيل: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر (ومنعته فصبر)؟ جوابه: أن الشكر باللسان إنما يحسن موقعه إذا كان مسبوقًا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية، وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات، ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقًا بهما فلا جرم صار كأنه قال: ولقد آتيناهما علمًا، فعملا به قلبًا وقالبًا، وقالا باللسان: الحمد لله الذي فعل كذا وكذا.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **ففيها أبحاث:**

أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علمًا أو من لم يؤت مِثل علمهما، وفيه أنهما فُضِّلا على كثير وفُضِّل عليهما كثير. وثانيها: في الآية دليل على علو مرتبة العلم؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم. وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع. ورابعها: أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببًا لفضيلتهم على المؤمنين فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليًا بحيث يصير المرء مستغرقًا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ فقد اختلفوا فيه، فقال الحسن: المال؛ لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضًا عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمنًا ولا يرث إذا كان كافرًا أو قاتلًا، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة؛ لأن الموت لا يكون سببًا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصَّل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله:

﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ معنى، وإذا قلنا: وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك؛ لأن تعليم منطق الطير يكون داخلاً في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ لا يليق أيضًا إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال، فأما إذا قيل: ورث المال والملك معًا فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها، بل بظاهر قوله عليه السلام: «نَحنُ معاشر الأنبياء لا نورث»(١).

فأما قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، قال صاحب (الكشاف): المنطق كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، وقد ترجم يعقوب كتابه «بِإِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ» وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم، وقالت العرب: نطقت الحمامة (وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته) فالذي علَّم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك؛ لأن الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة، والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

أما قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ فهو تقرير لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ والمقصود منه الشكر والمحمدة كما قال عليه السلام: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ» فإن قيل: كيف قال: ﴿عُلِّمْنَا﴾، ﴿وَأُوتِينَا﴾ وهو من كلام المتكبرين؟ جوابه من وجهين: الأول: أن يريد نفسه وأباه. والثاني: أن هذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع وكان ملكًا مطاعًا، وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجبًا.

وأما قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ فالحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة، والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف، أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا: إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل، وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب قرابة رسول الله ﷺ) (٧/ ٩٧)، حديث رقم (٣٧١١/ ٣٧١٢) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الجهاد والسير)، باب: (قوله ﷺ: لا نورث ما تركناه فهو صدقة) (٣/ ٥٢/ ١٣٨٠) من طريق عقيل... به. كلاهما (شعيب، عقيل) عن الزهري... به.

وأما قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه: يحبسون وهذا لا يكون إلا إذا كان في كل قبيل منها وازع، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه، فالظاهر يشهد بهذا القدر والذي جاء في الخبر من أنهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ فقيل هو واد بالشام كثير النمل، ويقال: لم عدى ﴿أَتَوۡاْ﴾ بعلى؟ فجوابه من وجهين: الأول: أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا (أنفذه و) بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي، وقرئ (نمُلة يا أيها النُّمُل) بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه (كقولهم السبع في السبع).

أما قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ فالمعنى أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق. وعن قتادة: أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرًا وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرًا أم أنثى؟ فسألوه فأُفْحِم، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ فقال: من كتاب الله تعالى وهو قوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ ولو كان ذكرًا لقال: (قَالَ نَمْلَةٌ)، وذلك لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي.

أما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل، لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فإن قلت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جوابًا للأمر وأن يكون نهيًا بدلاً من الأمر، والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة: لا أرينك هاهنا. وفي هذه الآية تنبيه على أمور: أحدها: أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز، وإنما يلزم من في الطريق التحرز. وثانيها: أن النملة قالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ كأنها عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: ما رأيت في بعض الكتب أن تلك النملة إنما أمرت غيرها بالدخول؛ لأنها خافت على قومها أنها إذا رأت سليمان في جلالته، فربما وقعت في كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ فأمرتها بالدخول في مساكنها؛ لئلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران نعمة الله تعالى، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة. ورابعها: قرئ (مَسْكَنَكُمْ) و(لاَ يَحْطِمَنْكُمْ) بتخفيف النون، وقرئ (لاَ يَحْطَمَنَّكُمْ) بفتح الطاء وكسرها وأصلها يحطمنكم.

أما قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ يعني تبسم شارعًا في الضحك (وآخذًا فيه)، يعني أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك، وإنما ضحك لأمرين: أحدهما: إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده (وشفقتهم) وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك

قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. والثاني: سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدًا من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه.

أما قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ فقال صاحب (الكشاف): حقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه عن أن ينقلب عني، حتى أكون شاكرًا لك أبدًا، وهذا يدل على مذهبنا فإن عند المعتزلة كل ما أمكن فعله من الألطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث.

وأما قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فذلك لأنه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه. ومعنى قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ طلب الإعانة في الشكر وفي العمل الصالح، ثم قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فلما طلب في الدنيا الإعانة على الخيرات طلب أن يُجعل في الآخرة من الصالحين، وقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد واعلم أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة إلى ثواب الآخرة أولاً ثم طلب ثواب الآخرة ثانيًا، أما وسيلة الثواب فهي أمران: أحدهما: شكر النعمة السالفة. والثاني: الاشتغال بسائر أنواع الخدمة، أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة، فهي قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ ولما كان الإنعام على الآباء إنعامًا على الأبناء؛ لأن انتساب الابن إلى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن، لا جرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة، فقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ وأما طلب ثواب الآخرة فقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فإن قيل: درجات الأنبياء أعظم من درجات الأولياء والصالحين، فما السبب في أن الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟ جوابه: الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ
ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك أنه إنما تفقده لأمر يختص به ذلك الطير، واختلفوا فيما لأجله تفقده على وجوه: أحدها: قول وهب: أنه أخل بالنوبة التي كان

ينوبها فلذلك تفقده. وثانيها: أنه تفقده؛ لأن مقاييس الماء كانت إليه، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده. وثالثها: أنه كان يظله من الشمس، فلما فقد ذلك تفقده.

أما قوله: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ فأم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال: ما لي لا أراه، على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له، ومثله قولهم: إنها لإبل أم شاء.

أما قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا لا يجوز أن يقوله إلا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح لأن يؤدب، ثم اختلفوا في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ فقال ابن عباس: إنه نتف الريش والإلقاء في الشمس، وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس، وقيل: أن يلقى للنمل فتأكله، وقيل: إيداعه القفص، وقيل: التفريق بينه وبين إلفه، وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد، وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه.

أما قوله: ﴿فَمَكَثَ﴾ فقد قرئ بفتح الكاف وضمها، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (غير زمان بَعِيدٍ) كقولك: عن قريب، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفًا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرًا له.

أما قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ففيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علمًا بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفًا في ترك الإعجاب والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته.

أما قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فاعلم أن سبأ قرئ بالصرف ومنعه، وقد روي بسكون الباء، وعن ابن كثير في رواية سبا بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسمًا للقبيلة لم يصرف، ومن جعله اسمًا للحي أو للأب الأكبر صرف، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، والنبأ الخبر الذي له شأن.

وقوله: ﴿مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ﴾ من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى، ولقد جاء هاهنا زائدًا على الصحة فحسن لفظًا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان (بِنَبَإٍ) بخبر لكان المعنى صحيحًا، ولكن لفظ النبأ أولى لما فيه من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

أما قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ فالمرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هي وقومها مجوسًا يعبدون الشمس، والضمير في تملكهم راجع إلى سبأ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها.

وأما قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ففيه سؤال وهو أنه كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع

قول سليمان ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] فكأن الهدهد سوى بينهما؟ جوابه: أن قول سليمان عليه السلام يرجع إلى ما أوتي من النبوة والحكمة، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وأما قول الهدهد فلم يكن إلا إلى ما يتعلق بالدنيا.

وأما قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه سؤال، وهو أنه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ وأيضًا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى في الوصف بالعظيم؟ والجواب عن الأول: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الأمراء شيء لا يكون مثله عند السلطان. وعن الثاني: أن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. **واعلم أن هاهنا بحثين:**

البحث الأول: أن الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه: أحدها: أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام إلا من العقلاء وذلك يجر إلى السفسطة، فإنا لو جوزنا ذلك لما أمنا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا، أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس، وبالنحو من سيبويه، وكذا القول في القملة والصئبان، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكاليف والمعجزات، ومعلوم أن من جوز ذلك كان إلى الجنون أقرب. وثانيها: أن سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه؟ وثالثها: كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال: إن الجن والإنس كانوا في طاعة سليمان، وإنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف، ومع أنه يقال: إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام. ورابعها: من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ والجواب عن الأول: أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل، وإنما يدفع ذلك بالإجماع. وعن البواقي أن الإيمان بافتقار العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك.

البحث الثاني: قالت المعتزلة قوله: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يدل على أن فِعْل العبد من جهته لأنه تعالى أضاف ذلك إلى الشيطان بعد إضافته إليهم ولأنه أورده مورد الذم ولأنه بيَّن أنهم لا يهتدون. والجواب من وجوه: أحدها: أن هذا قول الهدهد فلا يكون حجة. وثانيها: أنه متروك الظاهر، فإنه قال: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل إذ لو كان مصدودًا ممنوعًا لسقط عنه التكليف، فلم يبق هاهنا إلا التمسك بفصل المدح والذم، والجواب قد تقدم عنه مرارًا فلا فائدة في الإعادة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ قراءات: أحدها: قراءة من قرأ بالتخفيف (أَلاَ) للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف، كما حذفه من قال:

أَلاَ يَا أسلمي يا دار ميّ عَلَى الْبِلَى (وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ)(١)

وثانيها: بالتشديد أراد فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة، ويكون المعنى فهم لا يهتدون (إلاّ) أن يسجدوا. وثالثها: وهي حرف عبد الله و(هي) قراءة الأعمش هلا بقلب الهمزة هاء، وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب ورابعها: قراءة أُبيّ (ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم سركم وما تعلنون).

المسألة الثانية: قال أهل التحقيق: قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ يجب أن يكون بمعنى الأمر؛ لأنه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادرًا على إخراج الخبء عالمًا بالأسرار معنى.

المسألة الثالثة: الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم، أما القدرة فقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وسمي المخبوء بالمصدر، وهو يتناول جميع أنواع الأوراق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث، ومن الأرض بالنبات. وأما العلم فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا: الإله يجب أن يكون قادرًا على إخراج الخبء وعالمًا بالخفيات، والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلهًا وإذا لم تكن إلهًا لم يجز السجود لها، أما أنه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرًا عالمًا على الوجه المذكور، فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه، وكل ما كان متناهيًا في الذات كان متناهيًا في الصفات، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على إخراج

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لأبي نواس وقد تقدمت ترجمته.

الخبء عالمة بالخفيات، فإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار، فرجع حاصل الدلالة إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وفي قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وجه آخر وهو أن هذا إشارة إلى ما استدل به إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها في المغرب فهذا هو إخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ومن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ومن قوله موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] وحاصله يرجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى، وأما إخراج الخبء من الأرض فهو يتناول إخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه، فإن قيل: إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الأنفس على دلالة الآفاق فإن إبراهيم قال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وموسى عليه السلام قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ثم قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] فلم كان الأمر هاهنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض؟ جوابه: أن إبراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى إلهية البشر، فلا جرم ابتدأ بإبطال إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات، وهاهنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالأرضيات.

أما قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فالمراد منه أنه سبحانه لما بيّن افتقار السموات والأرض وما بينهما إلى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الأجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهى في القدرة والربوبية إلى ما لا يزيد عليه، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قيل: من ﴿أَحَطتُ﴾ إلى ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ كلام الهدهد وقيل: كلام رب العزة.

المسألة الخامسة: الحق أن سجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعًا وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما؛ لأنهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة، وهذا واحد منها ولأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك فثبت أن الذي ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت إليه.

المسألة السادسة: يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ جوابه: نعم، إذا خفف وقف على

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] ثم ابتدأ بـ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ وإن شاء وقف على (ألا يا) ثم ابتدأ ﴿اسْجُدُوا﴾ وإذا شدد لم يقف إلا على ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

أما قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ فمن النظر الذي هو التأمل، وأراد صدقت أم كذبت إلا أن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالكذب كان متهمًا بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به، وإنما قال: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ على لفظ الجمع؛ لأنه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤] فقال: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الذين هذا دينهم.

أما قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك و﴿يَرْجِعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣٠] ويقال: دخل عليها من كوة وألقى إليها الكتاب وتوارى في الكوة.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾

اعلم أن قوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ بمعنى أن يقال: إن الهدهد ألقى إليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت، روي أنها كانت إذا رقدت غلَّقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: نقرها فانتبهت فزعة.

أما قوله: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: حسن مضمونه وما فيه. وثانيها: وصفته بالكريم؛ لأنه من عند ملك كريم. وثالثها: أن الكتاب كان مختومًا وقال عليه السلام: «**كَرَمُ الْكِتَابِ خَتْمُهُ**»(١) وكان عليه السلام «**يَكْتُبُ إِلَى الْعَجَمِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ إِلاَّ كِتَابًا عَلَيْهِ خَاتَمٌ فَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ خَاتَمًا**»(٢).

أما قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: أنه استئناف وتبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت: إني ألقي إليَّ كتاب كريم قيل

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ١٦٢)، حديث رقم (٣٨٧٢)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٥٨)، حديث رقم (٣٩)، كلاهما من طريق محمد بن مروان السدى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس... به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٨١) من طريق جبعويه بن محمد قال: حدثنا صالح بن محمد بن محمد بن مروان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ١٨٦)، وقال: رواه الطبراني في (الأوسط) وفيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٦/ ١٥١/ ٥٦٠٢)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٦٩)، حديث رقم (٢٧١٨)، كلاهما من طريق قتادة عن أنس... بنحوه.

لها: ممن هو وما هو؟ فقالت: إنه من سليمان وإنه كيت وكيت، وقرأ عبد الله ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ عطفًا على ﴿إِنِّىٓ﴾ وقرئ (أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَأَنَّهُ) بالفتح وفيه وجهان: أحدهما: أنه بدل من كتاب كأنه قيل: ألقي إليَّ أنه من سليمان. وثانيهما: أن يريد أن من سليمان ولأنه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ أُبيّ (إنْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنْ بِسْمِ اللَّه) على أن المفسرة، وأن في (ألا تَعْلُوا) مفسرة أيضًا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك، وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد.

البحث الثاني: يقال: لِمَ قدم سليمان اسمه على قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ جوابه: حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو ببسم الله الرحمن الرحيم، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع في الحكاية.

البحث الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود، وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود، وذلك لأن المطلوب من الخلق، إما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه وتعالى وإثبات كونه عالمًا قادرًا حيًّا مريدًا حكيمًا رحيمًا.

وأما قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ فهو نهي عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر.

وأما قوله: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فالمراد من المسلم إما المنقاد أو المؤمن، فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوي كل ما لا بد منه في الدين والدنيا، فإن قيل: النهي عن الاستعلاء والأمر بالانقياد قبل إقامة الدلالة على كونه رسولاً حقًا يدل على الاكتفاء بالتقليد. جوابه: معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لأن رسول سليمان إلى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز، والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعي فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر في الكتاب دليلاً آخر.

أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ فالفتوى هي الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتي في السن أي أجيبوني في الأمر الفتي، وقصدت بالانقطاع إليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي لا أبت أمرًا إلا بمحضركم.

أما قوله: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات (والعدد) والمراد بالبأس النجدة (والثبات) في الحرب، وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين: أحدهما: إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد، والآخر: قولهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ وفي ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

اعلم أنها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم أظهرت رأيها، وهو أن الملوك إذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها، أي خربوها وأذلوا أعزتها، فذكرت لهم عاقبة الحرب.

وأما قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والأقرب أنه من كلامها، وأنها ذكرته تأكيدًا لما وصفته من حال الملوك. فأما الكلام في صفة الهدية فالناس أكثروا فيها لكن لا ذكر لها في الكتاب وقولها: ﴿ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فيه دلالة على أنها لم تثق بالقبول وجوزت الرد، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان، ولما وصلت الهدايا إلى سليمان عليه السلام ذُكِرَ أمرين: الأول: قوله: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال.

أما قوله: ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن الهدية اسم للمهدي، كما أن العطية اسم للمعطي، فتضاف إلى المهدي وإلى المهدى إليه، والمضاف إليه هاهنا هو المهدى إليه، والمعنى أن الله تعالى آتاني الدين الذي هو السعادة القصوى، وآتاني من الدنيا ما لا مزيد عليه، فكيف يستمال مثلي بمثل هذه الهدية؟! بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم، لكن حالي خلاف حالكم. وثانيها: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون من حيث إنكم قدرتم على إهداء مثلها. وثالثها: كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

الثاني: قوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ فقيل: ارجع خطاب للرسول، وقيل: للهدهد محملاً كتابًا آخر.

أما قوله تعالى: ﴿ لَّا قِبَلَ ﴾ أي لا طاقة، وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة، أي لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود: (لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهِمْ)، والضمير في (مِنْهَا) لسبأ، والذل أن يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك، والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكًا.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا

عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾

اعلم أن في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ دلالة على أنها عزمت على اللحوق بسليمان، ودلالة على أن أمر ذلك العرش كان مشهورًا، فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها، واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرض على وجوه: أحدها: أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام، حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت. وثانيها: أراد أن يُؤتى بذلك العرش فيغيِّر وينكر، ثم يُعْرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها، وقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ [النمل: ٤١] كالدلالة على ذلك. وثالثها: قال قتادة: أراد أن يأخذه قبل إسلامها، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها. ورابعها: أن العرش سرير المملكة، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه.

أما قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه، ومن الشياطين الخبيث المارد.

أما قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ فالمعنى من مجلسك، ولا بد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت، فقيل: المراد مجلس الحكم بين الناس، وقيل: الوقت الذي يخطب فيه الناس، وقيل: إلى انتصاف النهار.

وأما قوله: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ أي على حمله ﴿أَمِينٌ﴾ آتي به كما هو لا أختزل منه شيئًا.

أما قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **ففيه بحثان:**

الأول: اختلفوا في ذلك الشخص على قولين: قيل: كان من الملائكة، وقيل: كان من الإنس. فمن قال بالأول اختلفوا، قيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه: أحدها: قول ابن مسعود: إنه الخضر عليه السلام. وثانيها: وهو المشهور من قول ابن عباس: إنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب. وثالثها: قول قتادة: رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم. ورابعها: قول ابن زيد: كان رجلاً صالحًا في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان. وخامسها: بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فتحداهم أولاً، ثم بيَّن للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت، وهذا القول أقرب لوجوه: أحدها: أن لفظة (الَّذِي) موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافه إليه، أقصى

ما في الباب أن يقال: كان آصف كذلك أيضًا لكنا نقول: إن سليمان عليه السلام، كان أعرف بالكتاب منه؛ لأنه هو النبي، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان عليه السلام أولى. الثاني: أن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام، وأنه غير جائز. الثالث: أن سليمان عليه السلام، لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق. الرابع: أن سليمان قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان.

البحث الثاني: اختلفوا في الكتاب، فقيل: اللوح المحفوظ، والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام. وقيل: كتاب سليمان، أو كتاب بعض الأنبياء، ومعلوم في الجملة أن ذلك مدح، وأن لهذا الوصف تأثيرًا في نقل ذلك العرش، فلذلك قالوا: إنه الاسم الأعظم وإن عنده وقعت الإجابة من الله تعالى في أسرع الأوقات.

أما قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ **ففيه بحثان:**

الأول: (آتيك) في الموضعين، يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل.

الثاني: اختلفوا في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ على وجهين: الأول: أنه أراد المبالغة في السرعة، كما تقول لصاحبك. افعل ذلك في لحظة، وهذا قول مجاهد. الثاني: أن نجريه على ظاهره، والطرف تحريك الأجفان عند النظر، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي، وإذا أغمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد إلى العين، فهذا هو المراد من ارتداد الطرف وهاهنا سؤال: وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش في هذا القدر من الزمان، وهذا يقتضي إما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة في مكانين؟ جوابه: أن المهندسين قالوا: كرة الشمس مثل كرة الأرض مائة وأربعة وستين مرة، ثم إن زمان طلوعها زمان قصير فإذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذي بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلاً إمكان وجود هذه الحركة السريعة، وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال، ثم إنه عليه السلام لما ﴿رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ والكلام في تفسير الابتلاء قد مر غير مرة، ثم إنه عليه السلام بيَّن أن نفع الشكر عائد إلى الشاكر لا إلى الله تعالى، أما أنه عائد إلى الشاكر فلوجوه: أحدها: أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر. وثانيها: أنه يستمد به المزيد على ما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبرهيم: ٧]، وثالثها: أن المشتغل بالشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة في الشرف، ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غني عن شكره لا يضره كفرانه، كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿نَكِّرُوا۟﴾ معناه اجعلوا العرش منكرًا مغيرًا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، وذلك لأنه لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة، وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها وإذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل، ولا يمتنع صحة ما قيل: إن سليمان عليه السلام أُلقي إليه أن فيها نقصان عقل لكي لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد، فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها.

أما قوله: ﴿نَنظُرْ﴾ فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف، واختلفوا في ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ على وجهين: أحدهما: أتعرف أنه عرشها أم لا؟ كما قدمنا. الثاني: أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلاً من المكان البعيد إلى هناك، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام، ويعرف بذلك أيضًا فضل عقلها لأغراض كانت له، فعند ذلك سألها.

أما قوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ فاعلم أن هكذا ثلاث كلمات، حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة، ولم يقل: أهذا عرشك؟ ولكن أمثل هذا عرشك؟ لئلا يكون تلقينًا فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولم تقل: هو هو، ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت في محل التوقف.

أما قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ ففيه سؤالان، وهو أن هذا الكلام كلام من؟ وأيضًا فعلى أي شيء عطف هذا الكلام؟ وعنه جوابان: الأول: أنه كلام سليمان وقومه، وذلك لأن بلقيس لما سئلت عن عرشها، ثم إنها أجابت بقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فالظاهر أن سليمان وقومه قالوا: إنها قد أصابت في جوابها وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام، ثم عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى في أن خصهم بمزية التقدم في الإسلام. الثاني: أنه من كلام بلقيس موصولاً بقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة، ثم أن قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية يكون من كلام ربّ العزة.

أما قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ففيه وجهان: الأول: المراد: وصدها عبادتها لغير الله عن الإيمان. الثاني: وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل، وقرئ أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صدَّ وبمعنى لأنها، واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا: لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة

الكفار، بل كان يكون الصاد لها عن الإيمان تجدد خلق الله الكفر فيها. والجواب: أما على التأويل الثاني فلا شك في سقوط الاستدلال، وأما على الأول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سببًا لحصول الداعية المستلزمة للكفر، وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقًا لقولنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى إقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الأمر ما صار داعيًا لها إلى الإسلام وهو قوله ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ والصرح القصر كقوله: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] وقيل: صحن الدار، وقرأ ابن كثير عن (سأقيها) بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقًا فأجرى عليه الواحد، والممرد المملس، روي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضًا، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الإنس والجن والطير، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لأمره وتحققًا لنبوته، وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنِّية، وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا: إن في عقلها نقصانًا وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها، ومعلوم من حال الزجاج الصافي أنه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماءًا راكدًا فكشفت عن ساقيها لتخوضه، فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا، وهذا على طريقة من يقول: تزوجها، وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه، وحصل كشف الساق على سبيل التبع، فلما قيل لها: هو صرح ممرد من قوارير استترت، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقيل: حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة، فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني سليمان، واختلفوا في أنه هل تزوجها أم لا؟ وأنه تزوجها في هذه الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها، والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها، وليس لذلك ذكر في الكتاب، ولا في خبر مقطوع بصحته، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها: اختاري من قومك من أزوجك منه، فقالت: مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني، فقال: النكاح من الإسلام، فقالت: إن كان كذلك فزوجني ذا تُبَّع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردهما إلى اليمن، ولم يزل بها ملكًا، والله أعلم.

القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قرىء (أَنُ اعْبُدُوا اللَّهَ) بالضم على إتباع النون الباء.

أما قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ ففيه قولان: أحدهما: المراد فريق مؤمن وفريق كافر. الثاني: المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد.

أما قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فالمعنى أن الذين آمنوا إنما آمنوا؛ لأنهم نظروا في حجته فعرفوا صحتها، وإذا كان كذلك فلا بد وأن يكون خصمًا لمن لم يقبلها، وإذا كان هذا الاختصام في باب الدين دل ذلك على أن الجدال في باب الدين حق وفيه إبطال التقليد.

أما قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ففيه بحثان: الأول: في تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان: أحدهما: أن الذين كذبوا صالحًا عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] على وجه الاستهزاء، فعنده قال صالح: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل إلى رحمة الله تعالى وثوابه، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه. وثانيهما: أنهم كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدها صالح إن وقعت على زعمه أتينا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا، فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم، وقال: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر.

البحث الثاني: أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب، فأما وصف العذاب بأنه سيئة فهو

مجاز وسبب هذا التجويز، إما لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه في كونه مكروهًا، وأما وصف الرحمة بأنها حسنة فمنهم من قال: إنه حقيقةٍ، ومنهم من قال: إنه مجاز والأول أقرب، ثم إن صالحًا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد، وهو قولهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا بك؛ لأن الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك.

قال صاحب (الكشاف): كان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحًا تيمن وإن مر بارحًا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته، فأجاب صالح عليه السلام بقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم وقيل: بل المراد إن جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب، والأقرب الوجه الأول؛ لأن القوم أشاروا إلى الأمر الحاصل فيجب في جوابه أن يكون فيه لا في غيره، ثم بيَّن أن هذا جهل منهم بقوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ فيحتمل أن غيرهم دعاهم إلى هذا القول، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته، ثم إنه سبحانه قال: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب، فبيَّن تعالى أنهم يفسدون في الأرض ولا يمزجون ذلك الفساد بشيء من الصلاح، فلهذا قال: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ ثم بيَّن تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام.

أما قوله: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فيحتمل أن يكون أمرًا أو خبرًا في محل الحال بإضمار قد، أي: قالوا متقاسمين، والبيات متابعة العدو ليلاً.

أما قوله: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ يعني لو اتهمنا قومه حلفنا لهم أنا لم نحضر. وقرىء (مَهْلَكَ) بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك، ويحتمل المصدر والمكان والزمان، ثم إنه سبحانه قال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ وقد اختلفوا في مكر الله تعالى على وجوه: أحدها: أن مكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه، ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة. وثانيها: جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة، يرون الأحجار ولا يرون راميًا. وثالثها: أن الله تعالى أخبر صالحًا بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله تعالى في حقهم.

أما قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ استئناف، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف

تقديره هي تدمرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أي كان عاقبة مكرهم الدمار.

أما قوله: ﴿خَاوِيَةً﴾ فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك، وقرأ عيسى بن عمر (خاوية) بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف، والله أعلم.

القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): واذكر لوطًا أو أرسلنا لوطًا بدلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [النمل: ٤٥] عليه، و(إذ) بدل على الأول ظرف على الثاني.

أما قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فهو على وجه التنكير وإن كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ.

أما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ففيه وجوه: **أحدها:** أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل. **وثانيها:** أن المراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة لم تُسْبَقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته. **وثالثها:** تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم، فإن قلت: فسرت (تُبْصِرُونَ) بالعلم وبعده ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء؟ قلت: أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها، ثم إنه تعالى بيَّن جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جوابًا له فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فجعلوا الذي لأجله يخرجون أنهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا يوجب تنعيمهم وتعظيمهم أولى لكن في المفسرين من

قال: إنما قالوا ذلك على وجه الهزء، ثم بيَّن تعالى أنه نجاه وأهله إلا امرأته وأهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحًا، والله أعلم، وهاهنا آخر القصص في هذه السورة، والله أعلم.

القول في خطاب الله عز وجل مع محمد ﷺ

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

في هذه الآية قولان: الأول: أنه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على إهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم. الثاني: أنه مبتدأ فإنه تعالى لما ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وكان محمد ﷺ كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب؛ لأن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه، أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم، وبأن يسلم على الأنبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة.

فأما قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شيء إلا لزيادة خير ومنفعة، فقيل لهم هذا الكلام تنبيهًا على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء والتاء، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «بَلِ اللَّه خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ»[(١)].

ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك في عدة فصول:

الفصل الأول: في الرد على عبدة الأوثان، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها، فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه ألبتة ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر أنواعًا:

النوع الأول: ما يتعلق بالسموات

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الفرق بين أم وأم في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ و﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ أن الأولى متصلة؛ لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل، والحديقة: البستان عليه سور من الإحداق وهو الإحاطة، وقيل ﴿ذَاتَ﴾ لأن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة، كما يقال: النساء ذهبت، والبهجة الحسن؛ لأن الناظر يبتهج به ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٧٢)، حديث رقم (٢٠٨٢) من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر قال: كان علي بن حسين يذكر عن النبي ﷺ... فذكره. وهذا مرسل مع ضعيف جابر الجعفي، وأورده السيوطي في (جامع الأحاديث)، وقال: رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن الحسين مرسلاً وقال: هذا حديث منقطع وإسناده ضعيف.

شريكًا له وقرئ (أَإِلَهًا مَعَ اللَّه) بمعنى (تَدْعُونَ أَوْ تُشْرِكُونَ).

المسألة الثانية: أنه تعالى بيَّن أنه الذي اختص بأن خلق السموات والأرض، وجعل السماء مكانًا للماء، والأرض للنبات، وذكر أعظم النعم وهي الحدائق ذات البهجة، ونبه تعالى على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يخص بالعبادة، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ وقد اختلفوا فيه فقيل: يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل: يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الإنعام.

المسألة الثالثة: يقال: ما حكمة الالتفات في قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؟ جوابه: أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان، فإن الإنسان يقول: أنا الذي ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائمًا، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ وقال: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَآ﴾ لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلاً بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلاً لها، فلهذه النكتة حسن الالتفات هاهنا.

النوع الثاني: ما يتعلق بالأرض

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): ﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ وما بعده بدل من ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ [النمل: ٦٠] فكان (حكمها) حكمه.

واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أمورًا أربعة:

المنفعة الأولى: كونها قرارًا وذلك لوجوه: الأول: أنه دحاها وسواها للاستقرار. الثاني: أنه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الإنسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه. الثالث: أنه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور، ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها، ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات. الرابع: أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس، ولولا ذلك لما اختلفت الفصول، ولما حصلت المنافع. الخامس: أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة، وعلى التقديرين لا يحصل

الانتفاع بالسكنى على الأرض. السادس: أنه سبحانه جعلها كفاتًا للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح.

المنفعة الثانية الأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الأرض أربعة: الأول: ماء العيون السيالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة، ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزءًا. الثاني: ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها. الثالث: مياه القنى والأنهار وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة على أن تشق الأرض، فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذًا تندفع إليه بأدنى حركة. الرابع: مياه الآبار وهي نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل له سيل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها إذ لولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

المنفعة الثالثة للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ والمراد منها الجبال، فنقول: أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها، أما العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به، فإذن هذه الأبخرة لا تجتمع إلا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءًا ماء، ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئًا من البخار يتحلل ونفس الأرض التي تحته كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالقوابل، ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري، وذلك الأقل لا يكون إلا إذا كانت الأرض صلبة. وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة: **أحدها:** أن في باطن الجبال من النداوات مالا يكون في باطن الأرضين الرخوة. **وثانيها:** أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الأرضين. **وثالثها:** أن الأبخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل، وإذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر؛ لأن المادة فيها ظاهرًا وباطنًا أكثر، والاحتقان أشد السبب المحلل وهو الحر أقل، فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر. وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة يكون اختلاطها بالأرضية أكثر وإلى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها في هذا المعنى كالجبال.

المنفعة الرابعة للأرض: قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط، وأيضًا فلينتفع بذلك الحاجز، وأيضًا المؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة، وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزًا لكي لا يفسد أحدهما بالآخر، وقال بعض الحكماء في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] قال: عند عدم البغي

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان بالشكر، فإن قيل: ولم جعل البحر ملحًا؟ قلنا: لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الأرض وأحدث الوباء العام، واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الأرض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن إلى قرن؛ لأن استمداد البحر في الأكثر من الأنهار، والأنهار تستمد في الأكثر من العيون، وأما مياه السماء فإن حدوثها في فصل بعينه دون فصل، ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن تتشابه أحوالها في بقاع واحدة بأعيانها تشابهًا مستمرًا فإن كثيرًا من العيون يغور، وكثيرًا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الأودية والأنهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار، وإذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الأنهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب، ثم إنه سبحانه لما بيَّن أنه هو المختص بالقدرة على خلق الأرض التي فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالإلهية، ونبه بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على عظم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر.

النوع الثالث: ما يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين: أحدهما: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال صاحب (الكشاف): الضرورة الحالة المحوجة إلى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر، واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى، وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة، وقيل: المذنب إذا استغفر، فإن قيل: قد عم المضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ جوابه: قد بينا في أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية، وأيضًا فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال وتمام القول في شرائط الدعاء والإجابة مذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فأما قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع. وثانيهما: قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنًا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ (يذكرون) بالياء مع الإدغام وبالتاء مع الإدغام وبالحذف وما مزيدة أي يذكرون تذكرًا قليلاً، والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

النوع الرابع: ما يتعلق أيضًا باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة في وقت خاص

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى نبه في هذه الآية على أمرين: الأول: قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ والمراد يهديكم بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر. الثاني: قوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ فإنه سبحانه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه إلى حيث يشاء، فإن قيل: لا نسلم أنه تعالى هو الذي يحرك الرياح، فإن الفلاسفة قالت: الرياح إنما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الأسود المرتفع مما احترق بالنار، بل كل جسم أرضي يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان. قالوا: وتولد الرياح من الأدخنة على وجهين أحدهما أكثري، والآخر أقلي، أما الأكثري فهو أنه إذا صعدت أدخنة كثيرة إلى فوق فعند وصولها إلى الطبقة الباردة إما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فإن انكسر فلا محالة يثقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح، وإن لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد إلى أن يصل إلى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الأدخنة وتصير ريحًا، لا يقال: لو كان اندفاع هذه الأدخنة بسبب حركة الهواء العالي لما كانت حركتها إلى أسفل بل إلى جهة حركة الهواء العالي؛ لأنا نقول: الجواب من وجهين: أحدهما: أنه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الأدخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك إلى خلاف جهة المتحرك المانع، كالسهم يصيب جسمًا متحركًا فيعطفه تارة إلى جهته إن كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضًا على صرفه إلى جهة حركة نفسه وتارة إلى خلاف تلك الجهة إذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف. الثاني: أنه ربما كان صعود بعض الأدخنة من تحت مانعًا للأدخنة النازلة من فوق إلى أن يتسفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرك إلى سائر الجوانب، واعلم أن لأهل الإسلام هاهنا مقامين: الأول: أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين: الأول: أن الأجزاء الدخانية أرضية فهي أثقل من الأجزاء البخارية المائية، ثم إن البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطرًا فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة؟ الثاني: أن حركة تلك الأجزاء إلى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية، وإذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة، ثم إن الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الأشجار ورمي الجدار بل الجبال، فتلك الأجزاء الدخانية عندما تحركت حركتها الطبيعية التي لها وهي الحركة إلى السفل وجب أن تهدم السقف، ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلاً عن أن يهدمه فثبت فساد

ما ذكروه. المقام الثاني: هب أن الأمر كما ذكروه ولكن الأسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى، فإنه لولا الشمس وتأثيرها في تصعيد الأبخرة والأدخنة ولولا طبقات الهواء، وإلا لما حدثت هذه الأمور، ومعلوم أن من وضع أسبابًا فأدته إلى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذي فعل تلك المنافع، فعلى جميع الأحوال لا بد من شهادة هذه الأمور على مدبر حكيم واجب لذاته، قطعًا لسلسلة الحاجات.

النوع الخامس: ما يتعلق بالحشر والنشر

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأن نعم الآخرة بالثواب لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء والإبلاغ إلى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم، ومعلوم أنها لا تتم إلا بالأرزاق فلذلك قال: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ منكرًا لما هُمْ عليه، ثم بيَّن بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن لا برهان لكم فإذن هم مبطلون، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوى من وعلى فساد التقليد، فإن قيل: كيف قيل لهم: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم منكرون للإعادة؟ جوابه: كانوا معترفين بالابتداء، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية، فلما كان الكلام مقرونًا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار، وهاهنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أنه المختص بالقدرة فكذلك بيَّن أنه هو المختص بعلم الغيب، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه هو الإله المعبود؛ لأن الإله هو الذي يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب، فإن قيل: الاستثناء حكمه إخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية هاهنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن في السموات والأرض فوجب كونه ممن في السموات والأرض وذلك يوجب كونه تعالى في المكان. والجواب: هذه الآية متروكة الظاهر؛ لأن من قال إنه تعالى في المكان زعم أنه فوق السموات، ومن قال: إنه ليس في مكان فقد نزهه عن كل الأمكنة، فثبت بالإجماع أنه تعالى ليس في

السموات والأرض فإذن وجب تأويله فنقول: إنه تعالى ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله تعالى في كل مكان على معنى أن علمه في الأماكن كلها، لا يقال: إن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة ومجازًا غير جائزة؛ لأنا نقول: كونهم في السموات والأرض، كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم في الأحياز فكذلك حاصل مجازًا، وهو كونهم عالمين بتلك الأمكنة فإذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازي وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء.

أما قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فهو صفة لأهل السموات والأرض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر في جملة الغيب متى البعث بقوله: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فأيان بمعنى متى وهي كلمة مركبة من أي والآن وهو الوقت وقرىء (إيان) بكسر الهمزة.

أما قوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ فاعلم أن كلام صاحب (الكشاف) فيه مرتب على ثلاثة أبحاث:

البحث الأول: فيه اثنتا عشرة قراءة بل أدرك بل أدرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى أدرك بلى أأدرك أم تدارك أو أدرك.

البحث الثاني: ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وادَّرك افتعل.

البحث الثالث: معنى ادَّرك علمهم انتهى وتكامل وأدرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه: أحدها: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون، وذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ يريد المشركين ممن في السماوات والأرض؛ لأنهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم. فإن قيل: الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وإن العباد لا علم لهم بشيء منه وإن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به، فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ والجواب: كأنه سبحانه قال: كيف يعلمون الغيب مع أنهم شكوا في ثبوت الآخرة التي دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشيء الظاهر كيف يعلم الغيب الذي هو أخفى الأشياء. الوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك، على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا في إثبات ما الطريق إليه واضح ظاهر. الوجه الثالث: أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك: أدركت الثمرة؛ لأن تلك غايتها التي عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الاستفهام فهو أنه استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك؛ لأنها أم هي التي بمعنى بل والهمزة وأما

من قرأ بلى أدرك فإنه لما جاء ببلى بعد قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم، فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون، وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها. فإن قلت: هذه الإضرابات الثلاث ما معناها؟ قلت: ماهي إلا بيان درجاتهم، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وفيه نكتة وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن؛ لأن الفكر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ
وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى
ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ
مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ
رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في حال المبدأ تكلم بعده في حال المعاد، وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم فإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، وعالمًا بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بيَّن الله تعالى هذين الأصلين فيما قبل هذه الآية، لا جرم لم يحكه في هذه الآية، فحكى عنهم أنهم تعجبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا ترابًا وطعنوا فيه من وجهين: الأول: قولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ أي هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا، ولم يظهر له أثر فهو إذن من أساطير الأولين يريدون ما لا يصح من الأخبار، فإن قيل: ذكر هاهنا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ وفي آية أخرى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٨٣] فما الفرق؟ قلنا: التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الأصلي وأن الكلام سيق لأجله، ثم إنه سبحانه لما كان قد بيَّن الدلالة على هذين الأصلين، ومن الظاهر أن كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت أنهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها، وكان سبب ذلك الإعراض

حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير، لا جرم اقتصر على بيان أن الدنيا فانية زائلة فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: لِمَ لَمْ يقل: كيف كانت عاقبة المجرمين؟ جوابه: لأن تأنيثها غير حقيقي ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم.

السؤال الثاني: لِمَ لَمْ يقل: عاقبة الكافرين؟ جوابه: الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة ثم إنه تعالى صبَّر رسوله على ما يناله من هؤلاء الكفار فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فجمع بين إزالة الغم عنه بكفرهم وبين إزالة الخوف من جانبهم، وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ أي في حرج قلب يقال: ضاق الشيء ضيقًا وضيقًا بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم. الوجه الثاني: للكفار قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية فأجاب الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذاب يوم بدر، فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم، ومعناه تبعكم ولحقكم، وقرأ الأعرج (رَدَف لكم) بوزن ذهب وهما لغتان، والكسر أفصح **وهاهنا بحثان:**

البحث الأول: أن عسى ولعل في وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الأمر، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

البحث الثاني: أنه قد ثبت بالدلائل العقلية أن عذاب الحجاب أشد من عذاب النار، ولذلك قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فقدم الحجاب على الجحيم، ثم إنهم كانوا محجوبين في الحال، فكان سبب العذاب بكماله حاصلاً، إلا أن الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن إدراك ذلك الألم، كما أن العضو الخدر إذا مسته النار، فإن سبب الألم حاصل في الحال، لكنه لا يحصل الشعور بذلك الألم لقيام العائق، فإذا زال العائق عظم البلاء، فكذا هاهنا إذا زال البدن عظم عذاب الحجاب، فقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني المقتضي له والمؤثر فيه حاصل، وتمامه إنما يحصل بعد الموت، ثم إنه سبحانه بين السبب في ترك تعجيل العذاب فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والفضل الإفضال ومعناه أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة، وأكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها، وهذه الآية تبطل قول من قال: إنه لا نعمة لله على الكفار ثم بيَّن سبحانه أنه مطلع على ما في قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهاهنا بحث عقلي، وهو أنه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم، والسبب أن ما تكنه صدورهم هو الدواعي والقصود، وهي أسباب لما يعلنون، وهي أفعال الجوارح، والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول،

فهذا هو السبب في ذلك التقديم، قرئ (تَكُنُّ) يقال: كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته، يعني أنه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم.

أما قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ فقال صاحب (الكشاف): سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية، فكانت التاء فيها بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء، كأنه تعالى قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء، إلا وقد علمه الله تعالى وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ. والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما تمم الكلام في إثبات المبدأ والمعاد، ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة، ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد ﷺ هو القرآن، لا جرم بيَّن الله تعالى أولاً كونه معجزة من وجوه: أحدها: أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أميًّا، وأنه لم يخالط أحدًا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم، فإذن لا يكون ذلك إلا من قِبَل الله تعالى، واختلفوا فقال بعضهم: أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا، وقال آخرون: أراد به ما حرفه بعضهم، وقال بعضهم: بل أراد به أخبار الأنبياء، والأول أقرب. وثانيها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأن بعض الناس قال: إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة، وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب، ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها، وجدناه مبرًّأ عن التناقض والتهافت، فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة على جمع كتاب على هذا الوجه، فعلمنا أنه ليس إلا من عند الله تعالى، فكان القرآن معجزًا من هذه الجهة. وثالثها: أنه هدى ورحمة للمؤمنين، لبلوغه في الفصاحة إلى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز، ثم إنه تعالى لما بيَّن كونه معجزًا دالاً على الرسالة ذكر بعده أمرين: الأول: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والمراد أن القرآن وإن كان يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، لكن لا تكن أنت في قيدهم، فإن ربك هو الذي يقضي بينهم، أي بين المصيب

والمخطىء منهم، وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون إلا الحق، فإن قيل: القضاء والحكم شيء واحد فقوله: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ كقوله: يقضي بقضائه ويحكم بحكمه. والجواب: معنى قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي بما يحكم به وهو عدله؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل، أو أراد بحكمه، ويدل عليه قراءة من قرأ (بِحِكَمِهِ) جمع حكمة. الثاني: أنه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بأن يتوكل على الله، ولا يلتفت إلى أعداء الله، ويشرع في تمشية مهمات الرسالة بقلب قوي، فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثم علل ذلك بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وفيه بيان أن المحق حقيق بنصرة الله تعالى وأنه لا يخذل. وثانيهما: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإنما حسن جعله سببًا للأمر بالتوكل، وذلك لأن الإنسان ما دام يطمع في أحد أن يأخذ منه شيئًا فإنه لا يقوى قلبه على إظهار مخالفته، فإذا قطع طمعه عنه قوي قلبه على إظهار مخالفته، فالله سبحانه وتعالى قطع محمدًا ﷺ عنهم بأن بيَّن له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمى فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل، وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على إظهار الدين كما ينبغي، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ جوابه: هو تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبرًا كان أبعد عن إدراك صوته.

أما قوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فالمعنى ما يجدي إسماعك إلا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أي يصدقون بها فهم مسلمون، أي: مخلصون من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني جعله سالمًا لله تعالى خالصًا له، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

اعلم أن الله تعالى بيَّن بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم، ثم فرع عليهما القول بإمكان الحشر، ثم بيَّن الوجه في كون القرآن معجزًا، ثم فرع عليه نبوة محمد ﷺ ثم تكلم الآن في مقدمات قيام القيامة، وإنما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن إثبات النبوة، لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في جودة الترتيب. واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة، وتارة الأمور التي تقع عند قيام القيامة، فذكر أولاً من علامات القيامة دابة الأرض، والناس تكلموا فيها من وجوه:

أحدها: في مقدار جسمها، وفي الحديث أن طولها ستون ذراعًا [١]، وروي أيضًا أن رأسها تبلغ السحاب. وعن أبي هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب [٢].

وثانيها: في كيفية خلقتها، فروي أن لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان. وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إيَّل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة (بقرة) وذنب كبش وخف بعير. وثالثها: في كيفية خروجها، عن علي عليه السلام أنه تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن الحسن: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. ورابعها: في موضع خروجها، سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَيْنَ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ؟ فَقَالَ: «مِنْ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ حُرْمَةً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» [٣] وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية. وخامسها: في عدد خروجها، فروي أنها تخرج ثلاث مرات، تخرج بأقصى اليمن، ثم تكمن، ثم تخرج بالبادية، ثم تكمن دهرًا طويلاً، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد، فقوم يهربون وقوم يقفون (نظارة).

واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور، فإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قُبِلَ وإلا لم يلتفت إليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله، والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها، أما دابة الأرض فقد عرفتها.

وأما قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فقرىء (تَكْلَمُهُمْ) من الكَلْم وهو الجرح، روي أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان، فتضرب المؤمن بين عينيه بعصا موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه، وتنكت الكافر في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه. واعلم أنه يجوز أن يكون تُكَلِّمُهُم من الكَلْم أيضًا على معنى التكثير يقال: فلان مكَلَّم، أي مجرح. وقرأ أُبيّ (تُنَبِّئُهُمْ)، وقرأ ابن مسعود (تكلمهم بأن الناس)، والقراءة بإن مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك، أو هي حكاية لقول الله تعالى بين به أنه أخرج الدابة لهذه العلة. فإن قيل: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول (بِآيَاتِنَا)؟ جوابه: أن

---

(١) رواه الثعالبي في (الكشف والبيان) (١٠/ ٩) من طريق سفيان الثوري عن شهاب بن عبد ربه عن صادق بن عبد الرحمن عن ربعي بن خراش عن حذيفة... به.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (التفسير) (١١/ ٢٠٥)، حديث رقم (١٧٣٥٧) من طريق أبي صالح حدثني معاوية بن صالح عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة... فذكره، في إسناده أبي صالح عبد الله بن صالح، وقال في التقريب: صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه وكانت فيه غفلة.

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٢/ ١٧٦)، حديث رقم (١٦٣٥) من طريق سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه قال... فذكره، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ٤٩٨) من طريق منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول... فذكره.

قولها حكاية لقول الله تعالى، أو على معنى بآيات ربنا، أو لاختصاصها بالله تعالى أضافت آيات الله إلى نفسها، كما يقال: بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا، وإنما هي خيل مولاه وبلاده، ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار، أي تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون.

وأما قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فاعلم أن هذا من الأمور الواقعة بعد قيام القيامة، فالفرق بين من الأولى والثانية، أن الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

أما قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ فهذا وإن احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم، فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشيء منها.

أما قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ فالواو للحال كأنه قال: أكذبتم بها، بادي الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها.

أما قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالمراد لما لَمْ تشتغلوا بذلك العمل المهم، فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك؟! كأنه قال: كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل، ثم قال: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] ثم إنه سبحانه بعد أن خوَّفهم بأحوال القيامة ذكر كلامًا يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر في العقول أن التقليب من النور إلى الظلمة، ومن الظلمة إلى النور، لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية. وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرته تعالى في هذه الصورة على القلب من النور إلى الظلمة وبالعكس، فأي امتناع في ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة، ومن الموت إلى الحياة أخرى. وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الخلق منافع عظيمة، فما المانع من بعثتهم إلى الخلق لأجل تحصيل تلك المنافع؟ فقد ثبت أن هذه الكلمة الواحدة كافية في إقامة الدلالة على تصحيح الأصول الثلاثة التي منها منشأ كفرهم واستحقاقهم العذاب، ثم في الآية سؤالان:

السؤال الأول: ما السبب في أن جعل الإبصار للنهار وهو لأهله؟ جوابه: تنبيهًا على كمال هذه الصفة فيه.

السؤال الثاني: لما قال: ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فلم لم يقل: والنهار لتبصروا فيه؟ جوابه: لأن السكون في الليل هو المقصود من الليل، وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية.

وأما قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خص المؤمنين بالذكر، وإن كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم في نظائره.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾

اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة.

أما قوله: ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أنه شيء شبيه بالقرن، وأن إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه بإذن الله تعالى، فإذا سمع الناس ذلك الصوت وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]وهذا قول الأكثرين. وثانيها: يجوز أن يكون تمثيلاً لدعاء الموت فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة. وثالثها: أن الصور جمع الصورة، وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والأول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه.

أما قوله: ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فاعلم أنه إنما قال: (ففزع) ولم يقل: فيفزع للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى.

أما قوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فالمراد إلا من ثبَّت الله قلبه من الملائكة قالوا: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الشهداء، وعن الضحاك: الحور وخزنة النار وحملة العرش، وعن جابر: موسى منهم؛ لأنه صعق مرة ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨]وليس فيه خبر مقطوع، والكتاب إنما يدل على الجملة.

أما قوله: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ فقرئ (أتوه) و(أتاه) ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر، وقيل: معنى الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمر الله وانقيادهم له.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾

اعلم أن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهي تسيير الجبال، والوجه في حسبانهم أنها جامدة فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرًا حثيثًا.

أما قوله: ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ فهو من المصادر المؤكدة كقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]و﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ، والمعنى أنه لما قدم ذكر هذه الأمور

التي لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب. قال القاضي عبد الجبار: فيه دلالة على أن القبائح ليست من خلقه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة ولكن الإجماع مانع منه. والجواب: أن الإتقان لا يحصل إلا في المركبات فيمتنع وصف الأعراض بها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف إما أن يكون مطيعًا أو عاصيًا، أما المطيع فهو الذي جاء بالحسنة وله أمران: أحدهما: أن له ما هو خير منها وذلك هو الثواب، فإن قيل: الحسنة التي جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والإخلاص في الطاعات والثواب، إنما هو الأكل والشرب فكيف يجوز أن يقال: الأكل والشرب خير من معرفة الله؟ جوابه من وجوه: أحدها: أن ثواب المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة، ولذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى، وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة، ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الأكل والشرب خيرًا من معرفة الله تعالى وأنه باطل. وثانيها: أن الثواب خير من العمل من حيث إن الثواب دائم والعمل منقضي ولأن العمل فعل العبد، والثواب فعل الله تعالى. وثالثها: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة.

السؤال الثاني: الحسنة لفظة مفردة معرفة، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأنًا وأعلاها درجة وهو الإيمان، فلهذا قال ابن عباس من أفراد الحسنة كلمة الشهادة، وهذا يوجب القطع بأن لا يعاقب أهل الإيمان. وجوابه: ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلدًا. الأمر الثاني للمطيع: هو أنهم آمنون من كل فزع، لا كما قال بعضهم: إن أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر، فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النمل: ٨٧] فكيف نفى الفزع هاهنا؟ جوابه: أن الفزع الأول هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس لشدة تقع وهو يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه كما قيل: يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب، وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة، وأما الثاني فالخوف من العذاب. أما قراءة من قرأ (من فزع) بالتنوين فهي تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأما ما يلحق الإنسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد، وفي الأخبار ما يدل عليه، ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف، وهو خوف النار. وأمن يعدي بالجار وبنفسه كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٩٩] فهذا شرح حال المطيعين، أما

شرح حال العصاة فهو قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: السيئة الإشراك وقوله: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ فاعلم أنه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل: فكبوا في النار كقوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ [الشعراء: ٩٤] ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانًا بأنهم يلقون على وجوههم فيها (مكبوبين).

أما قوله: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيجوز فيه الالتفات، وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بيَّن المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب، وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال: قل يا محمد: إني أمرت بأشياء: الأول: أني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكًا، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدًا بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم إن لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لي ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها، فإني مصر عليها غير مرتاب فيها ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين: أحدهما: أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه.

أما قوله: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فقرىء (الَّتِي حَرَّمَهَا)، وإنما وصفها بالتحريم لوجوه: أحدها: أنه حرم فيها أشياء على من يحج. وثانيها: أن اللاجيء إليها آمن. وثالثها: لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وإنما ذكر ذلك؛ لأن العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الأصنام بل من الله تعالى، فكأنه قال: لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولي لهذه النعم وجب عليَّ أن أخصه بالعبادة. وثانيها: وصف الله تعالى بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقًا لجميع النعم فأجمل هاهنا تلك المفصلات، وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول: إن كل العالم له وكل الناس في طاعته. الثاني: أمر بأن يكون من المسلمين. الثالث: أمر بأن يتلو القرآن عليهم، ولقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي التوحيد

والحشر والنبوة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة اهتدائه راجعة إليه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فلا عليَّ وما أنا إلا رسول منذر، ثم إنه سبحانه ختم هذه (السورة) بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ لكن حين لا ينفعكم الإيمان ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأنه من وراء جزاء العاملين، والله أعلم.

سورة النمل

مكيةٌ كلُّها في قول الجميع، وهي ثلاثُ وتسعون آية. وقيل: أربعٌ وتسعون آية[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مضى الكلام في الحروف المُقطَّعة في «البقرة»[2] وغيرها. و«تِلْكَ» بمعنى هذه، أي: هذه السورةُ آياتُ القرآن وآياتُ كتابٍ مبين[3]. وذَكَرَ القرآنَ بلفظ المعرفة، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بلفظ النَّكِرة، وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلانٌ رجلٌ عاقل، وفلانٌ الرجلُ العاقلُ.

والكتاب: هو القرآن، فجمَعَ له بين الصِّفتين: بأنَّه قرآنٌ وأنَّه كتاب؛ لأنَّه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة[4]. وقد مضى اشتقاقُهما في «البقرة»[5]. وقال في سورة الحجر [١-٢]: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأخرجَ الكتابَ بلفظ المعرفة والقرآنَ بلفظِ النَّكِرة؛ وذلك لأنَّ القرآنَ والكتابَ اسمانِ يصلُحُ لكلِّ واحدٍ منهما أن يُجعَلَ معرفةً، وأن يُجعَلَ صفةً.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(٢) ١/ ٢٣٧-٢٤٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٥) ١/ ١٦١-١٦٢ و ٢٤٥ .

ووصفَه بالمبين لأنَّه بَيَّنَ فيه أمرَه ونهيَه وحلالَه وحرامَه ووعدَه ووعيدَه[١]، وقد تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «هُدًى» في موضع نصبٍ على الحال من الكتاب، أي: تلكَ آياتُ الكتابِ هاديةً ومُبَشِّرةً[٣]. ويجوزُ فيه الرفعُ على الابتداء، أي: هو هدى[٤]. وإن شئتَ على حذفِ حرف الصِّفة، أي: فيه هدى. ويجوزُ أن يكون الخبرُ «لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾وقد مضى في أوّل «البقرة»[٥] بيانُ هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بالبعث. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ قيل: أعمالَهم السيئةَ حتى رأوها حسنة[٦]. وقيل: زيَّنَّا لهم أعمالَهم الحسنةَ فلم يعملوها. وقال الزَّجَّاج[٧]: جعلنا جزاءَهم على كفرهم أنْ زيَّنَّا لهم ما لهم فيه. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتردَّدون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادَون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيَّرون؛ قال الراجز:

وَمَهْمَهٍ أطرافُهُ في مَهْمَهِ أَعْمَى الهُدى بالحائرينَ العُمَّهِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو جهنم. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٢) ١١/ ٢٤١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠٧ .

(٤) يعني: في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٨ .

(٥) ١/ ٢٥١ - ٢٧٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٩٣ . والرجز قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص١٦٦ .

﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. «فِي الآخِرَةِ» تبيينٌ وليس بمتعلِّقٍ بالأخسرين، فإنَّ من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم، فهم أخسَرُ كلِّ خاسِرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك فتلقَّاه وتعلَمُه وتأخذُه[١]. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ «لَدُنْ» بمعنى عند، إلَّا أنَّها مبنِيَّةٌ غيرُ مُعرَبة؛ لأنَّها لا تتمكَّن[٢]، وفيها لغاتٌ ذُكِرَتْ في «الكهف»[٣]. وهذه الآية بساطٌ وتمهيدٌ لِما يُريد أن يسوق من الأقاصيص[٤]، وما في ذلك من لطائفِ حكمتِه، ودقائقِ علمِه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ «إِذْ» منصوبٌ بِمُضمَرٍ وهو اذْكُرْ؛ كأنَّه قال على أثر قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾: خُذْ يا محمدُ من آثار حكمتِه وعلمِه قصةَ موسى إذ قال لأهله[٥]: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها من بعد. قال الحارث بن حِلِّزة:

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٢ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٨.

(٣) عند تفسير الآية (٦٥).

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٠.

(٥) الكشاف ٣/ ١٣٧.

آنَسْتُ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا القُنْـ ـاصُ عصراً وقَدْ دَنا الإمساءُ[١]

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» بتنوين «شِهابٍ». والباقون بغير تنوين على الإضافة[٢]، أي: بشعلة نار[٣]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وزعمَ الفرَّاءُ في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم: ولَدارُ الآخرة، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى، يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه. قال النحَّاس: إضافةُ الشيء إلى نفسِه مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى الإضافة في اللغة: ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ، فمُحالٌ أن يُضَمَّ الشيءُ إلى نفسه، وإنَّما يُضافُ الشيءُ ليتبيَّنَ به معنى الملك أو النوع، فمُحالٌ أن يتبيَّنَ أنه مالِكٌ نفسَه أو من نوعها. و«شِهابِ قبسٍ» إضافةُ النوع إلى الجنس[٤]، كما تقول: هذا ثوبُ خَزٍّ، وخاتمُ حديدٍ، وشبهه. والشهابُ: كلُّ ذي نُور، نحو: الكوكبُ والعُود الموقَدُ. والقَبَسُ: اسمٌ لما يُقتَبس من جمرٍ وما أشبهه؛ فالمعنى: بشهاب من قبس. يقال: قبست[٥] قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» جعله بدلاً منه[٦]. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير[٧] صفة فلأنهم قالوا: قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفةً فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ

---

(١) سلف ١٥/ ١٨٩ .

(٢) السبعة ص٤٧٨ ، والتيسير ١٦٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

(٤) في النسخ: والجنس. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) في (د): اقتبست. وفي (ظ) و(م): أقبست. والمثبت من إعراب القرآن.

(٦) من قوله: وزعم الفراء... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٩٨-١٩٩ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٦ .

(٧) كلمة «غير» يقتضيها السياق، وهي من (م)، وليست في بقية النسخ.

بنصب قبس على البيان أو الحال لجاز[١]. النَّحَّاس[٢]: ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أصل الطاء تاءٌ فأبدلَ منها هنا طاءً؛ لأنَّ الطاءَ مُطبَقةٌ والصادَ مُطبَقةٌ فكان الجمعُ بينهما حسناً.

ومعناه: يستدفئون من البرد[٣]. يقال: اصطلى يصطلي إذا استدفأ. قال الشاعر:

النَّـارُ فـاكـهـةُ الـشِّـتـاءِ فـمـن يُـرِدْ   أكـلَ الـفـواكـهِ شـاتـيـاً فـلـيـصْـطَـلِ

الزَّجَّاج[٤]: كل أبيض ذي نُور فهو شهاب. أبو عبيدة[٥]: الشهاب النار. قال أبو النَّجم:

كـأنَّـمـا كـان شـهـابـاً واقِـدا   أضـاءَ ضـوءاً ثـمَّ صـارَ خـامِـدا

أحمد بن يحيى: أصلُ الشهاب: عُودٌ في أحدِ طَرفيه جمرةٌ والآخرُ لا نارَ فيه، وقولُ النحَّاسِ فيه حسن. والشهابُ: الشُّعاعُ المُضيء، ومنه الكوكب الذي يمدُّ ضوءَه في السماء. وقال الشاعر:

فـي كـفِّـهِ صَـعْـدَةٌ مُـثـقَّـفـةٌ   فـيـهـا سِـنـانٌ كـشُـعـلـةِ الـقَـبَـسِ[٦]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: فلمَّا جاءَ موسى الذي ظنَّ أنَّه نارٌ وهي نور؛ قال[٧] وهب بن مُنبِّه: فلمَّا رأى موسى النَّارَ وقفَ قريباً منها، فرآها تخرجُ من فرع شجرةٍ خضراءَ شديدةِ الخُضْرةِ يُقال لها: العُلَّيق، لا تزدادُ النَّارُ إلَّا عِظَماً وتضَرُّماً،

(١) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: كان. وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣١ .

(٢) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أحسن. والكلام الآتي في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٩ .

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٢ .

(٦) قائله أبو زبيد الطائي كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦١٠ ، ولفظه فيه:

فـجـالَ فـي كـفِّـه مُـثـقَّـفـةٌ   تـلـمـعُ فـيـهـا كـشـعـلـةِ الـقبسِ

(٧) في النسخ: قاله. والمثبت من النكت والعيون.

ولا تزدادُ الشَّجرةُ إلا خُضرةً وحُسناً، فعجب منها وأهوى إليها بضِغْثٍ في يده ليقتبِسَ منها، فمالَتْ إليه، فخافَها، فتأخَّرَ عنها، ثم لم تزَلْ تُطْمِعهُ ويطمَعُ فيها إلى أن وضَحَ أمرُها على أنَّها مأمورةٌ لا يُدرى مَنْ أمَرَها، إلى أن ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]. وقد مضى هذا المعنى في «طه»[2]. ﴿نُودِيَ﴾ أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

﴿أَنْ بُورِكَ﴾ قال الزَّجَّاج: «أَنْ» في موضعِ نصب، أي: بأنه. قال: ويجوزُ أن تكون في موضعِ رَفْعٍ جعلها اسمَ ما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ. وحكى أبو حاتم أنَّ في قراءة أُبيٍّ وابنِ عبَّاسٍ ومجاهد: «أن بُورِكَتِ النَّارُ ومَنْ حولها»[3]. قال النحَّاس: ومِثْلُ هذا لا يوجَدُ بإسنادٍ صحيح، ولو صَحَّ لكان على التفسير، فتكونُ البركةُ راجعةً إلى النَّارِ ومَنْ حولَها الملائكة وموسى. وحكى الكسائيُّ عن العرب: باركَكَ اللهُ، وباركَ فيك[4]. الثعلبي: العربُ تقول: باركَكَ الله، وبارَكَ فيك، وبارَكَ عليك، وبارَكَ لكَ، أربع لغات[5]. قال الشاعر:

فَبُورِكْتَ مولوداً وبُورِكْتَ ناشِئاً ... وبُورِكْتَ عند الشَّيْبِ إذْ أنتَ أشْيَبُ[6]

الطبري: قال: «بُورِكَ مَنْ في النَّارِ» ولم يقُلْ: بُورِكَ في مَنْ في النار[7]، على لغةِ من يقول: باركَكَ الله[8]. ويُقال: بارَكَه اللهُ، وبارَكَ له، وبارَكَ عليه، وبارَكَ فيه

(١) من قوله: والشهاب الشعاع... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٩٤-١٩٥ .

(٢) ١٤/ ١٨-١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ عن أُبيٍّ وحده، وهي قراءة شاذة.

(٤) من قوله: أن بورك... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٩.

(٥) وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٦ ثلاث لغات، يعني: لم يذكر الأخيرة.

(٦) قائله الكميت، وهو في ديوانه ٢/ ١٨٧ (طبعة عالم الكتب).

(٧) في النسخ: بورك على النار. والمثبت من تفسير الطبري.

(٨) تفسير الطبري ١٨/ ١٢ .

بمعنًى، أي: بُورِكَ على مَنْ في النَّار وهو موسى، أو على مَنْ في قُرْبِ النَّار، لا أنَّه كان في وسطها ـ وقال السُّدِّي: كان في النار ملائكة ـ فالتبريكُ عائدٌ إلى موسى والملائكة، أي: بُورِكَ فيكَ يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحيةٌ من الله تعالى لموسى وَتكْرِمَةٌ له، كما حيَّا إبراهيمَ على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾(١) [هود: ٧٣]. وقولٌ ثالثٌ قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جُبَير: قُدِّس مَنْ في النار، وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسَه تقدَّس وتعالى(٢). قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النَّارُ نورُ الله عزَّ وجلَّ(٣)، نادى الله موسى وهو في النور(٤)، وتأويل هذا: أنَّ موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنَّه ناراً(٥)؛ وهذا لأنَّ الله تعالى ظهرَ لموسى بآياتِه وكلامِه من النَّار لا أنَّه يتحيَّزُ في جهة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. لا أنَّه يتحيَّزُ فيهما، ولكن يظهر في كلِّ فعلٍ فيعلَمُ به وجودَ الفاعل. وقيل على هذا: أي: بُورِكَ مَنْ في النار سلطانُه وقدرتُه(٦). وقيل: أي: بُورِكَ ما في النَّارِ من أمرِ الله تعالى الذي جعلَه علامةً.

قلتُ: ومما يدلُّ على صِحَّة قولِ ابن عباس ما خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»، وابن ماجه في «سننه» واللفظ له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفَعُه، حجابُه النُّور، لو كشفَها لأحرقَتْ سُبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أدركَهُ بصَرُه» ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٦ بنحوه. وقول السدي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٢٦) و(١٦١٢٧) عن ابن عباس، و(١٦١٣٤) عن محمد بن كعب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٣١) عن سعيد بن جبير.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٩.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٩٩.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظُ مسلم عن أبي موسى قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ بخمسِ كلمات، فقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النَّهار، وعملُ النهار قبلَ عملِ الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية أبي بكر[(١)]: النار ـ لو كشفَه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بصرُه مِنْ خَلْقِه»[(٢)] قال أبو عبيد[(٣)]: يقال: السُّبُحات إنَّها جلالُ وَجْهِه، ومنها قيل: «سُبحانَ اللهِ» إنَّما هو تعظيمٌ له وتنزيه. وقوله: «لو كشفَها» يعني: لو رفعَ الحجابَ عن أعينهم ولم يُثبِّتْهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها[(٤)].

قال ابن جُرَيج: النارُ حِجابٌ من الحُجُب وهي سبعة حُجُب: حِجابُ العِزَّة، وحِجابُ المُلْك، وحِجابُ السلطان، وحِجاب النَّار، وحِجابُ النُّور، وحِجابُ الغمام، وحِجابُ الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب، واللهُ لا يَحجُبه شيء[(٥)]، فكانتِ النارُ نوراً، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأنَّ موسى حسِبَه ناراً، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخر.

وقال سعيد بن جُبَير: كانتِ النَّارُ بعينِها، فأسمعَه تعالى كلامَه من ناحيتِها، وأظهرَ له ربوبيتَه من جهتِها. وهو كما رُويَ أنَّه مكتوبٌ في التوراة: «جاء اللهُ من سيناء، وأشرفَ من ساعير، واستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بِعثةُ موسى منها، وإشرافُه من ساعير بِعثةُ المسيحِ منها، واستعلاؤه من فاران بِعثةُ محمدٍ ﷺ، وفاران مكة[(٦)]. وسيأتي في «القصص» بإسماعه سبحانَه كلامَه من الشجرة زيادةُ بيانٍ

(١) يعني ابن أبي شيبة، وهي رواية عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم (١٧٩): (٢٩٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٦)، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٩١) و(٣٩٢). وأخرجه أحمد (١٩٦٣٢) بلفظ مسلم، و(١٩٥٨٧) بلفظ ابن ماجه.

(٣) في غريب الحديث ٣/ ١٧٣.

(٤) إكمال المعلم ١/ ٥٣٧ بنحوه.

(٥) واضح في النص أعلاه إثبات الحجاب لله، وأنه النور أو النار وقد تكلم ابن أبي زمنين في هذه المسألة في كتابه: أصول السنة ص ١٠٦. فليراجع.

إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيهاً وتقديساً للهِ ربِّ العالمين. وقد تقدَّم في غير موضع، والمعنى: أي: ويقول مَنْ حولها: «وسُبْحانَ اللهِ» فحذف. وقيل: إنَّ موسى عليه السلام قاله حين فرغَ من سماع النداء؛ استعانةً بالله تعالى وتنزيهاً له. قاله السُّدِّي. وقيل: هو من قول الله تعالى. ومعناه: وبُورِكَ فيمَنْ سبَّحَ اللهَ تعالى ربَّ العالمين. حكاه ابن شجرة[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الهاء عمادٌ وليست بكنايةٍ في قول الكوفيين[٢]. والصحيح أنَّها كنايةٌ عن الأمرِ والشأن[٣] «أنا اللهُ العزيزُ» الغالبُ الذي ليس كمثله شيء «الحَكِيمُ» في أمرِه وفِعْلِهِ[٤]. وقيل: قال موسى: يا ربِّ، مَنِ الذي نادى؟ فقال له: «إِنَّهُ» أي: إنِّي أنا المُنادي لك، أنا اللهُ[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال وهب بن مُنبِّه: ظَنَّ موسى أنَّ الله أمرَه أنْ يرفُضَها فرفَضَها[٦]. وقيل: إنَّما قال له ذلك؛ ليعلم موسى أنَّ المُكَلِّمَ له هو الله، وأنَّ موسى رسوله؛ وكلُّ نبيٍّ لابُدَّ له من آيةٍ في نفسه يعلم بها نبوَّتَه.

وفي الآية حذف: أي: وألْقِ عصاكَ، فألقاها من يدِه فصارت حَيَّةً[٧] تهتز كأنَّها جانٌّ: وهي الحيَّةُ الخفيفةُ الصغيرةُ الجسم[٨]. وقال الكلبي: لا صغيرةً ولا كبيرة[٩].

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥ .

(٢) وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ . ونقل الطبري ١٨/ ١٤ عن بعض نحويِّي الكوفة أنهم يسمُّونها الهاء المجهولة.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٩٩ بنحوه .

(٥) زاد المسير ٦/ ١٥٦ عن السدي .

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٩٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٦ .

(٨) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٤ .

(٩) وقاله الفراء في معاني القراء ٢/ ١٨٧ .

وقيل: إنَّها قُلِبَتْ له أوّلاً حيَّةً صغيرةً، فلمَّا أنَسَ منها قُلِبَتْ حيَّةً كبيرة[١]. وقيل: انقلبت مرَّةً حيَّةً صغيرة، ومرَّةً حيَّةً تسعى وهي الأنثى، ومرَّةً ثعباناً وهو الذَّكرُ الكبيرُ من الحيَّات. وقيل: المعنى: انقلبَتْ ثعباناً تهتزُّ كأنَّها جانٌّ، لها عِظَمُ الثُّعبان وخِفَّةُ الجانِّ واهتزازُه وهي حيَّةٌ تسعى[٢]. وجمع الجانِّ جِنَّان[٣]؛ ومنه الحديث: نهى عن قتل الجِنَّانِ التي في البيوت[٤]. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجِعْ. قاله مجاهد[٥]. وقال قتادة: لم يلتفِتْ[٦]. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: من الحية وضررها. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وتمَّ الكلامُ ثم استثنى استثناءً منقطعاً فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾. وقيل: إنه استثناءٌ من محذوف، والمعنى: إنِّي لا يخافُ لديَّ المرسلون، وإنَّما يخاف غيرُهم مِمَّن ظَلم ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنَّه لا يخاف. قاله الفرَّاء.

قال النَّحَّاس: استثناءٌ من محذوفٍ مُحال؛ لأنَّه استثناءٌ من شيءٍ لم يُذكَرْ، ولو جازَ هذا لجازَ: إنِّي لأضرِبُ القومَ إلَّا زيداً، بمعنى: إنِّي لا أضرِبُ القومَ، وإنَّما أضرِبُ غيرَهم إلَّا زيداً، وهذا ضِدُّ البيان، والمجيءُ بما لا يُعرَفُ معناه. وزعمَ الفرَّاء أيضاً أنَّ بعضَ النَّحْويِّين يجعل إلَّا بمعنى الواو، أي: ولا مَنْ ظلم؛ قال:

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخوهُ   لَعَمْرُ أبيكَ إلَّا الفَرْقَدانِ[٧]

قال النَّحَّاس: وكَوْنُ «إلَّا» بمعنى الواو لا وجهَ له، ولا يجوز في شيءٍ من الكلام، ومعنى «إلَّا» خلافُ الواو؛ لأنَّكَ إذا قلتَ: جاءني إخوتُكَ إلَّا زيداً ممَّا دخلَ

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٠ .

(٣) الصحاح (جنن).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٢)، ومسلم (٢٢٣٣) من حديث أبي لبابة ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥ ، وهو في تفسيره ٢/ ٤٦٩ .

(٦) أخرجه عبد الرازق في تفسيره ٢/ ٧٩ ، والطبري ١٨/ ١٥ .

(٧) سلف ١١/ ٥٤ .

فيه الإخوةُ، فلا نِسبةَ بينهما ولا تقارُبَ(١). وفي الآية قولٌ آخر: وهو أن يكون الاستثناءُ متصلاً، والمعنى: إلَّا مَنْ ظلَمَ من المرسلين بإتيان الصغائرِ التي لا يَسلَمُ منها أحد، سوى ما رُوِيَ عن يحيى بن زكريا عليهما السلام، وما ذكره الله تعالى في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ذكره المَهدَويُّ واختاره النحَّاس، وقال: عَلِمَ اللهُ من عصى منهم يُسِرُّ الخيفةَ(٢)، فاستثناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنه يخافُ وإنْ كنتَ قد غفرتَ له(٣). الضَّحَّاك: يعني آدمَ وداودَ عليهما السلام. الزَّمخشري(٤): كالذي فَرَطَ من آدمَ ويونسَ وداودَ وسليمانَ وإخوةِ يوسف، ومن موسى عليه السلام بِوَكزِه القِبطي.

فإن قال قائلٌ: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله عزَّ وجلَّ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وَجِلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافون من المُطالبةِ به(٥). وقال الحسن وابن جُريج: قال الله لموسى: إني أَخَفْتُكَ لقتلِكَ النفس. قال الحسن: وكانتِ الأنبياءُ تُذنِبُ فتُعاقَبُ(٦). قال الثعلبي والقشيري والماوردي(٧) وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح، أي: إلَّا مَنْ ظلَمَ نفسَه من النبيِّين والمرسلين فيما فعَلَ من صغيرةٍ قبلِ النبوة. وكان موسى خافَ من قتل القِبطيِّ وتابَ منه. وقد قيل: إنَّهم

---

(١) من قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾... إلى هذا الموضع دون ذكر البيت من إعراب القرآن ٣/ ١٩٩-٢٠٠. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٧.

(٢) قوله: «يُسِرُّ الخيفة» من إعراب القرآن وهو ليس في النسخ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ١٣٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٦) هذا بتمامه من قول الحسن وحده كما أخرجه الطبري ١٨/ ١٦، أما قول ابن جريج فلفظه: لا يُخيف الله الأنبياء إلا بذنبٍ يصيبُه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ١٩٧ بنحو ما سيرد.

بعد النبوة معصومونَ من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في «البقرة»[(١)].

قلتُ: والأوّلُ أصَحُّ لِتنصُّلِهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، فإذا أحدثَ المُقرّبُ حدَثاً فهو وإنْ غُفِرَ له ذلك الحدَثُ فأثرُ ذلك الحدثِ باقٍ، وما دام الأثرُ والتُّهمَةُ قائمةً فالخوف كائنٌ، لا خَوْفَ العقوبةِ ولكِنْ خَوْفَ العَظِمةِ، والمُتَّهمُ عند السلطان يجِدُ لِلتُّهمَةِ حزازةً تؤدِّيه إلى أن يُكدِّر عليه صفاءُ الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدَثُ في ذلك الفِرعوني، ثم استغفر وأقرَّ بالظلم على نفسه، ثم غفَرَ له، ثم قال بعد المغفرة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ثم ابتُلِيَ من الغدِ بالفرعونيِّ الآخَرِ وأراد أن يبطِشَ به، فصار حدَثاً آخر بهذه الإرادة. وإنَّما ابتُلِيَ من الغدِ؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمةُ اقتدارٍ من قولهِ: لن أفعل، فعُوقِبَ بالإرادة حينَ أرادَ أن يبطِشَ ولم يفعل، فسُلِّطَ عليه الإسرائيليُّ حتى أفشى سرَّه؛ لأنَّ الإسرائيليَّ لمَّا رآه تشمَّرَ للبطش ظنَّ أنه يُريدُه، فأفشى عليه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] فهربَ الفِرعونيُّ وأخبر فرعونَ بما أفشى الإسرائيليُّ على موسى، وكان القتيلُ بالأمس مكتوماً أمْرُه لا يُدْرَى مَنْ قتَلَه، فلمَّا عَلِمَ فرعونُ بذلك، وجَّه في طلب موسى يقتُلَه، واشتدَّ الطَّلَبُ، وأخذوا مَجامِعَ الطُّرُق؛ جاءَ رجلٌ يسعى فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية [القصص: ٢٠]، فخرج كما أخبر الله. فَخوفُ موسى إنَّما كان من أجل هذا الحدَثِ، فهو وإن قرَّبه ربُّه وأكرَمَه واصطفاه بالكلام فالتُّهمَةُ الباقيةُ ولَّتْ به ولم يُعقِّبْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تقدَّم في «طه»[(٢)] القولُ فيه. ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ قال النَّحّاس[(٣)]: أحسَنُ ما قيل فيه أنَّ المعنى: هذه الآيةُ داخلةٌ

(١) ١/٤٥٨ - ٤٦٠ .

(٢) ١٤/٤٩ - ٥٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/٢٠١ .

في تسع آيات. المهدَويُّ: المعنى: «أَلْقِ عَصاكَ» «وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ»، فهما آيتانِ من تسع آيات[١]. وقال القُشَيريُّ: معناه: كما تقول: خرجتُ في عشرة نَفَرٍ وأنتَ أحَدُهم. أي: خرجتُ عاشِرَ عشرة.

ف «في» بمعنى «من» لِقُرْبها منها، كما تقول: خُذْ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي: منها. وقال الأصمعيُّ في قول امرئ القيس:

وهل يَنْعَمَنْ مَنْ كان آخِرُ عهدِهِ ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[٢]

في بمعنى من. وقيل: في بمعنى مع[٣]، فالآيات عشرةٌ منها اليد، والتسع: الفَلْقُ والعصا والجرادُ والقُمَّلُ والطُّوفانُ والدَّمُ والضفادعُ والسِّنينَ والطَّمْسُ. وقد تقدَّم بيانُ جميعِه[٤]. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء: في الكلام إضمارٌ لدِلالةِ الكلامِ عليه، أي: إنك مبعوثٌ أو مُرسلٌ إلى فرعونَ وقومه[٥]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحةً بيِّنة[٦]. قال الأخفش[٧]: ويجوزُ مَبْصَرة وهو مصدر، كما يُقال: الولدُ مَجْبَنة. ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ جَرَوا على عادتهم في التكذيب؛ فلهذا قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: تيقَّنوا أنَّها من عند الله وأنَّها ليست سحراً، ولكنَّهم كفروا بها وتكبَّروا أن يؤمنوا بموسى[٨]. وهذا يدلُّ على أنهم كانوا مُعانِدين. و«ظُلْماً» و«عُلُوًّا» منصوبان على نعتِ

(١) وقاله النحاس في معاني القرآن ٥/ ١١٨ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٧ ، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثَ عهدِهِ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٨ .

(٤) عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الإسراء .

(٥) معاني القرآن للفراء ٤/ ٢٨٨ بنحوه .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٨ .

(٧) فيما نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١١ بنحوه .

مصدرٍ محذوف، أي: وجَحدوا بها جُحوداً ظلماً وعُلُوًّا. والباء زائدة، أي: وجحدوها. قاله أبو عبيدة[١]. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخِرُ أمرِ الكافرين الطاغين، انظر ذلك بِعَينِ قلبِكَ وتدَبَّرْ فيه. الخطابُ له والمُرادُ غيرُه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ أي فهماً. قاله قتادة. وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ[٣]. وإنَّما الذي آتاهما اللهُ النبوَّةُ والخلافةُ في الأرض والزَّبورُ. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية دليلٌ على شرف العلم وإنافةِ مَحلِّه وتَقدُّمِ حَملتِهِ وأهلِهِ، وأنَّ نعمةَ العلم من أجَلِّ النِّعَم وأجْزَلِ القِسَم، وأنَّ مَنْ أُوتِيَه فقد أُوتيَ فضلاً على كثيرٍ من عباد الله المؤمنين؛ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١]. وقد تقدَّم هذا في غيرِ موضع.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ قال الكلبي: كان لداودَ ﷺ تسعةَ عشرَ ولداً، فوَرِثَ سليمانُ من بينهم نُبوَّتَه ومُلْكَه، ولو كان وراثةَ مال لَكانَ جميعُ أولادِهِ فيه سواء[٤]. وقاله ابنُ العربي[٥]؛ قال: فلو كانت وراثةَ مالٍ لانقسمَتْ على العدد، فَخصَّ اللهُ سليمانَ بما كان لداودَ

---

(١) فيما نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٩٧ - ١٩٨. وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٧٩).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٦.

من الحكمة والنبوَّة، وزادَه من فضله ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. قال ابن عطية[١]: داودُ من بني إسرائيل، وكان ملِكاً، وورِثَ سليمانُ مُلكَه ومنزِلَتَه من النبوَّة، بمعنى: صار إليه ذلكَ بعد موتِ أبيه، فسُمِّي ميراثاً تجوُّزاً، وهذا نحوُ قوله: «العلماءُ ورَثَةُ الأنبياء»[٢]. ويَحتمِلُ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشَرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[٣] أنْ يُريدَ أنَّ ذلِكَ مِنْ فِعْلِ الأنبياءِ وسيرتِهم، وإن كان فيهم مَنْ وُرِثَ مالُه كزكرياء على أشهرِ الأقوال فيه، وهذا كما تقول: إنَّا معشرَ المسلمين إنَّما شغَلَتْنا العبادةُ، والمُرادُ أنَّ ذلِكَ فِعْلُ الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنَّا معشرَ العربِ أقرى النَّاسِ لِلضَّيف.

قلتُ: قد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[٤] وأنَّ الصحيحَ القولُ الأوَّلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ» فهو عامٌّ، ولا يخرجُ منه شيءٌ إلَّا بدليل.

قال مقاتل: كان سليمانُ أعظمَ مُلكاً من داودَ وأقضى منه، وكان داودُ أشدَّ تعبُّداً من سليمان[٥]. قال غيرُه: ولم يبلُغْ أحدٌ من الأنبياء ما بلَغَ ملكُه؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى سخَّر له الإنسَ والجِنَّ والطيرَ والوحشَ، وآتاه ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، ووَرِثَ أباه في المُلْكِ والنبوَّة، وقام بعدَه بشريعتِه، وكلُّ نبيٍّ جاء بعد موسى مِمَّنْ بُعِثَ أو لم يُبعَثْ فإنَّما كان بشريعة موسى، إلى أن بُعِثَ المسيحُ عليه السلام فنسخَها. وبينَه وبينَ الهجرة نحوٌ من ألفٍ وثمانِ مئة سنة. واليهودُ تقول: ألفٌ وثلاثُ مئةٍ واثنتانِ وسِتُّون سنة. وقيل: إنَّ بين موتِه وبينَ مولدِ النبيِّ ﷺ نحواً من ألفٍ وسبعِ مئة، واليهودُ تُنقِصُ منها ثلاثَ مئةِ سنة، وعاش نَيِّفاً وخمسين سنة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٢) سلف ٥/ ٦٤.

(٣) سلف ١١/ ٧٨.

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١، وعرائس المجالس ص٢٩٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: قال سليمانُ لبني إسرائيل على جهةِ الشُّكرِ لنِعَمِ الله: «عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» أي: تفضَّلَ اللهُ علينا على ما ورَّثنا من داود من العلمِ والنبوَّةِ والخلافةِ في الأرض في أنْ فهَّمَنا من أصواتِ الطيرِ المعاني التي في نفوسنا.

قال مقاتلٌ في الآية: كان سليمانُ جالساً ذاتَ يومٍ إذْ مرَّ به طائرٌ يطوف، فقال لجُلسائه: أتدرونَ ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ والنبيُّ لبني إسرائيل، أعطاكَ اللهُ الكرامةَ، وأظهركَ على عدوِّكَ، إني منطلِقٌ إلى أفراخي ثم أمُرُّ بكَ الثانية ـ وإنه سيرجعُ إلينا الثانية ـ ثمَّ رجعَ فقال: إنَّه يقول: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ، إنْ شئتَ أن تأذَنَ لي كيما أكتسِبَ على أفراخي حتى يشِبُّوا، ثم آتيكَ فافعَلْ بي ما شئتَ. فأخبرَهم سليمانُ بما قال، وأذِنَ له فانطلَقَ. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: مرَّ سليمانُ على بلبلٍ فوقَ شجرةٍ يُحرِّكُ رأسَه ويُميلُ ذَنَبَه، فقال لأصحابه: أتدرونَ ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا نبيَّ الله. قال: إنَّه يقول: أكلتُ نِصْفَ تمرةٍ فعلى الدنيا العَفَاء[(١)].

ومرَّ بهُدهدٍ فوق شجرة وقد نصبَ له صبيٌّ فخًّا، فقال له سليمان: احذَرْ يا هُدْهُدُ. فقال: يا نبيَّ الله، هذا صبيٌّ لا عقْلَ له فأنا أسخَرُ به. ثم رجعَ سليمانُ فوجدَه قد وقَعَ في حِبالةِ الصبيِّ وهو في يده، فقال: هُدْهُدُ ما هذا؟ قال: ما رأيتُها حتى وقعتُ فيها يا نبيَّ الله. قال: ويحك! فأنتَ ترى الماء تحتَ الأرض أما ترى الفَخَّ؟! قال: يا نبيَّ الله، إذا نزلَ القضاءُ عميَ البصرُ[(٢)].

وقال كعب: صاحَ وَرَشان[(٣)] عند سليمانَ بنِ داود، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لِدُوا للموتِ وابْنوا للخراب. وصاحَتْ فاختة[(٤)]، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: ليتَ هذا الخَلْقَ لم يُخلَقوا، وليتَهم إذْ خُلِقوا عَلِموا

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

(٢) سيرد نحوه عند تفسير الآية (٢٠).

(٣) الوَرَشان: طائر يشبه الحمامة. اللسان (ورش).

(٤) جمعها فواخت: وهي ضربٌ من الحمام المُطوَّق. اللسان (فخت).

لماذا خُلِقوا.وصاح عنده طاوس، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: كما تَدينُ تُدان. وصاح عنده هُدهد، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه يقول: من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ. وصاحَ صُرَدٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفِروا اللهَ يا مذنبين، فمِنْ ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله ـ وقيل: إن الصُّرَدَ هو الذي دلَّ آدمَ على مكان البيت، وهو أوَّلُ من صام؛ ولذلك يُقال للصُّردِ: الصوَّام. رُويَ عن أبي هريرة ـ وصاحت عنده طِيطَوى[١]، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: كلُّ حيٍّ ميِّتٌ، وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاحت خُطَّافةٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: قدِّموا خيراً تجدوه. فمِنْ ثمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها ـ وقيل: إنَّ آدمَ خرجَ من الجنة فاشتكى إلى اللهِ الوَحشة، فآنَسَه اللهُ تعالى بالخُطَّافِ وألزمَها البيوت، فهي لا تُفارقُ بني آدمَ أُنْساً لهم. قال: ومعها أربعُ آياتٍ من كتاب اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ [الحشر: ٢١] إلى آخرِها وتمدُّ صوتَها بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ـ وهدرَتْ حمامةٌ عند سليمانَ فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: سُبحانَ ربيَ الأعلى عدد ما في سماواتِه وأرضِه. وصاح قُمْريٌّ عند سليمان، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: سُبحان ربيَ العظيم المهيمن[٢]. وقال كعب: وحدَّثَهم سليمانُ فقال: الغرابُ يقول: اللهمَّ الْعَنِ العَشَّار. والحِدأةُ تقول: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ. والقَطاةُ تقول: مَنْ سكتَ سَلِمَ. والببغاءُ تقول: ويلٌ لمن الدُّنيا هَمُّه. والضفدع يقول: سُبحانَ ربِّيَ القُدُّوس. والبازي يقول: سُبحانَ ربِّي وبحمدِه. والسرطان[٣] يقول: سُبحانَ المذكورِ بكلِّ لسانٍ في كلِّ مكان[٤].

وقال مكحول: صاحَ دُرَّاجٌ[٥] عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا.

---

(١) الطيطوى: طائر من طيور الماء لا يفارق الآجام وكثرة الماء. معجم متن اللغة ٣/ ٦٤٨ .

(٢) في عرائس المجالس: «سبحان الحي الذي لا يموت أبداً» وفي تفسير البغوي: «سبحان ربي الأعلى».

(٣) في عرائس المجالس: والعصفور. وفي تفسير البغوي: والضفدعة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ . وما بين اعتراض ليس فيهما.

(٥) الدُّرَّاج: طائرٌ ظاهرُ جناحه أغبر، وباطنه أسود، وهو شبيهٌ بالحجل. معجم متن اللغة (درج).

قال: إنه يقول: الرَّحمنُ على العرشِ استوى[١]. وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «الديك إذا صاح قال: اذكروا الله يا غافلين[٢]». وقال الحُسين[٣] بن علي بن أبي طالب: قال النبيُّ ﷺ: «النَّسرُ إذا صاحَ قال: يا ابنَ آدمَ، عِشْ ما شئتَ فآخِرُكَ الموتُ. وإذا صاحَ العُقَابُ قال: في البُعْدِ من النَّاسِ الرَّاحة. وإذا صاحَ القُنْبرُ قال: إلهي الْعَنْ مُبغِضي آلِ محمدٍ. وإذا صاحَ الخُطَّاف قرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخرها، فيقول: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ويمدُّ بها صوتَه كما يمدُّ القارئ»[٤].

قال قَتادة والشَّعبي: إنَّما هذا الأمرُ في الطير خاصَّةً؛ لقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ والنَّملةُ طائرٌ إذ قد يُوجَدُ له أجنحة. قال الشَّعبي: وكذلِكَ كانت هذه النَّملةُ ذاتَ جناحين. وقالت فرقةٌ: بل كان في جميع الحيوان، وإنَّما ذكر الطير؛ لأنَّه كان جُنداً من جند سليمان يحتاجه في التَّظليلِ عن الشمس وفي البعث في الأمور، فخُصَّ بالذِّكرِ لكثرة مداخَلتِه، ولأنَّ أمْرَ سائرِ الحيوان نادرٌ وغيرُ مُتردِّدٍ تَرداد أمرِ الطير[٥].

وقال أبو جعفر النَّحَّاس[٦]: والمنطِقُ قد يقَعُ لِما يُفهِمُ بغير كلام، واللهُ جلَّ وعزَّ أعلَمُ بما أراد. قال ابن العربي[٧]: من قال: إنه لا يعلم إلَّا منطقَ الطير فنُقصانٌ عظيم، وقدِ اتَّفقَ الناسُ على أنَّه كان يفهمُ كلامَ مَنْ لا يتكلَّمُ ويُخلَقُ له فيه القولُ من النبات، فكان كلُّ نبتٍ يقول له: أنا شجَرُ كذا، أنفَعُ من كذا، وأضُرُّ من كذا، فما ظنُّكَ بالحيوان؟!

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٩٧ من طريق صالح بن بشير المري، عن الحسن ـ وهو البصري ـ مرفوعاً. إسناده منقطع، وصالح المري ضعيف. تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩-١٩٠. وذكره الديلمي في الفردوس (٣١٢٩) موقوفاً، وقال: عن الحسن، وربما هو ابن علي.

(٣) في النسخ: الحسن. والمثبت من المصادر.

(٤) هو في عرائس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ موقوف على الحسين ؓ.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٩.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾ «حُشِرَ» جُمِعَ[1]، والحَشْرُ: الجَمْعُ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]. واختلفَ الناسُ في مقدارِ جُنْدِ سليمانَ عليه السلام، فيُقال: كان معسكرُه مئةَ فرسَخٍ في مئة: خمسةٌ وعشرون للجنِّ، وخمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للطير، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وكان له ألفُ بيتٍ من قواريرَ على الخشب، فيها ثلاثُ مئةِ منكوحةٍ وسبعُ مئة سُرِّيَّة[2]. ابن عطية: واختُلِفَ في مُعسكرِه ومقدارِ جُنْدِهِ اختلافاً شديداً، غيرَ أنَّ الصحيحَ أنَّ مُلْكَه كان عظيماً مِلأَ الأرض، وانقادت له المعمورةُ كلُّها. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناهُ: يُرَدُّ أوَّلُهم إلى آخرهم ويُكَفُّون. قال قتادة: كان لكلِّ صنفٍ وَزَعةٌ في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيِّ ومن الأرض إذا مَشَوا فيها[3]. يقال: وزِعْتُه أُوزِعُه وزَعاً أي: كفَفْتُه. والوازِعُ في الحرب: المُوكَلُ بالصفوف يزَعُ مَنْ تَقدَّمَ منهم[4]. روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: لمَّا وقفَ رسولُ الله ﷺ بذي طُوى ـ تعني يوم الفتح ـ قال أبو قُحافة ـ وقد كُفَّ بصرُه يومئذٍ ـ لابنتِه: اظْهَري بي على أبي قُبَيْس. قالت: فأشَرفْتُ به عليه، فقال: ما تَرَيْنَ؟ قالت: أرى سواداً مُجتمِعاً. قال: تلكَ الخَيلُ. قالت: وأرى رجلاً من السَّواد مُقبِلاً ومُدبِراً. قال: ذلِكَ الوازِعُ يمنعُها أن تنتشِرَ. وذكر تمام الخبر[5]. ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ما رُؤِيَ الشيطانُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٠، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٧٢، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤١٠ عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٩٩.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٧-١١٨. وأخرجه أحمد (٢٦٩٥٦).

يوماً هو فيه أصغَرَ ولا أدْحَرَ ولا أحقَرَ ولا أغْيَظَ منه في يوم عرفةَ، وما ذاكَ إلَّا لِما رأى من تَنزُّلِ الرحمةِ وتَجاوُزِ اللهِ عن الذنوبِ العِظامِ، إلَّا ما رأى يومَ بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «أما أنَّه رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة» خرَّجه الموطأ[(١)].

ومن هذا المعنى قولُ النَّابغة[(٢)]:

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا ... وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخر:

ولمَّا تلَاقَينا جَرَتْ من جُفونِنا ... دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأصابعِ[(٣)]

آخر:

ولا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجوجَ عن الهوى ... من النَّاسِ إلَّا وافِرُ العقلِ كامِلُهْ

وقيل: هو من التوزيع، بمعنى التفريق. والقوم أوزاع، أي: طوائف.

وفي القصة: إنَّ الشياطين نسجَتْ له بساطاً فرسخاً في فرسخٍ ذهباً في إبريسِمَ، وكان يُوضَعُ له كرسيٌّ من ذهبٍ وحولَه ثلاثةُ آلافِ كُرسيٍّ من ذهبٍ وفضَّةٍ، فيقعدُ الأنبياءُ على كراسيِّ الذَّهب، والعلماءُ على كراسيِّ الفِضَّة[(٤)].

الثانية: في الآية دليلٌ على اتِّخاذِ الإمامِ والحُكَّام وَزَعةً يكُفُّون الناسَ ويمنعونَهم من تطاولِ بعضِهم على بعض؛ إذ لا يُمكِنُ الحكام ذلك بأنفسهم.

وقال ابن عون: سمعتُ الحسنَ يقول وهو في مجلس قضائه لمَّا رأى ما يصنعُ الناسُ قال: واللهِ ما يُصلِحُ هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ[(٥)]. وقال الحسنُ أيضاً: لا بُدَّ

---

(١) ١/ ٤٢٢ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٩ .

(٢) وهو الذبياني، وقد سلف ٨/ ٣٠٨ .

(٣) قائله المعلوط السعدي كما في التمهيد ١/ ١١٧ . وذكر البيت الذي يليه من غير نسبة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦ .

(٥) التمهيد ١/ ١١٨ .

للناس من وازع، أي: من سلطانٍ يَكُفُّهم[١]. وذكرَ ابنُ القاسم قال: حدَّثنا مالكٌ أنَّ عثمانَ بن عفان كان يقول: ما يَزَعُ الإمامُ أكثرُ ممَّا يزعُ القرآن، أي: من الناس. قال ابن القاسم: قلتُ لمالك: ما يَزَعُ؟ قال: يَكُفُّ[٢]. قال القاضي أبو بكر ابن العربي[٣]: وقد جهِلَ قومٌ المُرادَ بهذا الكلام، فظنُّوا أنَّ المعنى فيه[٤] أنَّ قُدرة السلطانِ تردَعُ الناسَ أكثرَ ممَّا تردَعُهم حدودُ القرآن، وهذا جهلٌ باللهِ وحكمتِه. قال: فإنَّ اللهَ ما وضعَ الحدودَ إلَّا مصلحةً عامَّةً كافَّةً قائمةً لِقوامِ الخلق، لا زيادةَ عليها، ولا نقصانَ معها، ولا يصلُحُ سواها، ولكنَّ الظَّلَمةَ خاسوا بها، وقَصَّروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصِدوا وجهَ الله في القضاء بها، فلم يرتدِعِ الخلقُ بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامَتِ الأمور، وصلَحَ الجمهور.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه وادٍ بأرض الشام. وقال كعب: هو بالطائف. ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ قال الشَّعبي: كان للنملةِ جناحانِ فصارت من الطير؛ فلذلِكَ عَلِمَ منطِقَها، ولولا ذلك لَما عَلِمَه[٥]. وقد مضى هذا ويأتي. وقرأ سليمان التَّيمي بمكة: «نَمُلَةٌ» و«النَّمُلُ» بفتح النون وضمِّ الميم.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٨ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٨-١٤٣٩ .

(٤) كلمة «فيه» من (م) ومن أحكام القرآن.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٩٩ .

وعنه أيضاً ضَمُّهما جميعاً[(١)]. وسُمِّيتِ النَّملةُ نملةً لتنمُّلِها وهو كثرةُ حركتِها وقِلَّةِ قرارِها[(٢)]. قال كعب: مرَّ سليمانُ عليه السلام بوادي السَّدير من أوديةِ الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملةٌ تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس[(٣)]، [وكانت[(٤)]] مثلَ الذِّئب في العِظَم، فنادت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ الآية[(٥)]. الزمخشري: سمعَ سليمانُ كلامَها من ثلاثةِ أميال، وكانت تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس. وقيل: كان اسمُها طاخية[(٦)].وقال السُّهيلي[(٧)]: ذكروا اسمَ النَّملةِ المُكلِّمةِ لسليمانَ عليه السلام، وقالوا: اسمها حرميا، ولا أدري كيف يُتَصَوَّرُ للنملة اسمُ عَلمٍ، والنمل لا يُسمِّي بعضُهم بعضاً، ولا الآدميُّون يمكنهم تسمية واحدةٍ منهم باسم عَلَم؛ لأنَّه لا يتميَّز للآدميين بعضُهم من بعض، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإنَّ العلَميةَ فيما كان كذلك موجودةٌ عند العرب. فإن قلتَ: إنَّ العلمية موجودةٌ في الأجناس كثُعَالة وأُسَامة وجَعَارِ وقَثَامِ في الضَّبع ونحو هذا كثير، فليس اسمُ النملةِ من هذا؛ لأنَّهم زعموا أنه اسمُ عَلَمٍ لنملةٍ واحدةٍ معينةٍ من بين سائر النمل، وثُعالةُ ونحوُه لا يختَصُّ بواحدٍ من الجنس، بل كلُّ واحدٍ رأيتَه من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإنْ صَحَّ ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملةُ الناطقةُ قد سُمِّيتْ بهذا الاسم في التوراة أو

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣، وهما قراءتان شاذتان. والقراءة الأولى ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٨ عن طلحة بن مصرف والمعتمر بن سليمان، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن طلحة وأبي مجلز وأبي رجاء وعاصم الجحدري.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٠.

(٣) من الكَوْس: وهو المشي على رجلٍ واحدة، ومن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. اللسان (كوس).

(٤) كلمة «وكانت» من عرائس المجالس.

(٥) عرائس المجالس ص٢٩٨-٢٩٩.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤١. وهكذا وردت تسمية النملة في عرائس المجالس ص٢٩٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١١ عن الضحاك.

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٦-١٢٧.

في الزَّبور أو في بعض الصُّحُف سمَّاها اللهُ تعالى بهذا الاسم، وعرَفَها به الأنبياءُ قبل سليمانَ أو بعضُهم. وخُصَّتْ بالتسمية لنطقها وإيمانِها، فهذا وجه. ومعنى قولنا: بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتةُ مؤمن.أي: مِنْ عدل سليمانَ وفضلِه وفضلِ جنوده لا يحطمون نملةً فما فوقها إلا بألَّا يشعروا. وقد قيل: إن تبسُّمَ سليمانَ سرورٌ بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكَّدَ التبُّسمَ بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسُّمُ من غيرِ ضحكٍ ولا رضا، ألا تراهم يقولون: تبسَّمَ تبسُّمَ الغضبان، وتبسَّمَ تبسُّمَ المستهزئين. وتبسُّمُ الضحكِ إنَّما هو عن سرور، ولا يُسَرُّ نبيٌّ بأمر دنيا، وإنما سُرَّ بما كان من أمر الآخرة والدِّين. وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين والعدل والرأفة. ونظيرُ قولِ النَّملةِ في جندِ سليمانَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولُ اللهِ تعالى في جند محمدٍ ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥] التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هَدْرَ مؤمن. إلَّا أنَّ المُثني على جندِ سليمانَ هي النملة بإذن الله تعالى، والمُثني على جندِ محمدٍ ﷺ هو اللهُ عزَّ وجلَّ بنفسِه؛ لِما لجنودِ محمدٍ ﷺ من الفضل على جندِ غيرِه من الأنبياء، كما لمحمدٍ ﷺ فضلٌ على جميع النبيِّين صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقرأ شهر بن حَوْشب: «مَسْكَنَكُمْ» بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أُبيٍّ: «مَسَاكِنَكُنَّ لا يَحْطِمَنْكُمْ»(١). وقرأ سليمان التَّيمي: «مَسَاكِنَكُنَّ(٢) لَا يَحْطِمَنْكُنَّ» ذكره النَّحّاس(٣). أي: لا يكسِرُنَّكم بوَطْئِهم عليكم وهم لا يعلمون بكم(٤).

قال المهدوي: وأفهمَ اللهُ تعالى النملةَ هذا لتكون معجزةً لسليمان. وقال وهب:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وقراءة شهر في الشاذة ص١٠٨، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن أبي بن كعب وأبي المتوكل وعاصم الجحدري.

(٢) في النسخ: مساكنكم. والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٢١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٨.

أمر اللهُ تعالى الريحَ ألَّا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد. قاله الكلبيّ. وقال نَوْف الشامي وشَقيق بن سَلَمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم[(١)]. وقال بُرَيْدَة الأسلمي: كهيئة النعاج[(٢)]. قال محمد بن علي التِّرمذي: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قلت: وقوله «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ» يدلُّ على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت لهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: «ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» فجاءَ على خطاب الآدميِّين؛ لأنَّ النملَ هاهنا أُجْرِيَ مجرى الآدميِّين حين نطَقَ كما ينطِقُ الآدميُّون. قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ سليمانَ قال لها: لِمَ حذَّرتِ النَّملَ؟ أخِفْتِ ظلمي؟ أما علِمْتِ أني نبيٌّ عدل؟ فَلِمَ قلتِ: ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾؟ فقالتِ النَّملةُ: أما سمعتَ قولي: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أني لم أُرِدْ حَطْمَ النفوس، وإنَّما أردتُ حَطْمَ القلوبِ خشيةَ أن يتمنَّيْنَّ مثلَ ما أُعطيتَ، أو يُفتتَنَ بالدنيا، ويشتغِلَنَّ بالنظر إلى مُلكِكَ عن التسبيح والذِّكر. فقال لها سليمان: عِظيني. فقالتِ النَّملة: أما علمتَ لِمَ سُمِّي أبوكَ داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحةَ فؤاده؛ هل علمتَ لِمَ سُمِّيتَ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليمُ الناحية على ما أوتيتَه بسلامةِ صدرك، وحُقَّ[(٣)] لكَ أن تلحق بأبيك داود[(٤)]. ثم قالت: أتدري لِمَ سخَّرَ اللهُ

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٨ عن نوف.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ من غير نسبة.

(٣) في النسخ: وإن. والمثبت من عرائس المجالس.

(٤) كلمة داود من عرائس المجالس.

لكَ الريح؟ قال: لا. قالت: أخبركَ أنَّ الدُّنيا كلَّها ريح. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ مُتعجِّباً[١]. ثم مضت مُسرعةً إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيءٍ نُهديه إلى نبيِّ الله؟ قالوا: وما قَدْرُ ما نُهدي له؟ واللهِ ما عندنا إلَّا نَبقةٌ واحدة! قالت: حسنة، ايتوني بها. فأتَوها بها، فحملَتْها بفيها، فانطلقَتْ تجرُّها، فأمر اللهُ الرِّيحَ فحملَتْها، وأقبلت تشُقُّ الإنس والجِنَّ والعلماء والأنبياءُ على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعتْ تلك النَّبقةَ من فيها في كفِّه، وأنشأت تقول:

ألـم تَـرنـا نُـهـدِي إلـى الـلـهِ مَـالَـهُ ... وإن كـان عـنـه ذا غـنًـى فـهـو قـابِـلُـهْ
ولـو كـان يُـهـدَى لـلـجـلـيـلِ بـقَـدْرِهِ ... لَـقـصَّـرَ عـنه الـبـحـرُ يـوماً وسـاحِـلُـهْ
ولـكـنَّـنـا نُـهـدي إلـى مَـنْ نُـحـبُّـهُ ... فـيَـرضـى بـه عـنَّـا ويـشـكـرُ فـاعِـلُـهْ
ومـا ذاكَ إلا مـن كـريـمِ فِـعـالُـهُ ... وإلَّا فـمـا فـي مُـلْـكِـنـا ما يُـشـاكِـلُـهْ

فقال لها: باركَ اللهُ فيكم. فهم بتلك الدعوة أشكرُ خلْقِ الله وأكثرُ خلْقِ الله. وقال ابن عباس: نهى النبيُّ ﷺ عن قتلِ أربعٍ من الدواب: الهدهد، والصُّرَد، والنَّملة، والنحلة. خرَّجه أبو داود[٢]، وصحَّحه أبو محمد عبد الحق[٣]. ورُويَ من حديث أبي هريرة، وقد مضى في «الأعراف»[٤]. فالنملة أثنتْ على سليمانَ وأخبرت بأحسنَ ما تقدِرُ عليه بأنهم لا يشعرون إنْ حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمدٍ منهم، فنفَتْ عنهم الجور؛ ولذلك نهى عن قتلِها، و عن قتل الهدهد؛ لأنَّه كان دليلَ سليمانَ على الماء ورسولَه إلى بِلقيس. وقال عكرمة: إنما صرف اللهُ شرَّ سليمان عن الهدهد؛ لأنه كان بارًّا بوالديه.

والصُّرَد يقال له: الصوَّام. ورُويَ عن أبي هريرة قال: أوَّلُ من صامَ الصُّرَد، ولمَّا

(١) كلام الثعلبي من أوله إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٢٩٩، وما بعده لم نجده فيه.

(٢) في سننه (٥٢٦٧).

(٣) في الأحكام الوسطى ٢٤٩/٤، والأحكام الصغرى ٨٤٨/٢.

(٤) ٣١٣/٩.

خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السَّكِينةُ معه والصُّرد، فكان الصُّرد دليلَه على الموضع، والسَّكِينةُ مقدارَه، فلمَّا صار إلى البقعة وقعت السَّكِينةُ على موضع البيت ونادت وقالت: ابْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلِّي[(١)]. وقد تقدَّم في «الأعراف»[(٢)] سببُ النهيِ عن قتل الضفدع، وفي «النحل»[(٣)] النهيُ عن قتل النحل. والحمد لله.

الثانية: قرأ الحسن: «لا يَحَطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً: «لا يَحِطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً وعن أبي رجاء: «لا يُحَطِّمَنَّكُمْ»[(٤)] والحَطْمُ: الكسر[(٥)]. حطَمتُه حَطْماً أي: كسَرْتُه وتَحطَّم، والتَّحطيمُ: التكسير[(٦)].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يجوز أن يكون حالاً من سليمانَ وجنودِه، والعاملُ في الحال «يَحْطِمَنَّكُمْ». أو حالاً من النَّملة، والعامل «قَالَتْ»، أي: قالت ذلكَ في حال غفلةِ الجنود، كقولك: قمتُ والناسُ غافلون. أو حالاً من النمل أيضاً، والعامل «قَالَتْ» على أنَّ المعنى: والنَّملُ لا يشعرون أنَّ سليمانَ يفهَمُ مقالَتها. وفيه بُعْدٌ، وسيأتي.

الثالثة: روى مسلمٌ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «أنَّ نملةً قرصَتْ نبيًّا من الأنبياء فأمر بقريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى الله تعالى إليه: أفي أنْ قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّحُ؟![(٧)]» وفي طريقٍ آخر: «فهَلَّا نملةً واحدةً»[(٨)]. قال

(١) نوادر الأصول ص١٣٢ .

(٢) ٩/ ٣١٣ .

(٣) ١٢/ ٣٦٥ .

(٤) هذه القراءات الثلاث كلها شاذة، والأولى في المحتسب ٢/ ١٣٧ ، والشاذة ص١٠٨ . والثانية في المحتسب ٢/ ١٣٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ ، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٢ نسبتها إلى أبي المتوكل وأبي مجلز. والقراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٨ عن الحسن وحده، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ عن الحسن وأبي رجاء.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١١ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٢ .

(٦) الصحاح (حطم).

(٧) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٨). وأخرجه أحمد (٩٢٢٩)، والبخاري (٣٠١٩).

(٨) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٩) و(١٥٠). وأخرجه أحمد (٨١٣٠)، والبخاري (٣٣١٩).

علماؤنا: يقال: إنَّ هذا النبيَّ هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا ربِّ، تُعذِّبُ أهلَ قريةٍ بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنَّه أحبَّ أن يُريَهُ ذلك من عنده، فسلَّط عليه الحرَّ حتى التجأ إلى شجرةٍ مُسْتَرْوِحاً إلى ظِلِّها، وعندها قرية النمل، فغلبَه النوم، فلمَّا وجدَ لذَّةَ النَّومِ لدَغَتْه النَّملةُ فأضجَرتْه، فدلكهُنَّ بقدمِه فأهلكهُنَّ، وأحرق تلك الشجرةَ التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آيةً: لمَّا لدَغَتْكَ نملةٌ فكيفَ أصبتَ الباقين بعقوبتها؟! يريد أن يُنبِّهه أنَّ العقوبةَ من الله تعالى تعُمُّ فتصيرُ رحمةً على المطيع وطهارةً وبركةً، وشرًّا ونِقمةً على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدلُّ على كراهةٍ ولا حَظْرٍ في قتل النمل؛ فإنَّ مَنْ آذاك حَلَّ لك دفعه عن نفسك، ولا أحدَ مِنْ خَلْقِه أعظَمُ حرمةً من المؤمن، وقد أُبيحَ لك دَفْعُه عنكَ بقتلٍ وضربٍ على المقدار، فكيف بالهوامِّ والدوابِّ التي قد سُخِّرَتْ لكَ وسُلِّطتَ عليها، فإذا آذاك أُبيحَ لك قَتْلُه. ورُويَ عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتُلْه. وقولُه: «ألا نملةً واحدةً» دليلٌ على أنَّ الذي يُؤذي يُؤذَى ويُقتَلُ، وكلَّما كان القتلُ لنفعٍ أو دفعِ ضررٍ فلا بأس به عند العلماء. وأطلق له نملةً ولم يَخُصَّ تلكَ النملةَ التي لدغت من غيرِها؛ لأنَّه ليس المرادُ القصاصَ؛ لأنَّه لو أرادَه لَقالَ: ألا نملتَكَ التي لدغَتْكَ؟ ولكن قال: ألا نملةً مكانَ نملةٍ؟ فعَمَّ البريءَ والجاني بذلك؛ ليعلم أنَّه أرادَ أن يُنبِّهه لمسألته ربَّه في عذاب أهل قريةٍ وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إنَّ هذا النبيَّ كانت العقوبةُ للحيوانِ بالتحريقِ جائزةٌ في شرعه؛ فلذلك إنَّما عاتبَهُ اللهُ تعالى في إحراق الكثيرِ من النَّملِ لا في أصل الإحراق. ألا ترى قولَه: «فهلَّا نملةً واحدةً» أي: هلَّا حرقْتَ نملةً واحدة. وهذا بخلافِ شرعِنا، فإنَّ النبيَّ ﷺ قد نهى عن التعذيب بالنار، وقال: «لا يُعذِّبُ بالنَّارِ إلا الله»[1]. وكذلك أيضاً كان قتلُ النملِ مُباحاً في شريعة ذلك النبيِّ؛ فإنَّ اللهَ لم يُعْتِبْه على أصلِ قتلِ النَّمل. وأمَّا شرعُنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهيُ عن ذلك. وقد كرِهَ مالكٌ قتلَ النَّملِ إلَّا أن يضُرَّ ولا يقدِرَ على دفعِه إلَّا بالقتل. وقد

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، والبخاري (٣٠١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قيل: إنَّ هذا النبيَّ إنَّما عاتبَه اللهُ حيثُ انتقمَ لنفسِه بإهلاك جَمْعٍ آذاهُ واحدٌ [منه[١]]، وكان الأَوْلى الصبرُ والصَّفحُ، لكن وقع للنبيِّ أنَّ هذا النوعَ مُؤذٍ لبني آدم، وحرمةُ بني آدمَ أعظمُ من حُرمةِ غيرهِ من الحيوان غيرِ الناطق، فلو انفردَ له هذا النَّظرُ ولم ينضمَّ إليه التشفِّي الطبيعي[٢] لم يُعاتَب. والله أعلم. لكن لمَّا انضافَ إليه التشفِّي الذي دلَّ عليه سياقُ الحديثِ عُوتِبَ عليه.

الرابعة: قوله: «أفي أن قرصَتْك نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأممِ تُسبِّحُ» مقتضى هذا أنَّه تسبيحٌ بمقالٍ ونُطْقٍ، كما أخبر اللهُ عن النَّملِ أنَّ لها منطقاً، وفَهِمَه سليمانُ عليه السلام ـ وهذا معجزةٌ له ـ وتبسَّمَ من قولِها. وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ للنَّملِ نُطقاً وقولاً، لكن لا يسمَعُه كلُّ أحد، بل مَنْ شاء الله تعالى مِمَّن خرقَ له العادةَ من نبيٍّ أو وليٍّ. ولا يُنكَرُ[٣] هذا مِنْ حيثُ أنَّا لا نسمع ذلك؛ فإنَّه لا يلزَمُ مِنْ عَدَمِ الإدراكِ عَدَمُ المُدرَكِ في نفسه. ثم إنَّ الإنسانَ يجِدُ في نفسِه قولاً وكلاماً ولا يُسمَعُ منه إلَّا إذا نطَقَ بلسانِه. وقد خرقَ اللهُ العادةَ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ فأسمعَه كلامَ النَّفْسِ من قومٍ تحدَّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقلَ منه الكثيرَ أئِمَّتُنا[٤] في كتب معجزاتِ النبيِّ ﷺ، وكذلك قد[٥] وقع لكثيرٍ ممَّنْ أكرَمه اللهُ تعالى من الأولياء مثلُ ذلِكَ في غير ما قضية. وإيَّاه عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «إنَّ في أمتي مُحدَّثين وإنَّ عمرَ منهم»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في تسبيح[٧] الجمادِ في «سبحان»[٨] وأنَّه تسبيحُ لسانٍ ومقالٍ لا

(١) ما بين حاصرتين من المفهم.

(٢) في (م): الطبعي.

(٣) في (م): ننكر.

(٤) قبلها في (د) و(ز) و(م): من.

(٥) كلمة «قد» من (ظ) والمفهم.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٢٨٥)، ومسلم (٢٣٩٨) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. ومن قوله: وقد قيل: إن هذا النبي كانت العقوبة... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/٥٤٢ - ٥٤٣.

(٧) كلمة «تسبيح» من (م).

(٨) ١٣/٩٢.

تسبيح دلالةِ حال. والحمد لله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقرأ ابن السَّمَيفَع: «ضحكاً» بغير ألف[١]، وهو منصوبٌ على المصدر بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه تبسَّمَ، كأنَّه قال: ضَحِكَ ضحكاً، هذا مذهب سيبويه. وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس «تَبَسَّمَ»؛ لأنَّه في معنى ضحك. ومن قرأ: «ضَاحِكاً» فهو منصوبٌ على الحال من الضمير في «تَبَسَّمَ»[٢]. والمعنى: تبسَّم مقدارَ الضَّحِك؛ لأنَّ الضَّحِكَ يستغرِقُ التبسُّمَ، والتبسُّمُ دون الضَّحك، وهو أوَّله. يقال: بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِمُ بَسْمَاً فهو باسمٌ وابتسمَ وتبسَّم، والمَبْسِمُ: الثَّغْرُ، مثل المجلس من جلَسَ يجلِسُ، ورجلٌ مِبسامٌ وبسَّامٌ كثيرُ التبسُّمِ[٣]، فالتبسُّم ابتداءُ الضَّحِك، والضَّحِكُ عبارةٌ عن الابتداء والانتهاء، إلَّا أنَّ الضَّحِكَ يقتضي مزيداً على التبسُّم، فإذا زاد ولم يضبِطِ الإنسانُ نفسَه قيل: قَهْقَهَ.

والتبسُّم ضَحِكُ الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم[٤]. وفي الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له: أكنتَ تُجالِسُ النبيَّ ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقومُ من مُصلاَّه الذي يصلِّي فيه الصبحَ ـ أو الغداةَ ـ حتى تطلعَ الشَّمسُ، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدَّثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ[٥]. وفيه عن سعد قال: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين[٦]، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارمِ فِداكَ أبي وأمِّي» قال: فنزعتُ له بسهمٍ ليس فيه نَصْلٌ فأصبتُ جنبَه، فسقط فانكشفَتْ عورَتُه، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذِهِ[٧]. فكان عليه الصلاة والسلام في أكثر

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٩، وهي قراءة شاذة.

(٢) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) الصحاح (بسم) ببعضه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤.

(٥) صحيح مسلم (٦٧٠) و(٢٣٢٢). وأخرجه أحمد (٢٠٨٤٤).

(٦) أي: أثخن فيهم، وعمل فيهم ما تفعله النار. وقد يكون معناه: أغاظهم. إكمال المعلم ٧/ ٤٢٣.

(٧) صحيح مسلم (٢٤١٢).

أحواله يتبسم، وكان أيضاً يضحك في أحوالٍ أُخَرَ ضحِكاً أعلى من التبسُّم وأقلَّ من الاستغراق الذي تبدو فيه اللَّهوات، وكان في النادر عند إفراطِ تعجُّبِه رُبما ضحِكَ حتى بدَتْ نواجِذُه. وقد كرِهَ العلماءُ منه الكثرة، كما قال لقمان لابنه: يا بنيَّ، إياكَ وكثرةَ الضَّحكِ فإنَّه يُميتُ القلبَ. وقد رُويَ مرفوعاً من حديث أبي ذرٍّ وغيره[١]. وضَحِكُ النَّبيِّ ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه حين رمى سعدٌ[٢] الرجلَ فأصابه، إنما كان سروراً بإصابتِه لا بانكشافِ عورَتِه؛ فإنَّه المُنَزَّهُ عن ذلك ﷺ.

السادسة: لا اختلافَ عند العلماء أنَّ الحيواناتِ كلَّها لها أفهامٌ وعقول. وقد قال الشافعيُّ: الحمامُ أعقَلُ الطير[٣]. قال ابن عطية[٤]: والنَّملُ حيوانٌ فَطِنٌ قويٌّ شمَّامٌ جِدًّا، يدَّخِرُ ويتَّخِذُ القِرى، ويشقُّ الحبَّ بقطعتين لئلاً ينبُتَ، ويشقُّ الكُزْبُرَةَ بأربع قطع؛ لأنَّها تَنبتُ إذا قُسِمتْ شِقَّتين، ويأكل في عامه نصفَ ما جمع ويستبقي سائِرَه عُدَّة. قال ابن العربي[٥]: وهذه غوامض[٦] العلومِ عندنا، وقد أدركَتْها النَّملُ بِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ لها؛ قال الأستاذ أبو المظفَّر شاهنور الإسفراييني: ولا يَبعُدُ أن تُدرِكَ البهائمُ حدوثَ العالَمِ، وحدوثَ المخلوقات، ووحدانيةَ الإله، ولكنَّنا لا نفهَمُ عنها ولا تفهَمُ عنَّا، أمَّا أنَّا نطلبُها وهي تفِرُّ مِنَّا فبِحُكمِ الجنسية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فـ«أن» مصدرية. و«أَوزِعْني» أي: ألهِمْني ذلك. وأصلُه من وزَعَ، فكأنَّه قال: كُفَّني عما يُسخِط[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (م): سعداً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٣٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٧ .

(٦) في النسخ: خواص، والمثبت من أحكام القرآن.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٢-١١٣ بنحوه.

وقال محمد بن إسحاق: يزعُمُ أهلُ الكتاب أنَّ أمَّ سليمانَ هي امرأة أوريا التي امتحنَ اللهُ بها داود، أو أنَّه بعد موت زوجها تزوَّجها داودُ فولَدَتْ له سليمانَ عليه السلام. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة «صٓ»(١) إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: مع عبادك. عن ابن زيد(٢). وقيل: المعنى: في جملة عبادك الصالحين(٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيرهِ الذي كان فيه من النَّمل ما تقدَّم. والتفقُّدُ: تطلُّبُ ما غابَ عنكَ من شيء. والطير: اسمٌ جامعٌ، والواحد طائر، والمرادُ بالطَّيرِ هنا جِنسُ الطَّيرِ وجماعتُها. وكانت تصحبُه في سفره وتُظِلُّهُ بأجنحتها(٤). واختلفَ الناسُ في معنى تفقُّدِه للطَّير، فقالت فرقةٌ: ذلك

---

(١) عند تفسير الآية (٢١) منها.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٧٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

بحسبِ ما تقتضيه العنايةُ بأمور الملك، والتَّهمُّمِ بكل جزءٍ منها، وهذا ظاهر الآية. وقالت فرقةٌ: بل تفقَّدَ الطيرَ لأنَّ الشمسَ دخلتْ من موضع الهُدهُدِ حين غاب، فكان ذلك سببَ تفقُّدِ الطير؛ ليتبيَّنَ من أين دخلتِ الشمس. وقال عبد الله بن سَلَام: إنَّما طلبَ الهُدْهُدَ لأنه احتاجَ إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنَّه كان نزل في مفازةٍ عُدِمَ فيها الماء، وأنَّ الهُدهُدَ كان يرى باطِنَ الأرضِ وظاهِرَها؛ فكان يُخبرُ سليمانَ بموضع الماء، ثم كانتِ الجِنُّ تُخرِجُه في ساعةٍ يسيرة، تَسلَخُ عنه وجهَ الأرض كما تُسلَخُ الشاة. قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سَلَام[1]. قال أبو مِجْلَز: قال ابن عباس لعبد الله بن سَلَام: أُريدُ أنْ أسألَكَ عن ثلاثِ مسائل. قال: أتسألُني وأنتَ تقرأ القرآن؟ قال: نعم. ثلاث مرات. قال: لِمَ تَفَقَّدَ سليمانُ الهدهدَ دون سائرِ الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرِفْ عُمقَه ـ أو قال: مسافته ـ وكان الهدهدُ يعرِفُ ذلك دونَ سائرِ الطير فتفقَّدَه[2]. وقال في كتاب النَّقَّاش: كان الهُدهُد مهندساً. ورُويَ أنَّ نافع بن الأزرق سمعَ ابنَ عباسٍ يذكر شأنَ الهُدهُدِ فقال له: قِفْ يا وقَّاف، كيف يرى الهُدهُدُ باطِنَ الأرض وهو لا يرى الفَخَّ حين يقع؟! فقال له ابن عباس: إذا جاء القَدَر عَمِيَ البصر[3]. وقال مجاهد: قيل لابن عباس: كيف تفقَّدَ الهُدْهُدَ من الطير؟ فقال: نزل منزلاً ولم يَدْرِ ما بُعْدُ الماء، وكان الهُدهُدُ مهتدياً إليه، فأراد أن يسأله. قال مجاهد: فقلت: كيفَ يهتدي والصبيُّ يضَعُ له الحِبَالةَ فيصيدُه؟! فقال: إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البصر[4]. قال ابن العربي[5]: ولا يقدِرُ على هذا الجواب إلَّا عالمُ القرآن.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٢-١٢٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٦٦-٥٦٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥. وأثر ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٣٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١٣).

(٤) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١١).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٣.

قلت: هذا الجوابُ قد قاله الهُدْهُدُ لسليمانَ كما تقدَّم. وأنشدوا:

إذا أرادَ اللهُ أمراً بامرئٍ ... وكانَ ذا عقلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيلةٍ يعملُها في دَفْعِ ما ... يأتي بِهِ مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غَطَّى عليه سمعَهُ وعقلَهُ ... وسَلَّهُ من ذهنِه سلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أنفَذَ فيه حُكمَهُ ... ردَّ عليه عقلَهُ لِيعتبِرْ

قال الكلبي: لم يكن في مسيره إلَّا هُدْهدٌ واحد. والله أعلم.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على تفقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِهِ، والمحافظةِ عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سليمانَ حالُه، فكيف بعظام المُلْك. ويرحَمُ اللهُ عمرَ فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أنَّ سخلةً على شاطئ الفرات أخذَها الذئبُ لَيُسأَلُ عنها عمر[١]. فما ظنُّك بوالٍ تذهَبُ على يديه البلدان، وتضيع الرَّعيةُ ويضيع الرُّعيان[٢]. وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ خرجَ إلى الشام، حتى إذا كان بِسَرْغٍ[٣] لقيَه أمراءُ الأجناد: أبو عبيدة وأصحابُه، فأخبروه أنَّ الوباءَ قد وقع بالشام. الحديث[٤]. قال علماؤنا: كان هذا الخروجُ من عمر بعد ما فتحَ بيتَ المقدس سنة سبعَ عشْرَةَ على ما ذكره خليفة بن خياط، وكان يتفقَّدُ أحوالَ رعِيَّته وأحوالَ أمرائِه بنفسه[٥]. فقد دلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ وبيَّنا ما يجب على الإمام مِنْ تفقُّدِ أحوالِ رعِيَّته، ومباشرةِ ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال. ورحِمَ اللهُ ابنَ المبارك حيث يقول:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٣٧، والبيهقي في الشعب (٧٤١٥) عن الأوزاعي قال: بلغني أن عمر ابن الخطاب قال ... فذكره بنحوه. إسناده فيه انقطاع.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٢.

(٣) سَرْغ: قرية بوادي تبوك. وقيل: هي آخر عمل الحجاز الأول. وقيل: مدينة بالشام. إكمال المعلم ٦/ ١٣٦.

(٤) صحيح البخاري (٥٧٢٩)، وصحيح مسلم (٢٢١٩) (٩٨). وأخرجه أحمد (١٦٨٣).

(٥) المفهم ٥/ ٦١٥.

وهل أفسدَ الدينَ إلَّا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها[١]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي: ما لِلهُدهُدِ لا أراه، فهو من القَلْبِ الذي لا يُعرَفُ معناه، وهو كقولك: ما لي أراكَ كئيباً؟ أي: ما لَكَ؟ والهُدهدُ: طيرٌ معروف[٢]، وهَدْهَدَتُه صوتُه. قال ابن عطية[٣]: إنَّما مقصِدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ لكنَّه أخذَ اللازمَ عن مَغيبِه وهو أن لَّا يراه، فاستفهمَ على جهة التوقيفِ على اللَّازمِ، وهذا ضَرْبٌ من الإيجاز، والاستفهام الذي في قوله: ﴿مَا لِيَ﴾ نابَ مَنابَ الألفِ التي تحتاجُها أَمْ. وقيل: إنما قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ لأنَّه اعتبرَ حالَ نفسِه، إذْ عَلِمَ أنَّه أُوتيَ المُلكَ العظيم، وسُخِّرَ له الخلق، فقد لزِمَه حقُّ الشكر بإقامة الطاعة وإدامةِ العمل[٤]، فلما فقَدَ نِعمةَ الهُدْهُدِ توقَّعَ أن يكون قَصَّرَ في حقِّ الشكر، فلأجله سُلِبَها فجعل يتفقَّد نفسه، فقال: ﴿مَا لِيَ﴾. قال ابن العربي[٥]: وهذا يفعله شيوخُ الصوفية إذا فقدوا ما لهم[٦]، تفقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نُقصِّر في الفرائض؟!

وقرأ ابنُ كثير وابن مُحَيصِن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب: «مَا لِيَ» بفتح الياء، وكذلك في «يس» [الآية:٢٢]: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. وأسكنَها حمزة ويعقوب. وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التي في «يس»، وإسكان هذه[٧]. قال أبو عمرو: لأن هذه التي في «النمل» استفهام، والأخرى انتفاء. واختار أبو حاتم

---

(١) سلف ١٠/ ١٧٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٤) في (د) و(ز): للعدل، وفي (ظ) و(م): العدل. والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٢ .

(٦) في أحكام القرآن: آمالهم.

(٧) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص٦٨ ، والنشر ٢/ ١٧٤-١٧٥ .

وأبو عبيد الإسكان «فقالَ مَا ليْ». وقال أبو جعفر النَّحاس[١]: زعمَ قومٌ أنَّهم أرادوا أن يُفرِّقوا بين ما كان مبتدأً، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله، وهذا ليس بشيء، وإنَّما هي ياءُ النَّفْس، من العربِ من يفتَحُها ومنهم من يُسكِنُها، فقرؤوا باللغتين، واللغة الفصيحة في ياء النَّفْس أن تكون مفتوحةً؛ لأنَّها اسمٌ وهي على حرفٍ واحد، وكان الاختيار ألا تُسكنَ فيُجْحَفَ بالاسم[٢]. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ بمعنى: أَبَلْ[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الحدَّ على قَدْرِ الذَّنْبِ لا على قَدْرِ الجسد، أما إنه يُرفَقُ بالمحدود في الزمان والصفة[٤].

رُويَ عن ابن عباس ومجاهد وابن جُريج أنَّ تعذيبَه للطير كان بأن ينتِفَ ريشَه. قال ابن جُريج: ريشه أجمع. وقال يزيد بن رومان: جناحاه. فعلَ سليمان هذا بالهدهدِ إغلاظاً على العاصين، وعقاباً على إخلالهِ بنَوْبته ورتبته[٥]. وكأنَّ اللهَ أباحَ له ذلك، كما أباحَ ذبح البهائم والطير للأكلِ وغيرهِ من المنافع[٦]. والله أعلم. وفي «نوادر الأصول» قال: حدَّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال: حدَّثنا عون بن عُمارة، عن الحسين الجُعْفيِّ، عن الزُّبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال: إنَّما صرفَ اللهُ شرَّ سليمانَ عن الهدهدِ لأنَّه كان بارًّا بوالديه. وسيأتي.

وقيل: تعذيبُه أن يُجعَلَ مع أضدادهِ. وعن بعضهم: أَضيَقُ السجونِ معاشرةُ الأضداد. وقيل: لَأُلزِمَنَّه خِدمةَ أقرانِه. وقيل: إيداعُه القفص[٧]. وقيل: بأن يجعلَه

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢ .

(٢) في (م): الاسم.

(٣) في (د) و(م): بل.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٣٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٢٤) عن ابن عباس ﷺ. وقول يزيد بن رومان أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤ ، وابن أبي حاتم (١٦٢٢٩).

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٣ .

(٧) الكشاف ٣/ ١٤٣ ، وتفسير الرزاي ٢٤/ ١٨٩ ، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٤ القول الأخير عن الثعلبي.

للشمس بعد نتفِه[١]. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدِّبون بالهجرانِ الجسدَ بتفريقِ إلْفِه[٢].

وهو مؤكَّدٌ بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قُرِئَتْ: «لَأُعَذِّبَنْهُ عَذاباً شَديداً أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ» جاز[٣]. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجةٍ بيِّنة[٤]. وليست اللامُ في «لَيَأْتيَنِّي» لامَ القسم؛ لأنَّه لا يُقسِمُ سليمانُ على فعل الهدهد، ولكن لمَّا جاء في أثر قوله: «لَأُعَذِّبَنَّهُ» وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحدَه «لَيَأْتيَنَّني» بنونين[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي الهدهد[٦]. والجمهور من القُرَّاء على ضمِّ الكاف، وقرأ عاصم وحدَه بفتحها[٧]. ومعناه في القراءتين أقام[٨]. قال سيبويه: مَكَث يمكُث مُكُوثاً كما قالوا: قعد يقعد قعوداً. قال: ومَكُث مثل ظَرُف[٩]. قال غيره: والفتحُ أحسنُ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ [الكهف:٣] إذ هو من مَكَث؛ يقال: مَكَثَ يَمكُثُ فهو ماكثٌ، ومَكُثَ يمكُث مثل عَظُمَ يعظُمُ فهو مكِيثٌ؛ مثل عظيم. ومَكُث يَمكُثُ فهو ماكثٌ، مثل حَمُضَ يَحمُضُ فهو حامِض.

والضمير في «مَكَثَ» يَحْتَمِلُ أن يكون لسليمان[١٠]، والمعنى: بقي سليمانُ بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٤ عن عبد الله بن شداد.

(٢) ذكر هذا المعنى البغوي ٣/ ٤١٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٤٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤ .

(٥) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص١٦٧ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٢ .

(٧) السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٩) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣ .

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويل[١]. ويَحتَمِلُ أن يكون للهدهد[٢] وهو الأكثر. فجاء: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ وهي:

السادسة: أي: علمتُ ما لم تعلَمْه من الأمر[٣]، فكان في هذا ردٌّ على مَنْ قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغيب. وحكى الفرَّاء «أَحَطُّ» يُدغِمُ التَّاءَ في الطَّاء. وحكى «أَحَتُّ» بقلب الطاء تاءً وتُدغَمُ[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أعلَمَ سليمانَ ما لم يكُنْ يعلَمُه، ودفعَ عن نفسِه ما توعَّدَه من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور: «سبإٍ» بالصَّرف، وابن كثير وأبو عمرو: «سَبَأَ» بفتح الهمزة وتَرْكِ الصَّرف[٥]، فالأوَّلُ على أنَّه اسمُ رجلٍ نُسِبَ إليه قوم، وعليه قول الشاعر:

الـــواردونَ وتَـــيْـــمٌ فـــي ذُرَا سـبــإٍ   قد عَضَّ أعناقَهُمْ جِلْدُ الجواميسِ[٦]

وأنكر الزَّجَّاجُ أن يكونَ اسمَ رجلٍ، وقال: «سبأ»: اسمُ مدينةٍ تُعرَفُ بمأربٍ باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاثةِ أيام.

قلتُ: وقع في عيون المعاني للغزنوي: ثلاثة أميال. قتادة والسدي: بعثَ إليه اثنا عشر نبيًّا[٧]. وأنشدَ للنابغة الجَعْدي[٨]:

مِــن سَـبَــأَ الــحــاضِــريــنَ مَــأرِبَ إذْ   يَـبْـنُـونَ مِــن دونِ سَـيْـلِـهِ الـعَـرِمَـا

قال: فمن لم يصرِفْ قال: إنَّه اسمُ مدينة، ومن صَرَفَ وهو الأكثر فلأنَّه اسمُ

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ٢١٣ .
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٩ .
(٥) السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ ، والبيت قائله جرير، وسلف ١٢/ ٣٣٤ .
(٧) من قوله: وقع في... إلى هنا من (م).
(٨) في ديوانه ص١٣٤ ، ويُنسب البيت أيضاً إلى امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٩٠ .

البلد، فيكون مُذَكَّراً سُمِّي به مُذَكَّر[١]. وقيل: اسم امرأة سُمِّيتْ بها المدينة[٢]. والصحيح أنَّه اسمُ رجل[٣]، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فَرْوَةَ بنِ مُسَيْكٍ المرادي عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي إن شاء الله تعالى[٤]. قال ابن عطية: وخَفيَ هذا الحديث على الزَّجَّاجِ فخبطَ عشواء[٥]. وزعمَ الفرَّاءُ أنَّ الرُّؤاسيَّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال: ما أدري ما هو. قال النَّحَّاس: وتأوَّلَ الفرَّاءُ على أبي عمرو أنَّه منعَه من الصرف لأنَّه مجهول، وأنَّه إذا لم يعرفِ الشيء لم ينصرف. وقال النَّحَّاس: وأبو عمرو أجَلُّ من أن يقول مثلَ هذا، وليس في حكاية الرُّؤاسي عنه دليلٌ أنَّه إنَّما منعَه من الصَّرفِ لأنَّه لم يعرِفْه، وإنَّما قال: لا أعرِفُه، ولو سُئِلَ نَحْويٌّ عن اسمٍ فقال: لا أعرِفُه، لم يكن في هذا دليلٌ على أنه يمنعُه من الصرف، بلِ الحقُّ على غير هذا، والواجب إذا لم يعرِفْه أن يصرِفَه؛ لأنَّ أصلَ الأسماء الصَّرفُ، وإنَّما يُمنعُ الشيءُ من الصَّرفِ لِعلَّةٍ داخلةٍ عليه، فالأصل ثابتٌ بيقينٍ فلا يزولُ بما لا يُعرَفُ. وذكر كلاماً كثيراً عن النُّحاةِ وقال في آخره: والقولُ في «سبإ» ما جاء التوقيفُ فيه أنَّه في الأصلِ اسمُ رجل، فإن صرَفْتَه فلأنَّه قد صار اسماً للحيِّ، وإن لم تصرِفْه جعلْتَه اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلَّا أنَّ الاختيارَ عند سيبويه الصرفُ، وحُجَّته في ذلك قاطعةٌ؛ لأنَّ هذا الاسمَ لمَّا كان يقع له التَّذكيرُ والتأنيثُ كان التذكيرُ أولى؛ لأنَّه الأصلُ والأخَفُّ[٦].

الثامنة: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الصغيرَ يقول للكبيرِ والمتعلِّمَ للعالمِ: عندي ما ليسَ عندك، إذا تحقَّق ذلك وتيَقَّنه[٧]. هذا عمر بن الخطاب مع جلالتِه ـ ﷺ ـ وعلمِه

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٤) عند تفسير الآية (١٥) من سورة سبأ، والحديث في سنن الترمذي (٣٢٤٢).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣-٢٠٤ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٤ .

لم يكن عندَه علمٌ بالاستئذان. وكان عِلْمُ التيمم عند عمَّارٍ وغيره، وغابَ عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمَّم الجُنب. وكان حكم الإذنِ في أن تنفِرَ الحائضُ عند ابن عباس، ولم يعلَمْه عمرُ ولا زيدُ بن ثابت. وكان غَسْلُ رأسِ المُحرِمِ معلوماً عند ابن عباس وخَفيَ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة. ومثلُه كثيرٌ فلا يُطوَّلُ به.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ لمَّا قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قال سليمان: وما ذلِكَ الخبر؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل تملِكُ أهل سبأ[١]. ويُقال: كيفَ خَفِيَ على سليمان مكانَها وكانت المسافةُ بين مَحطِّهِ وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاثٍ بين صنعاء ومأرب؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوبَ مكان يوسف[٢]. ويُروى أنَّ أحدَ أبوَيها كان من الجنِّ[٣]. قال ابن العربي[٤]: وهذا أمرٌ تُنكِره المُلْحِدة، ويقولون: الجِنُّ لا يأكلون ولا يَلِدون، كذَبوا لعنهم الله أجمعين، ذلك صحيحٌ، ونكاحُهُم جائزٌ عقلاً، فإن صَحَّ نقلاً فَبِها ونِعْمَتْ.

قلتُ: خرَّج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنَّه قال: قَدِمَ وفدٌ من الجِنِّ على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، انْهَ أُمَّتكَ أن يستنجوا بعَظْمٍ أو رَوْثةٍ أو حُمَمَةٍ[٥]، فإنَّ الله تعالى جاعِلٌ لنا فيها رزقاً[٦]. «وفي صحيح مسلم»: فقال «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه يقع في أيديكم أوفَرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرةٍ علَفٌ

(١) المصدر السابق، والنكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٤٩) عن قتادة، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ أن أمها جنيَّة، واسمها فارعة، وأنها بنت أربعين مِلِكاً.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٤ .

(٥) في النسخ: جمجمة، والمثبت من سنن أبي داود. والحُمَمُ: الفحم وما أُحرِقَ من الخشب والعظام ونحوهما. معالم السنن ١/ ٢٧ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩).

لِدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستَنْجوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانكم الجن»[(١)] وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: فقلتُ: ما بالُ العَظْمِ والرَّوثةِ؟ فقال: «هما من طعام الجنِّ، وإنَّه أتاني وفدُ جِنِّ نَصِيبين ـ ونِعْمَ الجِنُّ ـ فسألوني الزَّادَ، فدعوتُ اللهَ تعالى ألَّا يمرُّوا بعظمٍ ولا رَوْثةٍ إلَّا وجدوا عليها طعاماً»[(٢)]. وهذا كلُّه نَصٌّ في أنهم يَطعمون، وأما نكاحهم فقد تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في «سبحان» عند قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الآية: ٦٤]. وروى وُهَيب بن جَرير بن حازم، عن الخليل بن أحمد، عن عثمان بن حاضر قال: كانت أمُّ بلقيس من الجِنِّ يُقال لها بلقمة[(٣)] بنت شيصان[(٤)]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

العاشرة: روى البخاريُّ من حديث أبي بَكْرة[(٥)] أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بلَغَه أنَّ أهلَ فارس قد ملَّكوا بنتَ كسرى قال: «لن يُفلِحَ قومٌ وَلَّوا أمرَهم امرأة»[(٦)] قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٧)]: هذا نصٌّ في أنَّ المرأةَ لا تكون خليفةً، ولا خِلافَ فيه، ونُقِلَ عن محمد بن جرير الطبري أنَّه يُجَوِّزُ أن تكون المرأةُ قاضيةً، ولم يصِحَّ ذلك عنه، ولعلَّه نُقِلَ عنه كما نُقِلَ عن أبي حنيفة أنها إنَّما تقضي فيما تشهدُ فيه وليس بأن تكون قاضيةً على الإطلاق، ولا بأن يُكتَبَ لها مسطورٌ[(٨)] بأنَّ فلانةَ مُقدَّمةٌ على الحُكم، وإنَّما سبيلُ ذلك التحكيمُ[(٩)] والاستنابةُ في القضية الواحدة، وهذا هو الظَّنُّ بأبي حنيفة

(١) صحيح مسلم (٤٥٠). وأخرجه أحمد (٤١٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦٠).

(٣) في (د): تلعمة، وفي (م): بلعمة. والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الدر المنثور.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٥ إلى الحكيم الترمذي وابن مردويه.

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس. والتصويب من صحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري (٤٤٢٥)، وسلف ٢/ ٤٢ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٥-١٤٤٦ .

(٨) في أحكام القرآن: منشور.

(٩) في (ظ) وأحكام القرآن: ذلك كسبيل التحكيم.

وابن جرير. وقد رُويَ عن عمر أنه قدَّم امرأةً على حِسبة السوق، ولم يصِحَّ فلا تلتفتوا إليه، فإنَّما هو من دسائس[١] المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظرَ في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليلُ على أنَّ المرأة يجوزُ أن تحكُمَ أنَّ الغرضَ من الأحكام تنفيذُ القاضي لها، وسماعُ البيِّنةِ عليها، والفصلُ بين الخصوم فيها، وذلك ممكنٌ من المرأة كإمكانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر، ونقضَ كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإنَّ الغرضَ منه حِفْظُ الثُّغور، وتدبيرُ الأمور، وحمايةُ البَيْضة، وقبضُ الخَراج وردُّه على مستحِقِّه، وذلك لا يتأتَّى من المرأة كتأتِّيه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلامُ الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإنَّ المرأةَ لا يتأتَّى منها أن تبرُزَ إلى المجلس، ولا تُخالِطَ الرجال، ولا تفاوضَهم مفاوضةَ النَّظير للنظير؛ لأنَّها إن كانت فتاةً حَرُمَ النَّظرُ إليها وكلامُها، وإن كانت بَرْزَةً[٢] لم يجمَعْها والرجالَ مجلسٌ واحدٌ تزدحِمُ فيه معهم، وتكون مناظرةً لهم، ولن يُفلِحَ قَطُّ مَنْ تصوَّرَ هذا ولا مِن اعتقدَه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، أي: ممَّا تحتاجُه المملكة[٣]. وقيل: المعنى: أُوتيت من كلِّ شيءٍ في زمانها شيئاً فُحذِفَ المفعول؛ لأنَّ الكلام دلَّ عليه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير[٤]، ووصفه بالعِظَمِ في الهيئة ورُتبةِ السلطان[٥]. قيل: كان من ذهبٍ تجلس عليه[٦]. وقيل: العرش هنا: المُلك[٧]، والأوَّل أصحُّ؛

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): وساوس. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) أي: إذا كانت كهلةً لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم. اللسان (برز).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن قتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) زاد المسير ٦/ ١٦٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن ابن بحر، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ عن أبي مسلم.

لقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾. الزمخشري: فإن قلتَ: كيفَ سوَّى الهُدهدُ بين عرشِ بِلْقيس وعرشِ الله في الوصف بالعظيم؟ قلتَ: بين الوصفين بَوْنٌ عظيم؛ لأنَّ وَصْفَ عرشِها بالعظيم تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جِنْسِها من الملوك، ووَصْفَ عرشِ الله بالعظيم تعظيمٌ له بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض[١]. قال ابن عباس: كان طولُ عرشِها ثمانينَ ذراعاً، وعرضُه أربعينَ ذراعاً، وارتفاعُه في السماء ثلاثينَ ذراعاً، مُكلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمر، والزَّبَرْجَدِ الأخضر[٢]. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستَّراً بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق[٣]. مقاتل: كان ثمانينَ ذراعاً، في ثمانينَ ذراعاً[٤]، وارتفاعُه من الأرض ثمانونَ ذراعاً، وهو مُكلَّلٌ بالجواهر[٥]. ابن إسحاق: وكان يخدِمُها النساء، وكان معها لخدمتها ستُّ مئة امرأة[٦]. قال ابن عطية[٧]: واللازمُ من الآية أنَّها امرأةٌ مُلِّكَتْ على مدائن اليمن، ذاتُ مُلكٍ عظيم، وسريرٍ عظيم، وكانت كافرةً من قومٍ كُفَّار.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: كانت هذه الأمَّةُ ممَّن يعبد الشمس؛ لأنَّهم كانوا زنادقةً فيما يُروى. وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. ورُويَ عن نافعٍ أنَّ الوقْفَ على «عرش»[٨]. قال المَهْدَوي: فعظيمٌ على هذا متعلِّقٌ بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون: عظيمٌ أن وَجْدتُها،

(١) هذا كلام الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٩٠ ، وأما كلام الزمخشري فهو في الكشاف ٣/ ١٤٤ بغير هذا السياق.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ .

(٤) قوله: «في ثمانين ذراعاً» من (م).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٨) المصدر السابق.

أي: عظيمٌ[١] وجودي إيَّاها كافرة. وقال ابن الأنباري[٢]: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقْفٌ حسن، ولا يجوز أن يقِفَ على «عرش» ويبتدئ «عَظِيمٌ وَجَدْتُها» إلَّا على من فتح؛ لأنَّ عظيماً نعتٌ للعرش[٣] فلو كان متعلِّقاً بوَجَدْتُها لقُلتَ: عظيمةٌ وجدتُها، وهذا مُحالٌ من كلِّ وجه. وقد حدَّثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شَهْرَيار، قال: حدَّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجليُّ، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى: عظيمٌ عبادَتُهم الشمسَ والقمر. قال: وقد سمعت مَنْ يُؤيِّدُ هذا المذهب، ويَحتَجُّ بأنَّ عرشَها أحقَرُ وأدَقُّ شأناً من أن يصِفَه الله بالعظيم. قال ابن الأنباري: والاختيارُ عندي ما ذكَرْتُه أوَّلاً؛ لأنَّه ليس على إضمارِ عبادةِ الشمسِ والقمرِ دليلٌ. وغيرُ مُنكَرٍ أن يصِفَ الهدهدُ عرشَها بالعظيم إذ رآه مُتناهي الطولِ والعرض؛ وجَرْيُه على إعراب «عرش» دليلٌ على أنَّه نَعْتُه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ما لهم فيه من الكفر. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق التوحيد. وبيَّن بهذا أنَّ ما ليسَ بسبيل التوحيد فليسَ بسبيلٍ ينتفع به على التحقيق. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» بتشديد «ألَّا»[٤]؛ قال ابن الأنباري[٥]: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ غيرُ تامٍّ لمن شدَّد «ألَّا»؛ لأنَّ المعنى: وزيَّنَ لهم الشيطانُ ألَّا يسجدوا. قال النَّحَّاس: هي «أن» دخلَتْ عليها «لا» و«أن» في موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ «زين» أي: وزيَّنَ لهم لئِلَّا يسجدوا لله. وقال الكسائي: بـ «فَصدَّهم» أي: فصَدَّهم ألَّا يسجدوا.

---

(١) كلمة «عظيم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٥-٨١٦ .

(٣) في (م): لعرش. والمثبت من باقي النسخ.

(٤) السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٨ .

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٦ .

وهو في الوجهين مفعولٌ له. وقال اليزيدي وعلي بن سليمان: «أن» بدل من «أعمالهم» في موضع نصب. وقال أبو عمرو: و«أن» في موضع خَفْضٍ على البدل من السبيل(١).

وقيل: العامل فيها «لا يَهْتَدُونَ» أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، أي: لا يعلمون أنَّ ذلك واجبٌ عليهم. وعلى هذا القول «لا» زائدة(٢)، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: ما منعكَ أنْ تسجُدَ. وعلى هذه القراءة فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء(٣).

وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما: «أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ»(٤) بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا؛ لأن «يا» ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهِمِ والصَّالحين على سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه: «يا» لغير اللعنة؛ لأنَّه لو كان للَّعنةِ لنَصَبَها؛ لأنَّه كان يصير مُنادًى مُضافاً، ولكن تقديره: يا هؤلاء، لعنةُ اللهِ والأقوامِ على سِمْعان(٥). وحكى بعضُهم سماعاً عن العرب: ألا يا ارحموا ألا يا اصدقُوا. يريدون: ألا يا قومُ ارحموا اصدُقوا، فعلى هذه القراءة «اسْجُدُوا» في موضع جزمٍ بالأمر، والوقف على «أَلَا يَا»،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ بنحوه دون قوله: «وهو في الوجهين مفعول له» وهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦. وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٩.

(٢) البيان ٢/ ٢٢١، والكشاف ٣/ ١٤٥.

(٣) هذا معنى قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٠.

(٤) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٨٠، والتيسير ص١٦٧. وذكر النحاس هذه القراءة في معاني القرآن ٥/ ١٢٦، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ عن الكسائي والزهري وابن عباس وأبي جعفر وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن وحميد الأعرج وطلحة. وزاد عليه ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٦: عن قتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبلة.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦، وتأويل مشكل القرآن ص١٧٢. وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٢١٩-٢٢٠.

ثم تبتدئ فتقول: «اسْجُدُوا»[١]. قال الكسائي [عن عيسى الهَمْداني قال:[٢]]: ما كنتُ أسمَعُ الأشياخ يقرؤونها إلَّا بالتخفيف على نيَّة الأمر. وفي قراءة عبد الله: «هلَّا[٣] تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» بالتاء والنون. وفي قراءة أبيٍّ: «أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» فهاتان القراءتان حُجَّةٌ لمن خَفَّف[٤]. الزَّجَّاج: وقراءةُ التخفيف تقتضي وجوبَ السجود دون التشديد[٥]. واختار أبو حاتم وأبو عبيد[٦] قراءة التَّشديد. وقال: التخفيف وجهٌ حسنٌ إلَّا أنَّ فيه انقطاعَ الخبر من أمر سبأ، ثم رجع بَعْدُ إلى ذِكْرِهم، والقراءةُ بالتشديد خبرٌ يتبعُ بعضُه بعضاً لا انقطاعَ في وسطه[٧]. ونحوه قال النحاس؛ قال: قراءةُ التَّخفيفِ بعيدة؛ لأنَّ الكلامَ يكون معترِضاً، وقراءةُ التشديدِ يكون الكلامُ بها مُتَّسقاً، وأيضاً فإنَّ السَّواد على غير هذه القراءة؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها أَلِفان، وإنَّما يُختصَرُ مثلُ هذا بحَذْفِ ألفٍ واحدةٍ نحو: يا عيسى بن مريم[٨]. ابن الأنباري: وسقطت أَلِفُ «اسجدوا» كما تسقطُ مع هؤلاءِ إذا ظهر، ولمَّا سقطت ألفُ «يا» واتَّصلت بها ألفُ «اسْجُدُوا» سقطت، فَعُدَّ سقوطُها دِلالةً على الاختصارِ وإيثاراً لِما يَخِفُّ وتَقِلُّ ألفاظُه. وقال الجوهري في آخر كتابه[٩]: قال بعضهم: إن «يا» في هذا الموضع إنَّما هو للتنبيهِ، كأنَّه قال: ألا اسجدوا للهِ، فلمَّا أَدخَلَ عليه «يا» للتنبيه سقطتِ الألفُ التي

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ بنحوه.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ، وأُثبتَ من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ .

(٣) في (ظ): «هل»، وفي (م): «ألا هل»، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ ، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٤ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٤) من قوله: قال الكسائي... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ . قلنا: وكلا القراءتين شاذَّتان لا حُجَّة فيهما.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٥ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أبو عبيدة.

(٧) نقله عنه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٣-١٧٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٧ .

(٩) الصحاح (يا).

في «اسْجُدُوا»؛ لأنَّها أَلِفُ وَصْلٍ، وذهبتِ الألفُ التي في «يا» لاجتماع الساكنين؛ لأنَّها والسين ساكنتان. قال ذو الرُّمَّة[١]:

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيٍّ على البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلًّا بَجَرْعَائِكِ القَطْرُ

وقال الجُرجانيُّ: هو كلامٌ معترِضٌ من الهُدهُدِ أو سليمانَ أو من الله[٢]. أي: لا لِيسجدوا، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قيل: إنه أمرٌ، أي: ليغفِروا. وتنتظم على هذا كتابةُ المصحف، أي: ليس هاهنا نداء.

قال ابن عطية[٣]: قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله: «العظيم» وهو قول ابن زيد وابن إسحاق، ويُعترَضُ بأنَّه غيرُ مخاطَبٍ فكيف يتكلم في معنى شرع؟! ويَحتمِلُ أن يكون من قول سليمان لمَّا أخبره الهدهد عن القوم. ويَحتمِلُ أن يكون من قول[٤] الله تعالى، فهو اعتراضٌ بين الكلامين، وهو الثابتُ مع التأمُّلِ، وقراءةُ التشديد في «أَلَّا» تُعطي أنَّ الكلامَ للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيفُ يقتضي الأمرَ بالسجودِ لله عزَّ وجلَّ للأمرِ على ما بيَّنَّاه. وقال الزَّمخشري[٥]: فإن قلتَ: أَسَجدةُ التلاوةِ واجبةٌ في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلتُ: هي واجبةٌ فيهما جميعاً؛ لأنَّ مواضِعَ السجدة إمَّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرٌ بالسجود والأخرى ذَمٌّ للتارك.

قلتُ: وقد أخبرَ اللهُ عن الكفَّار بأنهم لا يسجدون كما في «الانشقاق»، وسجدَ النبيُّ ﷺ فيها، كما ثبت في البخاريِّ وغيره[٦]، فكذلك «النمل». والله أعلم.

الزمخشري[٧]: وما ذكَرهُ الزَّجَّاجُ من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغيرُ

---

(١) في ديوانه ١/ ٥٥٩ .

(٢) وذكر هذا الكلام الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢١٥ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٤) كلمة «قول» من (م) والمحرر الوجيز.

(٥) في الكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٦) صحيح البخاري (٧٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧١٤٠)، ومسلم (٥٧٨).

(٧) في الكشاف ٣/ ١٤٥ .

مَرجوعٍ إليه.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ خَبْءُ السماء: قَطْرُها، وخَبْءُ الأرض: كنوزُها ونباتها. وقال قتادة: الخَبْءُ: السِّرُّ. النحَّاس: وهذا أولى. أي: ما غاب في السماوات والأرض، ويدلُّ عليه ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(١). وقرأ عكرمة ومالك بن دينار: «الخَبَ» بفتح الباء من غير همز(٢). قال المهدوي: وهو التخفيف القياسي، وذُكِرَ مَنْ يترُكُ الهمزَ في الوقف. وقال النَّحَّاس(٣): وحكى أبو حاتم أنَّ عكرمةَ قرأ: «الَّذي يُخْرِجُ الخَبَا» بألف غير مهموزة(٤)، وزعمَ أنَّ هذا لا يجوز في العربية، واعتلَّ بأنَّه إن خفَّفَ الهمزةَ ألقى حركتَها على الباء وحذفها(٥) فقال: «الْخَبَ في السَّماواتِ والأرْضِ» وأنَّه إنْ حوَّلَ الهمزةَ قال: الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النَّحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دونَ أصحابِه في النَّحْوِ ولم يلحَقْ بهم، إلَّا أنَّه إذا خرجَ من بلدِهِ لم يُلْقَ أعلمَ منه. وحكى سيبويه عن العرب أنها تُبدِلُ من الهمزة ألِفاً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مفتوحة، وتُبدِلُ منها واواً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مضمومة، وتُبدِلُ منها ياءً إذا كان قبلها ساكنٌ وكانت مكسورة، فتقول: هذا الْوَثْوُ(٦)، وعجبتُ من الوَثْيِ، ورأيتُ الْوَثا، وهذا من وَثِئَتْ يدُه، وكذلك هذا الْخَبْوُ، وعجبتُ من الْخَبْي، ورأيت الخَبَا؛ وإنَّما فُعِلَ هذا لأنَّ الهمزةَ خفيفةٌ، فأُبدِلَ منها هذه الحروف. وحكى سيبويه عن قومٍ من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الخبُؤُ، يضمُّون الساكنَ إذا كانت الهمزةُ مضمومةً،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧ .

(٢) الشاذة ص١٠٩ عن عيسى: وهو ابن عمر الهمداني، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ عن أبي بن كعب.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ ، وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٩ عن مالك بن دينار، وسترد قريباً من قراءة ابن مسعود.

(٥) كلمة «وحذفها» ليست في (م).

(٦) والوثءُ: الضرب حتى يَرْهَصَ الجلدُ اللحمُ ويصل الضربُ إلى العظم من غير أن ينكسر. اللسان (وثأ).

ويُثبِتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزةُ مكسورةً، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزةُ مفتوحةً. وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الهمزةُ مضمومةً، إلَّا أنَّ هذا عن بني تميم، فيقولون: الرِّدِيءُ، وزعمَ أنَّهم لم يضُمُّوا الدَّالَ لأنَّهم كرِهوا ضمةً ما قبلها كسرة؛ لأنَّه ليس في الكلام فِعُلٌ. وهذه كلُّها لغاتٌ داخلةٌ على اللغة التي قرأ بها الجماعة.

وفي قراءة عبد الله «الَّذي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّماواتِ» و «من» و «في» يتعاقبان؛ تقول العرب: لأستخرجنَّ العِلمَ فيكم يريدُ منكم. قاله الفرَّاء[١]. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قراءة العامة فيهما بياء الغائب[٢]، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيَةَ من كلام الهدهد[٣]، وأنَّ الله تعالى خصَّه من المعرفة بتوحيدِه ووجوبِ السجود له، وإنكارِ سجودهم للشمس، وإضافتِه للشيطان، وتزيينِه لهم، ما خَصَّ به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقولُ الراجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجَحْدرِيُّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائي: «تُخْفُونَ» و«تُعْلِنُونَ» بالتاء على الخطاب، وهذه القراءة[٤] تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ[٥].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قرأ ابن مُحَيصِن: «العظِيمُ» رفعاً[٦] نعتاً لله. الباقون: بالخفض نعتاً للعرش. وخُصَّ بالذِّكرِ لأنه أعظمُ المخلوقات، وما عداه في ضمنِه وقبضتِه[٧].

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ . وقراءة عبد الله بن مسعود في الشاذة ص١٠٩ ، وذكرها المصنف قريباً عن عكرمة.

(٢) كلمة «الغائب» من (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٤) قراءة حفص والكسائي في السبعة ص٤٨١ ، وفي التيسير ص١٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٦) الشاذة ص١٠٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٦ ونسبها أيضاً إلى الضحاك.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمُّلُ والتصفُّح[(١)]. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتِك[(٢)]. و«كنت» بمعنى أنت. وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يقل: سننظر في أمرك؛ لأنَّ الهدهدَ لمَّا صرَّحَ بفخر العلم في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ صرَّحَ له سليمان بقوله: ﴿سننظر أصدقت أم كذبت﴾ فكان ذلك كُفؤاً[(٣)] لما قالَه.

الخامسة عشرة: في قوله: «أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» دليلٌ على أنَّ الإمام يجب عليه أن يقبلَ عذرَ رعيَّته، ويدرأ العقوبةَ عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم[(٤)]؛ لأنَّ سليمان لم يُعاقبِ الهُدهدَ حين اعتذر إليه، وإنَّما صارَ صدقُ الهدهدِ عذراً؛ لأنَّه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حُبِّبَ إليه الجهاد. وفي الصحيح: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرُّسلَ[(٥)]». وقد قبِلَ عمرُ عذرَ النُّعمان بنَ عديٍّ ولم يُعاقِبْه[(٦)]. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلَّق به حكمٌ من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان؛ فإنه لمَّا قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ لم يستفِزَّه الطمع، ولا استجَرَّه حُبُّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فغاظَه حينئذٍ ما سمع، وطلبَ الانتهاءَ إلى ما أخبر، وتحصيلَ علمِ ما غابَ عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٧)]، ونحوٌ منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة، حين استشارَ عمرُ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٤.

(٣) في (م): كفاء. وفي بقية النسخ: حقاً. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧.

(٥) صحيح البخاري (٧٤١٦)، وصحيح مسلم (٤١٩٩) بنحوه من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. وهو في مسند أحمد (١٨١٦٨).

(٦) وقد سلفت قصته ١٦/ ٩٠ - ٩١.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٦.

الناسَ في إملاصِ المرأة ـ وهي التي يُضرَبُ بطنُها فتلقي جنينَها ـ فقال المغيرةُ بنُ شعبة: شهدتُ النبيَّ ﷺ قضى فيه بغرَّةٍ عبدٍ أو أمة. قال: فقال عمر: ايتني بمَنْ يشهدُ معك. قال: فشهِدَ له محمد بن مسلمة[1]. وفي روايةٍ فقال: لا تبرَحْ حتى تأتيَ بالمخرَجِ من ذلك. فخرجتُ فوجدتُ محمد بن مسلمة، فجئتُ به فشَهِدَ[2]. ونحوه حديثُ أبي موسى في الاستئذان[3]، وغيرُه.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزَّجَّاج: فيها خمسةُ أوجه: «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ» بإثبات الياء في اللفظ. وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالَّةً عليها «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم». وبضَمِّ الهاء وإثبات الواو على الأصل «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». وبحذف الواو وإثبات الضمَّة «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء «فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ». قال النَّحَّاس: وهذا عند النَّحْوِيِّين لا يجوزُ إلَّا على حيلةٍ بعيدةٍ تكون: يُقدَّر الوقف. وسمعتُ علي بن سليمان يقول: لا تلتفِتْ إلى هذه اللغة[4]، ولو جازَ أن يصِلَ وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذِفَ الإعرابَ من الأسماء[5]. وقال: «إليهِم» على لفظ الجمع، ولم يقُلْ: إليها؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ فكأنه قال: فألقِه إلى الذين هذا دينهم؛ اهتماماً منه بأمر الدِّين، واشتغالاً به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك[6].

---

(١) صحيح مسلم (١٦٨٣). وأخرجه أحمد (١٨٢١٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٣١٧).

(٣) سلف ١٥/ ١٩٠.

(٤) في (م): العلة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٠٨-٢٠٩، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١١٦. والقراءة الأولى والثانية والخامسة من القراءات السبعة المشهورة، فالقراءة الأولى قرأ بها ابن كثير والكسائي وابن عامر في رواية هشام عنه، ونافع في رواية ورش عنه. والقراءة الثانية قرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان عنه، ونافع في رواية قالون عنه. والقراءة الخامسة قرأ بها حمزة وعاصم وأبو عمرو. وأما القراءتان الثالثة والرابعة فهما شاذتان، وذكر ابن خالويه القراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٩ عن مسلم بن جندب.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٦.

ورُويَ في قصص هذه الآية أنَّ الهدهدَ وصل فألفى دون هذه الملكة حُجب جدران فعمدَ إلى كُوَّةٍ كانت بِلْقيسُ صنَعْتها لتدخل منها الشمسُ عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها، فدخَلَ منها ورمى الكتاب على بِلْقيسَ وهي ـ فيما يُروى ـ نائمة، فلمَّا انتبهَتْ وجَدَتْه فراعَها، وظنَّتْ أنَّه قد دخل عليها أحد، ثم قامَتْ فوجدَتْ حالها كما عهِدَتْ، فنظرَتْ إلى الكُوَّةِ تَهمُّماً بأمر الشمس، فرأَتِ الهدهدَ فعلِمَتْ[1]. وقال وهب وابن زيد: كانت لها كُوَّةٌ مستقبلةً مطلع الشمس، فإذا طلعت سجدت، فسدَّها الهدهدُ بجناحه، فارتفعتِ الشمسُ ولم تعلم، فلما استبطأَتِ الشمسَ قامتْ تنظرُ، فرمى الصحيفةَ إليها، فلما رأَتِ الخاتمَ ارتعدَتْ وخضعَتْ؛ لأنَّ مُلك سليمان عليه السلام كان في خاتمه، فقرأَتْه، فجمعتِ الملأَ من قومها فخاطَبتْهم بما يأتي بعد[2]. وقال مقاتل: حملَ الهدهدُ الكتابَ بمنقارِه، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولَها الجنود والعساكر، فرفرف ساعةً والناس ينظرون إليه، فرفعتِ المرأةُ رأسَها فألقى الكتاب في حجرها[3].

السابعة عشرة: في هذه الآية دليلٌ على إرسالِ الكتبِ إلى المشركين وتبليغِهم الدعوة، ودعائِهم إلى الإسلام. وقد كتبَ النبيُّ ﷺ إلى كسرى وقيصرَ وإلى كلِّ جبَّار كما تقدَّم في «آل عمران»[4].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمْرُه بالتولِّي حُسْنُ أدبٍ ليتنحَّى حسْبَ ما يتأدَّبُ به مع الملوك. بمعنى: وكُنْ قريباً حتى ترى مراجعتَهم. قاله وهب بن منبِّه. وقال ابن زيد: أمْرُه بالتولِّي بمعنى الرجوع إليه، أي: ألقِهِ وارجِعْ. قال: وقوله ﴿فَأَنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتِّساقُ رتبةِ الكلامِ

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٥٧ - ٢٥٨ عن وهب بن منبه.

(٢) تفسير البغوي ٣/٤١٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/٤٩٤ ، وزاد المسير ٦/١٦٧ - ١٦٨ .

(٤) ٥/١٦١ .

أظهر؛ أي: ألقِهِ ثم تولَّ، وفي خلالِ ذلك فانظر[١] أي: انتظر. وقيل: فاعلم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: اعلم ماذا يرجعون، أي: يُجيبون وماذا يردُّون من القول. وقيل: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يتراجعون بينهم من الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ في الكلام حَذْفٌ، والمعنى: فذهبَ فألقاه إليهم، فسمعها وهي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾[٢]. ثم وصفتِ الكتابَ بالكريم إمَّا لأنَّه من عند عظيمٍ في نفسِها ونفوسِهم، فعظَّمته إجلالاً لسليمان عليه السلام. وهذا قول ابن زيد. وإمَّا أنها أشارت إلى أنَّه مطبوعٌ عليه بالخاتم، فكرامةُ الكتابِ خَتْمُه، ورُوِيَ ذلك عن رسول الله ﷺ[٣]. وقيل: لأنَّه بدأ فيه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد قال ﷺ: «كلُّ كلامٍ لا يُبدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجْذَم»[٤]. وقيل: لأنَّه بدأَ فيه بنفسِه، ولا يفعلُ ذلكَ إلا الجُلَّة. وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك ابن مروان يبايعه: مِنْ عبد الله لعبد الملك بن مروان أميرِ المؤمنين، إنِّي أُقِرُّ لكَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٨ .

(٣) سيرد لفظه قريباً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ . والحديث أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (١) وغيرهم من طريق قرة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «بحمد الله»، وفي رواية أبي داود: «أجذم»، ورواية أحمد: «أبتر» أو «أقطع»، ورواية الباقين: «أقطع». وقرة بن عبد الرحمن ضعيف.

وأخرجه النسائي (٤٩٥) و(٤٩٦) و(٤٩٧) من طرق عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً، بلفظ: «بذكر الله». ورجَّح الدارقطني في سننه ١/ ٤٢٧ وفي العلل ٨/ ٣٠ هذه الرواية المرسلة على الموصولة. قلنا: ومراسيل الزهري غير معتبرة عند جمهور أهل العلم.

وللحديث طرق أخرى معلولة تنظر في مسند أحمد.

بالسمع والطاعة ما استطعتُ، وإن بَنيَّ قد أقرُّوا لكَ بذلك[١]. وقيل: توهَّمَتْ أنَّه كتابٌ جاء من السماء؛ إذ كان الموصِّل طيراً. وقيل: «كَرِيمٌ»: حسن، كقوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٨] أي: مجلسٍ حسن.وقيل: وصَفَتْه بذلك؛ لِما تضمَّنَ من لينِ القول والموعظةِ في الدعاء إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وحُسنِ الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سَبّاً ولا لَعْناً، ولا ما يُغيِّرُ النفس، ومن غير كلامٍ نازلٍ ولا مُستغْلَق؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ألا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]. وكلُّها وجوه حسان وهذا أحسَنُها.

وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحدٌ قبل سليمان[٢]. وفي قراءة عبد الله: «وَإِنَّهُ مِنْ سُليمان» بزيادة واو[٣].

الثانية: الوصف بالكريم في الكتب غاية الوصف؛ ألا ترى قولَه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وأهلُ الزَّمانِ يصفون الكتابَ بالخطير وبالأثير وبالمبرور؛ فإن كان لملِكٍ قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلةً، وهو أفضلُها خَصلةً. فأمَّا الوصْفُ بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤١-٤٢] فهذه عِزَّتُه وليست لأحدٍ إلا له، فاجتنبوها في كتبكم، واجعلوا بدلَها العالي؛ توفيةً لحَقِّ الولاية، وحياطةً للديانة. قاله القاضي أبو بكر بن العربي[٤].

الثالثة: كان رسمُ المتقدِّمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم: من فلانٍ إلى فلان،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٤٧ - ١٤٤٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٢٥٨ ، والكشاف ٣/١٤٦ ، وهي قراءة شاذة. ووقع في (د) و(ز) و(ظ): وفي قراءة أبي: «وإنه» بزيادة واو. والمثبت من (م).

(٤) في أحكام القرآن ٣/١٤٤٨ .

وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كانَ أحدٌ أعظمَ حُرمةً من النبيِّ ﷺ، وكان أصحابُه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم[١]. وقال ابن سيرين: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ فارس إذا كتبوا بدؤوا بعُظَمائهم فلا يبدأِ الرجلُ إلَّا بنفسِه»[٢]. قال أبو الليث في كتاب «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوبِ إليه جاز[٣]؛ لأنَّ الأمةَ قد اجتمعَتْ عليه وفعلوه لمصلحةٍ رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسنُ في زمانِنا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأنَّ البدايةَ بنفسِه تُعَدُّ منه استخفافاً بالمكتوب إليه، وتكبُّراً عليه، إلَّا أنْ يكتبَ إلى عبدٍ من عبيدِه، أو غُلامٍ من غِلْمانِه.

الرابعة: وإذا وردَ على إنسانٍ كتابٌ بالتحية أو نحوِها ينبغي أن يرُدَّ الجواب؛ لأنَّ الكتابَ من الغائبِ كالسلامِ من الحاضر. ورُويَ عن ابن عباسٍ أنَّه كان يرى رَدَّ الكتابِ واجباً كما يرى رَدَّ السلام. والله أعلم.

الخامسة: اتَّفقوا على كَتْبِ «بسم الله الرحمن الرحيم» في أوَّل الكتب والرسائل، وعلى ختْمِها؛ لأنَّه أبعَدُ من الرِّيبة، وعلى هذا جرى الرَّسمُ، وبه جاء الأثرُ عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: أيُّما كتابٍ لم يكن مختوماً فهو أغلَفُ. وفي الحديث: «كَرمُ الكتابِ خَتْمُه»[٤]. وقال بعض الأدباء هو ابن المُقَفَّع: مَنْ كتبَ إلى أخيه كتاباً فقدِ استخَفَّ به[٥]؛ لأنَّ الختمَ خَتْمٌ[٦]. وقال أنس: لمَّا أرادَ النبيُّ ﷺ أن

---

(١) وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٨) من حديث سلمان ﵁.

(٢) إسناده منقطع؛ محمد بن سيرين تابعي، وقد رواه عن النبي ﷺ دون ذكر الصحابي.

(٣) في (م): لجاز.

(٤) من بداية المسألة الثالثة إلى هذا الموضع من بستان العارفين ص٦٣ -٦٤ . والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٨٤) عن ابن عباس ﵁. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٩/٨: فيه محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٩) وفيه السدي، وفيه الكلبي وهو متروك أيضاً.

(٥) الكشاف ١٤٦/٣ .

(٦) في (م): ختم.

يكتُبَ إلى العجم فقيل له: إنَّهم لا يقبلون إلَّا كتاباً عليه ختم. فاصطنعَ خاتماً، ونقشَ على فَصِّه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنِّي أنظرُ إلى وَبِيصِه[١] وبياضِه في كَفِّه[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ «وَإِنَّهُ» بالكسر فيهما، أي: وإنَّ الكلام، أو: إن مُبتدأ الكلامِ «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجازَ الفرَّاءُ «أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ» بفَتحِهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدلٍ من الكتاب بمعنى: ألقى إليَّ أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصبٍ على حذف الخافض[٣]، أي: لأنَّه من سليمان ولأنَّه؛ كأنَّها علَّلتْ كَرمَه بكونه من سليمان وتصديرِه بسم الله. وقرأ الأشهب العُقَيليُّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «أَلَّا تَغْلُوا» بالغين المعجمة. ورُويَ عن وهب بن مُنبِّه[٤]؛ من غلا يغلو إذا تجاوزَ وتكبَّر[٥]. وهي راجعةٌ إلى معنى قراءة الجماعة ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقادين طائعين مؤمنين[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ الملأُ: أشرافُ

---

(١) الوبيص: البريق. اللسان (وبص).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٧٣٨)، والبخاري (٥٨٧٢)، ومسلم (٢٠٩٢). وفي الحديث أن النقش كان: محمد رسول الله.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ عن الأشهب العقيلي، والمحتسب ٢/ ١٣٩ ، والشاذة عن وهب بن منبه، وذكرا أنها قراءة ابن عباس.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١١٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٨ ، والكشاف ٣/ ١٤٦ .

القوم[١]. وقد مضى في سورة «البقرة»[٢] القولُ فيه. قال ابن عباس: كان معها ألفُ قَيْل. وقيل: اثنا عشرَ ألفِ قَيْل مع كل قَيْلٍ مئة ألف[٣]. والقَيْلُ: الملِكُ دون الملِكِ الأعظم[٤]. فأخذت في حُسنِ الأدبِ مع قومها، ومشاورتِهم في أمرها، وأعلَمتْهم أنَّ ذلك مُطَّرِدٌ عندها في كلِّ أمرٍ يَعرِضُ، بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فكيفَ في هذه النازلة الكبرى. فراجَعَها الملأُ بما يُقِرُّ عينَها، من إعلامهم إيَّاها بالقوَّة والبأس، ثم سلَّموا الأمرَ إلى نظَرِها؛ وهذه محاورةٌ حسنةٌ من الجميع[٥]. قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه كان لها ثلاثُ مئة وثلاثةَ عشَر رجلاً هم أهلُ مشورَتِها، كلُّ رجلٍ منهم على عشرة آلاف[٦].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صِحَّةِ المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ في «آل عمران» [الآية: ١٥٩] إمَّا استعانةً بالآراء، وإمَّا مُداراةً للأولياء. وقد مدحَ اللهُ تعالى الفُضَلاءَ بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٧] [الشورى: ٣٨]. والمشاورةُ من الأمر القديم وخاصَّةً في الحرب، فهذه بلقيس امرأةٌ جاهليةٌ كانت تعبد الشمس ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لتختبِرَ عَزْمَهم على مقاومة عدوِّهم، وحَزْمَهم فيما يُقيمُ أمرَهم، وإمضاءَهم على الطاعةِ لها، بعلمها بأنَّهم إن لم يبذُلوا أنفُسَهم وأموالَهم ودماءَهم دونها لم يكن لها طاقةٌ بمقاومة عدوِّها، وإن لم يجتمع أمرُهم وحزمُهم وجِدُّهم كان ذلك عوناً لعدوِّهم عليهم، وإن لم تختبِرْ

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٧٧، وزاد المسير ٦/ ١٦٨.

(٢) ٤/ ٢٢٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥١. والقول الثاني أخرجه الطبري ١٨/ ٥٠ - ٥١، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٢٠) عن مجاهد. قال الألوسي في روح المعاني ١٩/ ١٩٨: ولعمري إن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمَّنه الخبر.

(٤) الصحاح (قول).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٨.

ما عندهم، وتعلَمْ قَدْرَ عزمِهم لم تكن على بصيرةٍ من أمرِهم، وربما كان في استبدادِها برأيها وَهْنٌ في طاعتها، ودخيلةٌ في تقديرِ أمرِهم، وكان في مشاورتهم وأخْذِ رأيهم عونٌ على ما تريده من قوَّةِ شوكَتِهم، وشِدَّةِ مُدافعتِهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. قال ابن عباس: كان من قُوَّةِ أحدِهم أنه يَركُضُ فرسَه حتى إذا احتدَّ ضَمَّ فَخِذَيه فحبسه بِقُوَّته.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلَّموا الأمرَ إلى نظرِها ـ مع ما أظهروا لها من القوَّةِ والبأسِ والشِّدَّة ـ فلمَّا فعلوا ذلك أخبرَتْ عند ذلِكَ بفِعْلِ الملوكِ بالقُرى التي يتغلَّبون عليها. وفي هذا الكلام خَوفٌ على قومِها، وحيطةٌ لهم[١]، واستعظامٌ لأمر سليمان عليه السلام .﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادَتْه. وقال ابن عباس: هو من قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُعَرِّفاً لمحمدٍ ﷺ وأمَّتِه بذلِكَ ومُخبِراً به[٢]. وقال وهب: لمَّا قرأَتْ عليهم الكتابَ لم تعرفِ اسمَ الله، فقالت: ما هذا؟! فقال بعضُ القوم: ما نظُنُّ هذا إلَّا عفريتاً عظيماً من الجِنِّ يقتدِرُ به هذا الملِكُ على ما يُريده. فسكَّتوه. وقال آخر[٣]: أراهُمْ ثلاثةً من العفاريت. فسكَّتوه، فقال شابٌّ قد عَلِمَ: يا سيِّدةَ الملوك، إنَّ سليمانَ مَلِكٌ قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكاً عظيماً، فهو لا يتكلَّم بكلمةٍ إلَّا بدأ فيها بتسمية إلهه، واللهُ اسمُ مَليكِ السماء، والرَّحمنُ الرحيمُ نعوتُه. فعندها قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ فقالوا: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[٤] في الحربِ واللقاء ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ردُّوا أمرَهم إليها لمَّا جرَّبوا على رأيها من البركة ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ف ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أهانوا شُرفاءَها لتستقيمَ لهم الأمور،

---

(١) كلمة «لهم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٥٨.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الآخر.

(٤) قبلها في (م) كلمة: قوة.

فصدقَ اللهُ قولَها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وقال ابن الأنباري[١]: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا وقفٌ تامٌّ. فقال الله عزَّ وجلَّ تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وشبيهٌ به في سورة «الأعراف» [١٠٩-١١٠]: «قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ تمَّ الكلام، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. وقال ابن شجرة[٢]: هو قول بلقيس، فالوقف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وكذلك يفعل سليمانُ إذا دخلَ بلادَنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حُسنِ نظَرِها وتدبيرِها، أي: إنّي أُجرِّبُ هذا الرجل بهدية، وأُعطيه فيها نفائسَ الأموال[٣]، وأُغرِبُ عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دُنياويًّا أرضاه المالُ وعمِلْنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يُرضِهِ المالُ ولازَمَنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتَّبِعَه على دينه، فبعثَتْ إليه بهديةٍ عظيمةٍ أكثرَ الناسُ في تفصيلها[٤]، فقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: أرسلَتْ إليه بلَبِنةٍ من ذهب، فرأتِ الرسلُ الحيطان من ذهبٍ فصَغُر عندهم ما جاؤوا به[٥]. وقال مجاهد: أرسلَتْ إليه بمئتي غلامٍ ومئتي جارية[٦]. ورُوي عن ابن عباس: باثنتي عشرةَ وصيفةً مُذكَّرين قد ألبسَتْهُم زيَّ الغِلمان، واثني عشر غلاماً مُؤَنَّثين قد ألبسَتْهُم زيَّ النِّساء، وعلى يد الوصائف أطباقُ مِسْكٍ وعنبر، وباثنتي عشرةَ

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٧.

(٢) فيما نقل عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٦.

(٣) قبلها في (م): من.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠.

(٦) عرائس المجالس ص ٣١٧، والوسيط ٣/ ٣٧٧.

نَجيبةٍ تحمِلُ لَبِنَ الذَّهب، وبخرزتين إحداهما غيرُ مثقوبة، والأخرى مثقوبةٌ ثَقْباً مِعْوَجًّا، وبقدحٍ لا شيء فيه، وبعصًا كان يتوارثها ملوكُ حِمْيَر، وأنفذَتِ الهديةَ مع جماعةٍ من قومها. وقيل: كان الرسولُ واحداً، ولكن كان في صحبتِه أتباعٌ وخدم. وقيل: أرسلت رجُلاً من أشرافِ قومِها يُقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّتْ إليه رجالاً ذَوي رأيٍ وعقل، والهدية مئةُ وصيفٍ ومئةُ وصيفة، قد خُولِفَ بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلَّمَكم سليمانُ فكلِّموه بكلامٍ فيه تأنيثٌ يُشبِهُ كلامَ النساء، وقالت للجواري: كلِّمْنَه بكلامٍ فيه غِلَظٌ يشبه كلام الرجال، فيُقال: إنَّ الهُدهدَ جاء وأخبر سليمان بذلك كلِّه. وقيل: إنَّ اللهَ أخبرَ سليمانَ بذلك، فأمرَ سليمانُ عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بِلَبنات الذهب والفضة، ثم قال: أيُّ الدوابِّ رأيتُم أحسنُ في البرِّ والبحر؟ قالوا: يا نبيَّ الله، رأينا في بحرِ كذا دوابَّ مُنقَّطةً مختلفةً ألوانُها، لها أجنحةٌ وأعرافٌ ونواصي. فأمَرَ بها فجاءت فشُدَّت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبِنات الذهب والفضة، وألقَوا لها علوفاتها، ثم قال للجنِّ: عليَّ بأولادكم. فأقامهم ـ أحسنَ ما يكون من الشباب ـ عن يمين الميدان ويساره. ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيِّه في مجلسه، ووضعَ له أربعةَ آلاف كرسيٍّ من ذهبٍ عن يمينه ومثلَها عن يساره، وأجلَسَ عليها الأنبياءَ والعلماء، وأمرَ الشياطينَ والجِنَّ والإنسَ أن يَصطَفُّوا صفوفاً فراسِخَ، وأمرَ السِّباعَ والوحوشَ والهوامَّ والطيرَ فاصطَفُّوا فراسخَ عن يمينه وشماله، فلما دنا القومُ من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدوابَّ التي لم ترَ أعينُهم أحسنَ منها تَروثُ على لَبِناتِ الذهبِ والفضة، تقاصرت إليهم أنفسُهم، ورَموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات: إنَّ سليمانَ لما أمرهم بفرش الميدان بلَبِناتِ الذهبِ والفضة أمرَهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قَدْرِ موضعِ بساطٍ من الأرض غيرَ مفروش، فلمَّا مَرُّوا به خافوا أن يُتَّهموا، بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمَّا رأوا الشياطينَ رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزُوا لا بأسَ عليكم. فكانوا

يمرُّون على كُرْدُوسٍ كُرْدُوسٍ من الجِنِّ والإنسِ والبهائمِ والطيرِ والسِّباعِ والوحوشِ حتى وقفوا بين يدَي سليمان، فنظر إليهم سليمانُ نظراً حسناً بوجهٍ طَلْقٍ - وقد[١] كانت قالت لرسولها: إنْ نظرَ إليك نظَرَ مُغْضَبٍ فاعلَمْ أنَّه مَلِكٌ فلا يهولنَّك منظرُه فأنا أعَزُّ منه، وإنْ رأيتَ الرجلَ بَشّاً لطيفاً فاعلم أنه نبيٌّ مرسلٌ، فتفهَّمْ قولَه ورُدَّ الجواب - فأخبر الهدهدُ سليمانَ بذلك على ما تقدَّم. وكانت عمدت إلى حُقَّةٍ من ذهبٍ فجعلت فيها دُرَّةً يتيمةً غيرَ مثقوبة، وخرزةً مُعْوَجَّة الثَّقْبِ، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إنْ كنتَ نبيّاً فميِّزْ بين الوُصفاءِ والوصائف، وأخبِرْ بما في الحُقَّة، وعَرِّفني رأسَ العصا من أسفلها، وأثقُبِ الدُّرَّةَ ثَقْباً مستوياً، وأدخِلْ خيطَ الخرزة، واملأِ القدحَ ماءً من ندًى ليس من الأرض ولا من السماء، فلمَّا وصلَ الرسولُ ووقف بين يدَي سليمانَ أعطاهُ كتابَ الملِكة فنظر فيه، وقال: أين الحُقَّة؟ فأتى بها فحرَّكها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان، فقال له الرسول: صدقْتَ، فاثقُبِ الدُّرَّة، وأدخلِ الخيطَ في الخَرَزة. فسأل سليمانُ الجِنَّ والإنسَ عن ثَقْبها فعجزوا، فقال للشياطين: ما الرأيُ فيها؟ فقالوا: تُرسلُ إلى الأَرَضة، فجاءتِ الأَرضةُ فأخذت شعرةً في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تصيرُ رزقي في الشجرة. فقال لها: لكِ ذلك. ثم قال سليمان: مَنْ لهذه الخَرَزة يسلُكها الخيط؟ فقالت دودةٌ بيضاء: أنا لها يا نبيَّ الله. فأخذتِ الدودةُ الخيطَ في فيها ودخلتِ الثَّقْبَ حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: ذلكَ لكِ. ثم ميَّز بين الغلمان والجواري[٢]. قال السُّدِّيُّ: أمرَهم بالوضوء، فجعلَ الرجلُ يَحدُرُ الماءَ على اليدِ والرجل حَدْراً، وجعل الجواري يَصبُبْنَ من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميَّزَ بينهم بهذا. وقيل: كانتِ الجاريةُ تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمِلُه على الأخرى، ثم

---

(١) كلمة «قد» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) كلمة «والجواري» من (م) ومن المصادر.

تضرِبُ به على الوجه، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه، والجاريةُ تصُبُّ على بطن ساعدها، والغلامُ على ظهر الساعد، والجاريةُ تصُبُّ الماءَ صبًّا، والغلام يحدُرُ على يديه؛ فميَّزَ بينهم بهذا[١]. وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جُبير قال: أرسلت بلقيس بمئتي وصيفةٍ ووصيفٍ، وقالت: إنْ كان نبيًّا فسيعلم الذكورُ من الإناث.فأمرهم فتوضَّؤوا، فمَنْ توضَّأ منهم فبدأ بمِرْفَقِه قبل كفِّه قال: هو من الإناث، ومَنْ بدأ بكفِّه قبل مِرْفَقِه قال: هو من الذُّكور[٢]. ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أيُّ الرأسين سبقَ إلى الأرض فهو أصلُها، وأمر بالخيل فأُجْرِيتْ حتى عَرِقتْ ومُلِأَ القدحُ من عَرَقِها[٣]، ثم ردَّ سليمان الهدية[٤]، فرُوي أنَّه لمَّا صرف الهدية إليها وأخبرها رسولُها بما شهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية: كان النبيُّ ﷺ يقبل الهديةَ ويُثيب[٥] عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائرُ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنَّما جَعلَتْ بِلقيسُ قبولَ الهدية أو ردَّها علامةً على ما في نفسها، على ما ذكرناه من كونِ سليمانَ ملِكاً أو نبيًّا؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تُقبلُ فيه فدية، ولا يُؤخذُ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تَقرَّر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنَّما هي رِشوةٌ وبيعُ الحقِّ بالباطل، وهي الرِّشوة التي لا تحِلُّ. وأما الهديةُ المُطلَقةُ للتحبُّبِ والتواصل فإنَّها جائزةٌ من كلِّ أحدٍ وعلى كلِّ حال، وهذا ما لم يكن من مشرك.

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٨ - ٣١٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٧ - ٤١٩ .قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٠، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٢ .

(٤) عرائس المجالس ص٣١٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٩ .

(٥) في (م): ويثبت.

الثالثة: فإن كانت من مشركٍ ففي الحديث: «نُهيتُ عن زَبْدِ المشركين» يعني رِفدَهم وعطاياهم[١] . ورُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قبِلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيليِّ[٢]وغيره[٣]، فقال جماعةٌ من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخٌ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هديةَ من يطمع بالظهورِ عليه وأخْذِ بلده ودخولِه في الإسلام[٤]. وبهذه الصفة كانت حالةُ سليمان عليه السلام، فعَنْ مثل هذا نهى أن تُقبَلَ هديَّتُه حملاً على الكفِّ عنه، وهذا أحسنُ تأويلٍ للعلماء في هذا؛ فإنَّه جمعَ بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة: الهدية مندوبٌ إليها، وهي مما تُورِثُ المودةَ وتُذهِبُ العداوة؛ روى مالكٌ عن عطاء بن عبد الله الخُراساني قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصافحوا يَذهبِ الغِلُّ، وتَهادوا تحابُّوا وتذهَبِ الشَّحناء»[٥]. وروى معاوية بن الحكم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَهادوا فإنَّه يُضعِّفُ الوُدَّ، ويَذهَبُ بغوائلِ الصَّدر». وقال

(١) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٩ . والحديث بهذا اللفظ أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذي (١٥٧٧) من حديث عياض بن حمار ﷺ. وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٢) بلفظ: «إنا لا نقبل زبد المشركين».

(٢) موطأ مالك ٢/ ٤٥٩ عن ثور بن زيد الديلي، عن أبي الغيث سالم مولى ابن مطيع، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر... فأهدى رفاعة بن زيد لرسول الله صلى لله عليه وسلم غلاماً أسود يقال له: مِدْعَم... الحديث. وقد أخرجه بنحوه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم(١١٥). وينظر الاستذكار ١٤/ ٢٠١ .

(٣) أخرج أحمد (١٣١٤٨)، والبخاري (٢٦١٥ - ٢٦١٦)، ومسلم (٢٤٦٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، أن أكيدر دومة الجندل أهدى للنبي ﷺ جُبَّةً من سندس.

(٤) التمهيد ٢/ ١٢ ، والاستذكار ١٤/ ٢٠٢ .

(٥) الموطأ ٢/ ٩٠٨ .وإسناده مرسل، ولكن قوله: «تهادوا تحابُّوا» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨). وقوله: «وتذهب الشحناء» له شاهد من حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ أخرجه أحمد (٩٢٥٠)، والترمذي (٢١٣٠) بلفظ: «تهادوا فإن الهدية تذهب وغرَ ـ أو: وَحْرَ ـ الصدر».

الدَّارَقُطْنيُّ: تفرَّدَ به ابن بَحير[١] عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرَّضيِّ، ولا يصِحُّ عن مالكٍ ولا عن الزُّهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تَهادوا بينكم فإنَّ الهديةَ تُذهِبُ السَّخِيمة». قال ابن وَهْب: سألتُ يونس عن السَّخيمة ما هي؟ فقال: الغِلُّ. وهذا الحديثُ وصلَه الوقَّاصي عثمان عن الزُّهري وهو ضعيف.

وعلى الجملة: فقد ثبتَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأُسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السُّنَّةِ أنَّها تزيلُ حزازاتِ النفوس، وتُكسِبُ المُهدي والمُهدَى إليه رنَّةً[٢] في اللقاء والجلوس. ولقد أحسَنَ مَنْ قال:

هدايا الناسِ بعضِهمُ لبعضٍ ... تُوَلِّدُ في قلوبهمُ الوِصالا
وتزرعُ في الضمير هَوًى ووُدّاً ... وتُكسِبُهمْ إذا حضروا جَمالا[٣]

آخر:

إنَّ الهدايا لها حَظٌّ إذا وَرَدتْ ... أحظى من الابن عند الوالدِ الحَدِبِ[٤]

الخامسة: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «جُلساؤكم شُركاؤكم في الهدية» واختُلِفَ في معناه، فقيل: هو محمولٌ على ظاهره. وقيل: يُشاركهم على وجه الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يُجبَرُ عليه[٥]. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه في السرور لا في الهدية. والخبر محمولٌ في أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرِّباطات؛ أمَّا إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختصَّ بها فلا شركةَ فيها لأصحابه، فإنْ أشرَكَهم فذلك كرمٌ وجودٌ منه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: منتظرة[٦] ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال قتادة:

---

(١) في (م): بجير.

(٢) هكذا في النسخ، ولم يتضح لنا معناها، ولعلها: رغبة.

(٣) قائلهما دعبل الخزاعي، وهما في ديوانه ص١٢٠ .

(٤) المسألة كلها في التمهيد ٢١/ ١٧ - ١٩ سوى قوله: ومن فضل الهدية.... في اللقاء والجلوس.

(٥) من بداية المسألة إلى هنا من التمهيد ٢١/ ١٢٤ ، وقال ابن عبد البر عن الحديث: إسناده فيه لين.

(٦) معجم البيان ١٩/ ٢٢٠ .

يَرحمُها الله أن كانت لَعاقلةً في إسلامها وشركها؛ قد علمت أنَّ الهديةَ تقع مَوقعاً من الناس[١]. وسقطتِ الألفُ في «بِم» للفرق بين «ما» الخبرية. وقد يجوز إثباتُها[٢]؛ قال:

علـى مـا قـامَ يـشـتـمـنـي لـئـيـمٌ كـخـنـزيـرٍ تـمـرَّغ فـي رَمـادِ[٣]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ أي: جاء الرسولُ سليمانَ بالهدية[٤]. قال: «أتُمِدُّونَني بِمالٍ». قرأ حمزة ويعقوب والأعمش: بنونٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ وياءٍ ثابتةٍ بعدها[٥]. الباقون بنونين، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لأنَّها في كلِّ المصاحف بنونين[٦]. وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ: «أتُمِدُّونِ» بنونٍ واحدةٍ مُخفَّفةٍ بعدها ياءٌ في اللفظ[٧]. قال ابن الأنباري: فهذه القراءة يجب فيها إثباتُ الياء عند

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٠٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠ - ٢١١ . ومذهب جواز إثباتها مذهب الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٢ .

(٣) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص١٩٩ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٣ .

(٥) قراءة حمزة في السبعة ص٤٨٢ ، والتيسير ص١٧٠ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠ .

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٦٧ .

(٧) الشاذة ص١٠٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٢ .

الوقف؛ ليصِحَّ لها موافقةُ هجاء المصحف. والأصل في النون التشديد، فُخفِّفَ التشديدُ من ذا الموضع كما خُفِّفَ من: أشهدُ أنْكَ عالِمٌ، وأصله: أنَّكَ عالم. وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ: «يُشَاقُّونِ فِيهِم»[١]، «أَتُحَاجُّونِ فِي اللهِ»[٢]. وقد قالتِ العرب: الرجالُ يضربونِ ويقصدونِ، وأصله: يضربونَّي ويقصدونَّي؛ لأنَّه إدغامُ يضربونني ويقصدونني؛ قال الشاعر:

تَرْهبينِ والجِيدُ مِنكِ لِلَيْلَى والحَشَا والبُغَامُ[٣] والعينانِ

والأصلُ ترهبينني فخُفِّفَ. ومعنى «أَتُمِدُّونَنِي»: أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوَّة خيرٌ مما أعطاكم، فلا أفرَحُ بالمال[٤]. و«آتانِ» وقعت في كلِّ المصاحف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص: «آتانِيَ اللهُ» بياءٍ مفتوحة، فإذا وقفوا حذفوا. وأما يعقوب فإنه يُثبِتُها في الوقف ويحذِفُ في الوصل لالتقاء الساكنين. الباقون بغير ياء في الحالين[٥]. ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهلُ مفاخرةٍ ومُكاثرةٍ في الدنيا[٦].

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ارجع إليهم بهديتهم[٧]. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لامُ قسَمٍ، والنونُ لها لازمة. قال النَّحَّاس[٨]: وسمعتُ أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لامُ توكيد، وكذا كان عنده أنَّ

---

(١) سلف ١٢/ ٣١٥.

(٢) سلف ٨/ ٤٤٣.

(٣) هو صوت الناقة. اللسان (بغم).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩.

(٥) السبعة ص٤٨٢، والتيسير ص١٧٠ وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩.

(٧) المصدر السابق.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢١١.

اللاماتِ كلَّها ثلاثٌ لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض، وهذا قول الحُذَّاقِ من النَّحْويِّين؛ لأنهم يردُّون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيَّأ إلا لمن درب في العربية. ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم عليها. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وقيل: «مِنْهَا» أي: من قرية سبأ[١].

وقد سبق ذكر القرية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. ﴿أَذِلَّةً﴾ قد سُلِبوا مُلكَهم وعِزَّهم. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهانون أذلَّاءُ ـ من الصَّغَرِ: وهو الذلُّ ـ إن لم يُسلِموا، فرجعَ إليها رسولُها فأخبرها، فقالت: قد عرفتُ أنَّه ليس بملِكٍ ولا طاقةَ لنا بقتال نبيٍّ من أنبياء الله. ثم أمرَتْ بعرشِها فُجِعلَ في سبعة أبياتٍ بعضُها في جوف بعض، في آخر قصرٍ من سبعة قصور، وغلَّقتِ الأبواب، وجعلتِ الحرسَ عليه، وتوجَّهت إليه في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت كل قَيْلٍ مئة ألف. قال ابن عباس: وكان سليمانُ مَهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فنظر ذات يومٍ رَهَجاً[٢] قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بِلقيسُ يا نبيَّ الله[٣]. فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره: للجِنِّ ـ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الله بن شداد: كانت بِلقيسُ على فرسَخٍ من سليمان لمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾[٤] وكانت خلَّفَتْ عرشَها بسبأ، ووكَّلت به حَفَظة. وقيل: إنَّها لمَّا بعثت بالهدية بعثت رسُلَها في جندها لِتُغافِصَ[٥] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهَّبَ سليمانُ لها إن كان طالِبَ مُلْكٍ، فلمَّا علم ذلك قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾. قال ابن عباس: كان أمرُه بالإتيان بالعرش قبل أن يكتُبَ الكتابَ إليها، ولم يكتُبْ إليها حتى جاءه العرش.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٢) الرهج: الغبار. اللسان (رهج).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ بنحوه.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٤٧٠.

(٥) أي: أخذه على غرة. اللسان (غفص).

وقال ابن عطية: وظاهر الآيات أنَّ هذه المقالةَ من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديَّتها وردِّه إيَّاها، وبَعْثِه الهدهدَ بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأوِّلين. واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها، فقال قتادة: ذُكِرَ له بعِظَمٍ وجَوْدة، فأراد أخْذَه قبل أن يعصِمَها وقومَها الإسلامُ ويحميَ أموالَهم؛ والإسلامُ على هذا: الدِّين. وهو قول ابن جُريج. وقال ابن زيد: استدعاه ليُرِيَها القدرةَ التي هي من عند الله، ويجعلَه دليلاً على نبوَّتِه؛ لأخذه من بيوتها[1] دون جيشٍ ولا حرب، و«مسلِمِينَ» على هذا التأويل بمعنى مستسلمين. وهو قول ابن عباس[2]. وقال ابن زيد أيضاً: أراد أن يختبر عقلَها؛ ولهذا قال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾[3]. وقيل: خافتِ الجِنُّ أن يتزوَّجَ بها سليمانُ عليه السلام فيولَدُ له منها ولد[4]، فلا يزالون في السُّخرة والخِدمة لنسلِ سليمان، فقالت لسليمان: في عقلِها خلل. فأراد أن يمتحِنَها بعرشها[5]. وقيل: أراد أن يختبر صِدْقَ الهدهدِ في قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. قاله الطبري[6]. وعن قتادة: أحبَّ أن يراه لمَّا وصفَه الهدهد. والقول الأوَّلُ عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، ولأنَّها لو أسلمت لحظَرَ عليه مالُها فلا يُؤتى به إلَّا بإذنها[7]. رُوِيَ أنه كان من فضةٍ وذهبٍ مُرصَّعاً بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أبياتٍ عليه سبعة أغلاق[8].

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو رجاء وعيسى

(١) في (ظ): ثقافها.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .
(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ .
(٤) كلمة «ولد» من (م).
(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ .
(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ - ٦٤ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

الثقفي: «عِفْرِيَةٌ» ورُويَتْ عن أبي بكر الصديق ﷺ[١]. وفي الحديث: «إنَّ الله يُبغِضُ العِفرِيَةَ النِّفرِية»[٢]. النِّفرية إتباعٌ لعفرية[٣]. قال قتادة: هي الداهية. قال النَّحَّاس: يُقال للشديد إذا كان معه خُبْثٌ ودهاءٌ: عِفْرٌ وعِفْرِيَةٌ وعِفرِيتٌ وعُفَارِيَةٌ. وقيل: «عفريت» أي: رئيس[٤]. وقرأت فِرقة: «قال عِفْرٌ» بكسر العين. حكاه ابن عطية[٥]؛ قال النَّحَّاس: من قال: عِفْرِيةٌ جمَعَه على عِفارٍ، ومن قال: عِفريتٌ كان له في الجمع ثلاثةُ أوجه؛ إن شاء قال: عفاريت، وإن شاء قال: عَفار؛ لأنَّ التَّاءَ زائدة، كما يُقال: طواغٍ في جمع طاغوت، وإن شاء عوَّضَ من التاء ياءً فقال: عَفارِي[٦]. والعفريت من الشياطين: القويُّ المارد، والتاء زائدة. وقد قالوا: تَعَفْرَتَ الرجلُ. إذا تخلَّقَ بخُلُقِ الأذاية[٧]. وقال وهب بن منبّه: اسم هذا العفريت كودن. ذكره النحّاس[٨]. وقيل: ذكوان. ذكره السُّهيلي[٩]. وقال شعيب الجُبَّائي: اسمه دعوان[١٠]. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه صخر الجِنِّي. ومن هذا الاسم قولُ ذي الرُّمَّة:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهذه القراءة في المحتسب عن أبي رجاء وعيسى الثقفي، وفي الشاذة ص١٠٩ عن أبي رجاء وأبي السمال.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الأمثال (١٣٨) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، مرفوعاً.

وأخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٩٩١٠) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٨) في معاني القرآن ٥/ ١٣٣ .

(٩) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(١٠) أخرج الطبري ١٨/ ٦٦ - ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٦٧) عن شعيب الجبائي أن اسم العفريت: كوزن.

كـأنَّـه كـوكـبٌ فـي إثْـرِ عِـفـرِيَـةٍ مُصَوَّبٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ[(١)]

وأنشد الكسائيُّ:

إذ قـالَ شـيـطـانُـهُـمُ الـعِـفْـريـتُ لـيـسَ لـكـمْ مُـلـكٌ ولا تـثـبِـيـتُ[(٢)]

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِفريتاً من الجِنِّ جعل يَفْتِكُ[(٣)] عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ الصلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكنني منه فَذَعَتُّه»[(٤)] وذكر الحديث، وفي البخاري: «تفلَّت عليَّ البارحةَ» مكان «جعَل يَفْتِكُ»[(٥)]. وفي «الموطأ» عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسرِيَ برسول الله ﷺ، فرأى عِفريتاً من الجِنِّ يطلبه بشعلةٍ من نار، كُلَّما التفتَ رسولُ الله ﷺ رآه، فقال جبريل: أفلا أُعلِّمكَ كلماتٍ تقولُهنَّ إذا قُلتَهنَّ طُفِئتْ شُعلَتُه وخَرَّ لِفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال: أعوذُ باللهِ الكريمِ وبكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ من شرِّ ما ينزل من السماء، وشرِّ ما يَعرُجُ فيها، وشرِّ ما ذرأ في الأرض، وشرِّ ما يخرجُ منها، ومن فتَنِ الليل والنهار، ومن طوارقِ الليلِ والنهارِ، إلَّا طارقاً يَطرُقُ بخيرٍ يا رحمن[(٦)].

قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: في مجلسه الذي يحكم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ١١١ ، وفيه «مسوَّم» بدل «مصوَّب». قال شارحه: «مسوم» يريد: الكوكبُ مُعلَّم، ويكون بمعنى: مُخلَّى عنه و«منقضب»: مُنقضٌّ.

(٢) قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص٢٦ .

(٣) من الفتك، وأصله: القتل على غفلةٍ وغرَّة. إكمال المعلم ٢/ ١٥٠ .

(٤) أي: خنقتُه، والذَّعتُ والدَّعتُ بالذال والدال: الدفع العنيف، والذعتُ أيضاً: المعك في التراب. النهاية (ذعتَ).

(٥) صحيح البخاري (١٢١٠)، وصحيح مسلم (٥٤١). وهو في مسند أحمد (٧٩٦٩). بلفظ البخاري.

(٦) الموطأ ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١ . وإسناده معضل. وقد رُوي موصولاً فيما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٣) عن أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن الأوزاعي، عن إبراهيم بن طريف، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً. قلنا: أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة له مناكير فيما قاله الذهبي في الميزان ١/ ١٥١ .

وللحديث شاهد ضعيف أخرجه أحمد (١٥٤٦٠) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ﷺ.

فيه[١]. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ أي: قويٌّ على حمله، أمينٌ على ما فيه[٢]. ابن عباس: أمينٌ على فرج المرأة. ذكره المَهدوي[٣]. فقال سليمان: أُريدُ أسرعَ من ذلك. ف ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أكثرُ المفسِّرين على أنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب آصف بن بَرْخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صِدِّيقاً يحفظُ اسمَ الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أَعْطى، وإذا دُعيَ به أجاب[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «إنَّ اسمَ اللهِ الأعظَمَ الذي دعا به آصف بن بَرْخيا: يا حيُّ يا قيُّوم»[٥] قيل: وهو بلسانهم: أهيا شراهيا. وقال الزُّهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ إلهاً واحداً لا إله إلا أنتَ، ايتني بعرشها. فمثُلَ بين يديه. وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كلِّ شيء، يا ذا الجلال والإكرام[٦]. قال السُّهَيليُّ[٧]: الذي عنده علمٌ من الكتاب هو آصف بن بَرْخيا ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى. وقيل: هو سليمانُ نفسُه. ولا يصِحُّ في سياق الكلام مثلُ هذا التأويل. قال ابن عطية[٨]: وقالت فرقة: هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لمَّا قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ كأنَّ سليمانَ استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ واستَدَلَّ قائلو هذه المقالة بقول سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ عن مجاهد وقتادة وابن منبِّه، وأخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٦٧ - ٦٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٣) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٨ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٠ ، وهذا القول في تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ عن ابن عباس ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٠) من كلام ابن إسحاق.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (١٢٦١١) بسياق آخر من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ ، وقول الزهري ومجاهد أخرجهما الطبري ١٨/ ٦٩ - ٧٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٢) و(١٦٣٨٣).

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

قلتُ: ما ذكره ابنُ عطية قاله النحَّاسُ في «معاني القرآن»[١] له، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. قال ابن[٢] بحر: هو مَلَك[٣] بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. قال السُّهَيليُّ[٤]: وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ، وهذا لا يصِحُّ البتَّة؛ لأنَّ ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ، ومَعدٌّ كان في مدة بَخْتَنَصَّر، وذلك بعد عهد سليمان بدهرٍ طويل، فإذا لم يكن مَعَدٌّ في عهد سليمان، فكيف ضَبَّةُ بن أُدّ وهو بعده بخمسة آباء؟! وهذا بَيِّنٌ لمن تأمَّله.

ابن لَهِيعة: هو الخَضِر عليه السلام[٥]. وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجلٌ صالحٌ كان في جزيرةٍ من جزائر البحر، خرجَ ذلك اليوم ينظرُ مَنْ ساكِنُ الأرض، وهل يعبدُ اللهَ أم لا؟ فوجد سليمان، فدعا باسمٍ من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش[٦]. وقول سابع: إنَّه رجلٌ من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسمَ الله الأعظم. ذكره القُشيري[٧]. وقال ابنُ أبي بَزَّةَ: الرجل الذي كان عنده علمٌ من الكتاب اسمه أسطوم، وكان عابداً في بني إسرائيل. ذكره الغَزنوي[٨]. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان عليه السلام؛ أما إنَّ الناسَ يرَونَ أنَّه كان معه اسمٌ وليس ذلك كذلك، إنَّما كان رجلٌ من بني إسرائيل عالمٌ آتاه الله عِلْماً وفِقْهاً قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال: هات. قال: أنت نبيُّ الله ابن نبيِّ الله، فإن دعوت

---

(١) ٥/ ١٣٤ .

(٢) كلمة «ابن» ليست في (ز) و(م).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٤ .

(٤) في التعريف والإعلام ص١٢٨ - ١٢٩ .

(٥) كرامات الأولياء للالكائي ص٧٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

(٦) عرائس المجالس ص٣٢١ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٥ .

(٧) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦ عن مجاهد.

(٨) وأخرجه اللاكائي في كرامات الأولياء (٢٤) . وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٢١ .

اللهَ جاءك به، فدعا اللهَ سليمانُ فجاءه اللهُ بالعرش[١]. وقول ثامن: إنه جبريلُ عليه السلام. قاله النَّخَعي ورُويَ عن ابن عباس[٢]. وعِلْمُ الكتاب على هذا: عِلْمُه بكتب اللهِ المُنزَّلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس[٣]. قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيل اسمه آصف بن بَرْخيا؛ روي أنه صلَّى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبيَّ الله، امدُدْ بصرَكَ. فمدَّ بصرَه نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما ردَّ سليمانُ بصرَه إلَّا وهو عنده[٤]. قال مجاهد: هو إدامةَ النَّظرِ حتى يرتدَّ طَرْفُه خاسئاً حسيراً[٥]. وقيل: أرادَ مقدار ما يفتح عينَه ثم يطرف، وهو كما تقول: افعل كذا في لحظة عين. وهذا أشبه[٦]؛ لأنَّه إن كان الفعلُ من سليمان فهو معجزة، وإنْ كان من آصف أو من غيرِه من أولياء الله فهي كرامة، وكرامةُ الوليِّ معجزةُ النبيِّ. قال القشيريُّ: وقد أنكرَ كراماتِ الأولياء مَنْ قال: إنَّ الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾. وعند هؤلاء ما فعل العفريتُ فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإنَّ الجنَّ يقدرون على مثل هذا. ولا يقطعُ جوهرٌ في حالٍ واحدةٍ مكانين، بل يُتَصوَّرُ ذلك بأنْ يَعدِمَ اللهُ الجوهرَ في أقصى الشرق ثم يُعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدِمُ الأماكنَ المتوسطة ثم يعيدُها. قال القشيري: ورواه ابن[٧] وهب عن مالك. وقد قيل: بل جيء به في الهواء.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٢١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ١٧٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ١٧٥. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٤).

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢١.

(٧) كلمة «بن» من (ز) و(ظ).

قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة[(١)]. وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام[(٢)]. وفي التفاسير: انخرقَ بعرشِ بلقيس مكانُه الذي هو فيه، ثم نبعَ بين يدَي سليمان[(٣)]؛ قال عبد الله بن شدَّاد: وظهر العرشُ من نفقٍ تحت الأرضِ[(٤)]. فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ثابتاً عنده. ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي[(٥)]. ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ قال الأخفش: المعنى: لينظر ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. وقال غيره: معنى «لِيَبْلُوَني» ليتعبَّدني، وهو مَجاز[(٦)]. والأصل في الابتلاء: الاختبار، أي: ليختبرني أأشكرُ نعمتَه أم أكفرُها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لا يرجع نَفْعُ ذلك إلَّا إلى نفسه، حيث استوجبَ بشُكرِهِ تمامَ النعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها. والشكرُ قيدُ النعمةِ الموجودة، وبه تُنالُ النعمةُ المفقودة[(٧)]. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ أي: عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ في التفضُّل[(٨)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروه. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٤. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٦) و(١٦٤٠٣).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٨ عن ابن إسحاق. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٩).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩١).

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢. وكلام الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٠.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٠.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢١٤.

أعلاه. وقيل: غُيِّر بزيادةٍ أو نقصان[١]. قال الفرَّاء وغيره: إنَّما أمر بتنكيره لأنَّ الشياطين قالوا له: إنَّ في عقلِها شيئاً فأراد أن يمتحنها[٢]. وقيل: خافتِ الجِنُّ أن يتزوَّج بها سليمان فيولَد له منها ولدٌ، فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنَّها ضعيفةُ العقل، ورِجلُها كرجل الحمار. فقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ لنعرف عقلها[٣]. وكان لسليمان ناصحٌ من الجِنِّ، فقال: كيف لي أن أرى قدمَيها من غير أن أسألَها كشفَها؟ فقال: أنا أجعلُ في هذا القصر ماءً، وأجعلُ فوق الماء زجاجاً، تظنُّ أنه ماءٌ فترفع ثوبها فترى قدميها، فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ يريد بلقيس، ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ شبَّهته به لأنها خلَّفته تحت الأغلاق، فلم تُقِرَّ بذلك ولم تُنكِرْ، فعَلِمَ سليمانُ كمالَ عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمةً فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. وقال مقاتل: عرَفَتْه ولكن شَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم هو[٤]. وقاله الحسين[٥] بن الفضل أيضاً[٦]. وقيل: أراد سليمان أن يُظهرَ لها أنَّ الجنَّ مُسَخَّرون له، وكذلك الشياطين لتعرفَ أنها نبوَّةٌ وتؤمن به. وقد قيل: هذا في مقابلة تعميتِها الأمرَ في باب الغلمان والجواري.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس، أي: أوتينا العلمَ بصحة نبوَّة سليمانَ من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مُنقادينَ لأمره. وقيل: هو من قول

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٤ .

(٣) عرائس المجالس ص٣٢١ عن وهب بن منبه ومحمد بن كعب.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الحسن.

(٦) عرائس المجالس ص٣٢٢ .

سليمان، أي: أوتينا العلم بقدرة اللهِ على ما يشاء من قَبْلِ هذه المرأة[١]. وقيل: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً من قَبْلِ مجيئها[٢]. وقيل: هو من كلام قومِ سليمان[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقف على «مِنْ دُونِ اللهِ» حسنٌ، والمعنى: منعَها من أن تعبُدَ اللهَ ما كانت تعبدُ من الشمس والقمر، فـ«ما» في موضع رفع[٤]. النحّاس[٥]: المعنى: أي: صدَّها عبادتُها من دون الله وعبادتُها إيَّاها عن أن تعلمَ ما عَلِمناه عن أن تُسلم[٦]. ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب، ويكون التقدير: وصدَّها سليمانُ عمَّا كانت تعبد من دون الله، أي: حالَ بينها وبينَه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدَّها الله، أي: منعَها اللهُ عن عبادتها غيرَه، فحُذِفَتْ «عن» وتعدَّى الفعل. نظيره ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. وأنشد سيبويه:

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ كِراماً مواليها لئيماً صَميمُها[٧]

وزعم أنَّ المعنى عنده نُبِّئْتُ عن عبد الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير: «أنها» بفتح الهمزة[٨]، وهي في موضع نصبٍ بمعنى: لأنَّها. ويجوز أن يكون بدلاً من «ما» فيكون في موضع رفعٍ إن كانت «ما» فاعلةَ الصَّدِّ. والكسرُ على الاستئناف.

---

(١) في (م): المرة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١، وزاد المسير ٦/ ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٥.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٦) عبارة: «عن أن تسلم» من (م) وإعراب القرآن.

(٧) الكتاب ١/ ٣٩ ونسبه للفرزدق. وصميم الشيء: خالصه. الصحاح (صمم).

(٨) وهي في الشاذة ص١١٠.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصَّرح، فحذَفَ إلى وعدَّى الفعل. وأبو العباس يُغلِّطه في هذا؛ قال: لأنَّ دخلَ يدلُّ على مدخول[١]. وكان الصَّرحُ صحناً من زجاجٍ تحتَه ماءٌ وفيه الحيتان[٢]، عمله لِيُريَها مُلكاً أعظمَ من مُلكِها. قاله مجاهد[٣]. وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ماء[٤]. وقيل: الصرح القصر. عن أبي عبيدة[٥]. كما قال:

تَـحـسِـب أعـلامَـهـنَّ الـصُّـروحَـا[٦]

وقيل: الصَّرْح: الصَّحْن، كما يُقال: هذه صَرحةُ الدَّارِ وقاعتُها، بمعنًى. وحكى أبو عبيد[٧] في الغريب المُصنَّف أنَّ الصَّرحَ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ من الأرض، وأنَّ الممرَّدَ: الطويلُ. النحَّاس: أصلُ هذا أنَّه يُقال لكلِّ بناءٍ عُمِلَ عملاً واحداً: صرح؛ من قولهم: لبنٌ صريح إذا لم يَشُبه ماء، ومن قولهم: صَرَّحَ بالأمر، ومنه: عربيٌّ صريح[٨]. وقيل: عَمِلَه ليختبرَ قولَ الجِنِّ فيها: إنَّ أمَّه من الجن، ورِجلَها رِجلُ حمار. قاله وهب بن مُنبِّه[٩]. فلمَّا رأتِ اللُّجَّةَ فزِعَتْ وظنَّتْ أنَّه قصدَ بها الغرق، وتعجَّبتْ من

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٢ .

(٣) ذكره ابن الجوزي ٦/ ١٧٨ عن وهب بن منبه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٢ ، والطبري ١٨/ ٨٣ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٥ .

(٦) عجز لبيت، صدره: على طُرُقٍ كنحورِ الظِّباء. وقائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٣٦ .

(٧) في(م): أبو عبيدة.

(٨) من قوله: وقال قتادة... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٨ - ١٣٩ .

(٩) عرائس المجالس ص٣٢١ .

كونِ كرسيِّه على الماء، ورأَتْ ما هالَها، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأمر. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ فإذا هي أحسنُ الناسِ ساقاً، سليمةٌ ممَّا قالتِ الجِنُّ، غيرَ أنَّها كانت كثيرةَ الشَّعر، فلمَّا بلغت هذا الحدَّ، قال لها سليمان بعد أن صرفَ بصرَه عنها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ والممرد: المحكوكُ المملَّس، ومنه الأمرد[١]. وتمرَّدَ الرجلُ إذا أبطأَ خروجُ لحيتِه بعد إدراكه. قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداءُ التي لا ورقَ عليها. ورملةٌ مرداءُ إذا كانت لا تُنْبِتُ. والممرد أيضاً: المُطوَّل، ومنه قيل للحصن: مارد[٢]. أبو صالح: طويلٌ على هيئة النخلة[٣]. ابن شجرة: واسعٌ في طوله وعرضه. قال:

غـدَوتُ صـبـاحـاً بـاكـراً فـوجـدتُـهـمْ قُبيلَ الضُّحى في السَّابريِّ[٤] المُمرَّدِ[٥]

أي: الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمتْ بِلْقيسُ وأذعنت وأسلمت وأقرَّتْ على نفسها بالظلم، على ما يأتي.

ولمَّا رأى سليمانُ عليه السلام قدمَيها قال لِناصحِه من الشياطين: كيفَ لي أن أقلَع هذا الشَّعرَ من غير مضرَّةٍ بالجسد؟ فدلَّه على عمل النُّورَة، فكانتِ النُّورَةُ والحمَّاماتُ من يومئذٍ[٦]. فيُروى أنَّ سليمان تزوَّجها عند ذلك وأسكنَها الشام. قاله الضحاك. وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش: تزوَّجها وردَّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كلَّ شهرٍ مرة؛ فولدت له غلاماً سمَّاه داود ماتَ في زمانه[٧]. وفي بعض الأخبار أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كانت بِلْقيسُ من أحسنِ نساء العالمين ساقين، وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة» فقالت عائشة: هي أحسَنُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٤٤٤) بلفظ: الممرد الطويل.

(٤) أي: الرقيق من الثياب. اللسان (سبر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢ .

ساقينِ منِّي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أنتِ أحسَنُ ساقينِ منها في الجنة» ذكره القُشيري[١]. وذكر الثعلبي[٢] عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أوَّلُ منِ اتَّخذَ الحمَّاماتِ سليمانُ بن داود، فلمَّا ألصقَ ظهرَه إلى الجدارِ فمسَّه حرُّها قال: أوَّاهٌ من عذاب الله»[٣]. ثم أحبَّها حباً شديداً وأقرَّها على مُلكِها باليمن، وأمرَ الجِنَّ فبَنوا لها ثلاثةَ حصونٍ لم يرَ الناسُ مثلَها ارتفاعاً: سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان، ثم كان سليمانُ يزورها في كلِّ شهرٍ مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام.

وحكى الشعبيُّ أنَّ ناساً من حِمْير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبراً معقوداً، فيه امرأةٌ عليها حُلَلٌ منسوجةٌ بالذَّهب، وعند رأسها لوحُ رخامٍ فيه مكتوب:

يا أيُّها الأقوامُ عُوجُوا معا ... وأَرْبِعوا في مَقْبَري العِيسا
لتعلموا أنِّيَ تلكَ التي ... قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بِلْقِيسا
شَيَّدْتُ قصرَ المُلْكِ في حِمْيرٍ ... قَوْمِي وقِدْماً كان مأنوسا
وكنتُ في مُلْكي وتدبيرِه ... أُرْغِمُ في اللهِ المَعَاطِيسا
بَعْلي سليمانُ النبيُّ الذي ... قد كان للتوراةِ دِرِّيسا
وسُخِّرَ الريحُ له مركباً ... تَهُبُّ أحياناً رَوامِيسا
مع ابنِ داودَ النبيِّ الذي ... قَدَّسهُ الرحمنُ تَقْديسا[٤]

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن مُنبِّه: لم يتزوَّجْها سليمانُ، وإنَّما قال لها:

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/٤٩٨ من غير إسناد.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/١٤٠، والعقيلي في الضعفاء ١/٦٨ و٨٤، والطبراني في الأوسط (٤٦٤)، وابن عدي في الكامل ١/٢٨٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٦٦) من طريق إبراهيم بن مهدي، عن عمر بن عبد الرحمن، عن إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي، عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه مرفوعاً. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسماعيل أحاديثه منكرة، وإبراهيم بن مهدي ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٤/٢١٧ - ٢١٨.

اختاري زوجاً. فقالت: مثلي لا يُنكَحُ وقد كان لي من الملك ما كان. فقال: لابُدَّ في الإسلام من ذلك. فاختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدَان، فزوَّجه إيَّاه وردَّها إلى اليمن، وأمر زَوبعةَ أميرَ جِنِّ اليمن أن يُطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزَلْ أميراً حتى مات سليمان عليه السلام[١]. وقال قومٌ: لم يَرِدْ فيه خبرٌ صحيحٌ لا في أنه تزوَّجها ولا في أنَّه زوَّجها. وهي بِلْقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد بن حدر بن السرح بن الحارث[٢] بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ[٣] بن سام بن نوح. وكان جدُّها الهداهد ملكاً عظيمَ الشأن قد وُلِدَ له أربعون ولداً كلُّهم ملوك، وكان مِلِكَ أرضِ اليمن كلِّها، وكان أبوها السَّرح يقول لملوك الأطراف: ليس أحدٌ منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوَّج منهم، فزوَّجوه امرأةً من الجِنِّ يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بِلْقَمة وهي بِلْقيس، ولم يكن له ولدٌ غيرها. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «كان أحدُ أبَوي بِلْقيسَ جِنِّياً»[٤] فمات أبوها، واختلف عليها قومُها فرقتين، وملَّكوا أمرَهم رجلاً فساءت سيرتُه، حتى فجَرَ بنساء رعيته، فأدركت بلقيسَ الغَيْرةُ، فعرضت عليه نفسَها فتزوَّجها، فسَقَتْه الخمر حتى حزَّتْ رأسَه، ونصبَتْه على باب دارها، فملَّكوها. وقال أبو بَكرة: ذُكِرَتْ بِلقيسُ عند النبيِّ ﷺ فقال: «لا يُفلِحُ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأةً»[٥]. ويُقال: إنَّ سببَ تزوُّجِ أبيها من الجِنِّ أنه كان وزيراً لملكٍ عاتٍ يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوَّج، فصحِبَ مرَّةً في الطريق رجلاً لا يعرفه، فقال: هل لكَ من زوجة؟ فقال: لا أتزوَّجُ أبداً، فإنَّ مَلِكَ بلدِنا يغتصب النساءَ من أزواجهنَّ. فقال: لئِنْ تزوجتَ ابنتي لا

(١) عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٢) في (م): الحرس.

(٣) في (م): أرفخشذ.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٨٣ ، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٠٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (١١١٣). وفي إسناده سعيد بن بشير، وهو ضعيف. التقريب.

(٥) عرائس المجالس ص٣١٥ ، والحديث سلف ٢/ ٤٢ .

يغتصِبُها أبداً. قال: بل يغتصِبُها. قال: إنَّا قومٌ من الجِنِّ لا يقدِرُ علينا. فتزوَّجَ ابنتَه، فولدت له بِلْقيس، ثم ماتتِ الأمُّ وابتنَتْ بِلْقيسُ قصراً في الصحراء، فتحدَّثَ أبوها بحديثها غلطاً، فنُميَ للملك خبرُها، فقال له: يا فلان، تكون عندكَ هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها، وأنت تعلم حُبِّي للنساء؟! ثم أمر بحبسه، فأرسلت بِلْقيسُ إليه أني بين يديك. فتجهَّز للمسير إلى قصرها، فلما همَّ بالدخول بمَنْ معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجنِّ مثلَ صورة الشمس، وقُلْنَ له: ألا تستحي؟! تقول لكَ سيدتُنا: أتَدخلُ بهؤلاء الرجال معكَ على أهلك؟! فأذِنَ لهم بالانصراف ودخل وحده، وأغلقت عليه الباب وقتَلتْه بالنِّعال، وقطعت رأسه، ورمت به إلى عسكره، فَأَمَّرُوها عليهم، فلم تزَلْ كذلك إلى أن بلَّغ الهدهدُ خبرَها سليمانَ عليه السلام. وذلك أنَّ سليمان لمَّا نزل في بعض منازله قال الهدهد: إنَّ سليمان قد اشتغل بالنزول، فأرتَفِعُ نحوَ السماء فَأُبصِر طولَ الدنيا وعرضَها. فأبصرَ الدنيا يمناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد، وكان اسمُ ذلك الهدهد عُفير، وكان اسمُ هدهد سليمان يعفور(١)، فقال عُفير اليمن ليعفورِ سليمان: مِنْ أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ قال: أقبلتُ من الشَّام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام. قال: ومَن سليمان؟ قال: مَلِكُ الجِنِّ والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكلِّ ما بين السماء والأرض. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد؛ ملكها امرأةٌ يُقال لها: بِلْقيس، تحتَ يدِها اثنا عشر ألف قَيْل، تحتَ يدِ كلِّ قَيْلٍ مئةُ ألفِ مقاتلٍ من سوى النساء والذَّراري، فانطلقَ معه ونظر إلى بِلْقيس ومُلكِها، ورجع إلى سليمانَ وقت العصر، وكان سليمانُ قد فقده وقتَ الصلاةِ فلم يجِدْه، وكانوا على غير ماء. قال ابن عباس في رواية: وقعت عليه نفحةٌ من الشمس. فقال لوزير الطير: هذا موضع مَنْ؟ قال: يا نبيَّ الله، هذا موضع الهدهد. قال: وأينَ ذهب؟ قال: لا أدري أصلحَ اللهُ الملك. فغضب سليمان وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية. ثم دعا بالعُقَاب سيدِ الطير وأصرمِها وأشدِّها بأساً

---

(١) عبارة: «وكان اسم هدهد سليمان يعفور» من (ظ).

فقال: ما تريدُ يا نبيَّ الله؟ فقال: عليَّ بالهدهد الساعة. فرفع العقابُ نفسَه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدَي أحدكم، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو[١] اليمن، فانقضَّ نحوَه، وأنشَبَ فيه مِخْلَبه. فقال له الهدهد: أسألُك بالله الذي أقدرَكَ وقوَّاكَ عليَّ إلّا رحِمْتني. فقال له: الويلُ لك، وثكِلَتْك أمُّك! إنَّ نبيَّ الله سليمانَ حلَفَ أن يُعذِّبكَ أو يذبحَكَ. ثم أتى به فاستقبلَتْه النُّسورُ وسائرُ عساكر الطير. وقالوا: الويل لك، لقد توعَّدكَ نبيُّ الله. فقال: وما قدري وما أنا؟ أما استثنى؟ قالوا: بلى، إنه قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ثم دخل على سليمانَ فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام، فقال له سليمان: أين كنتَ عن خدمتِكَ ومكانِكَ؟ لأُعذِّبنَّكَ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّكَ. فقال له الهدهد: يا نبيَّ الله، اذكُرْ وقوفكَ بين يدَيِ الله بمنزلة وقوفي بين يديك. فاقشعَرَّ جِلدُ سليمانَ وارتعدَ، وعفا عنه. وقال عكرمة: إنَّما صرف اللهُ سليمانَ عن ذبح الهدهد أنه كان بارًّا بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقُّهما. ثم قال له سليمان: ما الذي أبطأَ بِكَ؟ فقال الهدهد ما أخبرَ اللهُ عن بِلْقيسَ وعرشِها وقومِها[٢] حسبما تقدَّم بيانه. قال الماوردي[٣]: والقولُ بأنَّ أمَّ بِلْقيسَ جِنِّيةٌ مُستنكَرٌ من العقول؛ لِتَبايُنِ الجنسين، واختلافِ الطَّبْعين، وتفاوت الجِسْمين[٤]؛ لأنَّ الآدميَّ جسمانيٌّ والجِنَّ روحانيٌّ، وخلقَ اللهُ الآدميَّ من صلصالٍ كالفخَّار، وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نار، ويمتنع[٥] الامتزاجُ مع هذا التبايُن، ويستحيل التناسلُ مع هذا الاختلاف.

قلتُ: قد مضى القول في هذا، والعقلُ لا يُحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك،

---

(١) في(م): نحن.

(٢) من قوله: وذلك أن سليمان لما نزل... إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢١٦ .

(٤) المثبت من النكت والعيون. وفي (د): وتعارف الجسمين. وفي (ز): وتفارق الجسمين. وفي (ظ): وتفارق الجنسين. وفي (م): وتفارق الجِسَّين.

(٥) المثبت من النكت والعيون و(ظ). وفي بقية النسخ: ويمنع.

وإذا نظر في أصل الخلق فأصلُه الماء على ما تقدَّم بيانه، ولا بُعْدَ في ذلك، والله أعلم. وفي التنزيل: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] وقد تقدَّم. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ على ما يأتي في «الرحمن» [الآية: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بالشرك الذي كانت عليه. قاله ابن شجرة. وقال سفيان: أي: بالظنِّ الذي توهَّمَتْه في سليمان؛ لأنَّها لمَّا أُمرت بدخول الصرح حسِبَتْه لُجَّةً، وأنَّ سليمان يريد تغريقها فيه. فلمَّا بانَ لها أنه صرحٌ مُمرَّدٌ من قواريرَ علمت أنَّها ظلمت نفسَها بذلك الظن[1]. وكُسِرتْ «إنَّ» مُبتدَأةً بعد القول. ومن العرب مَنْ يفتحُها فيُعمِلُ فيها القول. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا سكَّنتَ «مع» فهي حرفٌ جاء لمعنى بِلا اختلاف بين النَّحْويين، وإذا فتَحْتَها ففيها قولان: أحدهما: أنه بمعنى الظرف اسمٌ. والآخَر: أنه حرفٌ خافضٌ مبنيٌّ على الفتح. قاله النحَّاس[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تقدَّم معناه[3]. ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: أي: مؤمن وكافر. قال: والخصومةُ ما قصَّهُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. وقيل: تخاصُمُهم أنَّ كلَّ فرقةٍ قالت: نحن على الحقِّ دونكم[4].

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩-١٤٠ ، والنكت والعيون ٤/ ٢١٨ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٨٦ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة[١]؛ المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلب إليكم الثواب، وتُقدِّمون الكفرَ الذي يُوجبُ العقاب، فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب. وقيل: أي: لِمَ تفعلون ما تستحِقُّون به العقاب، لا أنَّهم التمسوا تعجيل العذاب.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلَّا تتوبون إلى الله من الشرك[٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي تُرحموا. وقد تقدم[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا[٤]. والشُّؤم النَّحس. ولا شيءَ أضَرُّ بالرأي ولا أفسدَ للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة، ومن ظنَّ أنَّ خُوارَ بقرةٍ أو نَعيقَ غرابٍ يردُّ قضاءً، أو يدفعُ مقدوراً، فقد جهل. وقال الشاعر:

طِيرةُ الدَّهرِ[٥] لا تَرُدُّ قضاءً ... فاعْذِرِ الدَّهْرَ لا تَشُبْهُ بلَومِ
أيُّ يومٍ تَخُصُّهُ بسعودٍ ... والمنايا ينزِلْنَ في كلِّ يومِ
ليس يومٌ إلَّا وفيه سعودٌ ... ونحوسٌ تجري لقومٍ فقومِ

وقد كانتِ العربُ أكثرَ الناس طِيرةً، وكانت إذا[٦] أرادت سفراً نفرت طائراً، فإذا طار يَمنةً سارت وتيمَّنتْ، وإن طارَ شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك وقال: «أَقِرُّوا الطيرَ على وُكُناتِها»[٧] على ما تقدَّم بيانُه في «المائدة»[٨].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٠، وزاد المسير ٦/ ١٨٠.

(٣) ١/ ٣٤٢ و٥/ ٣١٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٠ عن مجاهد

(٥) في أدب الدنيا والدين: الناس.

(٦) في أدب الدنيا والدين: وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة، وكانت العرب إذا.

(٧) أدب الدنيا والدين ص٢٨٧ - ٢٨٨. والحديث سلف ٩/ ٣٠٦ بلفظ: «أقروا الطير على وكناتها». والوَكْنُ: مأوى الطير في غير عش. اللسان (وكن).

(٨) ٧/ ٢٩٠ - ٢٩١.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصائبكم[١]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُمتحنون. وقيل: تُعذَّبون بذنوبكم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: في مدينة صالحٍ وهي الحِجر[٣] ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجالٍ من أبناء أشرافهم[٤]. قال الضحَّاك: كان هؤلاء التسعةُ عظماءَ أهل المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرةٍ عظيمةٍ فقلَبَها اللهُ تعالى عليهم[٥]. وقال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنَّهم كانوا يُقرِضون الدنانير والدراهم[٦]. وذلك من الفساد في الأرض. وقاله سعيد بن المسيِّب. وقيل: فسادُهم أنَّهم يتبعون عوراتِ الناس ولا يسترون عليهم[٧]. وقيل غيرُ هذا. واللازمُ من الآية ما قاله الضحَّاك وغيره أنهم كانوا من أوجَهِ القوم وأقناهم وأغناهم، وكانوا أهلَ كفرٍ ومعاصٍ جمَّةٍ، وجملةُ أمرِهم أنهم يفسدون ولا يصلحون.

والرَّهطُ اسمٌ للجماعة، فكأنَّهم كانوا رؤساءَ يتبَعُ كلَّ واحدٍ منهم رهطٌ. والجمع أرْهُط وأراهِط. قال:

يا بؤسَ للحربِ التي وضعتْ أراهِطَ فاستراحوا[٨]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٨٨ عن ابن عباس ﷺ.
(٢) الكشاف ٣/ ١٥١ .
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٩ .
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٣ .
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٤ .
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ .
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠ .
(٨) تهذيب اللغة ٦/ ١٧٦ . والبيت قائله سعد بن مالك بن ضبيعة، وهو في معجم الشعراء ص١٤ ، وشرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٠٠ .

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدار عاقرِ الناقة. ذكره ابن عطية[١].

قلتُ: واختُلِفَ في أسمائهم، فقال الغزنوي: وأسماؤهم: قُدَار بن سالف ومِصْدَع وأسلم ودهمى ودهيم ودعمى ودعيم وقتال وصداق. ابن إسحاق: رأسهم قُدار بن سالف ومِصْدَع بن مِهْرَع، فاتبعهم سبعة، هم: بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تُعرَفْ أسماؤهم. وذكر الزمخشري[٢] أسماءَهم عن وهب ابن منبِّه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رياب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير ابن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قُدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عُتاةَ قومِ صالح وكانوا من أبناء أشرافهم. السُّهيلي[٣]: ذكر النقَّاش التسعةَ الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسمَّاهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غيرَ أني أذكُره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكِنْ نذكرُه على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مِصْدَع بن دهر ـ ويقال: دهم ـ وقُدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعمى وهرمى ورعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي[٤] أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعمى ودعيم وهرمى وهريم وداب وصواب ورياب ومِسْطَح وقُدار، وكانوا بأرض الحجر وهي أرض الشام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ يجوز أن يكون «تَقَاسَمُوا» فِعلاً مستقبِلاً وهو أمر، أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا. ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال، كأنَّه قال: قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: «يُفْسِدُون في الأرضِ ولا يُصْلِحون. تَقاسَموا باللهِ» وليس فيها «قالوا»[٥]. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ .

(٢) في الكشاف ٣/ ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٩ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢١٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ نقله عن الطبري، وهو في تفسيره ٨٨/ ٩٠ -٩١ بنحوه. وقراءة عبد الله =

﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ قراءة العامَّة بالنون فيهما، واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما، وضمِّ التَّاءِ واللَّام على الخطاب[1] أي: أنهم تخاطبوا بذلك. واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحُميد بالياءِ فيهما، وضمِّ الياءِ واللَّامِ على الخبر[2]. والبَياتُ: مُباغتةُ العدوِّ ليلاً[3]. ومعنى ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا، ولا ندري مَنْ قتلَه وقتَلَ أهله. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في إنكارنا لقتله[4]. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع[5]. وقرأ عاصم[6] والسُّلميُّ بفتح الميم واللام، أي: الهلاك؛ يُقال: ضربَ يضرِبُ مَضرَباً أي: ضرباً. وقرأ المُفضَّل وحفص[7] بفتح الميم وجرِّ اللام، فيكونُ اسمَ المكان[8]، كالمجلس لموضع الجلوس، ويجوز أن يكون مصدراً، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرُهم ما رُوي أنَّ هؤلاءِ

= هذه شاذة.

(١) السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٦٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ١٨١ - ١٨٢ ونقلها أيضاً عن أبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٣) الكشاف ٣/ ١٥٢.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٥.

(٦) في رواية أبي بكرٍ عنه كما في السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤. ووقع في النسخ: وقرأ حفص. وهو خطأ؛ لأنَّ حفصاً يقرأ بفتح الميم وكسر اللام كما سيأتي.

(٧) في النسخ: وأبو بكر. والتصويب من السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٠ - ٣٨١، وزاد المسير ٦/ ١٨٢.

التِّسعةَ لمَّا كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالحٌ بمجيء العذاب، اتَّفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دارَ صالحٍ ليلاً ويقتلوه وأهلَه المختَصِّين به؛ قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقَعْنا به ما يستحِقُّ، وإن كان صادقاً كنَّا عجِلْناه قبلنا، وشَفَينا نفوسَنا. قاله مجاهد وغيره[١]. قال ابن عباس: أرسلَ اللهُ تعالى الملائكةَ تلك الليلة، فامتلأت بهم دارُ صالح، فأتى التسعةُ دارَ صالحٍ شاهرينَ سيوفَهم، فقتَلَتْهم الملائكةُ رَضْخاً بالحجارة، فيَرَونَ الحجارةَ ولا يَرَونَ مَنْ يرميها[٢]. وقال قتادة: خرجوا مُسرِعين إلى صالح، فسلَّط عليهم ملَكٌ بيده صخرةٌ فقتلَهم[٣]. وقال السُّدِّي: نزلوا على جرفٍ من الأرض، فانهار بهم فأهلكهم اللهُ تحتَه. وقيل: اختفَوا في غارٍ قريبٍ من دار صالح، فانحدرت عليهم صخرةٌ شدَخَتْهم جميعاً، فهذا ما كان من مكرهم[٤]. ومكرُ اللهِ مجازاتُهم على ذلك.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بالصيحة التي أهلكَتْهم[٥]. وقد قيل: إنَّ هلاكَ الكلِّ كان بصيحة جبريل[٦]. والأظهر أن التسعةَ هلكوا بعذابٍ مُفرَد، ثم هلكَ الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمشُ والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: «أَنَّا» بالفتح. وقال ابن الأنباري[٧]: فعلى هذا المذهب لا يحسُنُ الوقفُ على «عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ» لأنَّ «أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» خبرُ كان. ويجوز أن تجعلَها في موضع رفعٍ على الإتباع للعاقبة. ويجوز أن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ من غير نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣ ، والطبري ١٨/ ٩٤ بنحوه

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٨١ .

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٨ - ٨١٩ ، وما قبله منه دون نسبة القراءة إلى الحسن. وقد نُسِبت إليه وإلى البقية دون نسبتها إلى الأعمش في إعراب القرآن ٣/ ٢١٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ . وقراءة عاصم وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨.

تجعلَها في موضع نصبٍ من قول الفرَّاء، وخفضٍ من قول الكسائي على معنى: بأنَّا دمَّرْناهم. ويجوز أن تجعلَها في موضع نصبٍ على الإتباع لموضع «كَيْفَ» فمِنْ هذه المذاهب لا يحسُنُ الوقفُ عل «مَكْرِهِمْ». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» بكسر الألف على الاستئناف(١)، فعلى هذا المذهب يحسُنُ الوقفُ على «مَكْرِهِمْ».

قال النحَّاس(٢): ويجوز أن تنصِبَ «عَاقِبَةُ» على خبر «كان» ويكون «إِنَّا» في موضع رفعٍ عل أنَّها اسمُ «كان». ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمارِ مبتدإٍ تبييناً للعاقبة، والتقدير: هي إنَّا دمَّرْناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَيٍّ: «أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ» تصديقاً لفتحها(٣).

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ قراءةُ العامَّةِ بالنَّصبِ على الحال عند الفرَّاء والنحَّاس(٤)، أي: خاليةً عن أهلها خراباً ليس بها ساكن(٥). وقال الكسائي وأبو عبيدة: «خَاوِيَةً» نصبٌ على القطع، مجازه: فتلكَ بيوتُهم الخاوية، فلما قُطِعَ منها الألف واللام نُصِبَ على الحال، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢].

وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجَحدري: بالرفع(٦) على أنَّها خبرٌ عن «تِلْكَ» و«بُيُوتُهُمْ» بدلٌ من «تِلْكَ»، ويجوز أن تكون «بُيُوتُهُمْ» عطفَ بيان و«خَاوِيَةٌ» خبراً عن «تِلْكَ»، ويجوز أن يكون رفعُ «خَاوِيَةٌ» على أنها خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: هي خاوية، أو بدلٌ من «بُيُوتُهُمْ»؛ لأنَّ النَّكِرةَ تُبدَلُ من المعرفة(٧). ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٣) قراءة أبي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ١٥٣ عن عيسى بن عمر، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ ، والبيان ٢/ ٢٢٥ .

﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله ويخافون عذابه. قيل: آمنَ بصالحٍ قَدْرُ أربعةِ آلاف رجل[١]، والباقون خرجَ بأبدانهم ـ في قول مقاتلٍ وغيره ـ خُرَاجٌ مثلُ الحِمِّص، وكان في اليوم الأوَّل أحمرَ، ثم صار من الغدِ أصفرَ، ثم صار في الثالث أسودَ، وكان عَقْرُ الناقةِ يومَ الأربعاء، وهلاكُهم يومَ الأحد[٢]. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات، وصاح جبريلُ بهم خلال ذلك صيحةً فخمدوا، وكان ذلك ضَحوةً. وخرجَ صالحٌ بمن آمن معه إلى حَضْرَمَوت، فلمَّا دخلَها مات صالحٌ؛ فسُمِّيتْ حَضْرَمَوت[٣]. قال الضحَّاك: ثم بنى الأربعةُ الآلاف مدينةً يقال لها: حاضورا، على ما تقدَّم بيانُه في قصة أصحاب الرسِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، أو: اذكُرْ لوطاً[٤]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم. وقال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفِعْلةَ القبيحةَ الشنيعة[٥]. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظمُ لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضُكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه[٦]. وكانوا لا يستترون عُتوًّا منهم وتمرُّداً[٧].

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٥ .

(٢) عرائس المجالس ص٧٢ بنحوه.

(٣) من قوله: وخرج صالح... إلى هذا الموضع من مجمع البيان ١٩/ ٢٣٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أعادَ ذِكْرَها لفرط قُبحِها وشنعتِها. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إمَّا أمر التحريم أو العقوبة.

واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من «أَئِنَّكُمْ»فأمَّا الخطُّ فالسبيل فيه أن يُكتبَ بألِفَين على الوجوه كلِّها؛ لأنَّها همزةٌ مُبتدأةٌ دخلت عليها ألفُ الاستفهام[1].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: عن أدبار الرجال. يقولون ذلك استهزاءً منهم. قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيبٍ بأنَّهم يتطهَّرون من أعمال السوء[2].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقرأ عاصم[3]: «قَدَرْنا» مخففاً، والمعنى واحد[4]. يقال: قد قَدَرتُ الشيءَ قَدْراً وقَدَراً وقدَّرتُه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: من أُنذِرَ فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»[5] و«هود»[6].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال الفرَّاء: قال أهل

---

(١) إعراب القرآن ٣/٢١٦.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/١٤٣.

(٣) في رواية أبي بكر عنه كما في السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٣٦.

(٤) زاد المسير ٦/١٨٣.

(٥) ٩/٢٧٩ - ٢٨٠.

(٦) ١١/١٨٥ - ١٩٠.

المعاني: قيل للوط: «قُلِ الْحَمْدُ للهِ» على هلاكهم. وخالف جماعةٌ من العلماء الفرَّاءَ في هذا وقالوا: هو مخاطبةٌ لنبينا محمدٍ ﷺ، أي: قُلْ: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحَّاس: وهذا أولى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطبٌ به عليه الصلاة والسلام إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيره[١]. وقيل: المعنى: أي: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يعني أمته عليه السلام؛ قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته[٢]. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[٣]. وقيل: أمرَ رسولَ الله ﷺ أنْ يتلوَ هذه الآياتِ الناطقةَ بالبراهين على وحدانيَّته وقدرتِه على كلِّ شيء وحكمتِه، وأن يستفتحَ بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطَفين من عباده. وفيه تعليمٌ حسن، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل، وبعثٌ على التيمُّنِ بالذِّكرين والتبرُّكِ بهما، والاستظهارُ بمكانهما على قبول ما يُلقى إلى السامعين، وإصغائِهم إليه، وإنزالِه من قلوبهم المنزلةَ التي يبغيها المستمع. ولقد توارثَ العلماءُ والخطباءُ والوُعَّاظُ كابراً عن كابرٍ هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمامَ كلِّ علمٍ مُفاد، وقبل كلِّ عِظَةٍ، وفي مُفتَتحِ كلِّ خطبة، وتبِعَهم المترسِّلون فأجْرَوا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغيرِ ذلك من الحوادث التي لها شأن[٤].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، أي: لرسالته[٥]، وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٦] [الصافات: ١٨١].

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٧ .

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ عن سفيان والسدي. وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ عن ابن عباس. وزاد المسير ٦/ ١٨٥ عن ابن عباس والسدي.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ وأجازَ أبو حاتم «أَأَللهُ خَيْرٌ» بهمزتين. النحَّاس: ولا نعلم أحداً تابعَه على ذلك؛ لأنَّ هذه المَدَّةَ إنَّما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر، وهذه ألفُ التوقيف، و«خَيْرٌ» هاهنا ليس بمعنى: أفضل منك، وإنَّما هو مِثلُ قولِ الشاعر:

أتــهــجــوهُ ولــســتَ لــه بِــكُــفءٍ فَــشَــرُّكــمــا لــخــيــرِكــمــا الــفِــداءُ[1]

فالمعنى: فالذي فيه الشرُّ منكما للذي فيه الخير الفداءُ. ولا يجوز أن يكون بمعنى من؛ لأنَّكَ إذا قلت: فلانٌ شرٌّ من فلان، ففي كلٍّ واحدٍ منهما شرٌّ[2]. وقيل: المعنى: آلخيرِ في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة؟! وحكى سيبويه: السعادةُ أحبُّ إليك أم الشقاء؛ وهو يعلم أنَّ السعادةَ أحبُّ إليه. وقيل: هو على بابه من التفضيل، والمعنى: آللهُ خيرٌ أم ما تشركون، أي: أثَوابُه خيرٌ أم عقابُ ما تشركون[3]. وقيل: قال لهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ في عبادة الأصنام خيراً، فخاطبهم الله عزَّ وجلَّ على اعتقادهم[4]. وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر[5]. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يُشْرِكُونَ» بياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب[6]، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. فكان النبيُّ ﷺ إذ قرأ هذه الآية يقول: «بلِ اللهُ خيرٌ وأبقى وأَجلُّ وأكرَمُ»[7].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال أبو حاتم: تقديره: آلهتكم خيرٌ أم

---

(١) قائله حسان بن ثابت، وقد سلف ١/ ٣٤٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ - ١٤٤ بنحوه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٨ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١.

(٦) السبعة ص٣٢٤، والتيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١، والكشاف ٣/ ١٥٤. وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٨٢) من طريق جابر ابن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر ـ وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عن أبيه علي ابن الحسين مرفوعاً. إسناده منقطع. وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف عند الأكثرين، وقد اتهمه بعضهم بالكذب. ميزان الاعتدال ١/ ٣٧٩ - ٣٨٠.

من خلقَ السماوات والأرض. وقد تقدَّم. ومعناه: قَدَرَ على خلقِهِنَّ. وقيل: المعنى: أعبادةُ ما تعبدون من أوثانكم خيرٌ أم عبادةُ مَنْ خلَقَ السماوات والأرض؟[١] فهو مردودٌ على ما قبله من المعنى، وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عزَّ وجلَّ وعَجْزِ آلهتهم. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الحديقةُ: البستان الذي عليه حائط. والبهجةُ: المنظر الحسن[٢]. قال الفَرَّاء[٣]: الحديقةُ: البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائطٌ فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة: الحدائق: النخل ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ والبهجةُ: الزِّينةُ والحُسن؛ يبهج به من رآه[٤]. ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ «ما» للنفي[٥]، ومعناه الحظرُ والمنعُ من فِعْلِ هذا، أي: ما كان للبشر، ولا يتهيَّأُ لهم، ولا يقعُ تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عَجَزةٌ عن مثلها؛ لأنَّ ذلكَ إخراجُ الشيء من العدم إلى الوجود[٦]. قلت: وقد يُستَدَلُّ من هذا على منع تصوير شيء، سواءٌ كان له روح أم لم يكن. وهو قول مجاهد[٧]. ويعضِدُه قوله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: ومَنْ أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلُقُ خلقاً كَخلقي، فليخلقوا ذَرَّةً، أو ليخلقوا حبَّةً، أو ليخلقوا شعيرةً» رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ...» فذكره[٨]. فعَمَّ بالذمِّ والتهديد والتقبيح كلَّ مَنْ تعاطى تصوير شيءٍ ممَّا خلقه اللهُ وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفردَ به سبحانه من الخلق والاختراع، وهذا

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٩٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٧) المفهم ٥/ ٤٣٢ .

(٨) صحيح مسلم (٢١١١). وأخرجه أحمد (٧١٦٦)، والبخاري (٧٥٥٩).

واضح. وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ تصويرَ ما ليس فيه روحٌ يجوز هو والاكتساب به[١]. وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إنْ كنتَ لابُدَّ فاعلاً فاصنَعِ الشجرَ وما لا نفسَ له. خرَّجه مسلم أيضاً[٢]. والمنعُ أولى ـ والله أعلم ـ لِما ذكرنا. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «سبأ»[٣] إن شاء الله تعالى.

ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هل معبودٌ مع الله يُعينُه على ذلك؟[٤] ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره[٥]. وقيل: «يَعْدِلُونَ» عن الحقِّ والقصد، أي: يكفرون[٦]. وقيل: «إِلَهٌ» مرفوعٌ بـ «مع» تقديره: أَمَعَ اللهِ ـ وَيلَكم ـ إِلهٌ؟ والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مُستقرًّا. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: وسطها، مثل: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ يعني جبالاً ثوابتَ تُمسكها وتمنعها من الحركة. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ مانعاً من قدرته؛ لئلَّا يختلطَ الأُجاجُ بالعذب[٨]. وقال ابن عباس: سلطاناً من قدرته، فلا هذا يُغيِّرُ ذاكَ ولا ذاكَ يُغيِّرُ هذا. والحَجْزُ: المنع. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: إذا ثبتَ أنه لا يقدِرُ على هذا غيرُه فلِمَ يعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: كأنهم يجهلون اللهَ فلا يعلمون ما يجِبُ له من الواحدانية.

---

(١) المفهم ٥/ ٤٣٢.

(٢) في صحيحه (٢١١٠).

(٣) عند تفسير الآية (١٣).

(٤) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥، وزاد المسير ٦/ ١٨٦.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ابن عباس: هو ذو الضرورة المجهود. وقال السُّدِّيّ: الذي لا حولَ له ولا قوَّة. وقال ذو النون: هو الذي قطعَ العلائق عمَّا دون الله. وقال أبو جعفر وأبو عثمان النَّيسابوري: هو المفلس. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفعَ يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلةٌ من طاعةٍ قدَّمها. وجاء رجلٌ إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألُكَ بالله أن تدعوَ لي فأنا مضطر. قال: إذاً فاسأله فإنَّه يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه؛ قال الشاعر:

وإنِّي لأدعُو اللهَ والأمرُ ضَيِّقٌ   عليَّ فما ينفَكُّ أن يَتفرَّجا
ورُبَّ أخٍ سُدَّت عليه وُجوهُهُ   أصابَ لها لمَّا دعا اللهَ مَخْرَجا

الثانية: وفي «مسند أبي داود الطيالسي» عن أبي بَكرةَ قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهمَّ رحمتَكَ أرجو فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ وأصلِحْ لي شأني كلَّه لا إله إلَّا أنت»[(١)].

الثالثة: ضَمِنَ اللهُ تعالى إجابة المضطرِّ إذا دعاه، وأخبرَ بذلك عن نفسه؛ والسببُ في ذلك أنَّ الضرورة إليه باللَّجاء ينشأ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلب عمَّا سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقِعٌ وذِمَّة، وُجِدَ من مؤمنٍ أو كافر، طائعٍ أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ

(١) مسند الطيالسي (٨٦٩). وأخرجه أحمد (٢٠٤٣٠).

عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فيجيبُ المضطرَّ لموضع اضطرارِه وإخلاصِه. وفي الحديث: «ثلاثُ دعواتٍ مُستجاباتٍ لاشَكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالدِ على ولده» ذكره صاحب «الشهاب»، وهو حديث صحيح(١). وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمعاذ لمَّا وجَّهَه إلى أرض اليمن: «واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فليس بينها وبينَ اللهِ حجاب»(٢) وفي كتاب «الشهاب»: «اتَّقوا دعوةَ المظلومِ فإنَّها تُحمَلُ على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى: وعِزَّتي وجلالي لأنصُرَنَّكِ ولو بعد حين» وهو صحيحٌ أيضاً(٣). وخرَّجَ الآجُرِّي من حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «فإنِّي لا أرُدُّها ولو كانت من فَمِ كافر»(٤) فيُجيبُ المظلومَ لموضع إخلاصِه بضرورتِه بمقتضى كرمه، وإجابةً لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً في دينه؛ ففجورُ الفاجر وكفرُ الكافر لا يعودُ منه نقصٌ ولا وهنٌ على مملكة سيِّده، فلا يمنعه ما قضى للمضطرِّ من إجابته. وفُسِّرَ إجابةُ دعوة المظلوم بالنُّصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهرٍ له، أو اقتصاصٍ منه، أو تسليطِ ظالمٍ أخرَ عليه يقهره كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ

---

(١) مسند الشهاب (٣١٦) من حديث أبي هريرة ﵁. وأخرجه أحمد (٧٥١٠).

(٢) صحيح مسلم (١٩) من حديث ابن عباس ﵄. وأخرجه أحمد (٢٠٧١)، والبخاري (١٤٩٦).

(٣) مسند الشهاب (٧٣٣) من حديث خزيمة بن ثابت ﵁. وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة ﵁ أخرجه أحمد (٨٠٤٣).

(٤) لم نقف عليه عند الآجري في الشريعة، وأخرجه ابن حبان (٣٦١)، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢ ، وكذبه أبو زرعة كما في الميزان ١/ ٧٣ .

ولم شاهد ضعيف لا يفرح به عن أنس بن مالك ﵁، وهو في مسند أحمد (١٢٥٤٩).

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ [الأنعام: ١٢٩] وأكَّدَ سرعةَ إجابتها بقوله: «تُحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُوكِّلُ ملائكتَه بتلقِّي دعوةِ المظلوم وبحملِها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء ـ والسماء قبلةُ الدعاء ـ ليراها الملائكةُ كلُّهم، فيظهر منه معاونةُ المظلوم، وشفاعةٌ منهم له في إجابة دعوته، رحمةً له. وفي هذا تحذيرٌ من الظُّلمِ جملةً؛ لِما فيه من سخطِ الله ومعصيتِه ومخالفةِ أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في «صحيح مسلم» وغيره: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا» الحديث[1]. فالمظلوم مضطرٌّ، ويقرب منه المسافر؛ لأنَّه مُنقطعٌ عن الأهل والوطن، مُنفرِدٌ عن الصديق والحميم، لا يسكنُ قلبه إلى مُسعِدٍ ولا مُعينٍ لِغُربته، فتصدُقُ ضرورتُه إلى المولى، فيُخلِصُ إليه في اللَّجاء، وهو المجيبُ للمضطرِّ إذا دعاه، وكذلك دعوةُ الوالدِ على ولده، لا تصدرُ منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلَّا عند تكاملِ عَجْزِه عنه، وصدقِ ضرورتِه، وإياسِه عن برِّ ولده، مع وجود أذيَّتِه، فيُسرِعُ الحقُّ إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الضُّرَّ. وقال الكلبي: الجور[2]. ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: سُكَّانَها يُهلِكُ قوماً ويُنشئ آخرين[3]. وفي كتاب النقَّاش: أي: ويجعل أولادَكم خلَفاً منكم. وقال الكلبي: خلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم[4]. ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ على جهة التوبيخ، كأنه قال: أمَعَ اللهِ ـ ويلَكم ـ إلهٌ؟ فـ «إلهٌ» مرفوعٌ بـ «مع»، ويجوز أن يكونَ مرفوعاً بإضمار أإلهٌ مع الله يفعل ذلك فتعبدوه. والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[5]. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٦٧).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٣.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩.

ويعقوب: «يَذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبرَ فيما قبلها وبعدها، واختاره أبو حاتم. الباقون بالتاء خطاباً لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يرشدكم الطريق ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجَّهون إليها بالليل والنهار. وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلامَ لها، ولُججَ البحار كأنَّها ظلمات؛ لأنه ليس لها عَلَمٌ يُهتدى به. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: قُدَّام المطر باتفاق أهل التأويل[(٢)]. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويُعينه عليه ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يُقِرُّون أنه الخالق الرازق، فألزمهم الإعادة، أي: إذا قدِرَ على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم أنَّ لي شريكاً، أو: حُجَّتكم في أنَّه صنعَ أحدٌ شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبَه على الخلق، ولم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ، لئلَّا يأمنَ أحدٌ من عبيده مكرَه. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبيَّ ﷺ عن قيام الساعة[(٤)]. و«مَنْ» في موضع رفع،

---

(١) السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٣.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٦.

والمعنى: قُلْ: لا يعلَمُ أحدٌ الغيبَ إلّا الله، فإنه بدَلٌ من «مَن». قاله الزجّاج[١]. الفرّاء[٢]: وإنما رفَعَ ما بعد «إلا» لأنَّ ما قبلها جحدٌ، كقوله: ما ذهبَ أحدٌ إلّا أبوك. والمعنى واحد. قال الزجّاج[٣]: ومَنْ نصبَ نصبَ على الاستثناء؛ يعني: في الكلام. قال النحّاس[٤]: وسمعتُه يحتجُّ بهذه الآية على مَنْ صدَّق منجِّماً، وقال: أخافُ أن يكفر بهذه الآية.

قلت: وقد مضى هذا في «الأنعام»[٥] مستوفى. وقالت عائشة: مَنْ زعمَ أنَّ محمداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظَمَ على الله الفِرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ خرَّجه مسلم[٦]. ورُوِيَ أنه دخل على الحجَّاجِ منجِّمٌ فاعتقله الحجَّاج، ثم أخذ حَصياتٍ فعدَّهُنَّ، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسبَ المنجِّم ثم قال: كذا؛ فأصاب، ثم اعتقلَه فأخذ حَصياتٍ لم يَعدَّهُنَّ فقال: كم في يدي؟ فحسبَ فأخطأ، ثم حسبَ فأخطأ، ثم قال: أيها الأمير، أظنُّك لاتعرِفُ عددَها؟ قال: لا. قال: فإني لا أُصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إنَّ ذلك أحصيتَه فخرج عن حدِّ الغيب، وهذا لم تُحصِه فهو غيبٌ، و﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وقد مضى هذا في «آل عمران»[٧] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[٨]. وقرأ أبو جعفر وابن

---

(١) فيما نقل عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/٢١٨، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/١٢٧ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٤/١٢٧.

(٤) في إعراب القرآن ١٣/١٨.

(٥) ٨/٤٠٠ - ٤٠٧.

(٦) في صحيحه (١٧٧)، وقد سلف ٨/٤٠١.

(٧) ٥/٢٧.

(٨) قراءة عاصم ونافع وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٥، والتيسير ص١٦٨.

كثير وأبو عمرو وحميد: «بَلْ أَدْرَكَ» من الإدراك[١]. وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: «بَلَ ادَّرَكَ» غير مهموزٍ مشدَّداً[٢]. وقرأ ابن مُحيصن: «بَلْ آدْرَكَ»[٣] على الاستفهام. وقرأ ابن عباس: «بَلَى» بإثبات الياء «أَدَّارَكَ» بهمزة قطع والدال مشدَّدة وألف بعدها؛ قال النحَّاس: وإسناده إسنادٌ صحيح، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس. وزعم هارون القارئ أنَّ قراءة أبيٍّ «بَلْ تَدارَكَ عِلْمُهُمْ»[٤]. وحكى الثعلبيُّ أنها في حرف أبيٍّ: «أم تدارك» والعرب تضعُ (بَلْ) موضع (أم) و(أم) موضع (بل) إذا كان في أوّل الكلام استفهامٌ، كقول الشاعر:

فـوالـلـهِ لا أدري أسـلـمـى تـغـوَّلَـتْ[٥] أمِ الـقــولُ أم كــلٌّ إلـيَّ حـبـيـبُ

أي: بل كلٌّ[٦]. قال النحَّاس[٧]: القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد؛ لأنَّ أصل «ادَّارَكَ» تدارك؛ أُدغمتِ الدالُ في التاء، وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهماأنَّ المعنى: بل تكامَلَ علمهم في الآخرة؛ لأنَّهم رأَوا كلَّ ما وُعِدوا به معاينةً، فتكاملَ عِلمُهم به. والقول الآخر: أنَّ المعنى: بل تتابعَ عِلمُهم اليومَ في الآخرة، فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون. القراءة الثانية فيها أيضاً قولان: أحدهما

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٤٨٥، والتيسير ص١٦٨. وقراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٣٩. قلنا: وما سوى هذه القراءة والتي قبلها فهو من القراءات الشاذة.

(٢) بل بغير تشديدٍ هنا؛ لأن قراءة التشديد سيذكرها المصنف قريباً، وهي ـ بالتخفيف والتشديد ـ في المحتسب ٢/ ١٤٢ عن سليمان بن يسار وعطاء بن السائب.

(٣) وقع في (م): «آادَّرَكَ»، والمثبت من المصادر. وهي في الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٢ وزاد في نسبتها إلى أبي رجاء والحسن وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨ وزاد في نسبتها إلى ابن عباس والحسن.

(٤) وهي في المحتسب ٢/ ١٤٢، والشاذة ص١١٠.

(٥) في (م): تقولت، والتصويب من معاني القرآن للفراء ١/ ٧٢ و٢/ ٢٩٩، وتفسير الطبري ٢/ ٤١٣ و١٨/ ١١١. تغولت المرأة: تلونت. اللسان (غول).

(٦) وحكاه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٩. وقراءة أُبي في الشاذة ص١١٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨.

(٧) من قوله: وحكى الثعلبي:... إلى هذا الموضع من (م).

أنَّ معناه: كمل في الآخرة، وهو مثل الأوّل؛ قال مجاهد: معناه: يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار، وهو مذهب أبي إسحاق؛ واستدلَّ على صحة هذا القول بأنَّ بعده ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[(١)] أي: لم يُدرِكْ علمُهم علمَ الآخرة. وقيل: بل ضلَّ وغابَ علمُهم في الآخرة فليس لهم فيها علم. والقراءة الثالثة: «بَلِ ادَّرَكَ» فهي بمعنى «بَلِ ادَّارَكَ» وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنى[(٢)]؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا. القراءة الرابعة: ليس فيها إلَّا قولٌ واحدٌ يكون فيه معنى الإنكار، كما تقول: أ أنا قاتلتُكَ؟! فيكون المعنى: لم يدرك، وعليه ترجع قراءةُ ابن عباس؛ قال ابن عباس: «بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الْآخرَةِ» أي: لم يُدرِكْ. قال الفرَّاء: وهو قولٌ حسنٌ، كأنَّه وجَّهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك لرجلٍ تُكذِّبه: بَلَى لعمري قد أدركتَ السَّلَفَ فأنت تَروي ما لا أروي! وأنت تُكذِّبه[(٣)]. وقراءةٌ سابعة: «بَلَ ادَّرَكَ» بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخِفَّتِها. وقد حُكي نحوُ ذلك عن قطرب في ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و(بعَ الثوبَ) ونحوه[(٤)]. وذكر الزمخشري في الكتاب[(٥)]: وقُرئ «بَلْ أَأَدَّرَكَ» بهمزتين «بَلْ آ أَدَّرَكَ» بألف بينهما «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» «أَمْ تَدَارَكَ» «أَمْ أَدَّرَكَ» فهذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يُعلِّلُ وجوهَ القراءات وقال: فإنْ قلتَ: فما وجهُ قراءة «بَلْ أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام؟ قلتَ: هو استفهامٌ على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: «أَمْ أَدَّرَكَ» و«أَمْ تَدَارَكَ» لأنها أم التي

(١) من بداية تفسير الآية إلى هذا الموضع ـ سوى ما حكاه الثعلبي وقول مجاهد ـ من إعراب القرآن ٣/٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٦٨ . وذُكرتْ هذه القراءة في السبعة ص٤٨٥ عن الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. وهي في الشاذة ص١١٠ عن الحسن والأعرج.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٢٩٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٤٣ .

(٥) الكشاف ٣/١٥٦ - ١٥٧ .

بمعنى بل والهمزة، وأما من قرأ: «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر عِلْمَهم بكونها، وإذا أنكر عِلْمَهم بكونها لم يتحصَّلْ لهم شعورٌ وقتَ كونها؛ لأنَّ العلمَ بوقت الكائن تابعٌ للعلم بكون الكائن. «في الْآخرَةِ» في شأن الآخرة ومعناها.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: في الدنيا .﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بقلوبهم، واحدهم عمو. وقيل: عَمٍ[١]، وأصله عميون؛ حُذِفَتِ الياءُ لالتقاء الساكنين، ولم يَجُزْ تحريكُها لِثِقَلِ الحركةِ فيها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة[٣]. ﴿إذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنا أينَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة: «العنكبوت»[٤]. وقرأ أبو عمرو باستفهامين، إلا أنَّه خفَّف الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضاً باستفهامين إلَّا أنهما حقَّقا الهمزتين، وكلُّ ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحد. وقرأ الكسائي وابن عامر ورُويس ويعقوب: «أئِذَا» بهمزتين «إنَّنَا» بنونين على الخبر في هذه السورة، وفي سورة «العنكبوت» باستفهامين[٥]؛ قال أبو جعفر النحّاس[٦]: القراءةُ «إذاَ كُنَّا تُراباً وآباؤُنا آينَّا لَمُخْرَجُونَ» موافقةٌ للخطِّ حسنةٌ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال: وهذا معنى كلامه: «إذَا» ليس باستفهام و«آينَّا» استفهام، وفيه «إنَّ» فكيف يجوز أن يعمل ما في

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٦.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) الآية (٢٩).

(٥) السبعة ص٤٨٥ و٤٩٩، والتيسير ص١٦٩ و١٧٣، والنشر ١/ ٣٧٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠، وما قبله منه.

حيِّزِ الاستفهام فيما قبله؟! فإذا كان فيه استفهامٌ كان أبعد، وهذا إذا سُئِلَ عنه كان مُشكلاً لِما ذكره. وقال أبو جعفر: وسمعت محمد بن الوليد يقول: سألنا أبا العباس عن آيةٍ من القرآن صعبةٍ مُشكِلةٍ، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٨] فقال: إن عمل في «إِذَا» «ينبئكم» كان مُحالاً؛ لأنه لا يُنبِّئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد «إنَّ» كان المعنى صحيحاً وكان خطأً في العربية أن يعمل ما قبل «إنَّ» فيما بعدها؛ وهذا سؤالٌ بيِّنٌ رأيتُ أن يُذكَرَ في السورة التي هو فيها، فأما أبو عبيد فمالَ إلى قراءة نافع وردَّ على مَنْ جمع بين استفهامين، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وبقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وهذا الردُّ على أبي عمرو وعاصم وحمزة وطلحة والأعرج لا يلزَمُ منه شيء، ولا يُشبه ما جاء به من الآيةِ شيئاً، والفرق بينهما أنَّ الشرطَ وجوابَه بمنزلة شيءٍ واحد، ومعنى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾: أفإن مِتَّ خلدوا. ونظير هذا: أَزَيْدٌ مُنطلِقٌ، ولا يُقال: أزيدٌ أمنطلقٌ؛ لأنها بمنزلة شيءٍ واحدٍ وليس كذلك الآية؛ لأنَّ الثاني جملةٌ قائمةٌ بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأوَّلُ كلامٌ يصلح فيه الاستفهام، فأمَّا مَنْ حذَفَ الاستفهامَ من الثاني وأثبته في الأول فقرأ: «أئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا» فحذفه من الثاني؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقدَّم في سورة «المؤمنون»[1]. وكانت الأنبياء يُقرِّبون أمر البعث مبالغةً في التحذير، وكلُّ ما هو آتٍ فقريب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: «قُلْ» لهؤلاءِ الكفار «سِيرُوا» في بلاد

(١) ١٥/ ٧٨.

الشام والحجاز واليمن. ﴿فَانظُرُوا﴾ أي: بقلوبكم وبصائركم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لرسلهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج[1] ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة[2]، وقد تقدَّم ذِكْرُهم[3]. وقرئ: «فِي ضِيقٍ» بالكسر، وقد مضى في آخر «النحل»[4]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: اقترب لكم ودنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: من العذاب. قاله ابن عباس[5]. وهو من رَدِفَه إذا تبعه وجاء في أثره، وتكون اللام أُدخِلَتْ لأنَّ المعنى: اقترب لكم ودنا لكم. أو تكون متعلقةً بالمصدر[6]. وقيل: معناه: معكم. وقال ابن شجرة: تبعكم، ومنه رِدْفُ المرأة؛ لأنه تَبَعٌ لها من خلفها، ومنه قول أبي ذُؤيب:

عادَ السوادُ بياضاً في مَفارِقِهِ ... لا مَرْحباً ببياضِ الشَّيْبِ إذْ رَدِفا[7]

قال الجوهري[8]: وَأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ في رَدِفَه، مثل تَبِعَه وأتبَعَه بمعنى؛ قال خُزيمة

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٨.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٣) ١٢/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٤) ١٢/ ٤٦٤.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٧.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٨) في الصحاح (ردف).

ابن مالك بن نَهد:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّريَّا ظَننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا[١]

يعني فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن.

وقال الفرَّاء[٢]: «رَدِفَ لَكُمْ»: دنا لكم؛ ولهذا قال: «لَكُمْ». وقيل: رَدِفه ورَدِف له بمعنًى فتُزاد اللامُ للتوكيد. عن الفرَّاء أيضاً[٣]. كما تقول: نَقَدْتُه ونَقَدْتُ له، وكِلْتُه ووَزَنْتُه، وكِلْتُ له ووزَنْتُ له، ونحو ذلك. ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِن العذابِ، فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر[٤]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه ونِعَمَه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفي صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يُظهِرون من الأمور. وقرأ ابن مُحيصن وحميد: «مَا تَكُنُّ» من كننتُ الشيء إذا سترتُه، هنا وفي «القصص»[٥] تقديرُه: ما تَكُنُّ صدورُهم عليه، وكأنَّ الضميرَ الذي في الصدور كالجسم الساتر. ومن قرأ: «تُكِنُّ» فهو المعروف؛ يقال: أكننتَ الشيء إذا أخفيتَه في نفسك[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الحسن: الغائبة: هنا: القيامة. وقيل: ما غابَ عنهم من عذاب السماء والأرض. حكاه النقَّاش. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا: ما أخفى الله تعالى عن خلقِه وغيَّبه عنهم،

---

(١) البيت في الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٩.

(٣) نقله عنه البغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٧ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٥) عند الآية (٦٩).

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٤ بنحوه، وقد نسب القراءة إلى ابن محيصن وابن السميفع اليماني، وكذلك في الشاذة ص١١٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٩.

وهذا عام(١). وإنَّما دخلتِ الهاءُ في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع، أي: ما من خَصْلةٍ غائبةٍ عن الخلق إلَّا واللهُ عالِمٌ بها قد أثبتها في أمِّ الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونه. وقيل: أي: كلُّ شيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتاب يُخرجه للأجل المؤجَّلِ له، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجلٌ مضروبٌ لا يتأخَّر عنه ولا يتقدَّم عليه. والكتاب: اللوح المحفوظ، أثبتَ اللهُ فيه ما أراد؛ لِيُعلِمَ بذلك من يشاء من ملائكته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنَّهم اختلفوا في كثيرٍ من الأشياء حتى لعن بعضُهم بعضاً، فنزلت. والمعنى: إنَّ هذا القرآن يُبيِّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به(٢)، وذلك ما حرَّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن(٣) ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ المؤمنين لأنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيُجازي المُحِقَّ والمُبطل(٤). وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيُظهِرُ ما حرَّفوه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الغالب الذي لا يُرَدُّ أمره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧.

شيء[١].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوِّضْ إليه أمرَك واعتمِدْ عليه؛ فإنَّه ناصِرُك[٢]. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر[٣]. وقيل: المُظهِرُ لمن تدبَّرَ وجه الصواب. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني الكفار؛ لتركهم التَّدبُّر، فهم كالموتى لا حِسَّ لهم ولا عقل. وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصُّمِّ عن قبول المواعظ، فإذا دُعوا إلى الخير أعرضوا وولَّوا كأنهم لا يسمعون، نظيره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ كما تقدَّم[٤].

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو: «وَلا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم «الصُّمُّ» رفعاً على الفاعل[٥]. الباقون: «تُسْمِعُ» مضارعُ أسمعتَ «الصُّمَّ» نصباً.

مسألة: وقد احتجَّت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أنَّ النبيَّ ﷺ أسمعَ موتى بدرٍ بهذه الآية، فنظرتْ في الأمر بقياسٍ عقليٍّ ووقفت مع هذه الآية. وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما أنتم بِأَسْمَعَ مِنْهم»[٦] قال ابن عطية: فيُشبه أنَّ قصةَ بدرٍ خرقُ عادةٍ لمحمدٍ ﷺ في أنْ رَدَّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقالَه، ولولا إخبارُ رسول الله ﷺ بسماعهم لَحملنا نداءه إيَّاهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفَرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦ .

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٤٩ .

(٤) ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) قراءة ابن كثير ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٤٨٦ ، وعن ابن كثير وحده في التيسير ص١٦٩ .

(٦) سلف ٩/ ٢٧٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

قلت: روى البخاري ﷺ: حدَّثني عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال: حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قَتادةَ قال: ذَكَر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أنَّ نبيَّ الله ﷺ أمرَ يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدرٍ خَبيثٍ مُخْبِث، وكان إذا ظهرَ على قومٍ أقام بالعَرْصَةِ ثلاثَ ليال، فلمَّا كان ببدرٍ اليومَ الثالثَ أمرَ براحلتِه فشُدَّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه، قالوا: ما نُرَى ينطلق إلَّا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، ويا فُلانَ بن فلانٍ، أيَسُرُّكم أنَّكم أطعتُم اللهَ ورسوله؛ فإنَّا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتُم ما وَعَد ربُّكم حقًّا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها! فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمَعَ لِما أقولُ منهم» قال قتادة: أحياهم اللهُ حتى أسمعهم قولَه توبيخاً وتصغيراً ونِقمةً وحسرةً وندماً. خرَّجه مسلم أيضاً(١). قال البخاري: حدَّثنا عثمان قال: حدَّثنا عَبْدة، عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر قال: وقفَ النبيُّ ﷺ على قَلِيب بدر فقال: «هل وجدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟» ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول» فذُكر ذلك لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: «إنَّهم الآن لَيعلمونَ أنَّ الذي كنتُ أقولُ لهم هو الحقُّ» ثم قرأتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية(٢). وقد عُورِضَتْ هذه الآية بقصة بدرٍ وبالسلام على القبور، وبما رُوِيَ في ذلك من أنَّ الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات، وبأنَّ الميت يسمع قَرْعَ النِّعال إذا انصرفوا عنه، إلى غير ذلك، فلو لم يسمَعِ الميتُ لم يُسلَّمْ عليه(٣). وهذا واضحٌ وقد

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٥). وأخرجه أحمد (١٦٣٥٩).

قال السندي في حاشيته على المسند: «في طَوِيٍّ»: في بئرٍ طَوِيٍّ بالحجارة أو غيرها. «مُخْبِث»: اسم فاعل من أخبث: إذا صاحب الخُبَثاء، أي: كان خبيثاً في ذاته، ثم صار أصحابه خبثاء أيضاً. «الرَّكي»: البئر. «أسرَّكم» أي: أظهَرَ لكم أنكم لو أطعتم كان خيراً. «ما تُكلِّمُ» أي: أيُّ كلامٍ تكلم وما فائدته.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٨٠ - ٣٩٨١). وأخرجه أحمد (٤٩٥٨)، ومسلم (٩٣٢): (٢٦). ورواية أحمد ليس فيها قراءة الآية.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

بيَّناه في كتاب «التذكرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: كفرهم، أي: ليس في وُسعِكَ خلق الإيمان في قلوبهم.

وقرأ حمزة: «وما أنْتَ تَهْدي الْعُمْيَ عَنْ ضَلالَتِهِمْ» كقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [يونس:٤٣]. الباقون: «بِهَادِي الْعُمْي» وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي «الروم»[٢] مثله[٣]. وكلُّهم وقفَ على «بِهَادِي» بالياء في هذه السورة وبغير ياء في «الروم» اتباعاً للمصحف، إلَّا يعقوب فإنه وقفَ فيهما جميعاً بالياء[٤]. وأجاز الفرَّاء وأبو حاتم: «وما أَنْتَ بهَادٍ الْعُمْيَ» وهي الأصل. وفي حرف عبد الله: «وَما أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ». ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تسمع[٥]. ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال ابن عباس: أي: إلَّا من خلقتَه للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ اختُلِفَ في معنى وقع القول وفي الدابة، فقيل: معنى «وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»: وجَبَ الغضبُ عليهم. قاله قتادة. وقال مجاهد: أي: حَقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقال ابن عمر وأبو

---

(١) ١/ ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) عند الآية (٥٣).

(٣) السبعة ص٤٨٦، والتيسير ص١٦٩.

(٤) النشر ٢/ ١٣٨ و١٣٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٠ -٢٢١.

سعيد الخدريّ رضي الله عنهما: إذا لم يأمُروا بالمعروف ويَنْهَوا عن المنكر وجَبَ السَّخطُ عليهم[(١)]. وقال عبد الله بن مسعود: وَقْعُ القولِ يكون بموت العلماء، وذهابِ العلم، ورفعِ القرآن. قال عبدالله: أكثروا تلاوةَ القرآن قبل أن يُرفَعَ. قالوا: هذه المصاحف تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قَفْراً، وينسون لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القولُ عليهم.

قلتُ: أسنده أبو بكر البزَّار قال: حدَّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقفي قال: حدَّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن موسى بن عُبيدة، عن صفوان بن سليم، عن [ناجية ابن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ][(٢)] أنه قال: أكْثِروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع ويَنسى الناسُ مكانَه، وأكْثِروا تلاوةَ القرآن من قبل أن يُرفَع. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه المصاحفُ تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: فيُصبحون فيقولون: كنَّا نتكلَّم بكلامٍ ونقول قولاً، فيرجعون إلى شعرِ الجاهلية وأحاديثِ الجاهلية، وذلك حين يقَعُ القولُ عليهم[(٣)]. وقيل: القولُ: هو قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] فوقوعُ القولِ وجوبُ العقاب على هؤلاء، فإذا صاروا إلى حَدٍّ لا تُقبَلُ توبتُهم ولا يولَدُ لهم ولدٌ مؤمنٌ فحينئذٍ تقوم القيامة. ذكره القُشيري.

وقول سادس: قالت حفصة بنت سيرين: سألتُ أبا العالية عن قول الله تعالى:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ . وقول ابن عمر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٥ ، والطبري ١٨/ ١٢٠ و١٢١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٥).

(٢) في جميع النسخ: «ابنٍ لعبد الله بن مسعود عنه عن أبيه» والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٤١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٦) من طريق موسى بن عبيدة، به.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٢٦) من طريق موسى بن سعد، عن ناجية، به.
وأخرجه عبد الرزاق (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ ، والطبراني في الكبير (٨٦٩٨ و٨٦٩٩ و٨٧٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٠٤ من طريق شداد بن معقل، عن ابن مسعود بنحوه. وصححه الذهبي في التلخيص.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ فقال: أوحى الله إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦] وكأنَّما كان على وجهي غطاءٌ فكُشِفَ. قال النحَّاس: وهذا من حُسن الجواب؛ لأنَّ الناس مُمتَحَنون ومُؤخَّرون؛ لأنَّ فيهم مؤمنين وصالحين، ومَنْ قد عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنه سيؤمن ويتوب؛ فلهذا أُمهِلوا وأُمِرْنا بِأَخْذِ الجزية، فإذا زالَ هذا وجبَ القولُ عليهم، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾(١).

قلت: وجميعُ الأقوال عند التأمُّلِ ترجع إلى معنًى واحد. والدليلُ عليه آخِرُ الآية: «إِنَّ النَّاسَ كانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ». وقُرِئ: «أَنَّ» بفتح الهمزة، وسيأتي. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ لا ينفَعُ نفساً إيمانُها [لم تكُنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيراً](٢): طلوعُ الشمس من مغربها، والدجال، ودابَّةُ الأرض» وقد مضى(٣). واختُلِفَ في تعيين هذه الدابة وصِفَتِها ومِنْ أين تخرجُ اختلافاً كثيراً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٤)، ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفًى. فأوّل الأقوال أنَّه فَصِيلُ ناقة صالح وهو أصحُّها ـ والله أعلم ـ لِما ذكره أبو داود الطيالسي في «مسنده» عن حذيفة قال: ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدابَّة فقال: «لها ثلاث خَرَجاتٍ من الدهر: فتخرجُ في أقصى البادية، ولا يدخلُ ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمنُ زماناً طويلاً، ثم تخرجُ خرجةً أخرى دون ذلك فيفشو ذِكْرُها في البادية، ويدخل ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ» قال رسول الله ﷺ: «ثمَّ بينما الناسُ في أعظم المساجد على الله حُرمةً خيرِها وأكرمِها على الله المسجدِ الحرامِ، لم يَرُعْهُم إلَّا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفُضُ عن رأسِها التراب،

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ وقول حفصة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣ ، والطبري ١٨/ ١٢٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩١).

(٢) ما بين حاصرتين من صحيح مسلم، وهو ليس في النسخ.

(٣) صحيح مسلم (١٥٨)، وقد سلف ٩/ ١٢٨ .

(٤) ٢/ ٦٩٦ - ٧٠٢ .

فارفَضَّ[١] الناسُ معها[٢] شتَّى ومعاً، وتثبتُ عصابةٌ من المؤمنين، وعرفوا أنهم لن يُعجزوا اللهَ، فبدأتْ بهم فجَلَّتْ وُجوهَهم حتى جعلَتْها كأنَّها الكوكبُ الدُّرِّيُّ، وولَّتْ في الأرض لا يُدرِكُها طالبٌ، ولا ينجو منها هارب، حتى إنَّ الرَّجلَ لَيتعوَّذُ منها بالصلاة فتأتيه مِنْ خلفِه فتقول: يا فلان، الآن تُصلِّي؟ فتُقبِلُ عليه فتَسِمُه في وجهه، ثم تنطلِقُ، ويشترك الناسُ في الأموال، ويصطحبون[٣] في الأمصار، يُعرَفُ المؤمنُ من الكافر، حتى إنَّ المؤمن يقول: «يا كافر اقْضِ حَقِّي»[٤] وموضعُ الدليلِ من هذا الحديث أنَّه الفصيل قولُه: «وهي ترغو» والرُّغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أنَّ الفصيلَ لمَّا قتلت الناقة هرب، فانفتح له حجرٌ فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عزَّ وجلَّ. ورُويَ أنَّها دابةٌ مزغبةٌ شعراء، ذاتُ قوائم[٥]، طولُها ستون ذراعاً[٦]، ويقال: إنها الجساسة. وهو قول عبد الله بن عمر[٧]. ورُوي عن ابن عمر

---

(١) أي: تفرق. النهاية (رفض).

(٢) في النسخ: منها. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٣) في النسخ: ويصطلحون. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٤) مسند الطيالسي (١٠٦٩). بإسنادين: الأول: عن جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن رجل من آل مسعود، عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً. في إسناده إبهام الراوي عن حذيفة. والثاني: عن طلحة بن عمرو، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبي الطفيل، عن حذيفة مرفوعاً. طلحة بن عمرو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٠ - ٣٤٢ .وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٣) من طريق الطيالسي، بالإسنادين معاً.

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٣٤٥)، والطبراني في الكبير (٣٠٣٥)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٨ من طريق طلحة بن عمرو، به.

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٤ والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ من طريق واصل مولى ابن عيينة، كلاهما عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد موقوفاً، والفاكهي (٢٣٤٤)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ من طريق قيس بن سعد، والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ عن ابن عباس ﷺ، وزاد المسير ٦/ ١٩١ عن مقاتل.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٠ عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعاً.

(٧) الكشاف ٣/ ١٥٩ .

أنها على خِلقة الآدميين، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. ورُوِيَ أنها جُمِعتْ من خلقِ كلِّ حيوان[١].

وذكر الماوردي[٢] والثعلبي: رأسُها رأسُ ثور، وعينُها عينُ خنزير، وأذنُها أذنُ فيل، وقرنُها قرنُ أيل، وعنقُها عنقُ نعامة، وصدرُها صدرُأسد، ولونُها لونُ نمر، وخاصرتها خاصرةُ هِرّ، وذنبُها ذنبُ كبش، وقوائمُها قوائمُ بعير، بين كلِّ مَفْصلٍ اثنا عشر ذراعاً ـ الزمخشري[٣]: بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتنكتُ في وجه المسلم بعصا موسى نكتةً بيضاء فيبيَضُّ وجهُه، وتنكتُ في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسوَدُّ وجهُه. قاله أبو الزبير[٤].

وفي كتاب النقَّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الدابةَ الثعبانُ المشرفُ على جدار الكعبة التي اقتلعَتْها العُقاب حين أرادت قريشٌ بناءَ الكعبة[٥].

وحكى الماورديُّ[٦] عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سُئِلَ عن الدابةِ فقال: أما واللهِ ما لها ذنَبٌ وإنَّ لها لَلِحية. قال الماوردي: وفي هذا القول منه إشارةٌ إلى أنَّها من الإنس وإن لم يُصرِّحْ به.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين: إنَّ الأقربَ أن تكون هذه الدابةُ إنساناً متكلِّماً يُناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلِكَ من هَلكَ عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٩٠، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٧).

(٣) في الكشاف ٣/ ١٦٠.

(٤) وهو محمد بن مسلم بن تدرس، وقد وقع في النسخ: ابن الزبير، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم وزاد المسير.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧١.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٦).

القرطبي في كتاب «المفهم»[(١)] له: وإنَّما كان عند هذا القائلِ الأقربُ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آيةٌ خاصةٌ خارقةٌ للعادة، ولا يكون من العشر الآياتِ المذكورة في الحديث؛ لأنَّ وجودَ المُناظرين والمُحتَجِّين على أهل البدع كثيرٌ، فلا آيَةَ خاصةٌ بها، فلا ينبغي أن تُذكَرَ مع العشر، وترتفعُ خصوصيةُ وجودِها إذا وقعَ القولُ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظرِ الفاضلِ العالِمِ الذي على أهل الأرض أن يُسمُّوه باسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يُسمَّى بدابَّة، وهذا خروجٌ عن عادة الفُصحاء، وعن تعظيم العُلماء، وليس ذلك دأبُ العقلاء، فالأولى ما قاله أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور.

قلتُ: قد رفعَ الإشكالَ في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليُعتمَدْ عليه. واختُلِفَ من أيِّ موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر: تخرج من جبل الصفا بمكة؛ يتصدَّعُ فتخرج منه[(٢)]. قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال: لو شئتُ أن أضعَ قدمي على موضع خروجِها لفعلتُ[(٣)]. وروى في خبرٍ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الأرضَ تنشَقُّ عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وأنَّها تخرج من الصفا فتَسِمُ بين عينَي المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وتَسِمُ بين عينَي الكافر نكتةً سوداء كافر» وذكر في الخبر أنها ذاتُ وبرٍ وريش. ذكره المهدوي[(٤)]. وعن ابن عباس أنَّها تخرج من شعْبٍ فتَمسُّ رأسَها السحابُ ورجلاها في الأرض لم تخرجا[(٥)]، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام[(٦)].

---

(١) ٧/ ٢٤٠ - ٢٤١، وما قبله منه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١، وزاد المسير ٦/ ١٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤.

(٤) وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤ - ١٢٥ من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧)، وابن ماجه (٤٠٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبد الله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبدالله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وعن حذيفة: تخرجُ ثلاث خرجات: خرجةٌ في بعض البوادي ثم تَكمُن، وخرجةٌ في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجةٌ من أعظم المساجد وأكرمِها وأشرفِها وأفضلِها(١). الزمخشري: تخرج من بين الركن حِذاءَ دارِ بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقومٌ يهربون، وقومٌ يقفون نَظَّارة(٢). ورُويَ عن قتادة أنَّها تخرج في تهامة. ورُويَ أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فارَ تنُّور نوحٍ عليه السلام(٣). وقيل: من أرض الطائف؛ قال أبو قَبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرضَ الطائف برجله وقال: مِنْ هنا تخرجُ الدابَّةُ التي تُكلِّم الناس. وقيل: من بعض أودية تهامة. قاله ابن عباس. وقيل: من صخرة من شِعْب أجياد. قاله عبد الله بن عمرو. وقيل: من بحر سَدُوم. قاله وهب بن مُنبِّه. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه(٤). وذكر البغويُّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدَّثنا عليُّ بن الجَعْد، عن فُضيل بن مرزوق الرَّقاشيِّ الأغرِّ ـ وسُئِلَ عنه يحيى بن مَعين فقال: ثقة ـ عن عطية العوفي، عن ابن عمر قال: تخرجُ الدابَّةُ من صدعٍ في الكعبة كجَرْيِ الفرس ثلاثةَ أيامٍ لا يخرجُ ثلثُها(٥).

قلت: فهذه أقوالُ الصحابة والتابعين في خروج الدابَّةِ وصفتِها، وهي تردُّ قولَ مَنْ قال من المفسرين: إنَّ الدابَّةَ إنما هي إنسانٌ متكلِّمٌ يناظرُ أهلَ البدع والكفر. وقد روى أبو أُمامةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تخرجُ الدابَّةُ فتَسِمُ الناسَ على خراطيمهم» ذكره الماوردي(٦). «تُكَلِّمُهُم» بضمِّ التاء وشدِّ اللام المكسورة ـ من الكلام ـ قراءةُ العامَّةَ،

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٣ وغيره، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٧ .

(٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (٢٠٩١)، والطبري ١٨/ ١٢١ - ١٢٢ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٠١)، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٣٠ . وفي إسناده عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٧٩ - ٨٠ .

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٧ . وأخرجه أحمد (٢٢٣٠٨).

يدلُّ عليه قراءة أُبيٍّ: «تُنَبِّئُهُمْ»[(١)] وقال السُّدِّي: تُكلِّمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام[(٢)]. وقيل: تُكلِّمهم بما يسوءهم[(٣)]. وقيل: تُكلِّمهم بلسانٍ ذَلِقٍ فتقول بصوتٍ يسمعه مَنْ قَرُبَ وبَعُد: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بخروجي؛ لأنَّ خروجَها من الآيات. وتقول: ألا لعنةُ الله عل الظالمين[(٤)].

وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء[(٥)] من الكَلْمِ وهو الجرح؛ قال عكرمة: أي: تَسِمُهم. وقال أبو الجوزاء: سألتُ ابن عباس عن هذه الآية «تُكَلِّمُهُمْ» أو «تَكْلِمُهُمْ»؟ فقال: هي واللهِ تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أي: تجرحه. وقال أبو حاتم. «تُكَلِّمُهُمْ» كما تقول: تُجَرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثيرٌ من «تَكْلِمُهُم». ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيى: «أن» بالفتح[(٦)]. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة: «إن» بكسر الهمزة[(٧)]. قال النحَّاس[(٨)]: في المفتوحة قولان وكذا المكسورة؛ قال الأخفش[(٩)]: المعنى بأنَّ. وكذا قرأ ابن مسعود «بأَنَّ»[(١٠)]. وقال أبو عبيد[(١١)]:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ .

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥١ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ - ٢٢٢ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري وعكرمة وطلحة. وفي المحتسب ٢/ ١٤٤ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري ومجاهد وسعيد بن جبير. وفي الشاذة ص١١٠ عن أبي زرعة وابن عباس ومجاهد. وفي تفسير البغوي عن أبي رجاء ومجاهد وسعيد بن جبير.

(٦) قراءة الكوفيين ـ وهم عاصم وحمزة والكسائي ـ في السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٧) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو البصري، وهي في السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ ، وما قبله منه.

(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٦٥١ .

(١٠) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، والشاذة ص١١٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ ونسبها أيضاً إلى أبي عمران الجوني.

(١١) في (د) و(م): أبو عبيدة. والمثبت من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضعها نصبٌ بوقوع الفعل عليها، أي: تُخبرهم أنَّ الناس. وقرأ الكسائي والفَّراء: «إنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف. وقال الأخفش: هي بمعنى تقول: إن الناس؛ يعني الكفار.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمدٍ ﷺ، وذلك حين لا يقبل اللهُ من كافرٍ إيماناً ولم يبقَ إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: زمرةً وجماعةً[1]. ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: بالقرآن وبأعلامنا الدالَّةِ على الحق.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُدفَعون ويُساقون إلى موضع الحساب؛ قال الشَّماخ:

وكَم وَزَعْنَا من خَميسٍ جَحْفَلِ وكَمْ حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ[2]

وقال قتادة: «يُوزَعُون» أي: يُردُّ أولُهم على آخرهم[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ أي: قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ التي أنزلتُها على رسلي، وبالآيات التي أقمتُها دلالةً على توحيدي .﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذَّبتم جاهلين غير مُستَدِلِّين. ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، أي: ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكَّروا ما فيها؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾أي: وجبَ العذابُ عليهم بظلمهم. أي: بشركهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: ليس لهم عذرٌ ولا حجةٌ. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون. قاله أكثر المفسرين[4].

---

(١) زاد المسير ٦/ ١٩٤ .

(٢) ملحق ديوان الشماخ ص٤٥٣. الخميس الجحفل: الجيش الكثير. والمِسْحَل: الشجاع. اللسان (خمس) و(جحفل) و(سحل).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٢٨ ، وما قبله منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: يستقِرُّون فيناممون. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يُبصَر فيه لسعي الرزق[1]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ باللهِ، ذَكَرَ الدّلالةَ على إلهيته وقدرته، أي: ألم يعلموا كمالَ قُدرتِنا فيؤمنوا؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: واذكُرْ يومَ، أو: ذَكِّرهمْ يومَ ينفخ في الصور. ومذهبُ الفرَّاء أنَّ المعنى: وذلكم يومَ ينفخ في الصور، وأجاز فيه الحذف[2]. والصحيح في الصور أنه قرنٌ من نورٍ ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن[3]. وقد مضى في «الأنعام»[4] بيانُه وما لِلعلماء في ذلك. ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لمَّا فرغَ من خلق السماوات خلقَ الصُّورَ فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضِعُه على فيه، شاخصٌ ببصرِه إلى العرش، ينتظر متى يؤمَرُ بالنفخة» قلتُ: يا رسولَ الله، ما الصُّور؟ قال: «قَرْنٌ واللهِ عظيمٌ، والذي بعثني بالحقِّ إنَّ عِظَمَ دارةٍ فيهِ كعرض السماء والأرض، فينفخُ فيه ثلاثَ نفخات: النفخةُ الأولى نفخةُ الفزع، والثانيةُ نفخةُ الصَّعْق، والثالثةُ نفخةُ البعثِ والقيامِ لربِّ العالمين» وذكر الحديث. ذكره

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٦، وزاد المسير ٦/ ١٩٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٠٧، وزاد المسير ٣/ ٦٨.

(٤) ٨/ ٤٣١ - ٤٣٢.

علي بن معبد[١] والطبري والثعلبي وغيرهم[٢]، وصحَّحه ابن العربي! وقد ذكرتُه في كتاب «التذكرة»[٣] وتكلَّمنا عليه هناك، وأنَّ الصحيح في النفخ في الصُّور أنَّهما نفختان لا ثلاث، وأنَّ نفخة الفزع إنما تكون راجعةً إلى نفخة الصَّعق؛ لأنَّ الأمرين لازمان لهما، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو: إلى نفخة البعث. وهو اختيار القشيري وغيره؛ فإنَّه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية، أي: يحيون فَزِعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس:٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولُهم ويُفزعهم، وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء. قاله قتادة[٤]. وقال الماورديّ[٥]: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: هو يوم النشور من القبور؛ قال: وفي هذا الفزع قولان: أحدُهما أنَّه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزِعتُ إليك في كذا إذا أسرعتُ إلى ندائك في معونتك. والقول الثاني: إنَّ الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنَّهم أُزعِجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا. وهذا أشبه القولين.

قلتُ: والسُّنةُ الثابتةُ من حديثِ أبي هريرة وحديثِ عبد الله بن عَمرو تدلُّ على

---

(١) هو علي بن معبد بن نوح البغدادي ثم المصري، إمام حافظ، توفي سنة ٢٥٩ هـ. السير ١٠/ ٦٣٢ - ٦٣٤.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٤ من طريق إسماعيل بن رافع المدني، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ضعيف الحفظ كما قال الحافظ في التقريب. قلنا: وقد اختلف عليه في إسناده اختلافاً كبيراً؛ قال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨ : مدار إسناده على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل مبهم ومحمد عن أبي هريرة، وتارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضاً. وينظر مصادر تخريجه في تفسير الطبري ٣/ ٦١٣ .

(٣) ١/ ١٧٣ .

(٤) عبارة: «قاله قتادة» من (م)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٩ .

أنهما نفختان لا ثلاث: خرَّجهما مسلم[١]، وقد ذكرناهما في كتاب «التذكرة»[٢] وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان؛ قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع، فدلَّ على أنهما واحدة. وقد روى المبارك[٣] عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بينَ النفختين أربعون سنةً؛ الأولى يُميت اللهُ بها كلَّ حيٍّ، والأُخرى يُحيي اللهُ بها كلَّ ميت»[٤] فإن قيل: فإن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات:٦-١٣] وهذا يقتضي بظاهره أنَّها ثلاث. قيل له: ليس كذلك، وإنَّما المرادُ بالزَّجرة النفخةُ الثانيةُ التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم. كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم.

قال مجاهد: هما صيحتان؛ أمَّا الأولى فتُميتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله، وأمَّا الأُخرى فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله. وقال عطاء: «الرَّاجِفَةُ»: القيامة، و«الرادِفَةُ»: البعث[٥]. وقال ابن زيد: «الراجفة»: الموت، و«الرادفة»: الساعة. والله أعلم[٦].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم اختُلِفَ في هذا المُستثنى مَنْ هم؛ ففي حديث أبي هريرة أنَّهم الشهداءُ عند ربهم يرزقون، إنَّما يصل الفزعُ إلى الأحياء. وهو قول سعيد بن

(١) في صحيحه (٢٣٧٣) و(٢٩٤٠)، وهما في مسند أحمد (٩٨٢١) و(٩٥٥٥).

(٢) ص١٦٥-١٦٧.

(٣) في جميع النسخ: ابن المبارك، وهو خطأ قديم في النسخ. والتصويب من السنن الواردة في الفتن.

(٤) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٧٢١) من طريق المبارك - وهو ابن فضالة - عن الحسن البصري، به. وإسناده مرسل. لكن أخرج البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. «ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ و٤٤٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

جُبير أنَّهم الشهداء مُتقلِّدون السيوف حول العرش[١]. وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأنَّ لهم الشهادةَ مع النبوَّة. وقيل: الملائكة. قال الحسن: استثنى طوائفَ من الملائكة يموتون بين النفختين. قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[٢]. وقيل: الحور العين[٣]. وقيل: هم المؤمنون؛ لأنَّ الله تعالى قال عُقيب هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. وقال بعض علمائنا: والصحيحُ أنَّه لم يَرِدْ في تعيينهم خبرٌ صحيحٌ والكلُّ مُحتَمِلٌ.

قلت: خفيَ عليه حديثُ أبي هريرة وقد صحَّحه القاضي أبو بكر بن العربي فليُعَوَّلْ عليه؛ لأنَّه نصٌّ في التعيين، وغيرُه اجتهاد. والله أعلم. وقيلَ غيرُ هذا على ما يأتي في «الزُّمَر»[٤].

وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ماضٍ، و«يُنْفَخُ» مستقبلٌ، فيُقال: كيف عطفَ ماضٍ على مستقبل؟ فزعمَ الفرَّاء أنَّ هذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إذا نفخ في الصور ففزع. «إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ» نصبٌ على الاستثناء. ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وابن عامر وابن كثير: «آتُوهُ» جعلوه فعلاً مستقبلاً. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» مقصوراً على الفعل الماضي[٥]، وكذلك قراءة ابن مسعود[٦]. وعن قتادة: «وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ»[٧]. قال النحَّاس[٨]: وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات: [من قرأ][٩]: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ»

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ .

(٢) قول مقاتل في الوسيط٣/ ٣٨٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣١ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٥ .

(٣) زاد المسير ٦/ ١٩٥ .

(٤) عند تفسير الآية (٦٨) .

(٥) السبعة ص ٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ دون قراءة الأعمش ويحيى.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٢ .

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، والشاذة ص١١١ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وما قبله منه سوى قراءة ابن مسعود وقتادة.

(٩) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن، وهو ليس في النسخ.

وحَّده على لفظ «كُلّ»، ومن قرأ: «آتُوهُ» جمع على معناها، وهذا القول غلطٌ قبيح؛ لأنَّه إذا قال: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» فلم يوحِّدْ وإنَّما جمع، ولو وحَّد لقال: «أَتَاهُ» ولكن من قال: «أَتَوْهُ» جمعَ على المعنى وجاء به ماضياً، لأنَّه رَدَّه إلى «فَفَزِعَ»، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتَوْهُ» حملَه على المعنى أيضاً وقال: «آتُوهُ» لأنها جملةٌ منقطعةٌ من الأول.

قال ابن نصر: قد حكى عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يَقُلْه، ونصُّ أبي إسحاق: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» ويقرأ: «آتُوهُ» فمن وحَّد فللفظ «كُلّ» ومن جمع فلمعناه؛ يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر «كلّ» فعلى اللفظ، أو جمعَ فعلى المعنى؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» فهو فعلٌ من الإتيان وحمل على معنى «كل» دون لفظها، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخرِينَ» فهو اسم الفاعل من أتى، يدلُّكَ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]. ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَاهُ» حملَه على لفظ «كلّ» دون معناها وحمل «دَاخِرِينَ» على المعنى، ومعناه: صاغرين. عن ابن عباس وقتادة. وقد مضى في «النحل»[١].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قال ابن عباس: أي: قائمةً وهي تسير سيراً حثيثاً[٢]. قال القُتبي[٣]: وذلك أنَّ الجبال تُجمَع وتُسيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير، وكذلك كلُّ شيءٍ عظيمٍ وجَمْعٍ كثيرٍ يَقصُرُ عنه النظر؛ لكثرته وبُعدِ ما بين أطرافه، وهو في حُسبان النَّاظرِ كالواقف وهو يسير. قال النابغة في وصف جيش:

بِأَرْعَنَ مثلِ الطَّودِ تَحسِبُ أنَّهم وُقوفٌ بِحَاجٍ والرِّكابُ تُهمِلِجُ[٤]

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٦.

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص٤ - ٥.

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص١٨٧ . الجيش الأرعن: المضطرب لكثرته. وتهملج من الهملجة: وهو حسن سير الدابة في سرعة. اللسان (رعن) و(هملج).

قال القُشيريّ: وهذا يوم القيامة، أي: هي لكثرتها كأنَّها جامدة، أي: واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسِها تسير سير السحاب، والسحابُ المتراكمُ يظنُّ أنها واقفةٌ وهي تسير، أي: تمرُّ مَرَّ السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. ويُقال: إنَّ الله تعالى وصف الجبال بصفاتٍ مختلفةٍ ترجع كلُّها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعِهن المنفوش، وذلك إذا صارتِ السماءُ كالمُهْل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ . وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩]. والحالة الثالثة أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطَّع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدِّمة قارَّةٌ في مواضعها والأرض تحتها غيرُ بارزةٍ فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. والحالة الخامسة أنَّ الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعْدٍ حسِبَها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارَّةٌ إلاَّ أنَّ مرورَها من وراء الرياح كأنها مُندكَّةٌ مُتفتِّتة. والحالة السادسة أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مواضعها لم يجِدْ فيها شيئاً منها كالسراب. قال مقاتل: تقعُ على الأرض فتُسوَّى بها. ثم قيل: هذا مَثَلٌ. قال الماوردي[(١)]: وفيما[(٢)] ضُرِبَ له ثلاثةُ أقوال: أحدُها أنه مَثَلٌ ضربَه اللهُ تعالى للدنيا، يظنُّ الناظرُ إليها أنها واقفةٌ كالجبال، وهي آخذةٌ بحظِّها من الزوال كالحساب. قاله سهل بن عبد الله. الثاني: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعملُه صاعدٌ إلى السماء. الثالث: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: هذا من فِعْلِ الله، و[ما][(٣)] هو فعل منه فهو

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٠ .

(٢) في (م): وفيهما.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيه الكلام.

متقَن[(١)]. و«تَرَى» من رؤية العين، ولو كانت من رؤية القلب لتعدَّت إلى مفعولين. والأصلُ تَرْأَى، فأُلقيَتْ حركةُ الهمزة على الراء فتحرَّكتِ الرَّاءُ وحُذفَتِ الهمزة، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن، إلَّا أن التخفيف لازمٌ لِتَرى. وأهل الكوفة يقرؤون: «تَحْسَبُها» بفتح السين وهو القياس؛ لأنَّه من حَسِبَ يَحسَبُ إلَّا أنه قد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ خلافُها أنه قرأ بالكسر في المستقبل، فتكون على فَعِلَ يفعِلُ مثل نَعِمَ يَنعِمُ وبَئِسَ يبئِسُ، وحُكي: يَئِسَ يَيئِسُ من السالم، لا يُعرَفُ في كلام العرب غيرُ هذه الأحرف. «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» تقديرُه: مَرّاً مِثْلَ مَرِّ السحاب، فأُقيمتِ الصفةُ مقامَ الموصوف، والمضافُ مقامَ المضاف إليه؛ فالجبال تُزالُ من أماكنها من على وجه الأرض، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ عند الخليل وسيبويه منصوبٌ على أنه مصدر؛ لأنَّه لمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ دلَّ على أنه قد صنعَ ذلكَ صنعاً. ويجوز النصبُ على الإغراء، أي: انظروا صُنْعَ الله[(٢)] فيوقف على هذا «السَّحَابِ» ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل. ويجوز رفعُه على تقدير: ذلكَ صنعُ الله[(٣)]. ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكمه، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «رحمَ اللهُ من عمِلَ عملاً فأتقَنه»[(٤)]. وقال قتادة: معناه: أحسن كلَّ شيء[(٥)]. والإتقان: الإحكام؛ يُقال: رجلٌ تِقْنٌ أي: حاذِقٌ بالأشياء. وقال الأزهري[(٦)]: أصلُه من ابن تِقْن، وهو رجلٌ من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ دون قوله: فالجبال تزال... إلى قوله: «وبسَّتِ الجبال بسّاً».

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٠ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بلفظ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٩٨: فيه مصعب بن ثابت، وثَّقه ابن حيان، وضعَّفه جماعة.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ .

(٦) تحرف في النسخ إلى: الزهري، وكلام الأزهري الآتي في تهذيب اللغة ٩/ ٦٠ - ٦١ ، وما قبله منه أيضاً.

عاد لم يكُنْ يسقط له سهمٌ فضُرِبَ به المثل؛ يُقال: أَرْمَى من ابن تِقْن، ثم يُقال لكلِّ حاذقٍ بالأشياء: تِقْنٌ.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[١] بالتاء على الخطاب قراءةُ الجمهور، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنةُ: لا إله إلا الله[٣]. وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلِفُ بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله[٤]. وقال علي بن الحسين بن علي ﷺ: غزا رجلٌ، فكان إذا خلا بمكانٍ قال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، فبينما هو في أرض الروم في أرضٍ جلفاءَ وبَرْدى رفع صوتَه فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فخرجَ عليه رجلٌ على فرس عليه ثيابٌ بِيضٌ، فقال له: والذي نفسي بيده إنها الكلمةُ التي قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[٥]. وروى أبو ذَرٍّ قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني. قال: «اتَّقِ اللهَ، وإذا عَمِلتَ سيئةً فأتبِعْها حسنةً تَمْحُها» قال: قلتُ: يا رسول الله، أمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «من أفضل الحسنات» وفي رواية: قال: «نعم، هي أحسَنُ الحسنات» ذكره البيهقي[٦]. وقال قتادة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: بالإخلاص والتوحيد[٧]. وقيل: أداء الفرائض كلها[٨].

---

(١) بعدها في (م) زيادة عبارة: والباقون تفعلون.

(٢) السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٦٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤٠ عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٤٤) عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١، وذكره البغوي ٣/ ٤٣٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) في الأسماء والصفات (٢٠٢). وأخرجه أحمد (٢١٤٨٧).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣١.

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها ـ على ما تقدَّم بيانُه في سورة إبراهيم[١] ـ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: أي: وصل إليه الخير منها[٢]. وقاله مجاهد. وقيل: فله الجزاء الجميل وهو الجنة. وليس «خير» للتفضيل[٣]. قال عكرمة وابن جُريج: أمَّا أن يكونَ له خيرٌ منها يعني من الإيمان فلا؛ فإنَّه ليس شيءٌ خيراً ممن قال: لا إله إلا الله، ولكن له منها خير. وقيل: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ للتفضيل، أي: ثواب الله خيرٌ من عملِ العبد وقولِه وذِكْرِه، وكذلك رضوان الله خيرٌ للعبد من فعل العبد. قاله ابن عباس. وقيل: يرجع هذا إلى الإضعاف، فإنَّ الله تعالى يُعطيه بالواحدة عشراً، وبالإيمان في مدَّة يسيرةٍ الثوابَ الأبديّ. قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد[٤]. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرأ عاصم والكسائي «من فزعٍ يومَئِذٍ» بالتنوين وفَتْحِ الميم. نافعٌ بفتح الميم من غير تنوين. الباقون: «من[٥] فَزَعِ يَوْمَئِذٍ» بالإضافة[٦] قال أبو عبيد: وهذا أعجبُ إليَّ؛ لأنَّه أعَمُّ التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» صار كأنَّه فَزَعٌ دون فَزَعٍ دون فَزَعٍ. قال القشيري: وقُرئ: «مِنْ فَزَعٍ» بالتنوين، ثم قيل: يعني به فزعاً واحداً، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقيل: عن الكثرةَ؛ لأنه مصدرٌ، والمصدر صالحٌ للكثرة.

قلت: فَعَلى هذا تكون القراءتان بمعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بالتنوين انتصبَ «يَوْمَئِذٍ» بالمصدر الذي هو «فَزَعٍ»[٧]. ويجوز أن يكون صفةً

---

(١) ١٢/ ١٣٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٦ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ بنحوه.

(٥) ما بعد قوله: والكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو ليس في بقية النسخ.

(٦) السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٧٠ .

(٧) وقاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٢٢٨ .

لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف؛ لأنَّ المصادرَ يُخبَرُ عنها بأسماء الزمان وتُوصَفُ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ باسم الفاعل الذي هو «آمِنُونَ». والإضافة على الاتساع في الظروف. ومَنْ حذفَ التنوينَ وفتحَ الميمَ بناه؛ لأنَّه ظرفُ زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً، فلمَّا أُضيفَ إلى غير متمكِّنٍ ولا مُعرَبٍ بنى. وأنشد سيبويه[1]:

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَنَدلاً زُرَيْقَ المالِ نَدْلَ الثَّعالِبِ[2]

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك. قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماعٌ من أهل التأويل في أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله، وأن السيئةَ الشرك في هذه الآية[3]. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال ابن عباس: أُلقيت. وقال الضحَّاك: طُرِحت؛ يقال: كببتُ الإناءَ أي: قلبتُه على وجهه، واللازمُ منه أكَبَّ، وقلَّما يأتي هذا في كلام العرب. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: يُقال لهم: هل تُجزَون. ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة. ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا جزاءَ أعمالِكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعني مكة التي عظَّمَ اللهُ حرمتَها، أي: جعلها حرماً آمناً، لا يُسفَكُ فيها دم، ولا يُظلَمُ فيها أحد، ولا يُصادُ فيها صيد، ولا يُعضَدُ فيها شجر[4]، على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع. وقرأ

---

(١) في الكتاب ١/ ١١٦ .

(٢) من قوله: ويجوز أن يتعلق... إلى هذا الموضع في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ بنحوه. والبيت قائله أعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩ . والمراد بالندل السرعة، وزريق اسم قبيلة. اللسان (ندل).

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٠ - ١٤٣ ، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

ابن عباس: «الَّتي حَرَّمَهَا» نعتاً للبلدة[١]. وقراءةُ الجماعة: «الَّذي» وهو في موضع نصبِ نعتٍ لـ «رب»، ولو كان بالألفِ واللامِ لقُلتَ: المحرِّمَها؛ فإنْ كانت نعتاً للبلدة قُلتَ: المحرِّمِها هو؛ لابُدَّ من إظهار المُضمَرِ مع الألف واللام؛ لأنَّ الفعلَ جرى على غيرِ مَنْ هو له، فإن قُلتَ: الذي حرَّمها لم تحتَجْ أن تقول: هو[٢]. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلقاً ومُلكاً[٣]. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين لأمره، الموحِّدين له.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وأُمِرتُ أن أتلوَ القرآن، أي: أقرأه. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فله ثواب هدايته. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فليس عليَّ إلا البلاغ؛ نسخَتْها آيةُ القتال[٤]. قال النحَّاس[٥]. «وَأَنْ أَتْلُوَ» نصب بأن. قال الفرَّاء: وفي إحدى القراءتين «وَأَنِ اتْلُ»[٦] وزعمَ أنَّه في موضع جزمٍ بالأمر، فلذلك حذفَ منه الواو، قال النحَّاس: ولا نعرفُ أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه وعلى ما هدانا. ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٧] [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٤ عن ابن عباس وابن مسعود، وفي الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود، وفي زاد المسير ٦/ ١٩٨ عن ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥.

(٦) وهي في الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود وأُبي

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

عن عاصم بالتاء على الخطاب[١]؛ لقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ فيكون الكلامُ على نسقٍ واحد. الباقون بالياء على أن يُرَدَّ إلى ما قبله ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فأخبر عن تلك الآية[٢].

كملت السورة والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) السبعة ص٤٨٨، والتيسير ص١٢٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٦ .

تفسير سورة النمل

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾.

قد تقد الكلام فى « سورة البقرة » على الحروف المتقطعة[1] فى أوائل السُّوَر .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى : هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : بين واضح ، ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وآمن [2] بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال: ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى: حَسَّنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيّهم فهم يَتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة، ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ـ قال قتادة : ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أى : لتأخذ ـ ﴿ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً [لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ] [3] ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

---

(١) فى ف : « المقطعة » . (٢) فى ف : « وأيقن » . (٣) زيادة من ف ، أ .

تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ (١) ، مذكراً له ما كان من أمر موسى ، كيف اصطفاه اللّه وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فآنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تأجج (٢) وتضطرم ، فقال ﴿ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى : عن الطريق ، ﴿ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تتدفؤون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى: فلما أتاها رأى (٣) منظراً هائلا عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعَنان السماء .

قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً (٤) يتوَهَّج .

وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ، فنودى أن بورك من فى النار . قال ابن عباس : [أى] (٥) قُدِّس .

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ـ [و] (٦) هو الطيالسى ـ حدثنا شعبة والمسعودى ، عن عمرو بن مرَّة ، سمع أبا عُبَيْدة يحدث ، عن أبى موسى ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل (٧) ». زاد المسعودى : « وحجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفها لأحْرَقَتْ سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبَيْدة : ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ

---

(١) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٢) فى ف ، أ : « تتأجج » . (٣) فى ف : « ورأى » .
(٤) فى ف : « وإنما نور » . (٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف : « عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل » .

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (١) . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم ، من حديث عمرو بنُ مُرَّة ، به(٢).

وقوله : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .

وقوله : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ : أعلمه (٣) أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه اللّه العزيز ، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ؛ليظهر له دليلا واضحاً على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شىء . فلما ألقى موسى تلك العصا (٤) من يده انقلبت فى الحال حَيَّةً عظيمة هائلة فى غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان : ضرب من الحيات ، أسرعه حركة ، وأكثره اضطرابا ـ وفى الحديث نَهْىٌ عن قتل جنَّان (٥) البيوت (٦) ـ فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى :لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على [عمل] (٧) شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأناب ، فإن اللّه يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠] والآيات فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة اللّه الفاعل المختار ، وصدّق من جعل له معجزة ، وذلك أن اللّه ـ تعالى ـ أمره أن يُدخل يده فى جيب درْعِه ، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان يتلألأ (٨) كالبرق الخاطف .

وقوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أى : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

وهذه هى الآيات التسع التى قال اللّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء : ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أى : بينة واضحة ظاهرة ،

---

(١) ورواه أحمد فى مسنده (٤/ ٤٠١) من طريق وكيع عن المسعودى بنحوه .

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٩) .

(٣) فى ف : « اعلم » . (٤) فى ف ، أ : « العصاة » . (٥) فى ف ، أ : « حيات » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٢٩٨) من حديث ابن عمر ،رضى الله عنهما .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ف : « تتلألأ » .

﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا [هنالك] (١) وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا ﴾ أى : فى ظاهر أمرهم ، ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق (٢) من عند اللّه، ولكن جَحَدُوها وعاندوها وكابروها ، ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى : ظلما من أنفسهم ، سَجِيَّة ملعونة ، ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أى: استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم (٣) ، فى إهلاك اللّه إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ؛ فإن محمداً ، صلوات اللّه وسلامه عليه (٤) ، أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه اللّه من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه (٥) من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان ، عليهما من اللّه السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا ، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام (٦) : أخبرنى أبى ، عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن اللّه لم ينعم على عَبد نعمة فحمد اللّه عليها ، إلا كان حَمْدُهُ أفضل من نعمته (٧) ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل ؛ قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وأى نعمة أفضل مما أوتى داود

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « صدق » . (٣) فى ف ، أ : « أمرهم » . (٤) فى ف : « ﷺ » .
(٥) فى ف : « عليهم » . (٦) فى ف : « هشام » . (٧) فى ف : « نعمه » .

وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أى : فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثةَ المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائةُ امرأة . ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول اللّه ﷺ [فى قوله][1]: « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة [2] » [3] .

وقوله [4]: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ[5] ﴾، أى: أخبر سليمان بنعم اللّه عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شىء لم يُعطَه أحد من البشر ـ فيما علمناه ـ مما أخبر اللّه به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود ـ كما يتفوه به كثير من الناس ـ فهو قولٌ بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل [6] البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن اللّه ، سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان ، عليه السلام ، ما يتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق [7] به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ولهذا قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى : مما يحتاج إليه الملك ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أى: الظاهر البين للّه علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه، أن رسول اللّه ﷺ قال : « كان داود ، عليه السلام ، فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال : «فخرج ذات يوم وأغلقت [8] الأبواب ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ واللّه لنفتضحن بداود ، فجاء داود، عليه السلام ، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت واللّه إذاً ملك الموت . مرحباً بأمر اللّه ، فتزمل داود ، عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ، عليه السلام ، للطير : أظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض ،

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « ماتركناه فهو صدقة » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٧٢٧) من حديث عائشة بلفظ : « لا نورث ما تركناه صدقة » . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/١٢) : وأما ما اشتهر فى كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فقد أنكره جماعة من الأئمة ، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ : « نحن » ، وانظر بقية كلامه وحمله لمعنى الحديث فى الفتح .

(٤) فى ف : « وقال » . (٥) بعدها فى ف ، أ : « إن هذا لهو الفضل المبين » . (٦) فى ف : « بل نزل ».

(٧) فى ف : « وما ينطق » . (٨) فى ف : « وغلقت » .

فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا » قال أبو هريرة : يارسول اللّه ، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول اللّه ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المضرَحية [١] [٢] .

قال أبو الفرج بن الجَوْزىّ : المَضْرَحيّة [٣] : النسور الحُمر .

وقوله تعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة [٤] كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم [يكونون] [٥] فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم ؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وزَعة ، يردون أولاها على أخراها ، لئلا يتقدموا فى المسير ، كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ، عليه السلام ، بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ .

أورد [٦] ابن عساكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذّيب [٧] .

أى : خافت على النمل أن تحطمها [٨] الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها [٩] ، ففهم ذلك سليمان ، عليه السلام ، منها [١٠] ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

---

(١) فى ف : « المصرحية » .
(٢) المسند (٢/٤١٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٦) : « فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٣) فى هـ ، ف ، أ : « المصرحية » والمثبت من لسان العرب ، مادة « ضرح » .
(٤) فى ف : « عظيمة » .
(٥) زيادة من ف .
(٦) فى ف ، أ : « فأورد » .
(٧) فى ف : « الذئب » .
(٨) فى ف : « يحطمها » .
(٩) فى ف : « مساكنهم » .
(١٠) فى ف : « عنها » .

وعن نَوْف البَكَالى أنه قال : كان نمل سليمان أمثال الذئاب . هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناه من تحت . وإنما هو بالباء الموحدة ، وذلك تصحيف ، والله أعلم .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك [(١)] ، وهذا أمر عظيم جدًا .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مِسْعَر، عن زيد العَمّى ، عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان [(٢)] ، عليه[(٣)] السلام ، يستسقى، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان ، عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ثبت فى الصحيح ـ عند مسلم ـ من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ [قال] [(٤)] : « قَرَصَت نبيا من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفى [(٥)] أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح ؟ فهلا نملة واحدة ! » [(٦)] .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا ، يدل سليمان ، عليه السلام ، على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشىء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط [(٧)] الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام [يوما] [(٨)]، بفَلاَة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ، ﴿ **فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ .

حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفى القوم رجل من الخوارج ، يقال له :« نافع بن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا ابن عباس ، غُلبت اليوم ! قال: ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لما أجبته . فقال [(٩)] له : ويحك ! إنه إذا نزل القَدَر عَمى البصر ، وذهب الحَذَر . فقال له نافع : والله لا أجادلك فى شىء من القرآن

(١) فى ف : « من قولها » . (٢) فى ف ، أ : « سليمان بن داود » . (٣) فى ف : « عليهما » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف ، أ : « أى » .
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤١) .
(٧) فى ف : « يستنبطوا » . (٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « ثم قال » .

أبداً (١) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد اللّه البَرْزىّ ـ من أهل « بَرْزَةَ » من غوطة دمشق، وكان من الصالحين يصوم [يوم] (٢) الإثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ـ فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد : أنه سأله عن سبب عَوَره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوراً ، فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً ، حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يَعْزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما ، فلا يلتفتان إلى شىء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع ، وعيناها توقدان مثل الدينار . فاستبشـرا بها عظيما ، وقالا : الحمد اللّه الذى لم يُخَيب سفرنا من سنة، وكسرا المجامر ، وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، وتوعدتهما بالدولة ، فكحلا عينى الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عينى نظرت إلى الأرض تحتى مثل المرآة ، أنظر ما تحتها كما تُرى المرآة ، ثم قالا لى : سر معنا قليلا ، فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى إذا بعدت عن القرية ، أخذانى فكتفانى ، وأدخل أحدهما يده فى عينى ففقأها ، ورمى بها ومضيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بى نفر ففَكَّ وَثَاقى. فهذا ما كان من خبر عينى (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى ، حدثنا عَبّاد بن مَيْسَرة المِنْقَرِىّ ، عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان ، عليه السلام : عنبر.

وقال محمد بن إسحاق : كان سليمان ، عليه السلام ، إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه: تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوَبٌ من كل صنف من الطير ، كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلّها من حَضَره إلا الهدهد ، ﴿ **فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ أخطأه بصرى من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟

وقوله : ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾: قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى نتف ريشه .

وقال عبد اللّه بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه، وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل .

وقوله : ﴿ **أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ** ﴾ يعنى : قتله ، ﴿ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى : بعذر واضح بين .

وقال سفيان بن عيينة ، وعبد اللّه بن شداد : لما قدم الهدهد قال له الطير : ما خلفك ، فقد نذر سليمان دمك ! فقال : هل استثنى ؟ فقالوا : نعم ، قال : ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي**

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٠٥) من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير بنحوه .

(٢) زيادة من ف .

(٣) تاريخ دمشق (١٩/ ١٣٠ « المخطوط ») .

بسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، فقال : نجوت إذاً .

قال مجاهد : إنما دفع [الله] (١) عنه ببره بأمه (٢).

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين .

وسبأ هم : حِمْير، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، قال الحسن البصرى : وهى بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ .

وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مُؤَخَّر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة .

وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شَرَاحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية .

وقال ابن جُرَيْج : بلقيس بنت ذى شرخ ، وأمها يلتقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ـ يعنى ابن عيينة ـ عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة (٣) سليمان ألف قَيْل ، تحت كل قيل مائة ألف [مقاتل] (٤) .

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدى ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قَيْل : مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا (٥) مَعْمَر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾: كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلا ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل . وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : من متاع الدنيا ما (٦) يحتاج إليه الملك المتمكن ، ﴿ وَلَهَا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « أمه » . (٣) فى ف : « كان لصاحبة » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « عن » . (٦) فى ف : « مما » .

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلىء .

قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحتاه ، مرمول بالياقوت والزبرجد . [طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد] (١) واللؤلؤ ، وكان إنما يخدمها النساء ، لها ستمائة امرأة تلى الخدمة (٢) .

قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه (٣) ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها ،فيسجدون لها صباحاً ومساًء ؛ولهذا قال : ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ أى: عن طريق الحق، ﴿ **فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾.

وقوله : ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾ [معناه : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾] (٤) أى : لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود للّه وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

وقرأ بعض القراء : « ألا يا اسجدوا للّه » ، جعلها « ألا » الاستفتاحية ، و« يا » للنداء ، وحذف المنادى ، تقديره عنده :« ألا يا قوم ، اسجدوا للّه ».

وقوله: ﴿ **الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾: قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة، وغير واحد .

وقال سعيد بن المسيب : الخَبْء : الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض : ما جعل فيها من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض .

وهذا مناسب من كلام الهدهد ، الذى جعل اللّه فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ أى : يعلم ما يخفيه العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال .وهذا كقوله تعالى: ﴿ **سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** ﴾ [الرعد : ١٠] .

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف : « امرأة تليها » .
(٣) فى ف : « من شرقية ومثلها من غربية » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

وقوله: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي: هو المدعو الله، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه.

ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهى عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَدَ. وإسناده صحيح [١].

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾.

يخبر تعالى عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى: أصدقت [٢] فى إخبارك هذا، ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتك، فتتخلص [٣] من الوعيد الذى أوعدتك؟ ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: فى جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوَّة هنالك [٤] بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به [٥] فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم، ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. فعرفوا أنه من نبى الله سليمان، وأنه لا قِبَل لهم به. وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصَّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان، عليه السلام.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره، حيث قال: حدثنا أبى، حدثنا هارون بن الفضل [٦] أبو يعلى الحناط [٧]، حدثنا أبو يوسف، عن سلمة بن صالح، [عن عبد الكريم] [٨] أبى أمية، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فقال: « إنى أعلم آية لم

---

(١) لم أجده من حديث أبى هريرة إلا عند ابن ماجة فى السنن برقم (٣٢٢٣) بلفظ: « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد ». وهو بهذا اللفظ من حديث ابن عباس فى مسند الإمام أحمد (١/ ٣٣٢) وسنن أبى داود برقم (٥٢٦٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٢٢٤).

(٢) فى ف: « صدقت ». (٣) فى ف: « لتتخلص ». (٤) فى ف، أ: « هناك ».

(٥) فى ف، أ: « جاء به ». (٦) فى أ: « المفضل ». (٧) فى ف، أ: « الخياط ». (٨) زيادة من ف، أ.

تنزل على نبى قبلى بعد سليمان بن داود » . قال : قلت : يارسول اللّه ، أى آية ؟ قال : «سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد» . قال : فانتهى إلى الباب ، فأخرج إحدى قدميه ، فقلت : نسى ، ثم التفت إلى وقال : ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(١) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن مهْرَان : كان رسول اللّه ﷺ يكتب : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.

وقوله : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾: يقول (٢) قتادة : لا تجبروا على ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تمتنعوا ولا تتكبروا على .

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ : قال ابن عباس : موحدين . وقال غيره : مخلصين . وقال سفيان بن عُيَيْنَة: طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها ؛ ولهذا قالت :﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أى :حتى تحضرون وتشيرون . ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : مَنوْا إليها بَعَددهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقة [ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه ، فما لنا عاقة] (٣) عنه . وبعد هذا فالأمر (٤) إليك ، مرى فينا برأيك (٥) نمتثله ونطيعه .

قال الحسن البصرى ، رحمه اللّه : فوضوا أمرهم إلى علْجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه (٦) لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سُخّر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهَدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعا ، فقالت لهم : إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلىّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت :﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ .

---

(١) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٢/ ١٨٧) من طريق الحسين بن حفص عن أبى يوسف به .

(٢) فى ف : « قال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « وبعدها فالأمر » .

(٥) فى ف : « رأيك » . (٦) فى ف : « وأنها » .

قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً (١) عَنْوَة أفسدوه ، أى : خرّبوه ، ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أى : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً (٢) ﴾ ، قال الرب، عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة ، فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى : سأبعث إليه بهدية تليق به (٣) وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا ، أو يضرب علينا خَرَاجا نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : رحمها اللّه ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلَبِنَة من ذهب . والصحيح أنها أرسلت [إليه] (٤) بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما : وأرسلت جوارى فى زى الغلمان ، وغلمان فى زى الجوارى ، وقالت : إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبى . قالوا : فأمرهم [سليمان] (٥) ، عليه السلام ، أن يتوضؤوا ، فجعلت الجارية تُفرغ على يدها من الماء ، وجعل الغلام يغترف ، فميزهم بذلك .

وقيل : بل جعلت الجارية تغسل باطن (٦) يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يغتسلن (٧) من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم . ولا منافاة بين ذلك كله ، واللّه أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى الخيل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك . وبخرزة وسلك ليجعله فيها ، ففعل ذلك . واللّه أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات . والظاهر أن سليمان ، عليه السلام ، لم ينظر إلى ما

---

(١) فى أ : « بلدة » . (٢) فى ف ، أ : « أذلة وكذلك يفعلون » . (٣) فى ف : « بمثله » .
(٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « بطن » . (٧) فى ف : « يغسلن » .

جاؤوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أى: أتصانعوننى بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟! ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أى : الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أى : أنتم الذين (١) تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

قال الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أى : بهديتهم ، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أى : من بلدهم ، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى : مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام ، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح(٢) بذلك وسَرّه .

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومَان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد ـــ والله ـ عرفتُ ، ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكاثرته (٣) شيئاً . وبعثت إليه: إنى قادمة عليك بملوك قومى ، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ـ وكان من ذهب مفَصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ـ فجعل فى سبعة أبيات ، بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خَلَفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك ، وسرير ملكى ، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يَرَيَنَّه أحد حتى آتيك . ثم شَخَصَت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قَيْل منهم ألوف كثيرة . فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دَنت جمع من عنده من الجن والإنس ، ممن تحت يديه ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ،

---

(١) فى أ : « الذى » . (٢) فى ف : « ففرح » .
(٣) فى هـ : « بمكابرته »، والمثبت من ف ، أ ، والطبرى (١٩/ ١٠٠) .

وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مسترًا بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق (١) ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبى الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وهكذا قال عطاء الخراسانى ، والسُّدِّى ، وزُهير بن محمد : ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾: قال مجاهد : أى مارد من الجن .

قال شُعَيب الجبائى : وكان اسمه كوزن . وكذا قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان . وكذا قال أيضا وهب بن منبه .

قال أبو صالح : وكان كأنه جبل .

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدى ، وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام (٢) من أول النهار إلى أن تَزول الشمس .

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: قال ابن عباس : أى قوى على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان ، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن ههنا يظهر أن النبى سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسَخَّر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يَقْدموا عليه . هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ـ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان . وكذا رَوَى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخياء ، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس ، واسمه آصف . وكذا قال أبو صالح ،والضحاك،وقتادة : إنه كان من الإنس ـ زاد قتادة : من بنى إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة ـ فى رواية عنه ـ : كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأندلس (٣) يقال له : ذو النور .

وزعم عبد الله بن لَهِيعة : أنه الخضر . وهو غريب جداً .

وقوله :﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مُدّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

---

(١) فى ف : « معاليق » . (٢) فى ف ، أ : « والطعام » . (٣) فى أ : « الإنس » .

وقال وهب بن منبه : امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ، ودعا اللّه عز وجل .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام . وقال الزهرى : قال : يا إلهنا وإله كل شىء ، إلهاً واحداً ، لا إله إلا أنت ، ائتنى بعرشها . قال : فتمثل له بين يديه .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا اللّه، عز وجل ، وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ـ وكان فى اليمن ، وسليمان ، عليه السلام ، ببيت المقدس ـ غاب السرير ، وغاص فى الأرض ، ثم نبع من بين يدى سليمان ، عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه . قال : وكان هذا الذى جاء به من عُبَّاد البحر ، فلما عاين سليمان وملَؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ،﴿ **قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي** ﴾ أى : هذا من نعم اللّه على ، ﴿ **لِيَبْلُوَنِي** ﴾ أى : ليختبرنى، ﴿ **أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾، كقوله : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله :﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴾ [الروم : ٤٤].

وقوله : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ أى : هو غنى عن العباد وعبادتهم ، ﴿ **كَرِيمٌ** ﴾ أى : كريم فى نفسه ، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة (١) إلى أحد ، وهذا كما قال موسى:﴿ **إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وفى صحيح مسلم : « يقول اللّه تعالى : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفيكم إياها] (٢) فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

---

(١) فى أ : « تفتقر » . (٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم .

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه.

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

لما جيء سليمان ، عليه السلام ، بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به ، فقال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾.

قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه .

وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر : وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا .

[وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا] (١) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى : عرض عليها عرشها ، وقد غير ونُكِّر ، وزيد فيه ونقص منه ، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر ، فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية فى الذكاء والحزم .

وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾: قال مجاهد : سليمان يقوله .

وقوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾: هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام ـ فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، رحمهما اللّه ـ أى : قال سليمان : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صدها ، أى : منعها من عبادة اللّه وحده. ﴿ مَا(٢) كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ (٣) ، وقاله ابن جرير أيضا .

ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون فى قوله : ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى اللّه ،عز وجل ،تقديره : ومنعها ،﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى :صدها عن عبادة غير اللّه ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾.

قلت : ويؤيد قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ،أمر الشياطين فبنوا له قصراً عظيما من قوارير، أى : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه . واختلفوا فى السبب الذى دعا

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بل » وهو خطأ . (٣) فى أ : « سعيد بن جبير أيضا » .

سليمان ، عليه السلام ، إلى(١) اتخاذه ، فقيل : إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن فى ساقيها هُلْبٌ(٢) عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ ـ هذا قول محمد بن كعب القُرَظى ، وغيره ـ فلما دخلت وكشفت عن ساقيها ، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً ، ولكن رأى على رجليها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل (٣) ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : الموسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال (٤) للجن : اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النُوْرَةَ . وكان أول من اتخذت له النّورَة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والسدى ، وابن جُرَيْج ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان : ثم قال لها : ادخلى الصرح ، ليريها مُلْكاً هو أعزّ من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح مُمَرّد من قوارير . فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة اللّه وعاتبها فى عبادتها الشمس (٥) من دون اللّه .

وقال الحسن البصرى : لما رأت العلْجَةُ الصرح عرفت ـ واللّه ـ أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضا . ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال : ادخلى الصرح ، ليريها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِير﴾ ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة اللّه،عز وجل ، وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون اللّه . فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إعظاما لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط فى يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ ـ قال : (٦) وأنسيت ما قالت (٧) ـ فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين﴾ ، فأسلمت وحسن إسلامها .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة فى هذا أثراً غريبا عن ابن عباس ، قال : (٨) حدثنا الحسين ابن على ، عن زائدة ، حدثنى عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد ـ ونحن فى الأزد ـ قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يجلس على سريره ، ثم تُوضَعُ كراسى حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس (٩) الجن ، ثم الشياطين ، ثم تأتى الريح فترفعهم ، ثم تظلهم الطير، ثم

---

(١) فى ف : « فى » . (٢) فى أ : « هلف » (٣) فى ف ، أ : « زوج » .
(٤) فى ف : « وقال سليمان » . (٥) فى ف ، أ : « الشيطان » . (٦) فى ف : « قالت » .
(٧) فى ف : « ما قلت ». (٨) فى ف : « فقال » . (٩) فى ف : « تجلس » .

يغدون قدر ما يشتهى الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال : فبينما هو ذات يوم فى مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال (١) : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه فى الأرض ، فلا يمتنع من نملة ولا من شىء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جُبَير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ـ فقرأ حتى انتهى إلى قوله ـ : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا ﴾ وكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إلى بلقيس : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ، فلما ألقى الهدهد بالكتاب (٢) إليها ، ألقى فى رُوعها: إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان ، وأن لا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالوا : نحن أولو قوة . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإنى مرسلة إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدوننى بمال ، ارجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار ـ أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء: ومجاهد حينئذ فى الأزد ـ قال سليمان : أيكم يأتينى بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ـ قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم ـ قال (٣) :﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا أنظر فى كتاب ربى ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره] (٤) ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسى كان سليمان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها [مستقرًا عنده] (٥) قال:﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ ، ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت: كأنه هو . قال: فسألته عن أمرين، قالت لسليمان : أريد ماء [من زبد رواء] (٦) ليس من أرض ولا من سماء ـ وكان سليمان إذا سئل عن شىء ،سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين . [قال] (٧) فقالت الشياطين: هذا هين، أجْرِ الخيلَ ثم خذ عرقها ، ثم املأ منه الآنية . قال : فأمر بالخيل (٨) : فأجريت، ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية . قال : وسألت عن لون اللّه ، عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره، فخر ساجداً ، فقال : يارب ، لقد سألَتْنى عن أمر إنه يتكايد (٩) ، أى : يتعاظم فى قلبى أن أذكره لك. قال : ارجع فقد كفَيْتكهم ، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت: ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال: ونَسوه كلّهم . قال : وقالت الشياطين لسُلَيمان : تُريدُ أن تتخذها لنفسك (١٠) ، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد، لم ننفك من عبوديته . قال : فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير ، فيه السمك . قال : فقيل لها :

---

(١) فى ف : « قال وتفقد الهدهد قال » . (٢) فى ف ، أ : « هذا الكتاب » . (٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤ ،٥) زيادة من ف ،أ . (٦ ، ٧) زيادة من ف . (٨) فى ف : « أمر الخيل » . (٩) فى ف ، أ : « ليتكابر » .
(١٠) فى ف ، أ : « يريد أن يتخذها لنفسه » .

ادخلى الصرح. فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، فإذا هى شَعْرَاء . فقال سليمان : هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه (١) المواسى . فقال : أثر الموسى (٢) قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورَة. قال : فهو أول من جُعلت له النورة .

ثم قال أبو بكر بن أبى شيبة : ما أحسنه من حديث .

قلت : بل هو منكر غريب جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم. والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما يوجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب ـ سامحهما الله تعالى ـ فيما نقلا إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد(٣) والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ، سبحانه، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامان : ﴿ **ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ** ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . والصرح: قصر فى اليمن عالى البناء ، والممرد أى : المبنى بناء محكما أملس﴿ **مِّن قَوَارِيرَ** ﴾ أى: زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل .

والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله (٤) وعرَفت أنه نبى كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي** ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس (٥) من دون الله،﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله (٦) وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شيء فقدره تقديراً .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)** ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ **فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ ـ قال مجاهد: مؤمن وكافر ـ كقوله تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٧٥ ، ٧٦].

---

(١) فى ف ، أ: « يذهبه » . (٢) فى أ : « المواسى » . (٣) فى أ : « النوادر » .

(٤) فى أ : « لأوامر الله » . (٥) فى ف : « للشمس » .

(٦) فى ف : « فى عبادة الله » .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ ،أي : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا . وذلك أنهم ـ لشقائهم ـ كان لا يصيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه .

قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أي : بقضاء الله وقدره (١) . وقال مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس:١٨ ،١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أي : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم ، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيْلَة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك ،فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أي : مدينة ثمود، ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي : تسعة نفر ،﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.

قال العَوْفى ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم ـ قبحهم الله ولعنهم ـ وقد فعل ذلك .

وقال السُّدِّى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعمى ، ودعيم ،

---

(١) فى ف ، أ : « بقدر الله وقضائه » .

وهرما ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة ، أى : الذى باشر ذلك بيده . قال اللّه تعالى : ﴿ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ** ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ [الشمس : ١٢] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا يحيى بن ربيعة الصنعانى ، سمعت عطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ يقول : ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم(١)، يعنى : أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قَطْع الذهب والورق من الفساد فى الأرض (٢) .

وفى الحديث ـ الذى رواه أبو داود وغيره ـ : أن رسول اللّه ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس (٣) .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ** ﴾ أى : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى اللّه صالح ، عليه السلام ، من لقيه ليلا غيلة. فكادهم اللّه ، وجعل الدائرة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا (٤) على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم مَعَانيق إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بعث اللّه عليهم صخرة فأهمدتهم .

وقال العوفى ،عن ابن عباس :هم الذين عقروا الناقة،قالوا حين عقروها : نُبَيِّت صالحا [وأهله](٥) وقومه فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم . فدمرهم اللّه أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هَلُم فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ! فأتوه ليلا ليبيِّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم ، أتوا مَنْزل صالح ، فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : واللّه لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون . فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧٠) .
(٢) الموطأ (٢/ ٦٣٥) .
(٣) سنن أبى داود برقم (٣٤٤٩) .
(٤) فى ف : « تحالفوا » .
(٥) زيادة من أ .

وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة وقال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥]، قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد فى الحجْر عند شعب هناك يصلى فيه ، فخرجوا إلى كهف، أى : غار هناك ليلا ، فقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه[1]، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث الله صخرة من الهضَب حيالهم ، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا [2] فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار ، فلا يدرى قومهم أين هم . ولا يدرون ما فعل بقومهم . فعذب الله هؤلاء ههنا ، وهؤلاء ههنا ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ، ثم قرأ :﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أى : فارغة ليس فيها أحد ﴿ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده لوط ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم ، فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ـ قال[3] : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أى : يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون فى ناديكم المنكر ؟ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أى : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال فى الآية الأخرى :﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥، ١٦٦] . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى : يتحرجون [4] من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم . فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت [5] تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش [6] تكرمة لنبى الله ﷺ [7] لا كرامة لها [8] .

---

(١) فى ف ، أ : « فقلناه » . (٢) فى ف ، أ : « فبادروا » . (٣) فى ف : « فقال » . (٤) فى أ : « يخرجون » .
(٥) فى ف : « وكانت » . (٦) فى أ : « الفاحشة » . (٧) فى ف : « صلوات الله عليه وسلامه » .
(٨) فى أ : « بها » .

وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على نعمه على عباده ، من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسَلِّم على عباد اللّه الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من اللّه الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] .

وقال الثورى ، والسدى : هم أصحاب محمد ﷺ ورضى [الله] (١) عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس .

ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد اللّه الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى ، والقصد أن اللّه تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم (٢) ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع (٣) أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عمارة بن صَبِيح ، حدثنا طَلْق بن غنام ، حدثنا الحكم ابن ظُهَيْر ، عن السدى ـ إن شاء اللّه ـ عن أبى مالك ، عن ابن عباس : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، اصطفاهم اللّه لنبيه،رضى اللّه عنهم (٤) .

وقوله : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع اللّه آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين (٥) أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافى والقفار ، والأشجار والزروع ، والثمار والبحور (٦) ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « بعد ذكره لهم » . (٣) فى ف : « جميل » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٢٤٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٧) : « وفيه الحكم بن ظهير ، وهو متروك » .
(٥) فى ف : « شرع يبين تعالى » . (٦) فى ف : « والبحار » .

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى: جعله رزقاً للعباد، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أى: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أى: منظر حسن وشكل بهى، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أى: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف [١] به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أى: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى: أإله مع الله يعبد. وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون [٢] به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [أى: أإله مع الله] [٣] فعل هذا. وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثَمَّ أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله ههنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: ﴿أَمَّن﴾ فى هذه الآيات [كلها] [٤] تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شىء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن فى قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أى: يجعلون الله عدلا ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] أى: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿أَفَمَنْ [٥] هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أى: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾.

(١) فى ف: «كما يعرف». (٢) فى ف، أ: «يعترفون». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى جميع النسخ: «أمن»، والصواب ما أثبتناه.

يقول : ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولاتتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم[1] أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة [2] حاجزاً ، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار : من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على [3] القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

ينبه تعالى أنه هو المدعُوّ عند الشدائد ، المرجُوّ عند النوازل ، كما قال :﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] . وهكذا قال ههنا : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وُهَيْب ، حدثنا خالد الحَذّاء ، عن أبى تميمة الهُجَيْمى ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت : يارسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مَسّك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضْلَلْت بأرض قَفْر فدعوتَه رَدّ عليك ، والذى إن أصابتك سَنَة فدعوتَه أنبتَ لك » .قال : قلت : أوصنى . قال : « لاتَسُبَّنّ أحداً ، ولا تَزْهَدَنّ فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تُفرغَ من دَلْوك فى إناء المستقى ،

---

(١) فى أ : « إليهم » . (٢) فى ف ، أ : « والملحة » . (٣) فى ف ، أ : « أو بعد هذا » .

واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة، [وإن اللّه ـ تبارك وتعالى ـ لا يحب المخيلة] (١) » (٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابى فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ،حدثنا يونس ـ هو ابن عبيد ـ حدثنا عبيدة الهُجَيمى (٣) ، عن أبى تَميمَةَ الهُجَيمى ، عن جابر ابن سُلَيم الهُجَيمى قال : أتيت رسول اللّه ﷺ وهو مُحتَبٍ بشَمْلَة ، وقد وقع هُدْبها على قدميه ، فقلت : أيكم محمد ـ أو : رسول اللّه ؟ ـ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت : يارسول اللّه ، أنا من أهل البادية ، وفِىَّ جفاؤهم ، فأوصنى . فقال : « لا تحقرَنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك مُنْبَسِط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، وإن امرؤ شَتَمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وِزْرَه . وإياك وإسبال الإزار ،فإن إسبال الإزار من المَخيلَة ، وإن اللّه لا يحب المخيلة ، ولا تَسُبّنّ أحداً » . قال : فما سببت بعده أحداً ، ولاشاة ولا بعيراً (٤) .

وقد روى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقا ، وعندهما طرف صالح منه (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم (٦) ، حدثنا عبدَةَ بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد اللّه بن أبى صالح قال : دخل علىَّ طاوس يعودنى ، فقلت (٧) له : ادع اللّه لى يا أبا عبد الرحمن .فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه : قرأت فى الكتاب الأول : إن اللّه يقول : بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات ومن (٨) فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإنى (٩) أجعل له من بين ذلك مخرجاً . ومن لم يعتصم بى فإنى (١٠) أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل ـ حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدِّينَوَرى ، المعروف بالدّقّىِّ الصوفى ـ قال هذا الرجل (١١) : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزّبَدَانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه، فإنها أقرب . فقلت : لا خبرَة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب . فسلكناها فانتهينا إلى مكان وَعْر وواد عميق ، وفيه قتلى كثير ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه، وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه وتبعنى ، فناشدته اللّه وقلت : خذ البغل بما عليه . فقال : هو لى ، وإنما أريد قتلك . فخوفته اللّه والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين ؟ فقال : [صل] (١٢) وعجل. فقمت أصلى فَأرْتِج

---

(١) زيادة من ف ، أ ،والمسند .
(٢) المسند (٥/٦٤) .
(٣) فى هـ ، ف ، أ : « الهجيمى عن أبيه » .
(٤) المسند (٥/٦٣) .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٠٨٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٩ ـ ١٠٥٢) .
(٦) فى أ : « هشام » . (٧) فى ف ، أ : « قال » . (٨) فى ف : « بمن » . (٩) فى ف : « أن » ، وفى أ : « أى » .
(١٠) فى ف : « فإنه » . (١١) فى ف : « بالرجل » . (١٢) زيادة من ف .

علىَّ القرآن فلم يَحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه. افرُغ . فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ، وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعًا ، فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول [الله] (١) الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما .

وذكر فى ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية » ، قالت : هزم الكفار يوما المسلمين فى غزاة ، فوقف جَوَاد جيّد بصاحبه ، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء ، فقال للجواد : مالك ؟ ويلك . إنما كنت أعدّك لمثل هذا اليوم . فقال له الجواد : ومالى لا أقصّر وأنت تَكلُ علوفتى إلى السّواس فيظلموننى ولا يطعموننى (٢) إلا القليل ؟ فقال : لك علىَّ عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حِجْرى . فجرى الجواد عند ذلك ، ونجّى صاحبه ، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حِجره . واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك ، وبلغ ملك الروم أمرُه ، فقال : ما تُضَام (٣) بلدة يكون هذا الرجل فيها . واحتال ليحصّله فى بلده ، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نيته فى الإسلام وقومه ، حتى استوثق ، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل ، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خَدَعنى بك فاكفنيهما بما شئت، قال : فخرج سبعان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالما (٤) .

وقوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أى : يُخْلفُ قَرنا لقرن قبلهم وخَلَفاً لسلف ،كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]،وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠]، أى قوماً يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره . وهكذا هذه الآية : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم (٥) كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضَهم من ذرية بعض (٦) ، ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض (٧) ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم فى الأرض ، ويجعلهم قرونا بعد قرون ، وأمما بعد أمم ، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البَرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعَدّهم عَدًا ، ثم يقيم (٨) القيامة ، ويُوفى كلّ عامل عمله إذا بلغ الكتاب

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى ف ، أ : « فيظلمونى ولا يطعمونى »
(٣) فى ف ، أ : « ما نظام » .
(٤) تاريخ دمشق (١٩/ ٤٨٩ « المخطوط ») .
(٥) فى أ : « لجعلهم » .
(٦) فى ف ،أ : « من ذرية بعضهم بعضا » .
(٧) فى ف : « تضيق الأرض عليهم » .
(٨) فى ف : « يوم » .

أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يُعبَد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿قَلِيلاً مَّا يَذَكَّرُونَ(١)﴾ أي : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ .

يقول : ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل : ١٦]، وقال تعالى :﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] .

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي : بين يدى السحاب الذى فيه مطر ، يغيث به عباده المُجْدِبِيْنَ الأزلين القنطين ، ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ .

أي : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ (٢) الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى:﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي : بما ينزل من مطر السماء ،وينبت من بركات الأرض،كما قال :﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق : ١١ ، ١٢] ، وقال :﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد : ٤] ،فهو ،تبارك وتعالى، ينزل من السماء مباركاً فيسكنه في الأرض ، ثم يخرج به [منها] (٣) أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ، ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [طه : ٥٤] ؛ ولهذا قال:﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي: فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه (٤) من عبادة آلهة أخرى ، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال [الله] (٥) : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ

---

(١) فى ف ، أ : « ماتذكرون » . (٢) فى ف ، أ : « بدأ » . (٣) زيادة من ف .
(٤) فى أ : « من يدعونه » . (٥) زيادة من أ .

ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لايَعْلَم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤] ، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى : وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى، حدثنا على بن الجَعْد ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : من زعم أنه يعلم ـ يعنى لنبى ﷺ ـ ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرْية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (١) .

وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات (٢) : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً [للشياطين](٣) ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . وإن ناساً جَهَلَة بأمر الله ، قد (٤) أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعْرَس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علْمُ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ(٥) عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها .

وقرأ آخرون : « بل أدرك (٦) علمهم » أى: تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ـ وقد سأله عن وقت الساعة ـ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل (٧) ، أى: تساوى فى العجز عن دَرْك ذلك علم المسؤول والسائل .

---

(١) أصله فى الصحيحين لكن فيهما الشاهد قوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ بدل هذه الآية : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .
(٢) فى ف ، أ : « خصال » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « فقد » .
(٥) فى أ : « أدرك » . (٦) فى أ : « ادارك » .
(٧) صحيح مسلم برقم (٨) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ أى : غاب .

وقال قتادة : ﴿بَلِ ادَّارَكَ (١) عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ يعنى : يُجهِّلُهم(٢) ربهم ، يقول : لم ينفذ (٣) لهم إلى الآخرة علم ، هذا قول .

وقال ابن جُرَيج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : « بل أدرك علمهم فى الآخرة » ، حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراسانى ، والسدّى : أن علمهم إنما يُدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : « بل أدرك علمهم » ، قال : اضمحل علمهم فى الدنيا ، حين عاينوا الآخرة .

وقوله : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف:٤٨] أى : الكافرون منكم (٤) . وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها ،﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أى: فى عمَاية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال :﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً .

وقولهم: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أى : أخذه (٥) قوم عمن قبلهم ، مَنْ قبلهم (٦) يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال اللّه تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد : ﴿ قُلْ﴾ ـ يامحمد ـ لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى : المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقَمُ اللّه وعذابه ونكاله ، ونجى اللّه من بينهم رسلَه الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ، صلوات اللّه وسلامه عليه : ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أى : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ،﴿ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى :

(١) فى أ : « ادرك » . (٢) فى أ : « بجهلهم » . (٣) فى ف : « يتقدم » . (٤) فى ف ، أ : « منهم » .
(٥) فى ف : « يأخذه » ، وفى أ : « أخذ » . (٦) فى أ : « كتبهم » .

فى كيدك وردّ ما جئت به ، فإن اللّه مؤيدك وناصرك ، ومظهرٌ دينَك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ،فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال اللّه مجيباً لهم : ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾. [قال ابن عباس أن يكون قرب ـ أو : أن يقرب ـ لكم بعض الذى تستعجلون][1]. وهكذا [2] قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ،والسدى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

وإنما دخلت « اللام » فى قوله :﴿رَدِفَ لَكُم﴾ ؛ لأنه ضُمن معنى « عَجِل لكم » ، كما قال مجاهد فى رواية عنه : ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عجل لكم .

ثم قال اللّه تعالى :﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أى : فى إسباغه نعمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ،﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] ،﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه : ٧] ، ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[هود : ٥] .

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ـ وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه ـ فقال:﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعنى: وما من شىء، ﴿فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا كقوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) فى ف : « وعنده » .

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان [1] : أنه يقص على بنى إسرائيل ـ وهم حملة التوارة والإنجيل ـ ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غَلَوا ، فجاء [إليهم] [2] القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد اللّه وأنبيائه ورسله الكرام ،عليه [أفضل] [3] الصلاة والسلام ،كما قال تعالى :﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤] .

وقوله :﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : هدى لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم فى العمليات .

ثم قال :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أى :يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ،﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى أمورك ، وبَلّغ رسالة ربك ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ، ممن كتبت [4] عليه الشقاوة وحَقّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية؛ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وَقْر الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [أى] [5] :إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل ،عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتَرْكِهم أوامر اللّه وتبديلهم الدين الحق ، يخرج اللّه لهم دابة من الأرض ـ قيل : من مكة . وقيل : من غيرها . كما سيأتى تفصيله ـ فَتُكَلِّم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ـ ورُوى عن على ، رضى اللّه عنه ـ : تكلمهم كلاما أى: تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على ، واختاره ابن جرير . وفى هذا [القول] [6] نظر لا يخفى ، واللّه أعلم .

---

(١) فى ف : « والبيان » . (٢ ، ٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « كتب » . (٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) زيادة من ف ، أ .

وقال ابن عباس ـ في رواية ـ : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كلاً [١] تفعل يعنى هذا وهذا، وهو قولٌ حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبى الطفيل ، عن حُذَيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قَعر عدن تسوق ـ أو : تحشر ـ الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » [٢] .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فُرَات القزاز ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن حُذَيفة موقوفا [٣] . وقال الترمذى : حسن صحيح [٤] . ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز ابن رُفَيْع ، عن أبى الطفيل ، عنه مرفوعاً [٥] [٦] . والله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو داود الطيالسى ، عن طلحة بن عمرو ، وجرير بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن عمَير الليثى : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حذَيفة بن أسيد الغفارى أبى سَرِيحَةَ ، وأما جرير فقال : عـن عبد الله بن عبُيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود ـ وحديث طلحة أتم وأحسن ـ قال : ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدابة فقال : «لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خَرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعنى : مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلا ، ثم تخرج خَرْجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية» يعنى : مكة . قال رسول الله ﷺ : « ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يَرُعْهم إلا وهى تَرْغو [٧] بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب . فارفض الناس عنها شتَّى ومعاً ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلَت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرّى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تصلى ؟

---

(١) فى ف : « كل » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٦/٤) ولكن باختلاف فى الألفاظ ، وهذا اللفظ هو سياق حديث ابن مهدى عن سفيان وهو فى المسند (٧/٤) .

(٣) فى ف ، أ : « به مرفوعا » .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) وسنن أبو داود برقم (٤٣١١) وسنن الترمذى برقم (٢١٨٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٤١) .

(٥) فى ف ، أ : «موقوفا » .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١) .

(٧) فى أ : « تربو » .

فيقبل عليها فَتَسِمُهُ (١) في وجهه ، ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ، ويصطحبون في الأمصار ، يعرف المؤمن مَن الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر ، اقضني حقي . وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن ، اقضني حقي» (٢) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حذيفة بن أُسَيْد موقوفاً (٣) . فاللّه أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح (٤) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن أبي حَيَّان ، عن أبي زُرْعَةَ ، عن عبد اللّه بن عمرو قال : حَفِظْتُ من رسول اللّه ﷺ حديثاً لم أنسه(٥) بعد : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى (٦) على أثرها قريباً»(٧) .

حديث آخر : روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ـ مولى الحُرَقَة ـ عن أبيه : عن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستا (٨) : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » (٩) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن زياد بن رباح ، عن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، عن النبي ﷺ قال :« بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخُويصة أحدكم » (١٠) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا حَرْمَلَة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عَمْرُو بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ،وخُوَيصَّة أحدكم ، وأمر العامة » . تفرد به (١١) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ،عن علي بن زيد ،عن أوس(١٢) بن خالد ،عن أبي هريرة ،رضي اللّه عنه ، قال : قال رسول ﷺ : « تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، عليهما السلام ، فتخطم أنف الكافر بالعصا ، وتُجلي وجه المؤمن

---

(١) في أ : « فتشمه » .
(٢) مسند الطيالسي برقم (١٠٦٩) .
(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ١٠) .
(٤) تفسير الطبري (٢٠/ ١١) .
(٥) في ف : « لم أنساه » . (٦) في ف : « والأخرى » .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٤١) .
(٨) في ف ، أ : « ستة » .
(٩، ١٠) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٧) .
(١١) سنن ابن ماجه برقم (٤٠٥٦) وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٢٥٦) :« هذا إسناد حسن ،سنان بن سعد مختلف فيه وفي اسمه » .
(١٢) في هـ ، ف ، أ : « أويس » والمثبت من المسند .

بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

ورواه الإمام أحمد ، عن بَهْز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة ، به (١) . وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ،ويقول هذا : يا كافر » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة، به (٢) .

حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو تُمَيْلة ، حدثنا خالد ابن عُبَيْد ، حدثنا عبد اللّه بن بُرَيدة ، عن أبيه قال : ذهب بى رسول اللّه ﷺ إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول اللّه ﷺ : « تخرج الدابة من هذا الموضع. فإذا فِتْر فى شبر » .

قال ابن بُرَيدة : فحججت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعَصاى هذه (٣) ، كذا وكذا(٤) .

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن قتادة ؛ أن ابن عباس قال : هى دابةٌ ذات زَغَب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تهامة (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن رَجَاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد اللّه : تخرج الدابة من صِدْع من الصفا كجَرْى الفرس ثلاثة أيام ، لم يخرج ثلثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أبَان بن صالح قال : سئل عبد اللّه بن عمرو عن الدابة ، فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد ، واللّه لو كنت معهم ـ أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها . قيل : فتصنعُ ماذا يا عبد اللّه بن عمرو ؟ قال : تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفُذُه، ثم تستقبل الشام فتصرخ (٦) صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تروح من مكة فتصبح (٧) بعسفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم .

وعن عبد اللّه بن عمر ، أنه قال : تخرج الدابة ليلة جَمْع (٨) . ورواه ابن أبى حاتم . وفى

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٥٦٤) والمسند (٢/ ٢٩٥) من حديث عفان ويزيد ، و(٢/ ٢٩١) من حديث بهز .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « هذا » .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٥٩) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧١) .

(٦) فى أ : « ثم تصرخ » . (٧) فى أ : « فتضع » .

(٨) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٥/ ١٨٠) من طريق عبد الملك بن المغيرة ،عن ابن البيلمان ، عن ابن عمر قال : « تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى فتحملهم بين عجزها وذنبها فلا يبقى منافق إلا خطمته ، قال : وتمسح المؤمن ، قال : فيصبحون وهم أشر من الدجال ».

إسناده ابن البيلمان [١] .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عُزَير ، عليه السلام ، أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الحبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ، ويتعادى الأخلاء ، وتُحرَقُ الحكمة ، ويُرفَعُ العلم ، وتكلم الأرض التى تليها . وفى ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون . رواه ابن أبى حاتم، عنه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى معاوية بن صالح ، عن أبى مريم : أنه سمع أبا هريرة ، رضى اللّه عنه ، يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنيها فرسخ [٢] للراكب .

وقال ابن عباس : هى مثل الحربة الضخمة .

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنه ، أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها لحية ، وإنها لتخرج حُضْر الفرس الجواد ثلاثا ، وما خرج ثلثها [٣] . ورواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جُرَيْج ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيَّل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نَمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا [عشر] [٤] ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ،وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت فى وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة حتى يبيضّ لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتَت فى وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان ، فتفشوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون فى الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إنّ أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يافلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويافلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول اللّه تعالى : ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون** ﴾[٥] .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾.

---

(١) فى ف : « البيلمانى » . (٢) فى أ : « فرح » . (٣) فى ف ، أ : « ثلثاها » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا من الإسرائيليات مما لا فائدة من ذكره ، وأوصاف الدابة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين (١) بآيات اللّه ورسله إلى بين يدى اللّه، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا** ﴾ أى : من كل قوم وقرن (٢) فوجاً ، أى : جماعة ، ﴿ **مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا** ﴾، كما قال تعالى : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ﴾ [الصافات : ٢٢] ،وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ [التكوير : ٧] .

وقوله : ﴿ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾: قال ابن عباس، رضى اللّه عنهما : يدفعون . وقال قتادة : وَزَعَةٌ ترد(٣) أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا** ﴾ أى : أوقفوا بين يدى اللّه ،عز وجل، فى مقام المساءلة ، ﴿ **قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ ؟ أى : ويسألون (٤) عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ،وكانوا كما قال اللّه تعالى عنهم : ﴿ **فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾ [القيامة: ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [المرسلات : ٣٥ ـ ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ **وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ** ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى (٥) عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهًا على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا مَحيد عنه ، فقال : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ أى : فيه ظلام تسكن (٦) بسببه حركاتهم ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نَصَب التعب فى نهارهم. ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ أى : منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)** ﴾.

---

(١) فى ف ، أ : « الظالمين مع المكذبين » . (٢) فى ف : « قرن وقوم » . (٣) فى ف ، أ : « يرد » .
(٤) فى ف : « فيسألون » . (٥) فى ف : « لا يخفى » . (٦) فى ف : « يسكن » .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع فى الصُّور ، وهو كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ فيه ». وفى حديث (الصُّور) أن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾، وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبَيد الله (١) بن مُعاذ العنبرى ، حدثنا أبى ، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن عُرْوَه بن مسعود الثقفى ، سمعت عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تَحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ـ أو : لا إله إلا الله ـ أو كلمة نحوهما ـ لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين ـ [لا أدرى أربعين] (٢) يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ـ فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كَبَد جبل لدخَلَتْه (٣) عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك (٤) دار رزقهم ، حسنٌ عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً [ورفع ليتا] (٥) » . قال : « وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله » . قال : « فَيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطَّل ـ أو قال : الظل ـ نعمان الشاك ـ فتنبت (٦) منه أجساد الناس ، ثم ينفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال : أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك (٧) يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق» (٨) .

وقوله(٩) : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا » ، الليت (١٠) : هو صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً .

فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال :﴿ وَكُلٌّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ ـ قُرِئ بالمد ، وبغيره (١١) على الفعل ، وكلٌ بمعنى واحد ـ و﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد

(١) فى أ : « عبد الله » .
(٢) زيادة من ف ، أ ، وصحيح مسلم .
(٣) فى ف ، أ : « لدخلت » .
(٤) فى أ : « وهى فى تلك » .
(٥) زيادة من ف ، وصحيح مسلم . وفى أ : « أصغى ليثا ورفع ليثا » .
(٦) فى ف : « فينبت » .
(٧) فى أ : « فكذلك » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٤٠) .
(٩) فى ف ، أ : « فقوله » .
(١٠) فى أ : « إلا أصغى ليثا ورفع ليثا الليث » .
(١١) فى ف : « وغيره » .

عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر اللّه الأرواح ، فتوضع فى ثقب (١) فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت (٢) الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظُلمة ، فيقول اللّه ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح (٣) إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يَدب السم في اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال اللّه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ ـ ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كُلَّ ما خلق ، وأودع فيه (٤) من الحكمة ما أودع ، ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ـ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا اللّه ـ وقد بين فى المكان (٥) الآخر (٦) أن له عَشْر أمثالها . ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

وقوله: ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقى اللّه مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه (٧) ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، رضى اللّه عنهم ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النَّخَعى ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد ابن أسلم، والزهرى ، والسُّدِّى ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، فى قوله: ﴿ وَمَن جَاءَ

---

(١) فى أ : « نقب » . (٢) فى أ : « ما نبتت » . (٣) فى ف : « كل ريح » .
(٤) فى ف : « به » . (٥) فى أ : « الموضع » .
(٦) يشير ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى الآية : ١٦٠ من سورة الأنعام ، وهى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .
(٧) فى أ : « الحسنة » .

بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ(١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] .

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال :﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[قريش : ٣ ، ٤].

وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدرًا وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه اللّه يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لمن عرفها ، ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (٢) ، كما هو مبين فى موضعه من(٣) كتاب الأحكام ، وللّه الحمد .

وقوله :﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾: من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له .

وقوله :﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:٥٨] ،وكقوله:﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] أى : أنا مبلغ ومنذر،﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على اللّه ، كقوله تعالى :﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقال:﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود :١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أى : للّه الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

---

(١) فى هـ : « قال » والمثبت من ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) وسنن أبى داود برقم (٢٠١٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٠) وسنن النسائى (٢٠٣/٥) والمسند (٢٥٩/١) .

(٣) فى ف : « فى » .

عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شىء .

قال ابن أبى حاتم : ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر : حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى، حدثنا سعيد بن أبى سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس ، لايَغْتَرَّنَّ أحدكم بالله ؛ فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة » (١) .

[قال أيضا] (٢) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن على ، قال أبى : أخبرنى خالد بن قيس ، عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلا شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد ، رحمه الله ، أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره :

إذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَلَكن قُل عَلَيّ رَقيب
وَلا تَحْسَبَن الله يَغْفَل سَاعَة ... وَلا أن مَا يَخْفى عَلَيْه يَغيب

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨١٦٧) من طريق أبى أمية بن يعلى به .
(٢) زيادة من ف ، أ .

/ سورة النمل [٢٤١و]

مكّيّة، وهي ثلاث أو أربع[١] وتسعون آيةً.[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ①﴾

﴿طسٓ﴾ بالتفخيم، وقُرئ بالإمالة.[٣] والكلام فيه كالذي مرّ في نظائره مِن الفواتح الشريفة. ومحلّه على تقدير كونه اسمًا للسورة -وهو الأظهر الأشهر- الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا ﴿طسٓ﴾، أي: مسمًّى به. والإشارة إليه قبل ذِكره قد مرّ وجهُها في فاتحة سورة يونس وغيرها. ورفعُه بالابتداء على أنّ ما بعده خبرُه ضعيفٌ لِما ذُكِر هناك.

﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى نفس السورة؛ لأنّها التي نُوِّهَت بذكر اسمها، لا إلى آياتها؛ لعدم ذكرها صريحًا، ولأنّ إضافتها إليها تأبى إضافتها إلى القرآن كما سيأتي. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الفضل والشرف. ومحلّه الرفع على الابتداء، خبره: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما أفاده التسمية مِن نَباهة شأن المسمّى.

و﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ عبارة عن الكلّ، أو عن الجميعِ المنزَّل عند نزول السورة حسبما ذُكر في فاتحة فاتحة الكتاب، أي: تلك السورة آيات القرآن المعروفِ بعلوّ الشأن، أي: بعض منه مترجَم مستقلّ باسم خاصّ.

---

١ ط س - أو أربع.

٢ ط س + وقيل: أربع وتسعون آيةً.

٣ قرأ بإمالة الطاء حمزة والكسائي وخلف وشعبة، وقرأ باقي القرّاء العشر بفتحها. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

﴿وَكِتَابٍ﴾ أي: كتابٍ عظيم[1] الشأن ﴿مُبِينٍ﴾ مظهِر لِما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحكام وأحوالِ الآخرة التي مِن جملتها الثواب والعقاب، أو لسبيل الرشد والغيّ، أو فارقٍ بين الحقّ والباطل، والحلالِ والحرام، أو ظاهرِ الإعجاز؛ على أنّه مِن "أَبانَ" بمعنى "بانَ". ولقد فُخِّم شأنه الجليل بما جُمِع فيه مِن وصف القرآنيّة المُنبئة عن كونه بديعًا في بابه، ممتازًا عن غيره بالنظم المعجز، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر، ٢٨/٣٩]، ووصفِ الكتابيّة المُعرِبة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الإلهيّة، فكأنّه كلّها.

وقُدِّم الوصف الأوّل ههنا نَظَرًا إلى تقدّم حال القرآنيّة على حال الكتابيّة،[2] وعُكِس في سورة الحِجر نظَرًا إلى ما ذُكر هناك مِن الوجه.

وما قيل مِن أنّ "الكتاب" هو اللوح المحفوظ، وإبانتُه أنّه خُطَّ فيه ما هو كائن، فهو يُبيّنُه للناظرين فيه،[3] لا يساعده إضافةُ الآيات إليه، إذ لا عهدَ باشتماله على الآيات، ولا وصفُه بالهداية والبشارة، إذ هما باعتبار إبانته، فلا بدّ مِن اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين مِن جملتهم المؤمنون، لا إلى الناظرين فيه، وقُرئ: "وَكِتَابٌ"،[4] بالرفع على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، أي: وآياتُ كتابٍ مبين.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن "الآيات"[5] على
[٢٤١ظ] أنّهما مصدران / أُقيما مُقام الفاعل للمبالغة، كأنّهما نفس الهدى والبشارة، والعامل معنى الإشارة، أي: هاديةً ومبشّرةً، أو الرفعِ على أنّهما بدَلان مِن الآيات، أو خبران آخران لـ﴿تِلْكَ﴾، أو لمبتدأٍ محذوف. ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنّها تزيدهم هدًى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة، ١٢٤/٩]،

---

[1] س: عظم.
[2] س: الكتابة.
[3] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٤/٤.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٧.
[5] في الآية السابقة.

وأمّا معنى تبشيرها إيّاهم فظاهر؛[١] لأنّها تبشّرهم برحمة مِن الله ورضوان وجنّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة مادحة لهم، وتخصيصُهما بالذِّكر لأنّهما قَرينتا الإيمان، وقُطْرَا العباداتِ البدنيّة والماليّة مُستتبِعتان لسائر الأعمال الصالحة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ جملة اعتراضيّة، كأنّه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقِنون بالآخرة حقَّ الإيقان، لا مَن عداهم؛ لأنّ تحمّل مشاقّ العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب، أو هو مِن تتمّة الصلة، والواو حاليّة أو عاطفة له على الصلة الأولى، وتغيير نظمه للدلالة على قوّة يقينهم وثباته، وأنّهم أوحديّون فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين، أي: لا يؤمنون بها وبما فيها مِن الثواب على الأعمال الصالحة، والعقاب على السيّئات، حسبما ينطق به القرآن. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاةً للطبع محبوبة للنفس، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «حُفَّتِ النارُ بالشهوات»،[٢] أو الأعمالَ الحسنةَ ببيان حُسنِها في أنفسها حالًا، واستتباعِها لفنون المنافع مآلًا. وإضافتُها إليها باعتبار أمرهم بها وإيجابِها عليهم.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيّرون ويتردّدون على التجدّد والاستمرار في الاشتغال بها، والانهماك فيها، مِن غير ملاحظة لِما يتبعها مِن نفع وضرّ، أو في الضلال والإعراض عنها. و"الفاء" على الأوّل لترتيب المسبَّب على السبب،

---

١ س: فظ [اختصار "فظاهر"].

٢ صحيح البخاري، ١٠٢/٨ (٦٤٨٧)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٢). ولفظ البخاري: "حُجبت".

وعلى الثاني لترتيب ضدّ المسبَّب على السبب، كما في قولك: "وَعظتُه فلم يتّعِظ". وفيه إيذان بكمال عُتوّهم ومُكابرتهم وتعكيسهم في الأمور.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين. وهو مبتدأ خبرُه الموصول بعده، أي: أولئك الموصوفون بالكفر والعمَهِ ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا، كالقتل
[٢٤٢و] والأسر يوم بدر، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ / هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: أشدّ الناس خُسرانًا لفوت الثواب واستحقاق العقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ كلام مستأنَف قد سِيق بعد بيان بعض شئون القرآن الكريم تمهيدًا لِما يعقُبه مِن الأقاصيص. وتصديره بحرفَي التأكيد لإبراز كمال العناية بمَضمونه، أي: لَتُؤْتاه بطريق التَّلْقية والتلقين ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: أيِّ حكيم وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوّ طبقته عليه السلام في معرفته والإحاطة بما فيه مِن الجلائل والدقائق، فإنّ مَن تَلَقَّى العلوم والحِكمَ مِن مِثل ذلك الحكيم العليم يكون عَلمًا في رصانة العلم والحكمة.

والجمع بينهما مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللإشعار بأنّ ما في القرآن مِن العلوم منها ما هو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبيّة.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر، خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمِر بتلاوة بعضٍ مِن القرآن الذي يُلَقّاه عليه السلام مِن لَدُنه عزّ وجلّ تقريرًا لِما قبله وتحقيقًا له، أي: اذكر لهم

وقتَ قوله عليه السلام لأهله في وادي طوى، وقد غشِيَتْهم ظلمة الليل، وقدَحَ فأَصْلَد زَندُه،[١] فبَدا له مِن جانب الطور نار: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن حال الطريق، وقد كانوا ضَلُّوه، و"السين" للدلالة على نوع بُعدٍ في المسافة وتأكيدِ الوعد. والجَمعُ -إن صحّ أنّه لم يكن معه عليه السلام إلّا امرأته- لِما كُنِي عنها بالأهل، أو لِلتعظيم مبالغةً في التسلية.

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ بتنوينهما على أنّ الثاني بدل مِن الأوّل، أو صفة له لأنّه بمعنى "مَقبوس"، أي: بشعلة نارٍ مَقبوسة، أي: مأخودة مِن أصلها. وقُرِئ بالإضافة،[٢] وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبَس الجامع لمنفعتَي الضياءِ والاصطلاء؛ لأنّ مِن النار ما ليس بقبَسٍ كالجَمْر. وكلتا العِدَتَين منه عليه السلام بطريق الظنّ، كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه[٣] مِن صيغة الترجّي.

والترديد للإيذان بأنّه إن لم يظفر بهما لم يَعدَم أحدَهما بناء على ظاهر الأمر وثِقةً[٤] بسنّة الله تعالى، فإنّه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانَين.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ رجاءَ أن تستدفِئوا بها، / و"الصِّلاء": النار العظيمة. [٢٤٢ظ]

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ مِن جانب الطور ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ معناه: أي: بُورِك، على أنّ ﴿أن﴾ مفسّرة لِما في النداء مِن معنى القول، أو بأن بُورِك، على أنّها مصدريّة حُذف عنها الجارّ جَريًا على القاعدة المستمرّة. وقيل: مخفّفة مِن الثقيلة، ولا ضيرَ في فقدان التعويض بـ"لا" أو "قد" أو "السين" أو "سوف"، لِما أنّ الدعاء يخالف غيرَه في كثير مِن الأحكام.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: مَن في مكان النار -وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾

---

١ صَلَدَ الزَنْدُ يَصْلِدُ -بالكسر- صُلودًا، إذا صَوَّتَ ولم يُخرِج نارًا. وأَصْلَدَ الرجلُ: أي صَلَدَ زَنْدُه. **الصحاح** للجوهري، «صلد».

٢ أي: "بِشِهَابِ قَبَسٍ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

٣ طه، ١٠/٢٠.

٤ س: ثقةً.

[القصص، ٣٠/٢٨]- ومَن حولَ مكانها. وقُرِئ: "تَبَارَكَتِ الْأَرْضُ وَمَنْ حَوْلَهَا".[١] والظاهر عمومه لكلّ مَن في ذلك الوادي وحَواليهِ مِن أرض الشام الموسومة بالبركات؛ لكونها مَبعثَ الأنبياء عليهم السلام، وكِفَاتَهم[٢] أحياءً وأمواتًا، ولا سيّما تلك البقعة التي كلّم الله تعالى موسى.

وقيل: المراد موسى والملائكة الحاضرون، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنّه قد قُضِي له أمر عظيم ديني ينتشر بركاته في أقطار الشام، وهو تكليمه تعالى إيّاه عليه السلام، واستنباؤه له، وإظهار المعجزات على يدِه عليه السلام.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام مِن ذلك، وإيذانٌ بأنّ ذلك مُريدُه ومُكوِّنُه ربُّ العالمين تنبيهًا على أنّ الكائن مِن جلائل الأمور، وعظائمِ الشئون، ومِن أحكام تربيته تعالى للعالمين.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ استئناف مَسوق لبيان آثار البركة المذكورة. والضمير إمّا للشأن، و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ جملة مفسّرة له، وإمّا راجع إلى المتكلّم، و﴿أَنَا﴾ خبره، و﴿ٱللَّهُ﴾ بيان له.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان لله تعالى ممهِّدتانِ لِما أُريدَ إظهارُه على يده مِن المعجزة، أي: أنا القويُّ القادر على ما لا يناله الأوهام مِن الأمور العظام التي مِن جملتها أمر العصا واليد، الفاعِلُ، كلُّ ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رَصين.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾

﴿وَأَلْقِ﴾ عطفٌ على ﴿بُورِكَ﴾[٣] منتظِم معه في سِلك تفسير النداء، أي: نودي أن بُورك وأن ألقِ ﴿عَصَاكَ﴾ حسبما نطق به قوله تعالى: / ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [٢٤٣و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٤٩/٣.

[٢] الكِفات: الموضع الذي يُكْفَتُ فيه شيء، أي: يُضمّ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات، ٢٥/٧٧-٢٦].

[٣] في الآية السابقة.

[القصص، ٣١/٢٨] بتكرير حرف التفسير، كما تقول: "كتبتُ إليه أن حُجَّ وأنِ اعْتَمِر"، وإن شئتَ "أن حُجَّ واعتمِر".

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة تفصِح عن جملةٍ قد حُذِفَت ثِقةً بظهورها، ودلالةً على سرعة وقوع مضمونها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، كأنّه قيل: فألقاها فانقلبَتْ حيّةً تسعَى فأبصرها،[١] فلمّا أبْصَرَها متحرِّكةً بسرعة واضطراب.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: حيّةٌ خفيفة سريعة الحركة، جملةٌ حاليّة، إمّا مِن مفعول "رأى" مثل ﴿تَهْتَزُّ﴾ كما أشيرَ إليه، أو مِن ضمير ﴿تَهْتَزُّ﴾ على طريقة التداخل. وقُرئ: "جَأْنٌّ"[٢] على لغة مَن جدّ في الهرب مِن التقاء الساكنين.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ مِن الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع على عقبه، مِن "عَقَّب المقاتل" إذا كَرَّ بعد الفَرِّ. وإنّما اعتراه الرُّعب لظنّه أنّ ذلك لأمرٍ أُرِيدَ به، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: مِن غيري ثِقةً بي، أو مطلقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإنّه يدلّ على نفي الخوف عنهم مطلقًا، لكن لا في جميع الأوقات؛ بل حين يُوحَى إليهم كوقت الخطاب، فإنّهم حينئذ مستغرِقون في مطالعة شئون الله عزّ وجلّ، لا يخطر ببالهم خوفٌ مِن أحدٍ أصلًا، وأمّا في سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه، أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناء منقطع، استُدرِك به ما عسى يختلجُ في الخَلَد مِن نفي الخوف عن كلّهم مع أنّ منهم مَن فرطَتْ منه صغيرة ما ممّا يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،[٣] فإنّهم وإن صدر عنهم شيء مِن ذلك فقد فعلوا عقيبَه ما يبطله

---

[١] م ط س - فأبصرها ["صح" في هامش م].

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والزهري وعمرو بن عبيد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢١٣/٨.

[٣] س: عليهم السلام.

ويستحقّون به مِن الله تعالى مغفرةً ورحمةً، وقد قُصِد به التعريضُ بما وقع مِن موسى عليه السلام مِن وَكزة القبطي والاستغفار. وتسميتُها ظلمًا لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥ﴾ [القصص، ١٦/٢٨].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ١٢﴾

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنّه كان مِدرعةَ صوف لا كُمَّ لها. وقيل: "الجَيب" القميص؛ لأنّه يُجاب، أي: يُقطع. / ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: [٢٤٣ظ]
آفةٍ، كبَرَص ونحوه.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ في جملتها، أو معها على أنّ التِسع هي: الفَلْق، والطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والطَّمْسة، والجَدْب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم. ولِمَن عدّ العصا واليد مِن التسع أن يعدّ الأخيرين واحدًا، ولا يعدّ الفَلْقَ منها؛ لأنّه لم يُبعث به إلى فرعون، أو اذهب في تسع آيات، على أنّه استئناف بالإرسال، فيتعلّق به: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، وعلى الأوّلَين يتعلّق بنحو: مبعوثًا أو مرسلًا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال، أي: خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ وظهَرت على يد موسى ﴿مُبْصِرَةً﴾ بيّنةً، اسم فاعل أُطلق على المفعول إشعارًا بأنّها لِفَرْط وضوحها وإنارتها كأنّها تُبصِر نفسَها لو كانت ممّا يُبصِر، أو ذاتَ تَبصّر مِن حيث إنّها تهدي، والعُمْيُ لا تَهتدي فضلًا عن الهداية، أو مُبصِرةً كلَّ مَن ينظر إليها ويتأمّل فيها. وقُرِئ: "مَبْصَرَةٌ"،[1] أي: مكانًا يكثُر فيه التبصّر.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سِحريّتُه.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وعلي بن الحسين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٨.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: كذّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ "الواو" للحال، أي: وقد استَيقنَتْها، أي: علِمتْها أنفسهم علمًا يقينيًا ﴿ظُلْمًا﴾ أي: للآيات، كقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف، ٩/٧]، ولقد ظلَموا[١] أيّ ظلم حيث حطّوها عن رتبتها العالية وسمَّوها سِحرًا. وقيل: ظلمًا لأنفسهم،[٢] وليس بذاك.

﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: استكبارًا عن الإيمان بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ [الأعراف، ٣٦/٧]. وانتصابُهما إمّا على العلّة مِن ﴿جَحَدُواْ بِهَا﴾، أو على الحاليّة مِن فاعله، أي: جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مِن الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عِبرة للعالمين، وإنّما لم يُذكر تنبيهًا على أنّه عُرضة لكلّ ناظر مشهور فيما بين كلّ بادٍ وحاضر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ / كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما سبق مِن [٢٤٤و]
أنّه عليه السلام يُلَقّى القرآنَ مِن لدن حكيمٍ عليم، فإنّ قصّتهما عليهما السلام مِن جملة القرآن الكريم لُقّيَهُ عليه السلام مِن لدنه تعالى، كقِصّة موسى عليه السلام. وتصديره بالقسَم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: آتينا كلّ واحد منهما طائفةً مِن العلم لائقةً به مِن علم الشرائع والأحكام وغير ذلك ممّا يختصّ بكلٍّ منهما، كصنعة لَبوس، ومَنطق الطير، أو عِلمًا سنيًّا غزيرًا.

﴿وَقَالَا﴾ أي: قال كلّ واحدٍ منهما شكرًا لِما أُوتِيَه مِن العلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا مِن العِلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنّ عبارة كلٍّ منهما: "فضّلَني"، إلّا أنّه عُبّر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلّم مع الغير إيجازًا، فإنّ حكاية الأقوال المتعدّدة سواء كانت صادرةً عن المتكلّم أو عن غيره

---

١ ط س + بها.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٤.

بعبارة جامعة للكلّ ممّا ليس بعزيز، ومِن الأوّل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، وقد مرّ في سورة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. وبهذا ظهَر حُسن موقع العطف بـ"الواو"، إذ المتبادر مِن العطف بـ"الفاء" ترتّب حمد كلّ منهما على إيتاء ما أوتي كلٌّ منهما، لا على إيتاء ما أوتي نفسه فقط.

وقيل: في العطف بـ"الواو" إشعار بأنّ ما قالاه بعضُ ما أحدث فيهما، إيتاءُ العلم وشيء مِن مواجبه، فأُضمِر ذلك ثمّ عُطف عليه التحميد، كأنّه قيل: ولقد آتيناهما عِلمًا فعمِلا به وعلّماه وعرَفا حقّ النعمة فيه وقالا: الحمد لله... الآية، فتأمّل.

والكثير المفضّل عليه مَن لم يُؤْتَ مثلَ علمهما. وقيل: مَن لم يُؤْتَ عِلمًا،[1] ويأباه تبيين الكثير بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإنّ خلوّهم مِن العلم بالمرّة ممّا لا يمكن. وفي تخصيصهما الأكثرَ بالذكر رَمْز إلى أنّ البعض مفضَّلون عليهما.

[٢٤٤ظ] وفيه أوضح دليل على / فضل العلم وشرف أهله حيث شَكَرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا مِن المُلك الذي لم يُؤْتَهُ غيرهما، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم مِن فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنّهم وإن فُضّلوا على كثير فقَد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كلّ ذي علمٍ عليمٌ، ونِعمّا قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «كلّ الناس أفقَه مِن عمر».[2]

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: النبوّةَ والعلمَ، أو المُلكَ بأن قام مقامَه في ذلك دون سائر بَنيه، وكانوا تسعة عشر. ﴿وَقَالَ﴾ تشهيرًا لنعمة الله تعالى، وتنويهًا بها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذِكر المعجزات الباهرة التي أُوتِيَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٦/٤.

[2] سنن سعيد بن منصور، ١٩٥/١ (٥٩٨)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٣٨٠/٧ (١٤٣٣٦).

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ "المنطق" في المتعارَف كلّ لفظ يعبَّر به عمّا في الضمير مفردًا أو مركّبًا، وقد يطلق على كلّ ما يُصَوِّت به مِن المفرد والمؤلَّف، المفيدِ وغيرِ المفيد، يقال: "نَطَقت الحمامة".

وكلّ صنف مِن أصناف الطير يتفاهم أصواتَه، والذي عُلِّمَه سليمان عليه السلام مِن مَنطِق الطير هو ما يَفهم بعضُه مِن بعض مِن معانيه وأغراضه.

ويُحكى أنّه مرّ على بلبلٍ في شجرة يُحرّك رأسه ويُميل ذنَبَه، فقال لأصحابه: «أتدرون ما يقول؟» قالوا: «الله ونبيّه أعلم»، قال: يقول: «إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفاء». وصاحت فاخِتة، فأخبَر أنّها تقول: «ليت ذا الخلقَ لم يُخْلَقُوا». وصاح طاوس، فقال: يقول: «كما تَدِينُ تُدانُ». وصاح هُدهُد، فقال: يقول: «استغفروا الله يا مذنبون». وصاح طِيطُوي، فقال: يقول: «كلّ حيّ ميّت، وكلّ جديدٍ بالٍ». وصاح خطّاف، فقال: يقول: «قدِّموا خيرًا تجدوه». وصاح قُمريّ، فأخبَر أنّه يقول: «سبحان ربّي الأعلى». وصاحت رَخَمَة، فقال: تقول: «سبحان ربّي الأعلى مِلْأَ سمائه وأرضه».

وقال: الحِدأ يقول: «كلّ شيء هالك إلّا الله»، والقَطاة تقول: «مَن سكت سَلِم»، / والببَّغاء تقول: «ويل لمَن الدّنيا همّه»،[1] والديك يقول: «اذكروا الله يا غافلون»، والنَّسر يقول: «يا ابن آدم عِش ما شئتَ، آخرُك الموت»، والعُقاب يقول: «في البُعد مِن الناس أُنس»، والضِّفدَع يقول: «سبحان ربّي القدّوس».[2] [٢٤٥و]

وأراد عليه السلام بقوله: ﴿عُلِّمْنَا﴾ و﴿أُوتِينَا﴾ بـ"النون" التي يقال لها: "نون الواحد المطاع" بيانَ حالِه وصفتِه مِن كونِه مَلِكًا مُطاعًا، لكن لا تَكبّرًا وتَجبّرًا؛ بل تمهيدًا لِما أراد منهم مِن حسن الطاعة والانقياد له في أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير.

وبقوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ كثرةَ ما أُوتِيَه، كما يقال: "فلان يقصده كلّ أحد، ويعلم كلَّ شيء"، ويراد به كثرةُ قُصّاده وغَزارةُ علمه. ومثله قوله تعالى:

---

[1] م ط س: لمن همّه الدنيا ["صح" في هامش م].

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٣.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النمل، ٢٣/٢٧]. وقال ابن عبّاس: «كلّ ما يهمّه مِن أمر الدنيا والآخرة».[١] وقال مقاتل: «يعني: النبوّةَ والمُلكَ وتسخيرَ الجنّ والإنس والشياطين والريح».[٢]

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكِر مِن التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ﴾ والإحسانُ مِن الله تعالى ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ الواضح الذي لا يخفى على أحد.

أو إنّ هذا الفضل الذي أُوتِيَه لهو الفضل المبين، على أنّه عليه السلام قالَه على سبيل الشكر والمَحْمَدة، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فَخر»،[٣] أي: أقول هذا القولَ شكرًا لا فخرًا، ولعلّه عليه السلام رَتّبَ على كلامه ذلك دعوةَ الناس إلى الغَزْو، فإنّ إخبارهم بإيتاءِ كلّ شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو ممّا يُنبئ عن ذلك.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ جُمع له عساكره ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ بمباشرة مُخاطَبِيه، فإنّهم كانوا رُؤساءَ مملكته وعظماءَ دَولته مِن الثقلين وغيرهم، بتعميم الناس للكلّ تغليبًا. وتقديم ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ على ﴿ٱلۡإِنسِ﴾ في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوّة مُلكه وعزّة سلطانه مِن أوّل الأمر، لِما أنّ الجنّ طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة مِن الحشر والتسخير.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَس أوائلهم على أواخرهم، أي: يُوقَف سُلّافُ العسكر حتّى يلحقهم التوالي، فيكونوا مجتمعين لا يتخلّف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة. ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر. وفيه إشعار بكمال مسارعتهم إلى السير.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٢٤/١٥.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٢٤/١٥.

٣ سنن الترمذي، ٣٠٨/٥ (٣١٤٨)؛ سنن ابن ماجه، ٣٦٢/٥ (٤٣٠٨).

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سَوق أواخرهم مع أنّ التلاحق يحصل بذلك أيضًا لِما أنّ أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم مِن السير السريع، وهذا إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجوّ.

رُوي أنّ مُعَسكَره عليه السلام كان مائةَ فرسخ في مائةٍ، خمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له عليه السلام ألف بيتٍ مِن قواريرٍ على الخشب، فيها ثلاثُمائة منكوحةٍ، وسبعُمائة سُرِّيّةٍ، وقد نَسجَتْ له الجنّ بساطًا مِن ذهب وأُبْرِيسَمٍ فرسخًا في فرسخ، وكان يُوضَعُ مِنبره في وسطه -وهو مِن ذهب- فيقعد عليه وحوله ستُّمائة / ألفِ كرسيّ مِن ذهب وفضّة، فيقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة، وحولَهم الناس، وحولَ الناس الجنّ والشياطين، وتُظلُّه الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصَّبا البساطَ فتسيرُ به مَسيرةَ شهر.[1] [٢٤٥ظ]

ويُروى أنّه كان يأمر الريحَ العاصف تحمِله، ويأمر الرُّخاءَ تُسَيِّره، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: «إنّي قد زِدْتُ في مُلكك؛ لا يتكلّم أحد بشيء إلّا ألقَتْه الريح في سمعك»، فيُحكَى أنّه مرّ بحرّاث فقال: «لقد أُوتِي آلُ داود مُلكًا عظيمًا»، فألقَتْهُ الريح في أُذُنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث، وقال: «إنّما مشيتُ إليك لِئَلّا تتمنّى ما لا تقدر عليه»، ثمّ قال: «لَتَسبيحةٌ واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أُوتِيَ آلُ داود».[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ حتّى هي التي يُبتدَأُ بها الكلام، ومع ذلك هي غاية لِما قبلها كالتي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٤/٣.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٥/٣.

الآيةَ [هود، ١١/٤٠]، وهي ههنا غاية لِما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ مِن السير، كأنّه قيل: فساروا حتّى إذا أتَوا... إلخ.

و"وادي النمل" وادٍ بالشام كثيرُ النمل على ما قاله مقاتل،[١] وبالطائف على ما قاله كعب.[٢] وقيل: هو وادٍ تسكنه الجنّ، والنمل مراكبهم. وتعدية الفعل إليه بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ إمّا لِأنّ إتيانهم كان مِن فوق، وإمّا لأنّ المراد بالإتيان عليه قطعُه، مِن قولهم: "أتَى على الشيء" إذا أَنفَدَه وبلغ آخره، ولعلّهم أرادوا أن يَنزلوا عند منتهى الوادي؛ إذ حينئذ يخافُهم ما في الأرض، لا عند سيرهم في الهواء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، كأنّها لمّا رأتهم متوجّهين إلى الوادي فرّت منهم، فصاحت صيحةً تَنبّهتْ بها ما بحَضْرَتها مِن النمل لِمرادها، فتبِعَها في الفرار، فَشُبِّهَ / ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فأُجْرُوا مُجراهم، [٢٤٦و]
حيث جُعلَت هي قائلةً، وما عداها مِن النمل مقولًا لهم، حيث قيل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ مع أنّه لا يمتنع أن يخلُق الله تعالى فيها النطقَ، وفيما عداها العقلَ والفهمَ.

وقُرئ: "نَمُلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمُلُ" بضمّ الميم،[٣] وهو الأصلُ، كـ"الرجُل"، وتسكينُ الميم تخفيف منه، كـ"السَّبْع" في "السَّبُع". وقُرئ بضمّ النون والميم.[٤]

قيل: كانت نملةً عرجاءَ تمشي وهي تَتَكاوَسُ،[٥] فنادت بما قالت، فسمع سليمان عليه السلام كلامَها مِن ثلاثة أميال. وقيل: كان اسمُها طاخيةً. وقُرئ: "مَسْكَنَكُمْ".[٦]

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٧٣؛ اللباب لابن عادل، ١٥/١٢٧. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٥٧، مِن غير عزو إلى مقاتل.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٧٣؛ اللباب لابن عادل، ١٥/١٢٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان وسليمان التيمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان التيمي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٠.

٥ مِن "الكَوس"، وهو المشي على رِجل واحدة، ومِن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. انظر: لسان العرب لابن منظور، «كوس».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَهر بن حوشب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٠.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهي في الحقيقة للنمل عن التأخّر في دخول مساكنهم وإن كان بحسب الظاهر نهيًا له عليه السلام ولجنوده عن الحَطْم، كقولهم: "لا أَرَيَنّك ههنا"، فهو استئناف، أو بدل مِن الأمر، كقول مَن قال:

فقلتُ لَه: ارْحَلْ لا تقيمنَّ عندنا[1]

لا جواب له، فإنّ النون لا تدخله في السَّعة. وقُرئ: "لَا يَحْطِمَنْكُمْ" بالنون الخفيفة.[2] وقُرئ: "لَا يَحَطِّمَنَّكُمْ" بفتح الحاء وكسرِها،[3] وأصله: "لَا يَحْتَطِمَنَّكُمْ".

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ مفيدة، لتقييد الحَطْم بحالِ عدم شعورهم بمكانهم، حتّى لو شعروا بذلك لم يَحْطِموا. وأرادت بذلك الإيذانَ بأنّها عارفة بشئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم السلام في عصمتهم عن الظلم والإيذاء. وقيل: هو استئناف، أي: فَهِمَ سليمان ما قالته، والقوم لا يشعرون بذلك.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجّبًا مِن حذَرِها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها، وسرورًا بشُهرة حاله وحالِ جنوده في باب التقوى والشَّفَقة فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدها مِن إدراك أمثال هذه الأمور، وابتهاجًا بما خصّه الله تعالى به مِن إدراك هَمسها وفهم مرادها. رُوي أنّها أحسّت بصوت الجنود ولا تعلم أنّهم في الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفَت لئلّا يُذْعَرْنَ حتّى دخلن مساكنهنّ.[4]

---

[1] تمامه:

وإلّا فكُن في السِّرّ والجهر مسلمًا

وهو بغير نسبة في مفتاح العلوم للسكّاكي، ٢٥٩/١؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٨٣٩/٢.

[2] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي: اجعلني أَزَعُ شكرَ نعمتك عندي وأكفُّه وأرتَبِطه بحيث لا ينفلت عنّي، حتّى لا أنفكّ عن شكرك أصلًا. وقُرئ بفتح ياء ﴿أَوْزِعْنِي﴾.[١] ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ / أدرج فيه ذكرَهما تكثيرًا [٢٤٦ظ]
للنعمة، فإنّ الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتمامًا لِلشكر واستدامةً للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم الجنّةَ التي هي دار الصالحين.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: تعرّف أحوال الطير، فلم يَرَ الهُدهُدَ فيما بينها، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ كأنّه قال أوّلًا: ما لي لا أراه؟ لِساتر ستَره أو لسبب آخر، ثمّ بَدَا له أنّه غائب، فأضرَبَ عنه، فأخذَ يقول: أَهُو غائب؟

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه. وقيل: بجَعله مع ضدّه في قفص. وقيل: بالتفريق بينه وبين إلْفه. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة تبيّن عذره. والحَلف في الحقيقة على أحد الأَوّلين على تقدير عدم الثالث. وقُرئ: "لَيَأْتِيَنَّنِي" بنونين أولاهما مفتوحة مشدّدة.[٢]

قيل: إنّه عليه السلام لمّا أتمّ بناء بيت المقدس تجهّز للحجّ بحَشْره[٣] فَوافى الحرمَ وأقامَ به ما شاء، وكان يقرِّب كلَّ يومٍ طُولَ مُقامِه بخمسة آلاف ناقة، وخمسةِ آلاف بقرةٍ، وعشرين ألفَ شاةٍ، ثمّ عزَم على السير إلى اليمن، فخرج مِن مكّة صباحًا يَؤُمُّ سُهَيلًا، فوافى صنعاءَ وقت الزوال، وذلك مسيرةُ شهرٍ، فرأى أرضًا حسناءَ أعجبته خُضرتُها، فنزل لِيتغدّى ويُصلّي، فلم يجدوا الماءَ،

---

[١] قرأ بها البزّي وورش مِن طريق الأزرق. النشر لابن الجزري، ٢/١٦٦.

[٢] قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصاحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

[٣] وفي هامش م: الحشر: المحشور. «منه».

وكان الهُدهُد قُنَاقِنَه،[١] وكان يرى الماء مِن تحت الأرض كما يُرى الماءُ في الزجاجة، فيجيء الشياطين فيَسلخونها كما يُسلَخ الإهابُ، ويستخرجون الماء، فتفقّده لذلك، وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حَلْقَ الهُدهُد، فرأى هُدهُدًا واقعًا، فانحطّ إليه، فوصف له مُلك سليمان عليه السلام وما سُخِّر له مِن كلّ شيء، وذَكر له صاحبهُ مُلك بِلْقِيسَ، وأنّ تحتَ يدها اثنَي عشر ألف قائد، تحت يدِ كلّ قائد مائةُ ألفٍ، وذهب معه لينظر، فما رجع إلّا بعد العصر.[٢] وذلك قوله تعالى:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: زمانًا غير مَديد. وقُرئ بضمّ الكاف.[٣] وذُكِر أنّه وقَعَتْ / نفحة مِن الشمس على رأس سليمان عليه السلام،[٤] فنظر فإذا موضع الهُدهُد خالٍ، فدعا عِرّيفَ الطير -وهو النسر- فسأله عنه، فلم يجد عنده علمَه، ثمّ قال لسيّد الطير -وهو العُقاب-: عليَّ به، فارتفعَتْ فنظرَتْ، فإذا هو مُقبل فقصدَتْه، فناشدها الله تعالى،[٥] وقال: بحقّ الله[٦] الذي قوّاكِ وأقدَركِ عليّ إلّا رَحِمتِني، فتركَتْه. وقالت: ثكِلَتكَ أمّك، إنّ نبيّ الله قد حلَف ليعذّبنّكَ، قال: وما استثنى، قالت: بلى، قال: أو لَيأتينّي بعذر مبين، فلمّا قَرُب مِن سليمان عليه السلام أرخى ذنَبَه وجناحَيه يجرّها على الأرض تواضعًا له، فلمّا دَنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمدّه إليه، فقال: يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان عليه السلام، وعفا عنه، ثمّ سأله،[٧] ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علمًا ومعرفةً، وحفظتُه مِن جميع جهاته. وقُرئ: "أَحَطتُّ" بإدغام الطاء في التاء، بإطباقٍ[٨] وبغير إطباقٍ.[٩] [٢٤٧و]

---

١ وفي هامش م: "القُنَاقِنُ" مَن يعرف مَنابط الماء، والجمعُ "قَنَاقِن". «منه».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

٣ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير عاصم وروح. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

٤ س – عليه السلام.

٥ م – تعالى.

٦ س – الله.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٣.

٨ قرأ بالإدغام مع المحافظة على إطباق الطاء جميع القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٢٠/١.

٩ أي: بالإدغام الكامل، قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري والبيضاوي بغير نسبة وعزاها الشهاب الخفاجي إلى ابن محيصن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٥٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٨/٤؛ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٠/٧.

ولا خفاءَ في أنّه لـم يُرِد بما ادّعى الإحاطةَ به ما هو مِن حقائق العلوم ودقائق المعارف التي يكون معرفتُها والإحاطةُ بها مِن وَظائف أرباب العلم والحكمة، لتوقّفها على علم رصين وفضل مبين، حتّى يكون إثباتُها لنفسه بين يدي نبيّ الله سليمان عليه السلام تعدّيًا عن طَوره، وتجاوزًا عن دائرة قدره، ونَفيُها عنه عليه السلام جنايةً على جنايةٍ، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عنه بأنّ ذلك كان منه بطريق الإلهام، فكافحه عليه السلام بذلك مع ما أوتي عليه السلام مِن فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمّة والإحاطةِ بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له عليه السلام في علمه، وتنبيهًا على أنّ في أدنى خلقه تعالى وأضعفِهم مَن أحاط علمًا بما لم يُحط به، ليتحاقرَ إليه نفسُه، ويتصاغرَ إليه عِلمُه، ويكونَ لطفًا له في ترك الإعجاب الذي هو فِتنةُ العلماء؛ بل أراد به ما هو مِن الأمور / [٢٤٧ظ] المحسوسة التي لا يُعَدُّ الإحاطة بها فضيلة، ولا الغفلةُ عنها نقيصة، لعدمِ توقّفِ إدراكها إلّا على مجرّد إحساسٍ يستوي فيه العقلاء وغيرُهم.

وقد عَلِم أنّه عليه السلام لم يشاهِده، ولم يسمَع خبرَه مِن غيره قطعًا، فعَبَّر عنه بما ذُكِرَ لِترويج كلامه عنده عليه السلام وترغيبِه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالةِ قلبه نحو قبوله، فإنّ النفس للاعتذارِ المُنبِئ عن أمرٍ بديع أَقبَلُ، وإلى تَلَقّي ما لا تعلمه أَمْيَلُ، ثمّ أيّده بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ حيث فسّر إبهامَه نوعَ تفسيرٍ وأراه عليه السلام أنّه كان بصَدد إقامة خدمةٍ مهمّةٍ له حيث عبّر عمّا جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصَفَه بما وصفَه، وإلّا فماذا صَدَر عنه عليه السلام مع ما حُكِي عنه ما حُكِي مِن الحمد والشكر، واستدعاء الإيزاع[1] حتّى يليقَ بالحكمة الإلهيّة تنبيهه عليه السلام على تركه.

و﴿سَبَإٍ﴾ منصرف على أنّه اسمٌ لحَيّ، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر، وهو سَبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قَحطان. قالوا: اسمُه عبد شمس، لُقِّب به لكونه أوّلَ مَن سبَى. وقُرئ بفتح الهمزة[2] غيرَ منصرف على أنّه اسم للقبيلة ثمّ سُمِّيَت

---

[1] وفي هامش م: بقوله: ﴿أَوْزِعْنِي﴾. «منه». | أي: مِن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل، ١٩/٢٧].

[2] قرأ بها أبو عمرو والبزّي. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

مدينة مَأرِبَ بِسَبَإٍ، وبينها وبين صنعاءَ مسيرة ثلاث. وعلى هذه القراءة يجوز أن يُراد به القبيلة والمدينة، وأمّا على القراءة الأولى فالمراد هو الحيّ لا غير.

وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل إنباءِ الهُدهُد ليس بأمر بديع لا بدّ له مِن حِكمةٍ داعية إليه البتّة، وإن استحال خلوّ أفعاله تعالى مِن الحِكم والمصالح، لِما أنّ المسافة بين محطّه عليه السلام وبين مَأرِب وإن كانت قصيرة لكن مدّةَ ما بين نزوله عليه السلام هناك وبين مجيء الهُدهُد بالخبر أيضًا قصيرة. نعم اختصاص الهُدهُد بذلك مع كون الجنّ أقوى منه مبنيّ على حِكم بالغة، يستأثر بها علّام الغيوب.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ استئناف ببيان ما جاء به مِن النبأ، وتفصيلٌ له إثرَ الإجمال، وهي بِلْقِيسُ بنتُ شراحيل بن مالك بن ريّان. وكان أبوها مَلِكَ أرضِ اليمن كلّها، وُرّثَ المُلكَ مِن أربعين أبًا، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبَتْ بعده على المُلكِ، / ودانَت لها الأمّة. وكانت هي وقومُها مجوسًا يعبدون الشمس. [٢٤٨و]

وإيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على "رأيتُ" لِما أشيرَ إليه مِن الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بإبراز نفسه في معرِض مَن يتفقّدُ أحوالَها ويتعرَّفُها كأنّها طَلِبَتُه وضالّتُه لِيَعرِضَها على سليمان عليه السلام. وضمير ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لـ﴿سَبَإٍ﴾ على أنّه اسم الحيّ، أو لأهلها المدلول عليهم بذِكر مدينتهم على أنّه اسم لها.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: مِن الأشياء التي يحتاج إليها الملوك ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ قيل: كان ثلاثين ذراعًا في ثلاثين عرضًا وسَمكًا، وقيل: ثمانين في ثمانين، مِن ذهب وفضّةٍ مُكلَّلًا بالجواهر، وكانت قوائمه مِن ياقوت أحمر وأخضر،

ودرّ وزمرّد، وعليه سبعة أبيات على كلّ بيت باب مغلق. واستعظام الهُدهُد لعرشها مع ما كان يشاهده مِن مُلك سليمان عليه السلام، إمّا بالنسبة إلى حالها، أو إلى عروش أمثالها مِن الملوك. وقد جُوِّز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مِثلُه.

وأيًا ما كان فوصفُه بذلك بين يديه عليه السلام لِما مرّ مِن ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيهِ عزيمته عليه السلام نحو تسخيرها، ولذلك عقَّبه بما يوجبُ غَزْوَها مِن كفرها وكفر قومها حيث قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادةَ اللهِ تعالى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي هي عبادةُ الشمسِ ونظائرها مِن أصناف الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيلِ الحقّ والصواب، فإنّ تزيين أعمالهم لا يُتصوّر بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم، ومِن ضرورته نسبةُ / طريق الحقّ إلى العِوَج. ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه. [٢٤٨ظ]

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ مفعول له، إمّا للصَّدِّ، أو للتزيين، على حذف اللام منه، أي: فصدّهم لِأنْ لا يَسجُدوا له تعالى، أو زيّن لهم أعمالهم لِأن لا يَسجُدوا، أو بدل على حاله مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾،[١] وما بينهما اعتراض، أي: زُيّن لهم أن لا يسجدوا. وقيل: هو في موقع المفعول لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بإسقاط الخافض، و﴿لَا﴾ مَزيدة كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]، والمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا له تعالى.

وقُرئ: "أَلَا يَا اسْجُدُوا"،[٢] على التنبيه والنداء، والمنادى محذوف، أي: أَلَا يا قومُ اسجدوا، كما في قوله:

ألا يا اسلَمي يا دارَ مَـيّ عَلَى البِلَى[٣]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قرأ بها أبو جعفر والكسائي ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

[٣] تمامه:

ولا زالَ مُنهلًا بجَرعائِك القَطرُ

لذي الرمّة في ديوانه، ٥٥٩/١.

ونظائرِه. وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافًا مِن جهة الله عزّ وجلّ، أو مِن سليمان، ويوقَفُ على ﴿لا يهتدون﴾، ويكونُ أمرًا بالسجود، وعلى الوجوه المتقدّمة ذمًا على تركه، وأيًا ما كان فالسجود واجب. وقُرِئ: "هَلَّا"، و"هَلَا"[1] بقلب الهمزتين "هاءً". وقُرِئ: "هَلَّا تَسْجُدُونَ"[2] بمعنى "ألا تسجدون" على الخطاب.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ[3] فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُظهر ما هو مَخبُوءٌ ومخفيّ فيهما كائنًا ما كان، وتخصيصُ هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرّده تعالى باستحقاق السجود له مِن بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لِما أنّه أرسخ في معرفته والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثاره التي مِن جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه مِن القدرة على معرفة الماءِ تحت الأرض.

وأشار بعطف قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يُخْرِجُ﴾ إلى أنّه تعالى يُخرج ما في العالم الإنساني مِن الخفايا كما يُخرج ما في العالم الكبير مِن الخبايا، لِما أنّ المراد يُظهِر ما تخفونه مِن الأحوال فيجازيكم بها. وذِكر ﴿مَا تُعْلِنُونَ﴾ لتوسيع دائرة العلم، أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي. وقُرِئ: "مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"[4] على صيغة الغيبة بلا التفات.

و"إخراجُ الخَبْءِ" / يَعُمّ إشراقَ الكواكب، وإظهارَها مِن آفاقها بعد استتارها وراءَها، وإنزالَ الأمطار، وإنباتَ النبات؛ بل الإنشاءَ الذي هو إخراج ما في الشيء بالقوّة إلى الفعل، والإبداعَ الذي هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجود، وغيرَ ذلك مِن غيوبه عزّ وجلّ. [٢٤٩و]

وقُرِئ: "الْخَبَ" بتخفيف الهمزة بالحذف.[5] وقُرِئ: "الْخَبَا"[6] بتخفيفها

---

[1] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن ابن مسعود رضي الله عنه والأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٣.

[3] م ط س: الخبأ.

[4] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير الكسائي وحفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة ومالك بن دينار والزهري والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٩.

بالقلب. وقُرئ: "أَلَا[١] تَسْجُدُونَ للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[٢] مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ".[٣]

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو أوّل الأجرام وأعظمها. وقُرئ: "الْعَظِيمُ" بالرفع[٤] على أنّه صفة "الربّ".

واعلم أنّ ما حُكي مِن الهُدهُد مِن قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾[٥] إلى هنا ليس داخلًا تحت قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.[٦] وإنّما هو مِن العلوم والمعارف التي اقتبسها مِن سليمان عليه السلام، أورده بيانًا لِما هو عليه، وإظهارًا لِتَصلّبه في الدين. وكلّ ذلك لتوجيه قلبه عليه السلام نحوَ قَبول كلامه، وصرفِ عَنان عزيمته عليه السلام إلى غزوها وتسخير ولايتها.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية كلام الهُدهُد، كأنّه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك، فقيل: قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي: فيما ذكرتَه، مِن "النظر" بمعنى التأمّل، و"السين" للتأكيد، أي: سنتعرّف بالتجربة البتّة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كان مقتضى الظاهر "أم كذبتَ"، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنّ كذبه في هذه المادّة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه، فإنّ مساق هذه الأقاويل الملفّقة على ترتيب أنِيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها مِن غير أن يكون لها مصداق أصلًا -لا سيّما بين يدي نبيّ عظيم الشأن- لا يكاد يصدر إلّا عمّن له قدم راسخ في الكذب / والإفك. [٢٤٩ظ]

---

١ وفي هامش م: للتحضيض.

٢ م ط س: الخبأ.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٦٢؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٢٢٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وجماعة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٢٣٢.

٥ في الآية السابقة.

٦ النمل، ٢٧/٢٢.

﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ استئناف مبيِّن لكيفيّة النظر الذي وعده عليه السلام، وقد قاله عليه السلام بعدما كتبَ كتابَه في ذلك المجلس أو بعده. وتخصيصه عليه السلام إيّاه بالرسالة دون سائر ما تحت مُلكه مِن أمناء الجنّ الأقوياء على التصرّف والتعرّف لِما عايَنَ فيه مِن مخائل العلم والحكمة وصحّةِ الفراسة، ولئلّا يبقى له عذر أصلًا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: تَنَحَّ إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرۡ﴾ أي: تأمَّلْ وتعرَّفْ ﴿مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: ماذا يرجع بعضُهم إلى بعض مِن القول. وجمعُ الضمائر لِما أنّ مضمون الكتاب الكريم دعوة الكلّ إلى الإسلام.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾

﴿قَالَتۡ﴾ أي: بعدما ذهب الهُدهُد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحّى عنهم حسبما أُمر به، وإنّما طُوِي ذكره إيذانًا بكمال مسارعته إلى إقامة ما أُمِر به مِن الخدمة، وإشعارًا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره.

رُوي أنّه عليه السلام كتب كتابه، وطبعَه بالمِسك، وختمَه بخاتَمه، ودفعَه إلى الهُدهُد، فوجدها الهُدهُد راقدةً في قصرها بمأرِبَ، وكانت إذا رقدت غلَّقت الأبوابَ، ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل مِن كُوّة، وطرح الكتاب على نَحرها وهي مستلقية.[1]

وقيل: نقرَها فانتبهت فَزِعةً. وقيل: أتاها والقادةُ والجنودُ حَوَالَيها فَرَفْرَفَ ساعةً والناسُ ينظرون حتّى رفعَت رأسها، فألقى الكتاب في حِجرها، وكانت قارئة كاتبةً عربيّة مِن نَسل تُبَّع الحِمْيَري كما مَرّ، فلمّا رأت الخاتم ارتعدَت وخضعَت،[2] فعند ذلك قالت لأشراف قومِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ وصَفَتْه بالكرَم لِكرَم مضمونه، أو لكونه / مِن عند مَلِك كريم، أو لكونه مختومًا، [٢٥٠و]

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٨/٤٤٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٤.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٠٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٤.

أو لغَرابة شأنه ووصولِه إليها على مِنهاجٍ غير معتاد.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ استئناف وقع جوابًا لِسؤال مقدّر، كأنّه قيل: ممّن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنّه مِن سليمان، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: مضمونه والمكتوبُ فيه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وفيه إشارة إلى سبب وصفِها إيّاه بالكرَم.

وقُرئ: "أَنَّهُ"... "وَأَنَّهُ" بالفتح[1] على حذف اللام، كأنّها علّلَت كرَمه بكونه مِن سليمان، وبكونه مصدَّرًا باسم الله تعالى. وقيل: على أنّه بدل مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾.[2] وقُرئ: "أَنْ مِن سُلَيْمَانَ وَأَنْ بِسْمِ اللهِ"،[3] على "أَن" المفسِّرة.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ "أن" مفسِّرة، و"لا" ناهية، أي: لا تَتكبّروا كما يفعل جبابرة الملوك. وقيل: مصدريّة ناصبة للفعل، و"لا" نافية محلّها الرفعُ على أنّها بدل مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾،[4] أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام، أي: مضمونُه: ألّا تعلوا، أو النصبُ بإسقاط الخافض، أي: بأن لا تعلوا عليّ. وقُرئ: "أَلَّا تَغْلُوا" بـ"الغين" المعجمة،[5] أي: لا تجاوِزوا حدّكم.

﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مؤمنين. وقيل: منقادين. والأوّل هو الأليق بشأن النبيّ عليه السلام على أنّ الإيمان مستتبع للانقياد حتمًا.

يُروى أنّ نسخة الكتاب: «مِن عبدِ الله سليمان بن داود إلى بِلْقِيس ملكةِ سبأ، السلام على مَن اتّبع الهدى، أمّا بعدُ فلا تَعلوا عليّ وائتوني مسلمين»،[6] وليس الأمر فيه بالإسلام قبل إقامة الحجّة على رسالته حتّى يتوهَّم كونه استدعاءً

---

١ قراءة شاذّة، أجازها الزجّاج ولم يسندها إلى أحد. انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ١١٨/٤.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٣٤/٨.

٤ النمل، ٢٩/٢٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٠.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٤/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٣.

للتقليد، فإنّ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالّة على رسالة مرسلِها دلالةً بيّنةً.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَتْ﴾ كُرّرتْ حكايةُ قولها للإيذانِ بغاية اعتنائها / بما في حيّزه مِن قولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: أجيبوني في أمري الذي حَزَبَني وذكرتُ لكم خلاصتَه. وعَبّرتْ عن الجواب بـ"الفتوى" الذي هو الجواب في الحوادث المشكِلة غالبًا تهويلًا للأمر ورفعًا لمحلّهم بالإشعار بأنّهم قادرون على حلّ المشكِلات المُلِمّة. [٢٥٠ظ]

وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: مِن الأمور المتعلّقة بالمُلك ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: إلّا بمَحضركم وبموجَب آرائكم، استعطافٌ لهم واستمالة لقلوبهم؛ لئلّا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأَ مِن حكاية قولها، كأنّه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل: قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في الأجساد والآلات والعُدَد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: نَجدةٍ وشجاعةٍ مُفرِطة وبلاءٍ في الحرب. ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: هو موكول إليكِ، ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ونحن مطيعون لكِ، فمُرِينا بأمرِكِ نَمتَثِلْ به، ونَتَّبِعْ رَأيَكِ.

أو أرادوا: نحن مِن أبناءِ الحرب، لا مِن أبناء الرأي والمشورة، وإليكِ الرأي والتدبير، فانظري ماذا ترين نكُنْ في الخدمة.

فلمّا أحسّتْ منهم الميلَ إلى الحِراب والعدولَ عن سَنن الصواب شرَعَت في تزييف مَقالتهم المبنيّة على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام. وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ مِن القرى على منهاج المقاتَلة والحِراب

﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ بتخريب عِماراتها، وإتلاف ما فيها مِن الأموال، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك مِن فنون الإهانة والإذلال.

[٢٥١و] ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تأكيد لِما وصفَتْ / مِن حالهم بطريق الاعتراض التذييلي، وتقرير له بأنّ ذلك عادتهم المستمرّة. وقيل: تصديق لها مِن جهة الله تعالى، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩] إثرَ قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف، ١٨/١٠٩].

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ تقرير لرأيها بعدما زيّفَتْ آراءَهم. وأتت بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبات المصدَّرة بحرف التحقيق للإيذان بأنّها مُزْمِعَةٌ على رأيها، لا يَلويها عنه صارِف، ولا يَثنِيها عاطِف، أي: وإنّي مرسلة إليهم رسُلًا بهديّةٍ عظيمة، ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ حتّى أعمل بما يقتضيه الحال.

رُوي أنّها بعثت خمسَمائة غلامٍ عليهم ثياب الجواري، وحُلِيُّهِنّ الأساور والأطواق والقِرَطة، راكبي خيل مغشّاة بالديباجِ، مُحلّاةِ اللُّجُمِ والسروج بالذهب المرصَّع بالجواهر، وخمسَمائة جاريةٍ على رِماك[١] في زيّ الغِلمان، وألفَ لبِنةٍ مِن ذهب وفضّة، وتاجًا مكَلّلًا بالدُّرّ والياقوت المرتفع، والمسك والعنبر، وحُقًّا فيه دُرّة عذراءُ، وجذعةٌ معوجّة الثقب، وبَعثَت رجلًا مِن أشراف قومها المنذرَ بنَ عمرو وآخرَ ذا رأي وعقلٍ، وقالت: «إن كان نبيًّا ميّزَ بين الغلمان والجواري، ونقَبَ الدرّ نَقْبًا مستويًا، وسَلَك في الخَرزة خيطًا»، ثمّ قالت للمنذر: «إن نظرَ إليك نظرَ غضبانٍ فهو ملِك، فلا يهولنّك، وإن رأيته بشًّا لطيفًا فهو نبيّ».

فأقبل الهُدهُد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك، فأمر الجنّ فضربوا لَبِنَ الذهب والفضّة، وفرشوه في ميدانٍ بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول [٢٥١ظ] الميدان حائطًا شُرُفاتُه مِن الذهب والفضّة، وأمر بأحسن الدوابّ / في البرّ والبحر

[١] الرمكة: الأنثى مِن البراذين، والجمع رِماك. الصحاح للجوهري، «رمك».

فربطوها عن يمين الميدان ويسارِه على اللبِن، وأمر بأولاد الجنّ -وهم خلق كثير- فَأُقِيموا على اليمين واليسار، ثمّ قعد على سريره، والكراسيّ مِن جانبيه، واصطفّت الشياطين صفوفًا فراسخ، والإنسُ صفوفًا فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوامّ كذلك.

فلمّا دنا القومُ ونظروا بُهِتُوا ورأَوا الدوابّ تَرُوث على اللبِن، فتعاصَرت[١] إليهم نفوسهم، ورمَوا بما معهم، ولمّا وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجهٍ طَلْقٍ، وقال: «ما وراءكم؟» وقال: «أين الحُقّ؟» وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه، فقال لهم: «إنّ فيه كذا وكذا»، ثمّ أمر بالأَرَضَة فأخذتْ شعرةً ونفذت في الدرّة، فجُعِل رزقها في الشجرة، وأخذت دودة بيضاءُ الخيطَ بفيها ونفذت في الجذعة، فجُعل رزقها في الفواكه، ودعا بالماء، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثمّ تضرب به وجهَها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهَه، ثمّ ردّ الهديّة.[٢]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: الرسولُ ﴿قَالَ﴾ أي: مخاطبًا للرسول والمُرسِل تغليبًا للحاضر على الغائب. وقيل: للرسول ومَن معه، ويؤيّده أنّه قُرِئ: "فَلَمَّا جَاءُوا"،[٣] والأوّل أولى لِما فيه مِن تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمِهما لبِلقيس وقومها، ويؤيّده الإفراد في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.[٤]

﴿أَتُمِدُّونَنِ[٥] بِمَالٖ﴾ وهو إنكارٌ لإمدادِهم إيّاه عليه السلام بالمال مع علوّ شأنه وسَعة سلطانه، وتوبيخٌ لهم بذلك. وتنكيرُ ﴿مَالٖ﴾ للتحقير.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ[٦] ٱللَّهُ﴾ أي: ممّا رأيتم آثارَه مِن النبوّة والمُلك الذي لا غاية وراءه ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: مِن المال الذي مِن جملته ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديّتكم، ولا وقعَ لها عندي. تعليلٌ للإنكار، ولعلّه عليه السلام

---

١ ط س: فتقاصرت.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٦٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٠/٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٨.
٤ في الآية التالية.
٥ م: أَتُمِدُّونَنِي.
٦ م ط س: آتاني.

إنّما قال لهم هذه المقالةَ إلى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حُكِي مِن قصّة الحُقّ وغيرها كما أُشيرَ إليه، لا أنّه عليه السلام خاطبَهم بها أوّلَ ما جاءوه كما يفهم مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾... إلخ. وقُرئ: "أتُمِدُّونِّي" بالإدغام،[١] وبنونٍ واحدةٍ،[٢] وبنونين وحذفِ الياء.[٣]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عمّا ذُكر مِن إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديّتهم التي أهدَوها إليه عليه السلام فرَحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها، كما يُنبئ عنه / ما ذُكِر مِن حديث الحُقّ والجَذْعة [٢٥٢و]
وتغييرِ زيّ الغِلمان والجواري وغيرِ ذلك.

وفائدة الإضراب التنبيه على أنّ إمداده عليه السلام بالمال منكَر قبيح، وعدَّ ذلك -مع أنّه لا قدر له عنده عليه السلام- ممّا يتنافس فيه المتنافسون أقبحُ، والتوبيخُ به أدخلُ. وقيل: المضاف إليه المُهدَى إليه، والمعنى: بل أنتم بما يُهدَى إليكم تفرحون حُبًّا لزيادة المال، لِما أنّكم لا تعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ٱرْجِعْ﴾ أُفرِدَ الضميرُ ههنا بعد جَمْعِ الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول، وعمومِ الإمداد ونحوِه للكلّ، أي: ارجع أيّها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى بِلقيس وقومها، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي: فوَاللهِ لنأتينّهم ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم بمقاومتها، ولا قدرةَ لهم على مقابلَتها. وقُرئ: "بِهِمْ".[٤]

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عطفٌ على جواب القسم ﴿مِّنْهَا﴾ مِن سَبَأ ﴿أَذِلَّةً﴾ أي: حالَ كونهم أذلّةً بعد ما كانوا فيه مِن العزّ والتمكين. وفي جمعِ القلّة تأكيد لذِلّتهم.

---

[١] قرأ بها حمزة ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٣/١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن المسيّبي عن نافع. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٣٧/٨.

[٣] قرأ بها ابن عامر وعاصم والكسائي وخلف. وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا، وحذفها وقفًا. انظر: النشر لابن الجزري، ١٨٢/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٦/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٣٨/٨.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: أُسارَى مهانون، حال أخرى مفيدة لكون إخراجهم بطريق الأسر، لا بطريق الإجلاء. وعدمُ وقوع جواب القسم لأنّه كان معلّقًا بشرطٍ قد حُذف عند الحكاية ثقةً بدلالة الحال عليه، كأنّه قيل: ارجع إليهم فليأتوا مسلمين وإلّا فلنأتينّهم... إلخ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣٨﴾

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ قاله عليه السلام لمّا دَنا مجيءُ بلقيس إليه عليه السلام.

يُروَى أنّه لمّا رجعَت رسلُها إليها بما حُكِي مِن خبر سليمان عليه السلام قالت: «قد علمتُ واللهِ ما هذا بملِك، ولا لنا به مِن طاقة»، وبعثَتْ إلى سليمان: «إنّي قادمة عليك بملوك قومي حتّى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه مِن دينك»، ثمّ آذنَت / بالرحيل إلى سليمان عليه السلام، فشَخَصَت إليه في اثني عشر ألف قَيلٍ،[١] تحت كُلّ قَيلٍ ألوف.[٢] [٢٥٢ظ]

ويُروَى أنّها أَمرَتْ فجُعل عرشُها في آخر سبعة أبيات بعضُها في بعضٍ، في آخر قصر مِن قصورٍ سبعةٍ لها، وغلّقت الأبواب، ووكّلتْ به حَرَسًا يحفظونه،[٣] ولعلّه أوحي إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها مِن عرشها، فأراد أن يُرِيَها بعضَ ما خصَّه الله تعالى[٤] عزّ سلطانُه به مِن إجراء التعاجيب على يده مع إطْلاعها على عظيم قدرته تعالى، وصحّةِ نبوّتِه عليه السلام، ويَختبِر عَقلَها بأن يُنكِّر عرشَها فينظرَ أتعرفه أم لا.

وتقييد الإتيان به بقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ لِما أنّ ذلك أَبْدَعُ وأغربُ وأبعد مِن الوقوع عادةً، وأدلّ على عِظَم قدرة الله تعالى وصحّةِ نبوّته عليه السلام، وليكونَ إخبارُها وإطلاعُها على بدائع المعجزات في أوّل مجيئها. وقيل: لأنّها إذا أَتَتْ مسلمةً لم يحلّ له أخذ مالها بغير رضاها.

---

١ القَيل: ملِك مِن ملوكِ حِمْيَر دونَ الملك الأعظم، والمرأةُ قَيلة، وأصله "قَيِّل" بالتشديد، كأنّه الذي له قَول، أي يَنفُذ قولُه. **الصحاح** للجوهري، «قيل».

٢ **جامع البيان** للطبري، ٦٢/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٩/٧.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٦٢/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٩/٧.

٤ م – تعالى.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي: مارد خبيث ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيان له، إذ يقال للرجل الخبيث المنكَر المُعَفِّر لأقرانه، وكان اسمه ذكوان أو صَخْرًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرشها ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مِن مجلسك للحكومة، وكان يجلس إلى نصف النهار. و﴿ءَاتِيكَ﴾ إمّا صيغةُ المضارع، أو الفاعل، وهو الأنسب لمقام ادّعاء الإتيان به لا محالةَ، وأوفقُ لِما عُطف عليه مِن الجملة الاسميّة، أي: أنا آتٍ به في تلك المدّة البتّةَ. ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: على الإتيان به ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لا يَثقُل عليّ حِمله ﴿أَمِينٌ﴾ لا أختزل منه شيئًا ولا أبدّله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فُصِل عمّا قبله للإيذان بما بين القائلَين ومَقالَيهما وكَيفِيَّتَي قدرتهما على الإتيان به مِن كمال التبايُن، أو لإسقاطِ الأوّل عن درجة الاعتبار. قيل: هو آصفُ بن برخيا وزير سليمان عليه السلام. وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظمُ الذي إذا سُئل به أجاب. وقيل: الخَضِر، أو جبريل، أو ملَك أيّده الله عزّ وجلّ به عليهم السلام. وقيل: هو سليمان نفسه عليه السلام،[١] وفيه بُعد لا يخفى.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الجنس المنتظِم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح، وتنكير ﴿عِلْمٌ﴾ للتفخيم والرمزِ إلى أنّه عِلمٌ غير معهود، و﴿مِّنَ﴾ ابتدائيّة.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ "الطَّرْف" تحريك الأجفان / وفَتْحُها [٢٥٣و]
للنظر إلى شيء، وارتدادُه انضمامُها، ولكونه أمرًا طبيعيًّا غيرَ مَنوط بالقصد أُوثِرَ الارتدادُ على الردّ، ولمّا لم يكن بين هذا الوعد وإنجازِه مدّةٌ ما كما في وعدِ

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٦٧.

العفريت استُغنِي عن التأكيد، وطُوِيَ عند الحكاية ذِكرُ الإتيانِ به للإيذان بأنّه أمر متحقِّقٌ غنيّ عن الإخبار به.

وجيءَ بالفاء الفصيحة -لا داخلةً على جملة معطوفة على جملة مقدّرة دالّةٍ على تحقّقه فقط، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣] ونظائرِه؛ بل داخلةً على الشرطيّة- حيث قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: رأى العرش حاضرًا لديه كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ١٢/٣١]؛ للدلالة[2] على كمال ظهور ما ذُكر مِن تحقّقه واستغنائه عن الإخبار به ببيانِ ظهورِ ما يَترتّبُ عليه مِن رؤية سليمان عليه السلام إيّاه، واستِغنائِه أيضًا عن التصريح به، إذ التقدير: فأتاه به فرآه، فلمّا رآه... إلخ، فحُذفَ ما حُذفَ لِما ذُكر، وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به، كأنّه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه السلام إيّاه شيء ما أصلًا.

وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه السلام تأكيد لهذا المعنى، لإيهامِهِ أنّه لم يتوسّط بينهما ابتداءُ الإتيان أيضًا، كأنّه لم يَزَلْ موجودًا عنده، مع ما فيه مِن الدلالة على دوام قراره عنده منتظِمًا في سِلك ملكه.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام تلقّيًا للنعمة بالشكر جريًا على سَنن أبناء جنسه مِن أنبياء الله تعالى عليهم السلام وخُلّص عبادِه: ﴿هَٰذَا﴾ أي: حضورُ العرش بين يديه في هذه المدّة القصيرة، أو التمكّنُ مِن إحضاره بالواسطة أو بالذات -كما قيل- ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: تفضّله عليّ مِن غير استحقاقٍ له مِن قِبَلي.

﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه محضَ فضله تعالى مِن غير حول مِن جهتي ولا قوّةٍ، وأقومَ بحقّه، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أَجِد لنفسي مدخلًا في البَين، أو أقصّر في إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم / الفائضة على العباد. [٢٥٣ظ]

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّه يرتبط به عَتيدها، ويستجلب به مزيدَها، ويحطّ به عن ذمّته عِبْءَ الواجب، ويتخلّص عن وصمة الكفران،

[1] م ط س: فقلنا.

[2] السياق: وجيءَ بالفاء... للدلالة...

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة والإنعامِ مع عدم الشكر أيضًا.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام، كُرِّرتِ الحكاية مع كونِ المَحكي سابقًا ولاحقًا مِن كلامه عليه السلام تنبيهًا على ما بين السابق واللاحق مِن المخالفة، لِما أنّ الأوّل مِن باب الشكر لله تعالى، والثاني أمرٌ لِخَدَمه.

﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيّروا هَيْئتَه بوجهٍ مِن الوجوه ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنّه جواب الأمر، وقُرئ بالرفع[1] على الاستئناف. ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ إلى معرفته، أو إلى الجواب اللائق بالمقام. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسولِه عند رؤيتها لِتَقدّمِ عرشها مِن مسافة طويلة في مدّة قليلة، وقد خَلَّفَته مُغلَّقةً عليه الأبواب مُوَكِّلةً عليه الحُرّاس والحُجّاب،[2] ويأباه تعليق النظر المتعلِّق بالاهتداء بالتنكير، فإنّ ذلك ممّا لا دخلَ فيه للتنكير.

﴿أَمْ تَكُونُ﴾ أي: بالنسبة إلى علمنا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ذُكر مِن معرفة عرشها، أو الجوابِ الصواب، فإنّ كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمرًا مستمرًا لكنّ كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمرٌ حادث يظهر بالاختبار.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام، أي: فلمّا جاءت بلقيسُ سليمانَ عليه السلام وقد كان العرش بين يديه ﴿قِيلَ﴾ أي: مِن جهة سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم يُقَل:

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٢/٨.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٦٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦١/٤.

"أهذا عرشكِ؟" لئلّا يكون تلقينًا لها / فيفوتَ ما هو المقصود مِن الأمر بالتنكير [٢٥٤و]
مِن إبراز العرش في معرِض الإشكال والاشتباه حتّى يتبيّن حالُها، وقد ذُكِرَت عنده عليه السلام بسَخافة العقل.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فأنبأَت عن كمال رَجاحة عقلها، حيث لم تقل: "هُو هُو" -مع علمها بحقيقة الحال- تلويحًا بما اعتراه بالتنكير مِن نوع مُغايَرةٍ في الصفات مع اتّحاد الذات، ومراعاةً لحُسن الأدب في محاورته عليه السلام.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مِن تتمّة كلامها، كأنّها ظنّت أنّه عليه السلام أراد بذلك اختبار عقلها وإظهارَ معجزة لها، فقالت: أُوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصِحّة نبوّتك مِن قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه مِن المنذر مِن الآيات الدالّة على ذلك، وكُنّا مسلمين مِن ذلك الوقت. وفيه مِن الدلالة على كمال رَزانةِ رأيها ورَصانة فِكرها ما لا يخفى.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان مِن جهته تعالى لِما كان يمنعها مِن إظهارِ ما ادَّعَته مِن الإسلام إلى الآن، أي: صدّها عن ذلك عبادتُها القديمةُ للشمس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ تعليل لسببيّة عبادتها المذكورة لِلصدّ، أي: إنّها كانت مِن قوم راسخين في الكفر؛ ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظَهْرانَيهم إلى أن دخلَت تحت مَلَكةِ سليمان عليه السلام. وقُرئ: "أَنَّهَا" بالفتح[١] على البدليّة مِن فاعل "صَدَّ"، أو على التعليل بحذف "اللام".

هذا، وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾[٣] إلى قوله تعالى: ﴿مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ مِن كلام سليمان عليه السلام ومَلَئه، كأنّهم لمّا سمعوا قولَها:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٠.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٣٦٩.

٣ في الآية السابقة.

﴿كأنّه هو﴾ تفطّنوا لإسلامها، فقالوا استحسانًا لشأنها: أصابت في الجواب وعلِمَت قدرةَ الله تعالى وصحّةَ النبوّة بما سمعت مِن المنذر مِن الآيات المتقدّمة، وبما عاينَتْ مِن هذه الآية الباهرة مِن أمر عرشها، ورُزِقت الإسلامَ، فعَطَفُوا على ذلك قولَهم: وأُوتينا العلمَ... إلخ، / أي: وأوتينا نحن العِلمَ بالله [٢٥٤ظ] تعالى وبقدرته وبصحّة ما جاء مِن عنده قبل علمِها، ولم نزَل على دين الإسلام شكرًا لله تعالى على فضلهم عليها وسَبْقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلامِ قبلها، وصدُّها عن التقدّم إلى الإسلام عبادةُ الشمس، ونشؤُها بين ظهرانَي الكفَرة؛ فممّا لا يخفى ما فيه مِن البُعد والتعسّف.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ الصرح: القَصر. وقيل: صحنُ الدار. رُوي أنّ سليمان عليه السلام أَمَر قبل قُدومها فبُني له على طريقها قَصر مِن زجاج أبيض، وأُجري مِن تحته الماء، وأُلقي فيه مِن دوابّ البحرِ السمكِ وغيرِه، ووُضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعَكَف عليه الطير والجنّ والإنس، وإنّما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لِأمرِه، وتحققًا لنبوّته وثباتًا على الدين.[١]

وزعموا أنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها فتُفضِيَ إليه بأسرارهم؛ لأنّها كانت بنتَ جنّيّة. وقيل: خافوا أن يولَد له منها ولد تجتمع له فطنة الجنّ والإنس، فيخرجوا مِن مُلك سليمان إلى مُلكٍ هو أَشَدُّ وأفظع، فقالوا: إنّ في عقلها شيئًا، وهي شَعْراء الساقَين، ورِجلها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتّخذ الصَّرح ليتعرّف ساقَها ورِجلَها.[٢]

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ وهو حاضر بين يدَيها -كما يُعرِب عنه الأمر بدخولها- وأحاطت بتفاصيل أحواله خُبْرًا ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وتشمّرت لئلّا يبتلّ أذيالُها،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠.

فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا خلا أنّها شَعراء. قيل: هي السبب في اتّخاذ النُّورة، أمر بها الشياطينَ فاتّخذوها، واستنكحها عليه السلام، وأمر الجنَّ فبنَوا لها سيلحين[١] وغُمدان،[٢] وكان يزورها في الشهر مرّة، ويقيم عندها ثلاثة أيّام.[٣]

وقيل: بل زوّجها ذا تُبّع مَلِك هَمْدان، وسلّطه على اليمن، وأمرَ زَوْبَعةَ أميرَ جنِّ اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع.[٤]

وقُرئ: "سَأْقَيْهَا"[٥] حَملًا للمفرد على الجمع في "سُؤْق" و"أَسْؤُقٍ".

﴿قَالَ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها مِن الدهشة والرعب: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: ما توهّمتِه ماءً ﴿صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ﴾ أي: مُمَلّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ مِن الزجاج، / ﴿قَالَتۡ﴾ [٢٥٥و]
حين عاينت تلك المعجزة أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بما كنت عليه إلى الآن مِن عبادة الشمس. وقيل: بظنّي بسليمان، حيث ظنّت أنّه يُريد إغراقها في اللُّجّة،[٦] وهو بعيد.

﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ تابعةً له مقتديةً به. وما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِن الالتفات إلى الاسمِ الجليل ووصفِه بربوبيّة العالمين لإظهار معرفتها بألوهيّته تعالى، وتفرُّدِه باستحقاق العبادة، وربوبيّته لجميع الموجوداتِ التي مِن جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك مِن الشمس.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٥﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗا﴾،[٧] مَسوق لِما سيق هو له مِن تقرير أنّه عليه السلام يُلَقَّى القرآنَ مِن لدن حكيم عليم،[٨] فإنّ هذه القصّة أيضًا مِن جملة القرآن الكريم الذي لُقِّيَهُ عليه السلام.

---

١ وفي هامش م: اسم بلدة. «منه».
٢ وفي هامش م: قصرٌ بصنعاء. «منه».
٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠. وانظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٤.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٠.
٥ قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.
٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٢.
٧ النمل، ١٥/٢٧.
٨ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل، ٦/٢٧].

و"اللام" جواب قسم محذوف، أي: وبالله لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، و﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرة لِما في الإرسال مِن مَعنى القول، أو مصدريّة حُذف عنها "الباء". وقُرئ بضمّ "النون"[1] إتباعًا لها للباء.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجئوا التفرّق والاختصام، فآمَن فريقٌ، وكفر فريقٌ. و"الواو" لمجموع الفريقين.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم بعدما شاهد منهم ما شاهد مِن نهاية العتوّ والعِناد حتّى بلَغوا مِن المكابَرة إلى أن قالوا له عليه السلام: "يا صالح ائتِنا بما تعِدنا إن كنت مِن الصادقين":[2] ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة السيّئة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: التوبةِ، فتؤخّرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا مِن جهلهم وغَوايتهم يقولون: إن وقع إيعاده تُبنا حينئذ، وإلّا فنحن على ما كنّا عليه.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ هلّا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقَبولها، إذ لا إمكان للقَبول عند النزول.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا﴾ أصله: "تطَيّرنا"، و"التطيُّر": التشاؤم، عُبّر عنه بذلك لِما أنّهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرّون بطائر يزجُرونه، فإن مرّ سانِحًا تيمّنوا، وإن مرّ بارِحًا[3] تشاءَموا، فلمّا نسبوا الخير والشرَّ إلى الطائر استُعير لِما كان سبَبًا لهما مِن قدَر الله تعالى وقِسمته، أو مِن عمل العبد، أي: تشاءَمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر والكسائي وخلف. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٥

[2] لفظه في الآية: ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٧٧].

[3] السانِح: ما أتاك عن يمينك مِن ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك مِن ذلك عن يَسارك؛ قال أبو عبيدة: سأل يونس رُؤبةَ -وأنا شاهد- عن السانح والبارح، فقال: السانح ما ولّاك مَيامِنه، والبارح ما ولّاك مَياسره. لسان العرب لابن منظور، «سنح».

في دينك حيث تتابعَت علينا الشدائد، وقد كانوا قُحِطوا، أو لم نزَل في اختلاف وافتراق مُذ اخترعتم دينكم.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ﴾ أي: سببُكم الذي / منه ينالكم ما ينالكم مِن الشرّ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قَدَره، أو عملُكم المكتوبُ عنده. [٢٥٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تُختبَرون بتعاقُب السرّاء والضرّاء، أو تعذَّبون، أو يفتِنكم الشيطان بوَسوسته إليكم الطيرة. إضرابٌ مِن بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يَحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وهي الحِجر ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ أي: أشخاصٍ، وبهذا الاعتبار وقع تمييزًا لِلتسعة، لا باعتبار لفظه. والفرق بينه وبين "النَّفَر" أنّه مِن الثلاثة، أو مِن السبعة إلى العشرة، و"النَّفَر" مِن الثلاثة إلى التسعة، وأسماؤُهم حسبما نُقِل عن وَهْب: الهُذَيلُ بن عبد ربٍّ، وغَنْم بن غَنْم، ورِئابُ بن مِهْرَج، ومِصْدَع بنُ مهرَج، وعُمَير بن كُرْدُبَةَ، وعاصم بن مَخرمة، وسُبَيطُ بن صدقة، وسِمعان[١] بن صفيّ، وقُدَارُ بن سالف، وهم الذين سَعَوا في عَقْر الناقة، وكانوا عُتاةَ قوم صالح، وكانوا مِن أبناء أشرافهم.

﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا في المدينة فقط، إفسادًا بَحتًا، لا يخالطه شيء ما مِن الإصلاح، كما يَنطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ أي: لا يفعلون شيئًا مِن الإصلاح، أو لا يصلحون شيئًا مِن الأشياء.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف ببيان بعض ما فعلوا مِن الفساد، أي: قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمرِ صالح عليه السلام، وكان ذلك غِبَّما أنذرهم بالعذاب،

---

١ س: وشمعان.

وقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾... إلخ [هود، ١١/٦٥]: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ إمّا أمرٌ مَقول لـ﴿قَالُواْ﴾، أو ماضٍ وَقع بَدلًا منه، أو حالًا مِن فاعله بإضمار "قد".

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: لَنُباغِتَنّ صالحًا وأهلَه ليلًا ونقتُلَنّهم. وقُرئ بـ"التاء"[1] على خطاب بعضهم لبعض. وقُرئ بياء الغيبة وضمّ "التاء"[2] على أنّ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فعلٌ ماض، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لوليّ صالح. وقُرئ بـ"التاء"[3] و"الياء"[4] كما قبله.

[٢٥٦و] ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ / أي: ما حَضرنا هلاكَهُم، أو وقتَ هلاكهم، أو مكانَ هلاكهم، فضلًا أن نَتولّى إهلاكَهم. وقُرئ: "مَهْلَكَ" بفتح "اللام"،[5] فيكون مصدرًا.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ مِن تمام القول، أو حال، أي: نقول ما نقول والحالُ إنّا صادقون في ذلك؛ لأنّ الشاهد للشيء غير المباشر له عُرفًا، أو لأنّا ما شَهِدنا مَهلِكَهم وحده؛ بل مَهلِكَه ومَهلِكَهم جميعًا، كقولك: "ما رأيت ثمّةَ رجلًا؛ بل رجلَين".

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكًا غيرَ مَعهود، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو جازينا مَكرَهم مِن حيث لا يحتسبون.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ شروع في بيان ما ترتّب على ما باشروه مِن المَكر، و﴿كَيْفَ﴾ معلّقة لفعلِ النظر، ومحلّ الجملة النصب بنَزع الخافض، أي: فتفكّر في أنّه كيف كان عاقبة مكرهم.

---

[1] أي: "لَتُبَيِّتُنَّهُ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[3] أي: "لَتَقُولُنّ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[5] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ إمّا بدل مِن ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ على أنّه فاعل ﴿كَانَ﴾، وهي تامّة، و﴿كَيْفَ﴾ حال، أي: فانظر كيف حصل، أي: على أيّ وجهٍ حدث تدميرنا إيّاهم. وإمّا خبر لمبتدأ محذوف، والجملة مُبيّنة لِما في ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مِن الإبهام، أي: هي تدميرُنا إيّاهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييتِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يشذَّ منهم شاذٌّ. وإمّا تعليل لِما يُنبئ عنه الأمرُ بالنظر في كيفيّة عاقبة مكرهم مِن غاية الهَول والفظاعة بحذف الجارّ، أي: لأنّا دمّرناهم... إلخ.

وقيل: ﴿كَانَ﴾ ناقصة، اسمُها ﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، خبرها ﴿كَيْفَ كَانَ﴾، فالأوجَه حينئذ أن يكون قوله تعالى: ﴿أنّا دمّرناهم﴾... الخ تعليلًا لِما ذكر. وقُرئ: "إِنَّا دَمَّرْنَا"... إلخ[1] بالكسر على الاستئناف.

رُوي أنّه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحِجر في شِعبٍ يُصَلِّي فيه، فقالوا: زعَم صالح أنّه يفرُغ منّا إلى ثلاثٍ، فنحن نفرُغ منه ومِن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشِّعب، وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناهُ، ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرةً مِن الهَضْب حِيالَهم، فبادَروا فطَبَّقَت الصخرةُ عليهم فمَ الشِّعب، فلم يَدرِ قومُهم أين هم، ولم يَدرُوا ما فُعِل بقَومهم، وعذّب الله تعالى كلًّا منهم في مكانه، ونجّى صالحًا ومَن معه. وقيل: جاءوا بالليل شاهري سُيوفهم، وقد أرسل الله تعالى الملائكةَ مِلْءَ[2] دارِ صالح، فدَمغوهم بالحجارة، يرون الحجارةَ ولا يرون راميًا.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملة مقرِّرة لِما قَبلها. وقوله تعالى: ﴿خَاوِيَةً﴾ أي: خاليةً، أو ساقطةً متهدّمةً ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: بسبب ظلمهم المذكور، حال مِن ﴿بُيُوتُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة. وقُرئ: "خَاوِيَةٌ" بالرفع[3] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف.

---

[1] قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

[2] م: مِلأَ.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن التدمير العجيب بظلمهم ﴿لَآيَةً﴾ لعبرةً عظيمةً [٢٥٦ظ]
﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما مِن شأنِه أن يُعلَم مِن الأشياء، أو لقوم يتّصفون بالعلم.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحًا، ومَن معه مِن المؤمنين. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفرَ والمعاصي اتّقاءً مستمرًّا، فلذلك خُصّوا بالنجاة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بمُضمِر معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾[١] في صدر قصّة صالح، داخل معه في حيّز القَسَم، أي: وأرسلنا لوطًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للإرسال، على أنّ المراد به أمر ممتدّ وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه مِن الأقوال والأحوال. وقيل: انتصاب ﴿لُوطًا﴾ بإضمار "اذكُر"، و﴿إِذْ﴾ بدل منه. وقيل: بالعطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[٢] أي: وأنجينا لوطًا،[٣] وهو بعيد.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلةَ المتناهية في القُبح والسَّماجة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حاليّة مِن فاعل ﴿تَأْتُونَ﴾ مفيدة لتأكيد الإنكار وتشديدِ التوبيخ، فإنّ تَعاطِيَ القبيح مِن العالِم بقبحه أقبَح وأشنَع. و﴿تُبْصِرُونَ﴾ مِن "بَصَر القلب"، أي: أتفعلونها والحال أنكم تعلمون عِلمًا يقينيًّا بكونها كذلك. وقيل: يُبصِرها بعضكم مِن بعض لِما كانوا يُعلِنون بها.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنيةٌ للإنكار، وتكريرٌ للتوبيخ، وبيانٌ لِما يأتونه مِن الفاحشة بطريق التصريح. وتحلية الجملة بحرفَي التأكيد للإيذان بأنّ مضمونها ممّا لا يُصَدِّق وقوعَه أحدٌ، لكمال بُعده مِن العقول. وإيراد المفعول

---

[١] النمل، ٢٧/٤٥.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٥٤؛ واللباب لابن عادل، ١٥/١٨٣.

بعنوان الرجوليّة لتربية التقبيح، وتحقيقِ المبايَنة بينها وبين الشهوة التي عُلِّل بها الإتيان.

﴿مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ متجاوزين النساءَ اللاتي هنّ محالّ الشهوة؛ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فِعلَ الجاهلين بقُبحه، أو تجهلون العاقبةَ، أو "الجهلُ" بمعنى السفاهة والمُجون، أي: بل أنتم قوم سفهاء / ماجِنُون. و"التاء" فيه مع كونه صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾ لكونهم في حيّز الخطاب. [٢٥٧و]

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزّهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار، ويعدّون فعلنا قذِرًا. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه استهزاء.[1] وقد مرّ في سورة الأعراف[2] أنّ هذا الجواب هو الذي صدر عنهم في المرّة الأخيرة مِن مرّات مواعظ لوط عليه السلام بالأمر والنهي، لا أنّه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي: قدّرنا أنّها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ غيرَ معهود، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ قد مرّ بيان كيفيّة ما جرى عليهم مِن العذاب غير مرّة.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ إثرَ ما قَصّ الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وسلّم قِصص الأنبياء المذكورين عليهم السلام، وأخبارَهم الناطقةَ

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٤. وفي جامع البيان للطبري، ١٨/٩٧، عن مجاهد.

[2] الأعراف، ٧/٨٢.

بكمال قدرته تعالى وعِظَمِ شأنه، وبما خصّهم به مِن الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالّة على جلالة أقدارهم، وصحّةِ أخبارهم، وبيّن على ألسنتهم حقّيّةَ الإسلام والتوحيد، وبُطلانَ الكفر والإشراك، وأنّ مَن اقتدى بهم فقد اهتدى، ومَن أعرض عنهم فقد تردّى في مَهاوي الرَّدَى، وشرَح صدره عليه السلام بما في تضاعيف تلك القِصص مِن فنون المعارف الربّانيّة، ونوّر قلبه بأنوار المَلَكات السُّبحانيّة الفائضة مِن عالَم القُدس، وقرّر بذلك فَحوى ما نطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل، ٦/٢٧]؛ أمرَه[١] صلّى الله عليه وسلّم بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه مِن تلك النعم التي لا مَطمعَ وراءها لطامِع، ولا مَطمحَ مِن دونها لطامح، ويسلّمَ على كافّة الأنبياء الذين مِن جملتهم الذين قُصَّت عليه أخبارهم التي هي مِن جملة المعارف التي أُوحِيت إليه عليه السلام أداءً لحقِّ تقدّمهم واجتهادهم في الدين.

وقيل: هو أمرٌ للوطٍ عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفَرة قومه، ويسلّم على مَن اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك،[٢] ولا يخفى بُعدُه.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا[٣] يُشْرِكُونَ﴾ أي: آللهُ الذي ذُكرت شئونه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى مِن الأصنام؟

ومرجعُ الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفَرة مِن جهتِه تعالى، وتَسفِيهِ آرائهم الرَّكيكة، والتَّهكّمِ بهم؛ إذ مِن البَيّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبةُ خيرٍ ما حتّى يمكن أن يُوازَنَ بينه وبينَ مَن لا خيرَ إلّا خيرُه ولا إلهَ غيرُه.

وقُرئ: "تُشْرِكُونَ" بالتاء الفوقانيّة[٤] بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكفَرة، وهو الأليَق بما بعده مِن سياق النظم الكريم المبنيّ على خطابهم.

---

١ السياق: إثرَ ما قَصّ الله تعالى... أمرَه...

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٥/٣.

٣ م ط س: أم ما.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

وجعلُه مِن جملة القول المأمور به[١] يأباه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾... إلخ،[٢] فإنّه صريح في أنّ التبكيت مِن قِبَله عزّ وعلا بالذات. وحَملُه على أنّه حكاية منه عليه السلام لِما أُمِرَ به بعبارته، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣]؛ تعسّفٌ ظاهر مِن غير داعٍ إليه.

﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾

و"أَمْ" في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن كلمة "بل" على القراءة الأولى[٣] للإضراب والانتقالِ مِن التبكيت تعريضًا إلى التصريح به خطابًا على وجهٍ أظهرَ منه، لمزيد التأكيد والتشديد، وأمّا على القراءة الثانية[٤] فلتثنيةِ التبكيت، وتكريرِ الإلزام، كنظائرها الآتية. / و"الهمزةُ" لتقريرهم، [٢٥٧ظ] أي: حملهم على الإقرار بالحقّ على وجه الاضطرار، فإنّه لا يتمالك أحد ممّن له أدنى تمييز، ولا يَقدِر على أن لا يعترف بخيريّة مَن خلق جميع المخلوقات، وأفاض على كلّ منها ما يليق به مِن منافعه مِن أخسّ تلك المخلوقات وأدناها؛ بل بأن لا خَيريّةَ فيه بوجه مِن الوجوه قطعًا.

و﴿مَنۡ﴾ مبتدأ خبره محذوف مع "أَم" المعادِلة للهمزة تعويلًا على ما سبَق في الاستفهام الأوّل، خَلَا أنّ "تُشْرِكُونَ" ههنا[٥] بتاء الخطاب على القراءتين معًا، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية. والمعنى: بل أمَّن خَلَق قُطْرَيِ العالَم الجسماني ومَبدأَي منافع ما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ التفات إلى خطاب الكفَرة على القراءة الأولى، لتشديدِ التبكيت والإلزام، أي: أنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين محدَقةً ومُحاطةً بالحوائط ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ أي: ذات حُسن ورَوْنق، يبتهج به النُّظّار.

---

١ جعله كذلك أبو البقاء في التبيان، ٢/١٠١١.

٢ في الآية التالية.

٣ أي: "يُشْرِكُونَ" بالياء.

٤ أي: "تُشْرِكُونَ" بالتاء.

٥ عبارة الألوسي: «خَلَا أنّ "تُشْرِكُونَ" المقدَّر ههنا»... روح المعاني للألوسي، ١٠/٢١٥.

﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَا﴾ فضلًا عن ثمرها وسائرِ صفاتها البديعة، خيرٌ أم ما تُشركون.

وقُرئ: "أَمَن" بالتخفيف، على أنّه بدل مِن ﴿اللَّهُ﴾.[١]

وتقديم صِلَتَي الإنزالِ على مفعوله لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر. والالتفاتُ إلى التكلّم في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى، والإيذانِ بأنّ إنباتَ تلك الحدائق المختلفة الأصنافِ والأوصافِ والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها مِن الحُسن البارع والبهاءِ الرائع بماءٍ واحد ممّا لا يكاد يَقدِر عليه إلّا هو وحده، حسبما يُنبئ عنه تقييدها بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ﴾... إلخ، سواء كانت صفة لها أو حالًا.

وتوحيد وصفها الأوّلِ -أعني: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾- لِما أنّ المعنى: جماعةَ حدائقَ ذاتَ بَهجة، على نهجِ قولهم: "النساءُ ذهبَتْ"، وكذا الحال في ضمير ﴿شَجَرَهَا﴾.

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَإِلهٌ آخَرُ كائن مع الله الذي ذُكِر بعضُ أفعاله التي لا
[٢٥٨و] يكاد يقدر عليها غيره / حتّى يُتوهَّمَ جعله شريكًا له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت لهم بنَفي الألوهيّة عمّا يشركونه به تعالى في ضِمن النفي الكلّي على الطريقة البرهانيّة بعدَ تبكيتهم بنفي الخيريّة عنه بما ذُكر مِن الترديد، فإنّ[٢] أحدًا ممّن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيريّة عنه بالمرّة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهيّة عنه رأسًا، لا سيّما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عمّا سواه تعالى، وهكذا الحال في المواقع الأربعة الآتية.

وقيل: المراد نفي أن يكون معه تعالى إلهٌ آخَر فيما ذُكر مِن الخلق وما عُطِف عليه، لكن لا على أنّ التبكيت بنفس ذلك النفي فقط، كيف لا وهم لا يُنكِرونه، حسبما يَنطِق به قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان، ٢٥/٣١]؛ بل بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته

---

[١] م ط س – وقُرئ: "أَمَن" بالتخفيف، على أنّه بدل مِن ﴿اللَّهُ﴾. ["صح" في هامش م]. | قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.

[٢] م + فإنّ.

له تعالى فيما ذُكر من لوازم الألوهيّة، كأنّه قيل: أإلهٌ آخَرُ معه[1] تعالى[2] في خواصّ الألوهيّة حتّى يُجعل شريكًا له تعالى في العبادة؟

وقيل: المعنى: أَغيرُه يُقرَن به ويُجعل له شريكًا في العبادة، مع تفرّده تعالى بالخلق والتكوين؟ فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقّق المُنكَرِ دون النفي، كما في الوجهين السابقين.

والأوّل هو الأظهر الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون، ٩١/٢٣]، والأَوْفَى بحقّ المقام؛ لإفادته نَفْيَ وجود إلهٍ آخَرَ معه تعالى رأسًا، لا نفيَ مَعِيّته في الخلق وفروعه فقط.

وقُرئ: "آإِلَهٌ" بتوسيط مدّة بين الهمزتين،[3] وبإخراج الثانية بين بين.[4] وقُرئ: "أَإِلَهًا"[5] بإضمارِ فعلٍ يناسب المقام، مثل: "أَتَدعون"، أو "أَتُشرِكون".

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايتِه لغيرهم، أي: بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحقّ بالكلّيّة، والانحرافُ عن الاستقامة في كلّ أمر مِن الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون مِن العدول عن الحقّ الواضح الذي هو التوحيد، والعكوفِ على الباطل البيّن الذي هو الإشراك.

وقيل: يَعدِلون به تعالى غيرَه،[6] وهو بعيد خالٍ عن الإفادة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

/ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ قيل: هو بدل مِن ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾... إلخ،[7] [٢٥٨ظ]

---

[1] س: مع الله.

[2] س - تعالى.

[3] قرأ بذلك أبو عمرو وأبو جعفر وقالون عن نافع وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١.

[4] قرأ بذلك نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١.

[5] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٦/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٨/٨.

[6] **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٦/٣.

[7] في الآية السابقة.

وكذا ما بعده مِن الجُمل الثلاث، وحكمُ الكلّ واحد. والأظهر أنّ كلّ واحدة منها إضراب وانتقال مِن التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخرَ أدخلَ في الإلزام بجهةٍ مِن الجهات، أي: جعلها بحيث يستقرّ عليها الإنسان والدوابّ بإبداء بعضها مِن الماء، ودَحْوِها وتسويتِها حسبما يدور عليه منافعهم.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَا﴾ أوساطَها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جارية ينتفعون بها، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ تمنعها أن تَميد بأهلها، ويتكوّن فيها المعادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلّق بها مِن المصالح ما لا يحصى، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: العذب والمالح، أو خليجَي فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾ برزخًا مانعًا مِن الممازجة، وقد مرّ في سورة الفرقان.[1] والجَعل في المواقع الثلاثة الأخيرة إبداعي، وتأخيرُ مفعوله عن الظرف لِما مرّ مرارًا مِن التشويق.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في الوجود، أو في إبداع هذه البدائع على ما مرّ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه مِن الشرك مع كمال ظهوره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجَتْه شدّةٌ مِن الشدائد، وألْجأَتْه إلى اللَّجَأ والضراعة إلى الله عزّ وجلّ، اسمُ مفعول مِن "الاضطرار" الذي هو "افتِعال" مِن "الضرورة". وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو المجهود».[2] وعن السدّي رحمه الله: «مَن لا حولَ له ولا قوّةَ».[3] وقيل: المذنب إذا استغفر. و"اللام" للجنس، لا للاستغراق حتّى يلزمَ إجابة كلّ مضطرّ.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان ممّا يسوءه، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلفاءَ فيها بأن وَرَّثكم سُكناها والتصرّفَ فيها مِمَّن قبلكم مِن الأمم،

---

[1] الفرقان، ٢٥/٥٣.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٧.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٧.

وقيل: المراد بـ"الخلافة" الملكُ والتسلّط.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي يُفيض على كافّة الأنام هذه النعم الجِسام، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تتذكّرون، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى القِلّة التي أُريدَ بها العدمُ، أو ما يجري مَجراه في الحقارة وعدمِ الجدوى.

وفي تذييل الكلام بنفي التذكّر عنهم إيذان بأنّ مضمونَهُ مَركوز في ذهن كلّ ذكيّ وغبيّ، وأنّه مِن الوضوح بحيث لا يتوقّف إلّا على التوجّه إليه وتذكّره. وقُرِئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[1] على الأصل، و"تَذَّكَّرُونَ"،[2] و"يَذَّكَّرُونَ"[3] بـ"التاء" و"الياء" مع الإدغام.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليالي فيهما، على أنّ الإضافة للملابسة، أو في مشتبِهات الطرُق، يقال: "طريقة ظَلماء وعَمياء" للّتي لا مَنارَ بها.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وهي المطر، ولئن صحّ أنّ السبب الأكثري في تكوّن الريح معاودةُ الأدخنة الصاعدة مِن الطبقة الباردة لانكسار حرّها وتمويجِها للهواء فلا ريبَ في أنّ الأسبابَ الفاعليّةَ والقابليّةَ / لذلك كُلِّه [٢٥٩و]
مِن خلق الله عزّ وعلا، والفاعل للسبب فاعل للمسبَّب قطعًا. ﴿أإله مّع الله﴾ نفيٌ لأن يكون معه إلهٌ آخَر.

وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير وتحقيق له. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار للإشعارِ بعلّة الحكم، أي: تعالى وتنزّه بذاته المتفرّدة بالألوهيّة، المستتبِعةِ لجميع صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٢.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر وشعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦-٣٣٨.

[3] قرأ بها أبو عمرو وهشام عن ابن عامر ورَوح عن يعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦-٣٣٨.

المقتضيةِ لكون كلّ المخلوقات مقهورًا تحت قدرته؛ عمّا يشركون، أي: عن وجود ما يشركونه به تعالى، لا مطلقًا، فإنّ وجوده ممّا لا مردَّ له؛ بل عن وجودِه بعنوان كونه إلهًا وشريكًا له تعالى، أو عن إشراكهم.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: بل أمَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده بعد الموت بالبعث ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأسباب سماويّة وأرضيّةٍ قَد رَتّبها على ترتيبٍ بديع يقتضيه الحكمة التي عليها بُنِي أمرُ التكوين؛ خيرٌ أم ما تشركونه في العبادة مِن جماد لا يُتوهّم قدرتُه على شيء ما أصلًا؟

﴿أَءِلَٰهٌ﴾ آخر موجود ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ حتّى يُجعل شريكًا له في العبادة؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أمرٌ له عليه السلام بتبكيتهم إثرَ تبكيتٍ، أي: هاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا يدلّ على أنّ معه تعالى إلهًا، لا على أنّ غيره تعالى يَقدِر على شيء ممّا ذُكر مِن أفعاله تعالى كما قيل،[1] فإنّهم لا يدّعونه صريحًا، ولا يلتزمون كونه مِن لوازم الألوهيّة، وإن كان منها في الحقيقة، فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم ممّا لا وجه له. وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكّم بهم، لِما فيها مِن إيهام أنّ لهم برهانًا، وأنّى لهم ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في تلك الدعوى.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بعدَ ما حُقّق تفرّده تعالى بالألوهيّة ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامّة والرحمةِ الشاملة العامّة عُقّبَ بذِكر ما هو مِن لوازمه -وهو اختصاصه بعلم الغيب- تكميلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعدَه مِن أمر البعث.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/١٦٥.

/ والاستثناء منقطع، ورفع المستثنى على اللغة التميميّة للدلالة على [٢٥٩ظ] استحالة علم الغيب مِن أهل السماوات والأرض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم، كأنّه قيل: إن كان الله تعالى ممّن فيهما ففيهم مَن يعلم الغيب، أو متّصل على أنّ المراد مِن ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مَن تعلّق علمه بهما، واطّلع عليهما اطّلاعَ الحاضر فيهما، فإنّ ذلك معنًى مجازي عامّ له تعالى ولأُولي العلم مِن خلقه، و﴿مَن﴾ موصولة، أو موصوفة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يُنشرون مِن القبور، مع كونه ممّا لا بدّ لهم منه، ومِن أهمّ الأمور عندهم. و﴿أَيَّانَ﴾ مركّبة مِن "أيّ" و"آن". وقُرئ بكسر الهمزة.[١] والضمير للكفَرة -وإن كان عدم الشعور بما ذُكر عامًّا- لئلّا يلزم التفكيك بينه وبين ما سيأتي مِن الضمائر الخاصّة بهم قطعًا. وقيل: الكلّ لِـ﴿مَن﴾، وإسناد خواصّ الكفَرة إلى الجميع مِن قَبيل قولهم: "بَنو فلان فعلوا كذا"، والفاعلُ بعض منهم.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ لَمّا نُفي عنهم علمُ الغيب وأُكّد ذلك بنفي شعورهم بوقت ما هو مصيرهم لا محالةَ بُولِغ في تأكيده وتقريره بِأن أُضرِب عنه، وبُيّن أنّهم في جهلٍ أفحشَ مِن جهلهم بوقت بعثهم، حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقًا مع تعاضد أسباب معرفتها، على أنّ معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ تَدارَك وتتابَع علمهم في شأن الآخرة التي ما ذُكر مِن البعث حال مِن أحوالها حتّى انقطع ولم يبقَ لهم علم بشيء ممّا سيكون فيها قطعًا، لكن لا على معنى أنّه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثمّ انتفى شيئًا فشيئًا؛ بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه مِن الدلائل العقليّة والسمعيّة منزلةَ نفسه، وإجراءِ تساقُطِها عن درجة اعتبارهم كلّما لاحَظوها مُجرى تتابعها إلى الانقطاع.

ثمّ أُضرِبَ وانتُقلَ عن بيان عدم علمهم بها إلى بيان ما هو أَسوأُ منه، وهو حَيرتهم في ذلك، حيث قيل: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: في شكٍّ مريبٍ

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٢.

مِن نفس الآخرة وتَحققِها، كمَن تَحيّر في أمر لا يجد عليه دليلًا فضلًا عن الأمور التي ستقع فيها، ثمّ أُضرِب عن ذلك إلى بيان أنّ ما هم فيه أشدّ وأفظع مِن الشكّ، حيث قيل: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ بحيث لا يكادون يدركون دلائلَها لاختلال بصائرهم بالكلّيّة.

وقُرئ: "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ"[١] بمعنى: انتهى وفَنِي. وقد فسّره الحسن البصري رضي الله عنه[٢] بـ«اضمَحلّ عِلمهم».[٣]

وقيل: كِلتَا الصيغتين على معناها الظاهر، أي: تكامل واستحكَم، أو تمّ أسبابُ علمهم / بأنّ القيامة كائنة لا محالةَ مِن الآيات القاطعة والحجج [٢٦٠و] الساطعة، وتمكّنوا مِن المعرفة فضلَ تمكّن، وهم جاهلون في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ إضراب وانتقال مِن وصفهم بمطلق الجهل إلى وصفهم بالشكّ. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ إضراب مِن وصفهم بالشكّ إلى وصفهم بما هو أشدّ منه وأفظعُ مِن العمى. وأنت خبير بأنّ تنزيل أسباب العلم منزلةَ العلم سَنَنٌ مَسلوك، لكنّ دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذٍ ليست بواضحة.

وقيل: المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكّمُ بهم، فيكون وصفًا لهم بالجهل مبالغةً، والإضرابان على ما ذُكِر.

وأصل ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ "تَدَارَكَ"، وبه قرأ أُبيّ،[٤] فأُبدلتِ "التاء" دالًا وسُكِّنت، فتعذّر الابتداء فاجتُلِبت "همزة الوصل"، فصار ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾.

وقُرئ: "بَلِ ادَّرَكَ"،[٥] وأصله "افتَعَل"، و"بَلْ أَأَدَّرَكَ" بهمزتين،[٦] و"بَلْ آأَدَّرَكَ"[٧]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

[٢] ط س - رضي الله عنه.

[٣] تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

[٧] س: آآدْرَك.

بألف بينهما،[١] و"بَلَ ادْرَكَ" بالتخفيف والنقل،[٢] و"بَلَ ادَّرَكَ" بفتح اللام وتشديد الدال،[٣] وأصله "بَلْ أَدَّرَكَ" على الاستفهام، و"بَلَى أَدْرَكَ"، و"بَلَى آأَدْرَكَ"،[٤] و"أَمْ تَدَارَكَ"،[٥] و"أَمِ ادَّرَكَ".[٦]

فهذه ثنتا عشرة قراءةً، فما فيه استفهام صريح أو مُضمَّن مِن ذلك فهو إنكار ونفي، وما فيه "بَلَى" فإثبات لشعورهم، وتفسير له بالإدراك على وجه التهكّم الذي هو أبلغ وجوه النفي والإنكار، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغةً في النفي، ودلالةً على أنّ شعورهم بها أنّهم شاكّون فيها؛ بل إنّهم منها عمون، أو ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعَمَهِهم منها بحكاية إنكارهم للبعث. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم لذمِّهم بما في حيّز صلته، والإشعارِ بعِلّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ أي: أَنُخرَج مِن القبور إذا كنّا ترابًا كما يُنبئ عنه ﴿مُخۡرَجُونَ﴾، ولا مساغَ لأن يكون هو العامل في ﴿إِذَا﴾ لِاجتماع موانِعَ[٧] لو تفرّد واحد منها لكفَى في المنع.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٢/٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن يسار وعطاء بن يسار. المحتسب لابن جنّي، ١٤٢/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن يسار وعطاء بن يسار. المحتسب لابن جنّي، ١٤٢/٢.

[٤] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، واختلفت المصادر في ضبطهما، فهما كذلك في الكشّاف للزمخشري، ٣٨٠/٣. وفي جامع البيان للطبري، ١٠٧/١٨: «وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما -فيما ذُكر عنه- يقرأ بإثبات ياء في "بل"، ثمّ يبتدئ: "أَدَّارَكَ" بفتح ألِفها على وجه الاستفهام وتشديد الدال». ومثله في معاني القرآن للفرّاء، ٢٩٩/٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٤/٦؛ وتفسير القرطبي، ٢٢٦/١٣. وفي المحتسب لابن جنّي، ١٤٢/٢: «"بَلَى" بياء "آدْرَكَ" ممدودًا». وفي اللباب لابن عادل، ١٩٤/١٥: « وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: "بَلَى أَدْرَكَ" بحرف الإيجاب أخت نعم، و"بَلَى آأَدْرَكَ" بألف بين همزتين».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ١٠٧/١٨.

[٧] وفي هامش م: هي "الهمزة" و"أنّ" و"اللام". «منه».

وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابًا ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط، فإنّهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقًا، وإن كان البدَن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له.

[٢٦٠ظ] / وقوله تعالى: ﴿وَءَابَآؤُنَا﴾ عطفٌ على اسم "كان"، وقام الفصل مع الخبر مقامَ الفصل بالتأكيد. وتكرير "الهمزة" في ﴿أَئِنَّا﴾ للمبالغة والتشديد في الإنكار. وتحلية الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم، فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارة -كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٢/٤٤] ونظائره- على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار، لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور. وقُرئ: "إِذَا كُنَّا" بهمزة واحدة مكسورة.[١] وقُرئ: "إِنَّا لَمُخْرَجُونَ"[٢] على الخبر.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: الإخراجَ ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبل وَعْدِه عليه السلام. وتقديم الموعود على ﴿نَحْنُ﴾ لأنّه المقصود بالذكر، وحيث أُخِر قُصِد به المبعوث. والجملة استئناف مَسوق لتقرير الإنكار، وتصديرُها بالقسَم لمَزيد التأكيد. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير إثرَ تقرير.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب تكذيبهم للرسل عليهم السلام فيما دَعَوْهم إليه مِن الإيمان بالله عزّ وجلّ وحدَه وباليوم الآخر الذي تُنكرونه، فإنّ في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأُولي الأبصار، وفي التعبير عن المكذّبين بـ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لطفٌ بالمؤمنين في ترك الجرائم.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

[٢] قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلَا تَكُن[1] فِي ضَيۡقٖ﴾ في حرجٍ صَدرٍ ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ مِن مَكرهم، فإنّ الله يَعصمك مِن الناس. وقُرئ بكسر الضاد،[2] وهو أيضًا مصدر، ويجوز أن يكون المفتوح مخفَّفًا مِن "ضَيِّقٍ"، وقد قُرئ كذلك،[3] أي: لا تكُ في أمرٍ ضيّق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي: العذاب العاجل الموعود ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في إخباركم بإتيانه. والجمع باعتبار شِركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢﴾

/ ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: تَبِعكم ولَحِقَكم. و"اللام" مزيدة [٢٦١و] للتأكيد كـ"الباء" في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، أو الفعلُ مضمَّن معنى فعلٍ يعدَّى بـ"اللام". وقُرئ بفتح الدال،[4] وهي لغة فيه.

﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ وهو عذاب يوم بدر. و"عسى" و"لعلّ" و"سوف" في مواعيد الملوك بمنزلة الجَزم بها، وإنّما يطلقونها إظهارًا للوقار، وإشعارًا بأنّ الرمز مِن أمثالهم كالتصريح ممّن عداهم، وعلى ذلك مَجرى وعد الله تعالى ووعيده. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يَردَفكم... إلخ لكونه أدلَّ على تحقّق الوعد.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لَذُو إفضال وإنعام على كافّة الناس، ومِن جملة إنعاماته تأخيرُ عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه مِن المعاصي التي مِن جملتها

---

١ م ط س: ولا تكُ.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسم. الكامل للهذلي، ص ٥٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

استعجال العذاب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يَعرفون حقّ النعمة فيه، فلا يشكرونه؛ بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٤﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه. وقُرئ بفتح التاء،[1] مِن "كَنَنْتُ الشَّيءَ"، أي: سترتُ. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِن الأفعال والأقوال التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن استعجال العذاب. وفيه إيذان بأنّ لهم قبائح غيرَ ما يظهرونه، وأنّه تعالى يجازيهم على الكلّ. وتقديم السرّ على العَلَن قد مرّ سِرّه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٧٧/٢].

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٧٥﴾

[٢٦١ظ] / ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن خافية فيهما. وهما مِن الصفات الغالبة، و"التاء" للمبالغة، كما في "الرَّاوِية"، أو اسمان لِما يغيب ويخفى، و"التاء" للنقل إلى الاسميّة. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بَيّنٍ، أو مُبيّنٍ لِما فيه لمَن يطالعه، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: هو القضاء العدل بطريق الاستعارة.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزّبوا فيه أحزابًا، وركبوا متن العتوّ والغلوّ في الإفراط والتفريط، والتشبيهِ والتنزيه، ووقع بينهم التناكد في أشياء حتّى بلغت المُشاقّة إلى حيث لعن بعضهم بعضًا، وقد نزل القرآن الكريم ببيان كُنْه الأمر لو كانوا في حيّز الإنصاف.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم مَن آمنَ مِن بني إسرائيل دُخولًا أوّليًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بما يحكم به، وهو الحقّ، أو بحِكمته، ويؤيّده أنّه قُرئ: "بِحِكَمِهِ".[١] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُردّ حكمُه وقضاؤه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ما يُقضى به.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لترتيب الأمر على ما ذُكر مِن شئونه عزّ وجلّ، فإنّها موجِبة للتوكّل عليه، وداعية إلى الأمر به، أي: فتوكّل على الله الذي هذا شأنه، فإنّه موجِب على كلّ أحد أن يتوكّل عليه، ويُفوّض جميع أموره إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تعليل صريح للتوكّل عليه تعالى بكونه عليه السلام على الحقّ البَيّن، أو الفاصلِ بينه وبين الباطل، أو بين المُحقّ والمبطل، فإنّ كونه / عليه السلام كذلك ممّا يوجب الوثوق بحِفظه تعالى [٢٦٢و]
ونصرته وتأييده لا محالةَ.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾... إلخ تعليل آخَر للتوكّل الذي هو عبارة عن التبتّل إلى الله تعالى، وتفويضِ الأمر إليه، والإعراضِ عن التسبّب بما سواه، وقد عُلِّل أوّلًا بما يوجبه مِن جهته تعالى، أعني: قضاءَه بالحقّ وعزّتَه وعلمَه تعالى، وثانيًا بما يوجبه مِن جهته عليه السلام على أحد الوجهين، أعني: كونَه عليه السلام على الحقّ، ومِن جهته تعالى على الوجه الآخر، أعني: إعانتَه تعالى وتأييدَه للمحقّ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٧/٨.

ثمّ عُلّل ثالثًا بما يوجبه، لكن لا بالذات؛ بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التسبّب بما سواه تعالى، فإنّ كونهم كالموتى والصُّمّ والعُمي موجِب لقَطع الطمع عن مشايَعتهم ومعاضَدتهم رأسًا، وداعٍ إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعنيّ بالتوكّل عليه تعالى.

وإنّما شُبّهوا بالموتى لعدم تأثّرهم بما يُتلى عليهم مِن القوارع. وإطلاقُ "الإسماعِ" عن المفعول لبيان عدمِ سماعهم لشيءٍ مِن المسموعات، ولعلّ المرادَ تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذُكر مِن عدم الشعور، فإنّ القلب مَشعر مِن المَشاعر أشيرَ إلى بطلانه بالمرّة، ثمّ بُيّن بطلانُ مَشعرَي الأذن والعين، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧]، وإلّا فبَعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصمّ والعُمي مزيدُ مزيّة.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الدعوةَ إلى أمر مِن الأمور. وتقييدُ النفي بقوله تعالى ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ لتكميل التشبيه، وتأكيدِ النفي، فإنّهم مع صمَمهم عن الدعاء إلى الحقّ مُعرِضون عن / الداعي، مولّون على أدبارهم، ولا ريب [٢٦٢ظ] في أنّ الأصمّ لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صِماخه قريبًا منه، فكيف إذا كان خلفه بعيدًا منه. وقُرئ: "وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ".[1]

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هدايةً موصلةً إلى المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، ٥٦/٢٨]، فإنّ الاهتداء مَنوط بالبصر، و﴿عَن﴾ متعلّقة بالهداية باعتبار تضمّنه معنى الصرف. وقيل: بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾، يقال: "عَمِيَ عن كذا"،[2] وفيه بُعد. وإيراد الجملة الاسميّة للمبالغة في نفي الهداية. وقُرئ: "وَمَا أَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ".[3]

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

٢ انظر: التبيان لأبي البقاء، ١٠١٤/٢.

٣ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.

﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسمِع سماعًا يُجدي السامعَ نفعًا ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَٰتِنَا﴾ أي: مَن مِن شأنهم الإيمانُ بها. وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قُربها بأن يقال: إن تَهدي إلّا مَن يؤمِن... إلخ لِما أنّ طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيليّة.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تعليل لإيمانهم بها، كأنّه قيل: فإنّهم مُنقادون للحقّ. وقيل: مُخلصون لله تعالى، مِن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة، ٢/١١٢].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بيان لِما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾[1] مِن بقيّة ما يستعجلونه مِن الساعة ومباديها. والمراد بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ ما نَطق مِن الآيات الكريمة بمجيء الساعة، وما فيها مِن فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه قيامُها وحصولُها، عُبّر عن ذلك به للإيذان بشدّة وَقْعها وتأثيرها. وإسناده إلى ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ لِما أنّ المراد بيانُ وقوعها مِن حيث إنّها مِصداق للقول[2] الناطق بمجيئها، وقد أريدَ بالوقوع دُنوُّه واقترابه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١٦/١]، أي: إذا دنا وقوعُ مدلول القول المذكور الذي لا يكادون يسمعون ومصداقِه / ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي "الجسّاسة".[3] [٢٦٣و] وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيدِ إبهامه بالتنوين التفخيمي مِن الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى.

وقد ورد في الحديث: «أنّ طولها ستّون ذراعًا، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب».[4] ورُوي أنّ لها أربع قوائم، وله زَغَب وريش وجناحان.[5]

---

١ النمل، ٢٧/٧٢.

٢ س: القول.

٣ "الجسّاسة" هي الدابّة التي ظهرت للصحابي تميم الداري رضي الله عنه في جزيرة في البحر، ففي الحديث: «فدخلوا الجزيرةَ فلقيتهم دابّة أهلَبُ كثيرُ الشعر، لا يدرون ما قُبله مِن دُبره مِن كثرة الشعر، فقالوا: "ويلكِ ما أنت؟" فقالت: "أنا الجسّاسة"» الحديث. انظر: صحيح مسلم، ٢٢٦٢/٤ (٢٩٤٢).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/٣. وهو في المستدرك للحاكم، ٥٣٠/٤ (٨٤٩٠)، دون قوله: «طولها ستّون ذراعًا».

٥ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢٦/١٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٨٥/٣.

وعن ابن جريج في وصفها: «رأسُ ثَور، وعين خنزير، وأذُن فيل، وقَرن إيَّل،[١] وعنُق نعامة، وصدر أسد، ولون نمِر، وخاصرة هرّة، وذنَب كبش، وخُفّ بعير، وما بين المَفصِلَين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام».[٢]

وقال وَهْب: «وجهُها وجهُ الرجل، وباقي خَلقها خَلق الطير».[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «ليس بدابّة لها ذنَب، ولكن لها لِحية»،[٤] كأنّه يشير إلى أنّه رجل، والمشهور أنّها دابّة.

ورُوي: لا تُخرج إلّا رأسَها، ورأسُها يبلغ أعنان السماء،[٥] أو[٦] يبلغ السحاب.[٧]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «فيها كلّ لون، ما بين قرنَيها فرسخ للراكب».[٨] وعن الحسن رضي الله عنه: «لا يتمّ خروجها إلّا بعد ثلاثة أيّام».[٩] وعن عليّ رضي الله عنه: «أنّها تخرج ثلاثة أيّام، والناس ينظرون، فلا يخرج إلّا ثلثها».[١٠] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل: مِن أين تخرج الدابّة؟ فقال: «مِن أعظم المساجد حرمةً على الله تعالى»،[١١] يعني: المسجدَ الحرامَ.

ورُوي أنّها تخرج ثلاث خرجات؛ تخرج بأقصى اليمن، ثمّ تتكمّن، ثمّ تخرج بالبادية، ثم تتكمّن دهرًا طويلًا، فبينا الناس في أعظم المساجد / حرمةً على الله تعالى [٢٦٣ظ] وأكرمِها فما يهولهم إلّا خروجُها مِن بين الركن حِذاءَ دار بني مخزومٍ عن يمين الخارج مِن المسجد، فقوم يَهربون، وقوم يقفون نظّارة.[١٢] وقيل: تخرج مِن الصفا.[١٣]

---

١ الإيَّل: الذَّكَر مِن الأوعال. الصحاح للجوهري، «أيل».
٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤. وهو في تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٤، عن ابن جريج عن أبي الزبير.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٤.
٤ تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.
٥ أعنان السماء: صفائحها وما اعترض مِن أقطارها، كأنه جمع "عَنَن". والعامّة تقول: "عنان السماء". الصحاح للجوهري، «عنن».
٦ وفي هامش م: شكّ راوي. «منه».
٧ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤.
٨ تفسير ابن أبي حاتم، ٩/٢٩٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤.
٩ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.
١٠ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.
١١ جامع البيان للطبري، ١٨/١٢٤؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥.
١٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.
١٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤؛ تفسير الرازي، ٢٤/٥٧٢.

ورُوي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذا تَضطرب الأرض تحتهم تُحرِّك القنديل، وتنشقّ الصفا ممّا يلي المَسعى، فتخرج الدابّة مِن الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا، فتنكُت نُكتة بيضاء، فتفشو حتّى يضيء لها وجهه، وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنكُتُ الكافر بالخاتم في أنفه، فتفشو النُّكتة حتّى يسوَدُّ لها وجهه، وتكتب بين عينيه كافر، ثمّ تقول لهم: أنت يا فلان مِن أهل الجنّة، وأنت يا فلان مِن أهل النار.[١]

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قرَع الصفا بعصاه وهو مُحرِم، وقال: «إنّ الدابّة لَتَسمع قرعَ عصاي هذه».[٢]

وروى أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «بئس الشِّعب شِعب جياد» مرّتين أو ثلاثًا، قيل: «ولِمَ ذاك يا رسول الله؟» قال: «تخرج منه الدابّة، فتصرخ ثلاث صرخات، يَسْمعُها مَن بين الخافقين»،[٣] فتتكلّم بالعربيّة بلسان ذَلْق، وذلك قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: تكلّمهم بأنّهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقةِ بمجيء الساعة ومباديها، أو بجميع آياته التي مِن جملتها تلك الآيات. وقيل: بآياته التي مِن جملتها خروجُها بين يدي الساعة. والأوّل هو الحقّ كما ستحيط به علمًا. وقُرئ: "بِأَنَّ النَّاسَ" الآيةَ.[٤]

وإضافة "الآيات" إلى نون العظمة لأنّها حكاية منه تعالى لمعنى قولها، لا لِعين عبارتها. وقيل: لأنّها / حكاية منها لقول الله عزّ وجلّ. وقيل: لاختصاصها به تعالى وأَثَرتِها عنده، كما يقول بعض خواصّ المَلِك: "خَيلُنا وبلادنا"، وإنّما الخَيل والبلاد لمولاه. وقيل: هناك مضاف محذوف، أي: بآيات ربّنا. [٢٦٤و]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٨/١٢٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥.

[٢] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٨٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

[٣] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٨٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

ووصفهم بعدم الإيقان بها مع أنّهم كانوا جاحدين بها للإيذان بأنّه كان مِن حقّهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحّتها وقد اتّصفوا بنقيضه.

وقُرئ: "إِنَّ النَّاسَ" بالكسر[١] على إضمار القول، أو إجراء الكلام مُجراه. والكلام في الإضافة كالذي سبق. وقيل: هو استئناف مَسوق من جهتِه تعالى لتعليل إخراجها أو تكليمها،[٢] ويردّه الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل، فإنّه صريح في كونه حكايةِ لعدم إيقانهم السابق في الدنيا.

والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إمّا الكفَرة على الإطلاق، أو مشركو مكّة. وقد رُوي عن وَهْب «أنّها تُخبر كلَّ مَن تراه أنّ أهل مكّة كانوا بمحمّد والقرآنِ لا يوقنون».[٣]

وقُرئ: "تَكْلِمُهُم"[٤] مِن "الكَلْم" الذي هو الجُرح. والمراد به ما نُقل مِن الوسم بالعصا والخاتم، وقد جُوّز كون القراءة المشهورة أيضًا منه لمعنى التكثير،[٥] ولا يخفى بُعده.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ بيان إجمالي لحالِ المكذِّبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلّي الشامل لكافّة الخلق.

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ بيان سرّه مرارًا، أي: واذكر لهم وقتَ حشرنا -أي: جمعِنا- مِن كلّ أمّة مِن أمم الأنبياء عليهم السلام، أو مِن أهل كلّ قَرن مِن القرون جماعةً كثيرةً. فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة؛ لأنّ كلّ أمّة منقسمة إلى مصدِّق ومكذِّب.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٢٥؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهد وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٣.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٦٨.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ / بيان للفَوج، أي: فَوجًا مكذّبين بها، [٢٦٤ظ]
﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَس أوّلهم على آخرهم حتّى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة. وفيه مِن الدلالة على كثرة عددهم وتباعدِ أطرافهم ما لا يخفى.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة؛ يساقون بين يدي أهل مكّة»،[١] وهكذا يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ موبِّخًا لهم على التكذيب، والالتفاتُ لتربية المهابة: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ جملة حاليّة مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغايةِ قُبحه، ومؤكّدةٌ للإنكار والتوبيخ، أي: أكذّبتم بها بادئ الرأي غيرَ ناظرين فيها نظَرًا يؤدّي إلى العلم بكُنهها، وأنّها حقيقةٌ بالتصديق حتمًا، وهذا نصّ في أنّ المراد بـ"الآيات" فيما سَلَف في الموضعين هي الآيات القرآنيّة؛ لأنّها هي المنطوية على دلائل الصحّة وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علمًا مع وجوب أن يتأمّلوا ويتدبّروا فيها، لا نفسُ الساعة وما فيها.

وقيل: هو معطوف على ﴿كَذَّبْتُم﴾، أي: أجَمَعتم بين التكذيب وعدم التدبّر فيها؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أمْ أيَّ شيء كنتم تعملون بها؟ أو أم أيَّ شيء كنتم تعملون غير ذلك؟ بمعنى أنّه لم يكن لهم عمل غير ذلك، كأنّهم لم يُخلَقوا إلّا للكفر والمعاصي، مع أنّهم ما خُلِقوا إلّا للإيمان والطاعة،

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٣٨٥. وهو في **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٢٧٠، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يخاطَبون بذلك تَبكيتًا ثم يُكبَون في النار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: حلّ بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله / ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبهم بآيات الله، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [٢٦٥و] لانقطاعهم عن الجواب بالكلّيّة، وابتلائهم بشغلٍ شاغل مِن العذاب الأليم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ الرؤية قلبيّة، لا بصريّةٌ، لأنّ نفس الليل والنهار وإن كانا مِن المُبصَرات لكن جعلُهما كما ذُكر مِن قَبيل المعقولات، أي: ألَم يعلموا أنّا جعلنا الليل بما فيه مِن الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: ليُبصروا بما فيه مِن الإضاءة طرُقَ التقلّب في أمور المعاش.

فبُولغ فيه حيث جُعل الإبصار الذي هو حال الناس حالًا له ووصفًا مِن أوصافِه التي جُعل عليها بحيث لا ينفكّ عنها، ولم يُسلَك في الليل هذا المسلك، لِما أنّ تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمَثابة تأثير ضوء النهار في الإبصار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جعلهما كَما وُصِفا. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجته في الفضل. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: عظيمةً كثيرةً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دالّةً على صحّة البعث وصدقِ الآيات الناطقة به دلالةً واضحةً، كيف لا، وإنّ مَن تأمّل في تعاقب الليل والنهار واختلافِهما على وجوهٍ بديعة مبنيّة على حِكَم رائقة يَحار في فهمها العقول، ولا يحيط بها إلّا الله عزّ وعلا، وشاهدَ في / الآفاق تبدّلَ ظلمة الليل المُحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة، [٢٦٥ظ] وعايَنَ في نفسه تبدّلَ النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة؛ قضَى بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور قضاءً متقَنًا، وجزَم بأنّه تعالى قد جعل هذا أُنموذجًا له، ودليلًا يُستدلّ به على تحقّقه، وأنّ الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانًا عليه وسائرَ الآيات كلّها حقٌّ نازل مِن عند الله تعالى.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ إمّا معطوف على ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾[1] منصوب بناصبه، أو بمُضمَر معطوف عليه. و﴿ٱلصُّورِ﴾ هو القَرْن الذي يَنفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا فرَغ الله تعالى مِن خلق السماوات والأرض خلقَ الصُّور فأعطاه إسرافيل عليه السلام، فهو واضعه على فيه، شاخصٌ بصره إلى العرش متى يؤمر»، قال: «قلت: يا رسول الله، ما الصُّور؟» قال: «القَرْن»، قال: «قلت: كيف هو؟» قال: «عظيم، والذي نفسي بيده، إنّ عِظَمَ دارةٍ فيه كعَرض السماوات والأرض، فيُؤمَر بالنفخ فيه، فينفخ نفخةً لا يبقى عندها في الحياة أحد غيرَ مَن شاء الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]، ثمّ يُؤمر بأُخرى، فينفخُ نفخةً لا يبقى معها ميّتٌ إلّا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ/ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]».[2] [٢٦٦و]

والذي يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه أنّ المراد بالنفخ ههنا هي النفخة الثانية، وبالفزَع في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما يعتري الكلَّ عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق مِن الرعب والتهيّب الضروريَّين الجِبِلِّيَّين.

وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه -أعني: ﴿يُنفَخُ﴾- مضارعًا للدلالة على تحقّق وقوعه إثرَ النفخ. ولعلّ تأخيرَ بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها مِن حشر المكذّبين مِن كلّ أمّة لتثنية التهويل بتكرير التذكير إيذانًا بأنّ كلّ واحد منهما طامّة كبرى وداهية دَهياء حقيقة بالتذكير على حيالها، ولو رُوعي الترتيب الوقوعي لربّما تُوهِّم أنّ الكلّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِر بذكرها كما مرّ في قصّة البقرة.

---

١ النمل، ٨٣/٢٧.

٢ جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٥٦/١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٧/٧.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: أن لا يَفزَع. قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام. وقيل: الحور والخزَنة وحمَلة العرش.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحد مِن المَبعوثين عند النفخة ﴿أَتَوْهُ﴾ حضروا المَوقف بين يدَي ربّ العزّة جلّ جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب. وقُرئ: "أَتَاهُ"[١] باعتبار لفظ "الكلّ" كما أنّ القراءة الأولى باعتبار معناه. وقُرئ: "آتُوهُ"،[٢] أي: حاضِروه ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغِرين. وقُرئ: "دَخِرِينَ".[٣]

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ عطفٌ على ﴿يُنفَخُ﴾ داخلٌ في حكم التذكير. وقوله عزّ وعلا: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ثابتة في أماكنها، إمّا بدل منه، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَى﴾، أو مِن مفعوله.

[٢٦٦ظ] وقوله تعالى: / ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ في ﴿تَحْسَبُهَا﴾، أو في ﴿جَامِدَةً﴾، أي: تراها رأيَ العين ساكنةً، والحالُ أنّها تمرّ مرّ السحاب الذي تُسَيِرها الرياح سيرًا حثيثًا. وذلك أنّ الأجرام العظام إذا تحرّكت نحو سَمْتٍ لا يكاد يتبيّن حركتها، وعليه قول مَن قال:

بِأَرْعَنَ مثلِ الطَّوْدِ تحسب أنّهم ... وُقوفٌ لحاجٍ والركابُ تُهَمْلِجُ[٤]

وقد أُدمِجَ في هذا التشبيه تشبيهُ حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة، ١٠١/٥].

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٧٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/ ٣٣٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٤.

٤ للنابغة الجعدي في ديوانه، ٨/٢٨٥. يقال: "جيشٌ أرعَن"، وهو المضطرب لكثرته. و"الطُّور": الجبل العظيم. "الحاج": جمع الحاجة. و"الركاب" لا واحد له مِن لفظه، و"الهِملاج" مِن البراذين، واحد "الهَماليج"، ومَشيها "الهَملجة"، فارسي معرّب، وهي مشيٌ سهلٌ. يقول: حاربنا العدوّ بجيش مِثلَ الجبل العظيم، تحسب أنّهم وقوفٌ لِحاجٍ، والحال أنّ الركاب تُهملِج وتُسرع. فتوح الغيب للطيبي، ١١/٥٩٢.

وهذا أيضًا ممّا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدّل الله عزّ وجلّ الأرضَ غيرَ الأرض، ويُغيِّر هيأتها، ويسيّر الجبال عن مقارّها على ما ذُكر مِن الهيئة الهائلة ليشاهدَها أهلُ المحشر، وهي وإنِ انْدَكّتْ وتصدّعت عند النفخة الأولى لكنّ تَسْيِيرَها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ١٠٥/٢٠-١٠٨]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ٤٨/١٤].

فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام، وبروزَ الخلق لله تعالى، لا يكون إلّا بعد النفخة الثانية، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف، ٤٧/١٨]: إنّ صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلًا للدلالة على تقدّم الحشر على التسيير والرؤية، كأنّه قيل: وحَشرناهم قبل ذلك.

هذا، وقد قيل: إنّ المراد هي النفخة الأولى، و"الفزَعُ" هو الذي يستتبع الموت لغاية شدّة الهول، كما في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ [الزمر، ٦٨/٣٩]، فيختصّ أثرها بمَن كان حيًّا عند / وقوعها دون [٢٦٧و]
مَن مات قبل ذلك مِن الأمم.

وجُوّز أن يُراد بالإتيان داخرين رجوعُهم إلى أمره تعالى، وانقيادُهم له،[1] ولا ريبَ في أنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُنَزَّه ساحة التنزيل عن أمثاله. وأبعدُ مِن هذا ما قيل:[2] إنّ المراد بهذه النفخة نفخةُ الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق، وهي التي أريدت بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص، ١٥/٣٨]، «فيُسيّر الله تعالى عندها الجبال فتمرّ مرّ السحاب، فتكون سرابًا، وتُرَجُّ الأرض بأهلها رجًّا، فتكون كالسفينة الموثقة في البحر، أو كالقنديل المعلّق

---

١ انظر: **الكشّاف للزمخشري**، ٣٨٧/٣؛ **وأنوار التنزيل للبيضاوي**، ١٦٨/٤.

٢ انظر: **جامع البيان للطبري**، ١٣٢/١٨؛ **والكشف والبيان للثعلبي**، ٢٢٧/٧.

ترجّجه الأرواحُ»،[١] فإنّه ممّا لا ارتباط له بالمقام قطعًا، والحقُّ الذي لا مَحيد عنه ما قدّمناه، وممّا هو نصّ في الباب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.[٢]

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لِمضمون ما قبله، أي: صَنعَ الله ذلك صُنعًا على أنّه عبارة عمّا ذُكر مِن النفخ في الصور وما ترتّب عليه جميعًا، قُصِد به التنبيهِ على عِظَم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها، والإيذانُ بأنّها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلّيّة مِن غير أن يَدعُوَ إليها داعية، أو يكون لها عاقبة؛ بل هي مِن قَبيل بدائع صُنع الله تعالى المبنيّة على أساس الحكمة المستتبِعة للغايات الجميلة، التي لأجلها رُتِّبت مقدّمات الخلق ومبادي الإبداع على الوجه المتين، والنهج الرَّصين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحكم خلقَه وسوّاه على ما يقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تعليل لكون ما ذُكر صنعًا محكَمًا له
[٢٦٧ظ] تعالى ببيان أنّ علمه تعالى بظواهر أفعال / المكلّفين وبواطنها ممّا يدعو إلى إظهارها وبيانِ كيفيّاتها على ما هي عليه مِن الحُسن والسوء، وترتيبِ أجزيتها عليها بعد بَعثهم وحشرهم، وجعلِ السماوات والأرض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل، ليتحقّقوا بمشاهدة ذلك أنّ وعد الله حقّ لا ريبَ فيه. وقُرئ: "خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ".[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ بيان لِما أشيرَ إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم مِن ترتيب أجزيتها عليها، أي: مَن جاء منكم أو مِن أولئك الذين أَتَوه تعالى بالحسنة فله مِن الجزاء ما هو خير منها، إمّا باعتبار أنّه أضعافها، وإمّا باعتبار دوامه وانقضائها. وقيل: فله خير حاصل مِن جهتها، وهو الجنّة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «"الحسنة" كلمة الشهادة».[٤]

---

[١] جزء مِن حديث طويل أخرجه الطبري في جامع البيان، ١٨/١٣٢؛ وابن أبي حاتم في التفسير، ٩/٢٩٢٩.

[٢] في الآية التالية.

[٣] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨٨؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠٩.

﴿وَهُم﴾ أي: الذين جاءوا بالحسنات ﴿مِن فَزَعٍ﴾ أي: عظيم هائل لا يُقادَر قدرُه، وهو الفزع الحاصل مِن مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيّئات، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء، ١٠٣/٢١]. وعن الحسن رضي الله عنه: «حين يؤمر بالعبد إلى النار».[1] وقال ابن جريج: «حين يُذبح الموت، وينادي المنادي: يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت».[2]

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يُنفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلًا، وأمّا الفزع الذي يعتري كلَّ مَن في السماوات ومَن في الأرض غيرَ مَن استثناه الله تعالى فإنّما هو التهيّب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة مِن معاينة فنون الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحُكم الجِبِلّة، وإن كان آمنًا مِن لحوق الضرر.

والأمن يستعمل بالجارّ وبدونه، / كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [٢٦٨و] [الأعراف، ٩٩/٧]. وقُرئ: "مِن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ" بالإضافة مع كسر "الميم"،[3] وفتحِها[4] أيضًا، والمراد هو الفزع المذكور في القراءة الأولى، لا جميعُ الأفزاع الحاصلة يومئذ. ومدار الإضافة كونه أعظمَ الأفزاع وأكبرَها، كأنّ ما عداه ليس بفزَع بالنسبة إليه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيل: هو الشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: كُبّوا فيها على وجوههم منكوسين، أو كُبّت فيها أنفسهم، على طريقة: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢].

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٢٢/١٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١).

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦ (الأنبياء، ١٠٣/٢١)؛ اللباب لابن عادل، ٦١١/١٣ (الأنبياء، ١٠٣/٢١). وحديث ذبح الموت أخرجه البخاري في صحيحه، ١١٣/٨ (٦٥٤٥)؛ ومسلم في صحيحه، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤٠/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٠/٢.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفات للتشديد، أو على إضمار القول، أي: مَقولًا لهم ذلك.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أُمِر عليه السلام بأن يقول لهم ذلك بعد ما بيّن لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيهًا لهم على أنّه قد أتمّ أمر الدعوة بما لا مزيدَ عليه، ولم يبقَ له عليه السلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عزّ وجلّ، والاستغراقِ في مراقبته غيرَ مبالٍ بهم ضَلُّوا أم رَشَدُوا، صَلَحُوا أو فسَدوا؛ ليحملهم ذلك على أن يهتمّوا بأمور أنفسهم، ولا يتوهّموا مِن شدّة اعتنائه عليه السلام بأمر دعوتهم أنّه عليه السلام يُظهر لهم ما يُلجئُهم إلى الإيمان لا محالةَ، ويشتغلوا بتدارك أَحوالهم، ويتوجّهوا نحو التدبّر فيما شاهدوه مِن الآيات الباهرة.

و﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾ هي مكّة المعظّمة، وتخصيصُها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، والتعرّضُ لتحريمه تعالى إيّاها تشريفٌ لها بعد تشريف، وتعظيمٌ إثرَ تعظيم، مع ما فيه مِن الإشعار بعلّة الأمر وموجِبِ الامتثال به، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش، ١٠٦/٣-٤]، ومِن الرمزِ إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يُرى أنّهم مع كونها محرّمةً مِن أن تُنْتَهكَ حرمتُها باختلاءِ خَلاها، وعَضْدِ شجَرِها، وتنفيرِ صيدها، وإرادةِ الإلحاد فيها بوجه مِن الوجوه، قد استمرّوا فيها على تعاطي أفجر أفراد الفجور، وأشنعِ آحاد الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربّها، ونَصَبُوا فيها الأوثان، وعكَفُوا على عبادتها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكُون.

وقُرئ: "حَرَمَهَا" بالتخفيف.[١]

---

[١] قراءة شاذّة، ولم أجِد مَن ذكرها غير أبي السعود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: خَلقًا ومُلكًا وتصرّفًا مِن غير أن يشاركه شيءٌ في شيءٍ مِن ذلك؛ تحقيقٌ للحقّ، وتنبيهٌ على أنّ إفراد مكّة بالإضافة لِما ذُكر مِن التفخيم / والتشريف مع عموم الربوبيّة لجميع الموجودات. [٢٦٨ظ]

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أَثْبُتَ على ما كنتُ عليه مِن كَونِي مِن جملة الثابتين على ملّة الإسلام والتوحيد، أي: الذين أسلموا وجوههم لله خالصةً، مِن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء، ٤/١٢٥].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أُواظب على تلاوته؛ لينكشفَ لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئًا فشيئًا، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد، فيكونَ ذلك تنبيهًا على كفايته في الهداية والإرشاد مِن غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى. فمعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ حينئذ: فمَن اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه مِن الشرائع والأحكام. وعلى الأوّل: فمَن اهتدى باتّباعه إيّايَ فيما ذُكر مِن العبادة والإسلام وتلاوةِ القرآن فإنّما منافع اهتدائه عائدةٌ إليه، لا إلَيّ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراضِ عن العمل بما فيه، أو بمخالفتي فيما ذُكر ﴿فَقُلْ﴾ في حقّه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجتُ عن عهدة الإنذار، فليس عليّ مِن وَبالِ ضلاله شيء، وإنّما هو عليه فقط.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أفاض عليّ مِن نَعمائه التي أجلُّها نعمةُ النبوّة المستتبِعةُ لفنون النعم الدينيّة والدنيويّة، ووفّقَني لتحمّل أعبائها وتبليغ أحكامها إلى كافّة الورى بالآيات البيّنة والبراهينِ النيّرة.

وقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مِن جملة الكلام المأمور به، أي: سيُريكم البتّةَ في الدنيا آياتِه الباهرة التي نطق بها القرآن، كخروج الدابّة، وسائر الأشراط،

وقَد عُدّ منها وقعةُ بدر،[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: فتعرفون أنّها آيات الله تعالى حين لا ينفعكم المعرفة؛ لأنّهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك. وقيل: سيُريكم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام مَسوق مِن جهته تعالى بطريق التذييل، مقرِّر لِما قبله، متضمّن للوعد والوعيد، كما يُنبئ عنه إضافة الربّ إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتخصيص الخطاب أوّلًا به[٢] عليه السلام، وتعميمُه ثانيًا للكفَرة تغليبًا، أي: وما ربّك بغافل عمّا تعمل أنت مِن الحسنات، وما تعملون أنتم أيّها الكفَرة مِن السيّئات، فيجازي كلًّا منكم بعمله لا محالةَ.

وقُرئ: "عَمَّا يَعْمَلُونَ"[٣] على الغيبة، فهو وعيدٌ مَحض، والمعنى: وما ربّك بغافل عن أعمالهم، فسيعذّبهم البتّة، فلا يحسبوا أنّ تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجِبة له، والله تعالى[٤] أعلم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ ﴿طسٓ﴾ كان له مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن صدّق بسليمان وهود وصالح وإبراهيم وشعيب عليهم السلام، ومَن كذّب بهم، ويَخرج مِن قبره وهو ينادي: "لا إلٰه إلّا الله"».[٥]

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

[٢] م - به.

[٣] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر ابن الجزري، ٢٦٣/٢.

[٤] س - تعالى.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦٨/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ النَّمْلِ

وتسمَّى أيضاً كما في «الدر المنثور»[١] سورةَ سليمان. وهي مكيةٌ كما روي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ[٢]. وذهب بعضُهم إلى مدنيَّةِ بعضِ آياتها كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعددُ آياتها خمسٌ وتسعون آيةً حجازيٌّ وأربعٌ بصريٌّ وشاميٌّ وثلاثٌ كوفيٌّ.

ووجهُ اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها، حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود وسليمان، وبَسَط فيها قصةَ لوط عليه السلام أبسطَ مما هي قبلُ، وقد وقع فيها: (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا) إلخ، وذلك كالتفصيل لقوله سبحانه فيما قبل: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] [الشعراء: ٢١].

وقد اشتمل كلٌّ من السورتين على ذكر القرآن وكونه من الله تعالى، وعلى تسليته ﷺ، إلى غير ذلك.

وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد أنَّ «الشعراء» نزلت ثم «طس» ثم «القصص»[٤].

---

(١) كذا ذكر، والصواب أن ذلك في الإتقان ١/ ١٧٣.
(٢) أخرجه عن ابن عباس النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٤، وعن ابن الزبير ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ١٠٢.
(٣) تناسق الدرر للسيوطي ص٧١.
(٤) المصدر السابق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ﴾ قرئ بالإمالة وعَدَمِها(١)، والكلامُ فيه كالكلام في نظائره من الفواتح.

﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى السورة المذكورة، وأداةُ البُعْدِ للإشارة إلى بُعْدِ المنزلة في الفضل والشرف، أو إلى الآيات التي تُتلى بعدُ، نظير الإشارة في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢]، أو إلى مطلق الآيات، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ والجملةُ مستأنفةٌ، أو خبرٌ لقوله تعالى: ﴿طسٓ﴾.

وإضافة «آيات» إلى «القرآن» لتعظيم شأنها، فإنَّ المراد به: المنزلُ المباركُ، المصدِّق لِمَا بين يديه، الموصوف بالكمالات التي لا نهايةَ لها. ويطلق على كلِّ المنزَلِ عليه ﷺ للإعجاز، وعلى بعضٍ منه، وجوِّز هنا إرادةُ كلٍّ من المعنيين، وإذا أريد الثاني فالمراد بالبعض جميعُ المنزل عند نزول السورة.

وقولُه تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ عطفٌ على «القرآن»، والمرادُ به القرآنُ، وعَطفُه عليه مع اتِّحاده معه في الصدق كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما في قولهم: هذا فِعْلُ السخيِّ والجوادِ الكريم، وتنوينُه للتفخيم.

و«المبين» إما من أبان المتعدِّي، أي: مُظْهِر ما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام، وأحوالِ القرون الأولى، وأحوالِ الآخرة التي من جملتها الثوابُ والعقابُ، أو سبيلَ الرشدِ(٢) والغيِّ، أو نحو ذلك، والمشهور في أمثال هذا الحذف أنه يفيدُ العمومَ. وإما من أبانَ اللازم بمعنى بان، أي: ظاهر الإعجاز، أو ظاهر الصحة للإعجاز. وهو على الاحتمالين صفةٌ مادحةٌ لـ «كتاب»، مؤكِّدةٌ لِمَا أفاده التنوين من الفخامة.

ولمَّا كان في التنكير نوعٌ من الفخامة وفي التعريف نوعٌ آخَرُ، وكان الغرضُ

---

(١) أمال الطاء شعبة وحمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٧٠.
(٢) أي: أو مُظْهِرٌ سبيلَ الرشد، ينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٦٣، و٦/ ٢٧١.

الجمعَ للاستيعاب الكامل، عرّف «القرآن» ونكّر «الكتاب»، وعكس في «الحجر»، وقدّم المعرَّف في الموضعين لزيادة التنويه. ولمَّا عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص ها هنا قدَّم كونه قرآناً؛ لأنه أدلُّ على خصوص المنزَلِ على محمد ﷺ للإعجاز، كذا في «الكشف».

وقال بعض الأجلَّة[1]: قدِّم الوصف الأول ها هنا نظراً إلى حال تقدُّم القرآنية[2] على حال الكتابية، وعُكِس هنالك لأنَّ المراد تفخيمُه من حيث اشتمالُه على كمال[3] جنس الكتب الإلهية حتى كأنه كلُّها، ومن حيث كونه ممتازاً عن غيره نسيجَ وحده بديعاً في بابه، والإشارةُ إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالاتِ غيره من الكتب أَدْخَلُ في المدح؛ لئلا يُتَوَهَّم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصةٍ به من غير اشتماله على نعوتِ كمالِ سائرِ الكتب الكريمة.

وفي هذا حملُ «أل» على الجنس في «الكتاب»، والظاهر أنها في «القرآن» للعهد، فيختلفُ معناها في الموضعين، وإليه يشير ظاهر كلام «الكشاف» كما قيل[4]. واعتُذِرَ له بأنه إذا رجع المعنيان إلى التفخيم فلا بأس بمثل هذا الاختلاف. وجوّز أن تكون في الموضعين للعهد، وأن تكون فيهما للجنس فتأمَّل.

وقيل: إنَّ اختصاص كلٍّ من الموضعين بما اختصَّ به من تعيين الطريق.

وجوّز أن يراد بالكتاب اللوحُ المحفوظ، وإبانتُه أنه خُطَّ فيه ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فهو يبيِّنه للناظرين فيه، وتأخيرهُ هنا عن القرآن باعتبار تعلُّق عِلْمِنا به، وتقديمهُ في «الحِجْر» عليه باعتبارِ الوجود الخارجيِّ؛ فإنَّ القرآن بمعنى المقروء لنا مؤخَّرٌ عن اللوح المحفوظ. ولا يخفى أنَّ إرادة غير اللوح من الكتاب أظهر.

وقال بعضهم[5]: لا يساعد إرادةَ اللوح منه ها هنا إضافةُ الآيات إليه؛ إذ

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٥/ ٦٣ و٦/ ٢٧١-٢٧٢، وينظر ما سلف ١٣/ ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) في تفسير أبي السعود: إلى تقدم حال القرآنية.

(٣) في تفسير أبي السعود: على صفات كمال.

(٤) ينظر الكشاف ٢/ ٣٨٥ و٣/ ١٣٤-١٣٥، وينظر ما سلف ١٣/ ٣٧٨.

(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٢٧٢.

لا عَهْدَ باشتماله على الآيات، ولا وَصْفُه بالهداية والبشارةِ؛ إذ هما باعتبارِ إبانته، فلا بدَّ من اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون، لا إلى الناظرين فيه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «وكتابٌ مبينٌ» برفعهما[١]، وخرِّج على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامه، أي: وآياتُ كتابٍ، وقيل: يجوزُ عدمُ اعتبار الحذف، والكتابُ لكونه مصدراً في الأصل يجوز الإخبارُ به عن المؤنَّث.

وقيل: رُبَّ شيءٍ يجوزُ تبعاً ولا يجوزُ استقلالاً، ألا ترى أنهم حظروا: جاءتني زيدٌ، وأجازوا: جاءتني هندٌ وزيدٌ؟

وقوله تعالى: ﴿هُدَىٰ وَبُشْرَىٰ﴾ في حيِّز النصب على الحالية من «آيات»، على إقامة المصدر مقام الفاعل فيه للمبالغة، كأنها نفسُ الهدى والبشارة، والعاملُ معنى الإشارة، وهو الذي سمَّته النحاة عاملاً معنوياً. وجوَّز أبو البقاء على قراءة الرفع في «كتاب» كونَ الحال منه، ثم قال: ويَضْعفُ أن يكون من المجرور، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «مبين» على القراءتين[٢].

وجوَّز أبو حيان كونَ النصب على المصدرية، أي: تَهْدي هُدًى وتُبشِّر بُشْرَى، أو الرفع على البدلية من «آيات» ـ واشتراطُ الكوفيين في إبدال النكرة من المعرفة شرطين: اتحاد اللفظ، وأن تكون النكرةُ موصوفةً نحو قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٥-١٦]، غيرُ صحيح كما في «شرح التسهيل»؛ لشهادة السماع بخلافه ـ أو على أنه خبرٌ بعد خبرٍ لـ «تلك»، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هي هدىً وبشرى[٣].

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ يحتمل أن يكون قيداً للهدى والبشرى معاً، ومعنى هدايةِ الآيات لهم وهم مهتدون أنها تزيدُهم هدًى؛ قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٥، والبحر ٧/ ٥٣.

(٢) الإملاء ٤/ ١٢٧.

(٣) البحر ٧/ ٥٣. وقوله: واشتراط الكوفيين... إلى قوله: لشهادة السماع بخلافه، نقله المصنف عن حاشية الشهاب ٧/ ٣٢.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وأما معنى تبشيرِها إياهم فظاهرٌ؛ لأنها تبشِّرهم برحمةٍ من الله تعالى ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم، كذا قيل، وفي «الحواشي الشهابية»: أنَّ الهدى على هذا الاحتمال إمَّا بمعنى الاهتداء، أو على ظاهره، وتخصيصُ المؤمنين لأنهم المنتفعون به وإن كانت هدايتُها عامةً، وجَعْلُ المؤمنين بمعنى الصائرين للإيمان تكلُّفٌ، كحَمْلِ هداهم على زيادته(١).

ويحتمل أن يكون قيداً للبشرى فقط، ويبقى الهدى على العموم وهو بمعنى الدلالة والإرشاد، أي: هدًى لجميع المكلَّفين وبشرى للمؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفةٌ مادحةٌ للمؤمنين، وكنى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقاً، وخُصَّا لأنهما على ما قيل أُمَّا العبادةِ البدنية والمالية. والظاهرُ أنه حمل الزكاة على الزكاة المفروضة.

وتعقِّب بأنَّ السورة مكيةٌ، والزكاةُ إنما فُرضت بالمدينة.

وقيل: كان في مكة زكاةٌ مفروضةٌ، إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة، فلْتُحْمَل في الآية عليها.

وقيل: الزكاةُ هنا بمعنى الطهارةِ من النقائص وملازمةِ مكارم الأخلاق، وهو خلافُ المشهور في الزكاة المقرونةِ بالصلاة، ويُبعِدهُ تعليقُ الإيتاء بها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون معطوفاً على جملة الصلة، ويَحْتَمِلُ أن يكون في موضع الحال من ضمير الموصول.

ويحتمل أن يكون استئنافاً جيء به للقصد إلى تأكيد ما وُصِفَ المؤمنون به، من حيث إنَّ الإيقان بالآخرة يستلزمُ الخوفَ المستلزمَ لتحمُّل مشاقِّ التكليف، فلا بدَّ من إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة، وقد أقيم الضمير فيه مقام اسم الإشارة المفيدِ لاكتساب الخَلاقةِ بالحكم باعتبار السوابق، فكأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٢.

وسمَّى الزمخشريُّ هذا الاستئنافَ اعتراضاً، وكونُه لا يكون إلَّا بين شيئين يتعلَّقُ أحدهما بالآخر ـ كالمبتدأ والخبر ـ غيرُ مسلَّم عنده. واختار هذا الاحتمالَ فقال: إنه الوجه، ويدلُّ عليه أنه عَقَدَ الكلامَ جملةً ابتدائيةً، وكرَّر فيها المبتدأ الذي هو «هم»، حتى صار معناها: وما يوقنُ بالآخرة حقَّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعملِ الصالح، لأنَّ خوف العاقبة يَحْمِلُهم على تحمُّل المشاقِّ[1]. انتهى.

وأنكر ابن المنير إفادةَ نحوِ هذا التركيب الاختصاصَ، وادَّعى أنَّ تكرار الضمير للتَّطْرِيةِ؛ لمكان الفَصْلِ بين الضميرين بالجارِّ والمجرور[2].

والحقُّ أنه يفيد ذلك كما صرَّحوا به في نحو: هو عرفَ، وكذا يفيدُ التأكيد لِمَا فيه من تكرار الضمير.

وزعم أبو حيان أنَّ فيما ذكره الزمخشريُّ دسيسةَ الاعتزال[3]. ولا يخفَى أنه ليس في كلامه أكثر من الإشارة إلى أنَّ المؤمن العاصيَ لم يُوْقِنْ بالآخرة حقَّ الإيقان، ولعل جَعْلَ ذلك دسيسةً مبنيٌّ على أنه بنى ذلك على مذهبه في أصحاب الكبائر وقوله فيهم بالمنزلة بين المنزلتين. وأنت تعلم أنَّ القول بما اختاره في الآية لا يتوقَّفُ على القول المذكور.

وتغييرُ النظم الكريم على الوجهين الأوَّلين لِمَا لا يخفى، وتقديمُ «بالآخرة» في جميع الأوجُه لرعاية الفاصلة، وجوَّز أن يكون للحصر الإضافي كما في «الحواشي الشهابية»[4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بيانٌ لأحوال الكفرة بعد أحوال المؤمنين، أي: لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال السيئة، حَسْبَما ينطقُ به القرآن.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٥-١٣٦.
(٢) الانتصاف ٣/ ١٣٥.
(٣) البحر ٧/ ٥٣.
(٤) ٧/ ٣٢.

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحةَ بما رَكَّبنا فيهم من الشهوات والأماني، حتى رأوها حسنةً.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ يتحيَّرون ويتردَّدون [على التجدُّد][1] والاستمرارِ في الاشتغال بها والانهماكِ فيها من غير ملاحظةٍ لِمَا يتبعها. والفاءُ لترتيب المسبَّب على السبب.

ونسبةُ التزيين إليه عزَّ وجلَّ عند الجماعة حقيقةٌ وكذا التزيينُ نفسُه، وذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ التزيين إمَّا مستعارٌ للتمتيع بطول العمر وسعةِ الرزق، وإما حقيقةٌ وإسنادُه إليه سبحانه وتعالى مجازٌ وهو حقيقةٌ للشيطان كما في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] والمصحِّح لهذا المجاز إمهالُه تعالى الشيطانَ وتخليتُه حتى يزيِّن لهم[2]. والداعي له إلى أحد الأمرين إيجابُ رعاية الأصلح عليه عزَّ وجلَّ.

ونسب إلى الحسن أنَّ المراد بالأعمال: الأعمالُ الحسنةُ[3]، وتزيينُها بيانُ حُسْنِها في أنفسها حالاً، واستتباعِها لفنون المنافع مآلاً، أي: زينَّا لهم الأعمالَ الحسنة فهم يتردَّدون في الضلال والإعراض عنها. والفاء عليه لترتيب ضدِّ المسبَّب على السبب، كما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعظ. وفيه إيذانٌ بكمال عتوِّهم ومكابرتهم وتعكيسِهم الأمورَ.

وتعقَّب[4] هذا القولُ بأنَّ التزيين قد ورد غالباً في غير الخير، نحو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] إلخ، وروده في الخير قليلٌ نحو قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] ويُبْعِدُ حَمْلَ الأعمال على الأعمال الحسنة إضافتُها إلى ضميرهم وهم لم يعملوا حسنةً أصلاً. وكونُ إضافتها إلى ذلك باعتبار أمرِهم بها، وإيجابها عليهم، لا يدفعُ البُعْدَ.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٢، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٦.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٣٦.

(٤) المتعقب هو ابن المنير في الانتصاف ٣/ ١٣٦.

وذكر الطيبيُّ أنه يؤيِّد ما ذُكر أولاً أنَّ وزانَ فاتحةِ هذه السورة إلى ها هنا وزانُ فاتحةِ «البقرة»، فقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة:٦] وقولُه سبحانه: (زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ) كقوله جل وعلا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧].

وقد سبق بيانُ وجهِ دلالة ذلك على مذهب الجماعة هناك، وأنَّ التركيب من باب تحقيق الخبر، وأنَّ المعنى استمرارُهم على الكفر، وأنهم بحيث لا يُتوقَّع منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً أمارة لرَقْم الشقاء عليهم في الأزل والختم على قلوبهم، وأنه تعالى زيَّن لهم سوءَ أعمالهم فهم لذلك في تيهِ الضلال يتردَّدون، وفي بيداء الكفر يعمهونَ. ودلَّ على هذا التأويلِ إيقاعُ لَفْظِ المضارع في صلة الموصول والماضي في خبره، وترتيبُ قوله تعالى: (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) بالفاء عليه، واختصاصُ الخطاب بما يدلُّ على الكبرياء والجبروت من باب تحقيق الخبر، نحو قول الشاعر:

إنَّ التي ضربَتْ بيتاً مهاجرةً بكوفةِ الجند غالتْ ودَّها غولُ[١]

وفي الأخبار الصحيحة ما ينصرُ هذا التأويلَ أيضاً[٢].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين الموصوفين بالكفر والعَمَهِ، وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، يحتملُ أن يكون المراد: لهم ذلك في الدنيا، بأنْ يُقتلوا أو يؤسَروا أو تُشدَّد عليهم سكراتُ الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾.

ويحتمل أن يكون المرادُ: لهم ذلك في الدارين، وهو الذي استظهره أبو حيان[٣]، ويكون قولُه تعالى: (هُمُ) إلخ لبيانِ أنَّ ما في الآخرة أعظمُ العذابين، بناءً على أنَّ الأخسرين أفعلُ تفضيل، والتفضيلُ باعتبار حاليهم في الدارين، أي:

---

(١) البيت لعبدة بن الطبيب، وسلف عند تفسير الآية (٩١) من سورة آل عمران.

(٢) قال أبو السعود في تفسيره ٦/ ٢٧٢: «زينَّا لهم أعمالهم» القبيحة، حيث جعلناها مشتهاةً للطبع محبوبة للنفس، كما ينبئ عنه قوله ﷺ: «حفَّت النار بالشهوات». اهـ. والحديث أخرجه أحمد (٧٥٣٠)، والبخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) في البحر ٧/ ٥٤.

هم في الآخرة أخسرُ منهم في الدنيا لا غيرُهم، كما يدُلّ عليه تعريف الجزأين، على معنى أنَّ خسرانهم في الآخرة أعظمُ من خسرانهم في الدنيا، من حيث إنَّ عذابهم في الآخرة غيرُ منقطعٍ أصلاً وعذابهم في الدنيا منقطعٌ، ولا كذلك غيرُهم من عصاة المؤمنين؛ لأنَّ خسرانهم في الآخرة ليس أعظمَ من خسرانهم في الدنيا من هذه الحيثية، فإنَّ عذابهم في الآخرة ينقطعُ ويعقبه نعيمُ الأبد، حتى يكادوا لا يَخْطُرُ ببالهم أنهم عذِّبوا، كذا قيل.

وقال بعضهم: إنَّ التفضيل باعتبار ما في الآخرة، أي: هم في الآخرة أشدُّ الناس خسراناً لا غيرُهم؛ لحرمانهم الثوابَ واستمرارِهم في العقاب، بخلافِ عصاة المؤمنين، ويلزمُ من ذلك كونُ عذابهم في الآخرة أعظمَ من عذابهم في الدنيا، ويكفي هذا في البيان.

وقال الكرمانيُّ: إنَّ أفعل هنا للمبالغة لا للشركة؛ قال أبو حيان[1]: كأنه يقول: ليس للمؤمن خسرانٌ البتةَ حتى يَشْرِكَه فيه الكافر ويَزِيدَ عليه، ولم يتفطَّنْ لكون المراد أنَّ خسران الكافر في الآخرة أشدُّ من خسرانه في الدنيا، فالاشتراكُ الذي يدلُّ عليه أفعل إنما هو بَيْنَ ما في الآخرة وما في الدنيا. اهـ كلامُهُ. وكأنه يسلِّمُ أنْ ليس للمؤمن خسرانٌ البتةَ، وفيه بحثٌ لا يخفى.

وتقديم «في الآخرة» إما للفاصلة أو للحصر.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيقَ بعد بيانِ بعض شؤون القرآن الكريم تمهيداً لِمَا يعقبُه من الأقاصيص، وتصديرُه بحَرْفي التأكيد لإبراز كمالِ العنايةِ بمضمونه، وبُني الفعلُ للمفعول وحُذِفَ الفاعلُ وهو جبريلُ عليه السلام؛ للدلالة عليه في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. ولقي المخفَّفُ يتعدَّى لواحد، والمضاعَفُ يتعدَّى لاثنين، وهما هنا نائبُ الفاعل و«القرآن»، والمراد: وإنَّك لتُعْطَى القرآنَ تُلقَّنُه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾ أي: أيِّ حكيم وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوِّ طبقته عليه الصلاة والسلام في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق.

---

(١) في البحر ٧/ ٥٤، وعنه نقل المصنف قول الكرماني.

والحكمةُ ـ كما قال الراغب ـ من الله عزَّ وجل معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات(١). وجمع بينها وبين العلم مع أنه داخلٌ في معناها لغةً كما سمعتَ؛ لعمومه ـ إذ هو يتعلَّق بالمعدومات ويكون بلا عملٍ ـ ودلالةِ الحكمة على إحكام العمل وإتقانه، وللإشعار بأنَّ ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمةٌ كالشرائع، ومنها ما هو ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ منصوبٌ على المفعولية بمضمَرٍ خُوطبَ به النبيُّ ﷺ، وأُمر بتلاوة بعضٍ من القرآن الذي تلقَّاه ﷺ من لدنه عز وجلَّ تقريراً لما قبله وتحقيقاً له، أي: اذكر لهم وقتَ قولِ موسى عليه السلام لأهله.

وجوِّز أن تكون «إذ» ظرفاً لـ «عليم». وتعقَّبه في «البحر» بأنَّ ذلك ليس بواضحٍ؛ إذ يصيرُ الوصفُ مقيَّداً بالمعمول(٢).

وقال في «الكشف»: ما يتوهَّم من دَخل التقييد بوقتٍ معَّينٍ مندفعٌ؛ إذ ليس مفهوماً معتبراً عند المعتبِر، ولأنه لمَّا كان تمهيداً لقصةٍ حَسُنَ أن يكون قيداً لها، كأنه قيل: ما أَعْلَمَه حيث فُعِلَ بموسى عليه السلام ما فُعِلَ، ولمَّا كان ذلك من دلائل العلم والحكمة على الإطلاق لم يضرَّ التقييدُ، بل نَفَعَ لرجوعه بالحقيقة إلى نوعٍ من التعليل والتذكير. اهـ.

ولا يخفى أنَّ الظاهر مع هذا هو الوجهُ الأول.

ثم إنَّ قولَ موسى عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ كان في أثناء سيره خارجاً من مدينَ عند وادي طُوى، وكان عليه السلام قد حاد عن الطريق في ليلةٍ باردةٍ مظلمةٍ، فَقَدحَ فأَصْلَدَ زَنْدَه، فبدا له من جانب الطور نارٌ.

والمراد بالخبر الذي يأتيهم به من جهة النار الخبرُ عن حال الطريق؛ لأنَّ مَن يذهبُ لضوءِ نارٍ على الطريق يكون كذلك. ولم يجرِّدِ الفعلُ عن السين إما للدلالة على بُعْدِ مسافة النار في الجملة حتى لا يستوحشوا إن أبطأ عليه السلام عنهم، أو

(١) مفردات الراغب (حكم).
(٢) البحر ٧/ ٥٤.

لتأكيد الوعد بالإتيان؛ فإنها كما ذكره الزمخشريُّ تدخل في الوعد لتأكيده وبيانِ أنه كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخَّر[١].

وما قيل من أنَّ السين للدلالة على تقريب المدَّة دفعاً للاستيحاش، إنما ينفعُ ـ على ما قيل ـ في اختياره على «سوف»، دون التجريد الذي يتبادرُ من الفعل معه الحالُ الذي هو أتمُّ في دفع الاستيحاش. ولعل الأَوْلَى اعتبارُ كونه للتأكيد.

لا يقال: إنه عليه السلام لم يتكلَّم بالعربية، وما ذُكر من مباحثها؛ لأنَّا نقول: ما المانع من أن يكون في غير اللغة العربية ما يؤدِّي مؤدَّاها، بل حكايةُ القول عنه عليه السلام بهذه الألفاظ يقتضي أنه تكلَّم في لغته بما يؤدِّي ذلك ولابدَّ.

وجمع الضمير ـ إنْ صحَّ أنه لم يكن معه عليه السلام غيرُ امرأته ـ للتعظيم، وهو الوجهُ في تسمية الله تعالى شأنُه امرأةَ موسى عليه السلام بالأهل مع أنهم[٢] جماعةُ الأتباع.

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: بشعلةِ نارٍ مقبوسة، أي: مأخوذةٍ من أصلها، فـ «قبسٍ» صفةُ «شهاب» أو بدلٌ منه، وهذه قراءةُ الكوفيين ويعقوب، وقرأ باقي السبعة والحسن: «بشهابِ قبسٍ» بالإضافة[٣]، واختارها أبو الحسن[٤]، وهي إضافةٌ بيانيةٌ لِمَا بينهما من العموم والخصوص، كما في: ثوبِ خزٍّ، فإن الشهاب يكون قَبَساً وغيرَ قبس.

والعِدَتَان على سبيل الظنِّ، ولذلك عبَّر عنهما بصيغة الترجِّي في سورة طه، فلا تَدَافُعَ بين ما وقع هنا وما وقع هناك، والترديدُ للدلالة على أنه عليه السلام إن لم يظفر بهما لم يَعْدَمْ أحدهما، بناءً على ظاهر الأمر، وثقةً بسنَّةِ الله عز وجل أنه لا يكادُ يجمع حرمانين على عبده.

---

(١) الكشاف ١/ ٣١٥ عند تفسير الآية (١٣٧) من سورة البقرة، و٢/ ٢٠٢ و٢١٠ عند تفسير الآية (٧١) والآية(٩٩) من سورة التوبة، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٣.

(٢) في (م): أنه.

(٣) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٤) هو الأخفش، وكلامه في الحجة للفارسي ٥/ ٣٧٧.

وقيل: يجوز أن يقال: الترديدُ لأنَّ احتياجه عليه السلام إلى أحدهما لا لهما؛ لأنه كان في حالِ الترحال وقد ضلَّ عن الطريق، فمقصودهُ أن يجد أحداً يهدي إلى الطريق فيستمرَّ في سفره، فإنْ لم يجده يقتبسُ ناراً ويوقدها ويدفعُ ضرر البرد في الإقامة.

وتعقِّب بأنه قد ورد في القصة أنه عليه السلام كان قد ولد له عند الطور ابنٌ في ليلةٍ شاتيةٍ وظلمةٍ مثلجةٍ، وقد ضلَّ الطريق وتفرَّقتْ ماشيتهُ، فرأى النار فقال لأهله ما قال، وهو يدلُّ على احتياجه لهما معاً لكنه تحرَّى عليه السلام الصدق فأتى بـ «أو».

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ أي: رجاءَ أو لأجلِ أنْ تستدفئوا بها، والصِّلاءُ بكسرِ الصاد والمدِّ، ويُفتَح بالقصر: الدنوُّ من النار لتسخين البدن، وهو الدفء، ويطلق على النار نفسِها، أو هو بالكسر الدفءُ، وبالفتح النار.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: النارَ التي قال فيها: «إنِّي آنستُ ناراً». وقيل: الضمير للشجرة، وهو كما ترى، وما ظنَّه داعياً ليس بداعٍ لِمَا أَشَرْنا إليه.

﴿نُودِيَ﴾ أي: موسى عليه السلام من جانب الطور: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ معناه: أي بورك، على أنَّ «أنْ» مفسِّرةٌ لِمَا في النداء من معنى القول دون حروفه.

وجوِّز أن تكون «أنْ» المخففةَ من الثقيلة واسمُها ضميرُ الشأن. ومَنَعه بعضُهم لعدم الفصل بينها وبين الفعل بـ «قد» أو السين أو «سوف» أو حرف النفي، وهو مما لابدَّ منه إذا كانت مخفَّفةً؛ لِمَا في «الحجة» لأبي عليٍّ الفارسيِّ أنها لمَّا كانت لا يليها إلا الأسماءُ استقبحوا أن يليها الفعلُ من غير فاصلٍ[1].

وأجيب بأنَّ ما ذكر ليس على إطلاقه، فقد صرَّحوا بعدم اشتراط الفصل في مواضعَ، منها ما يكون الفعلُ فيه دعاءً، فلعل مَن جوَّز كونها المخفَّفة ها هنا جَعَل «بورك» دعاءً، على أنه يجوز أن يدَّعي أنَّ الفصل بإحدى المذكورات في غير ما استثني أغلبيٌّ لقوله:

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٤.

علموا أنْ يؤمَّلون فجادوا قبل أن يُسألوا بأعظم سؤل[١]

وجوِّز أن تكون المصدريةَ الناصبة للأفعال، و«بورك» حينئذٍ إمَّا خبرٌ أو إنشاء للدعاء.

وادَّعى الرضيُّ أنَّ «بورك» إذا جُعِلَ دعاءً فـ «أنْ» مفسِّرةٌ لا غير؛ لأنَّ المخفَّفةَ لا يقع بعدها فعلٌ إنشائيٌّ إجماعاً، وكذا المصدرية، وهو مخالفٌ لِمَا ذكره النحاة، ودعوى الإجماع ليست بصحيحةٍ، والقولُ بأنه يفوتُ معنى الطلب بعد التأويل بالمصدر قد تقدَّم ما فيه[٢].

وفي «الكشف» يَمنع عن جَعْلِها مصدريةً عدمُ سدادِ المعنى؛ لأنَّ «بورك» إذ ذاك ليس يصلحُ بشارةً، وقد قالوا: إنَّ تصدير الخطاب بذلك بشارةٌ لموسى عليه السلام أنه قد قُضي له أمرٌ عظيم تنتشرُ منه في أرض الشام كلِّها البركةُ، وهذا بخلافِ ما إذا كان «بورك» تفسيراً للشأن. اهـ. وفيه نظر.

وعلى الوجهين الكلامُ على حذف حرف الجرِّ، أي: نودي بأنْ.. إلخ، والجارُّ والمجرور متعلّقٌ بما عنده وليس نائبَ الفاعل، بل نائبُ الفاعل ضميرُ موسى عليه السلام. وقيل: هو نائبُ الفاعل ولا ضمير.

وقال بعضهم في الوجه الأول أيضاً: إنَّ الضمير القائم مقام الفاعل ليس لموسى عليه السلام، بل هو لمصدرِ الفعل، أي: نودي هو، أي: النداء، وفسَّر النداء بما بعده.

والأظهرُ في الضمير رجوعُه لموسى، وفي «أنْ» أنها مفسِّرةٌ، وفي «بورك» أنه خبرٌ، وهو من البركة وقد تقدَّم معناها[٣]. وقيل هنا: المعنى: قدِّس وطهِّر وزِيدَ خيراً.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ذهب جماعةٌ إلى أنَّ في الكلام مضافاً مقدَّراً في موضعين، أي: مَن في مكان النار ومَن حول مكانها، قالوا: ومكانُها البقعة التي

(١) سلف ١٣/ ٢٤٠.
(٢) عند تفسير الآية (١٩٣) من سورة آل عمران.
(٣) ١١/ ٤٩٢-٤٩٣.

حصلت فيها، وهي البقعةُ المباركةُ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص:٣٠] وتدلُّ على ذلك قراءةُ أبيٍّ: «تباركت الأرضُ ومَن حولها»[1].

واستُظْهِرَ عمومُ «من» لكلِّ مَن في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياء عليهم السلام وكِفَاتَهم[2] أحياءً وأمواتاً، ولا سيما تلك البقعة التي كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام فيها.

وقيل: «مَن في النار» موسى عليه السلام، و«مَن حولها» الملائكةُ الحاضرون عليهم السلام، وأيِّد بقراءة أبيٍّ فيما نَقَل أبو عمرو الداني، وابنُ عباس ومجاهدٌ وعكرمةُ: «ومن حولها من الملائكة»[3]، وهي عند كثيرٍ تفسيرٌ لا قراءةٌ لمخالفتها سوادَ المصحف المجمَع عليه.

وقيل: الأول الملائكة، والثاني موسى عليهم السلام.

واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجَعْلِ الظرفية مجازاً عن القرب التام، وذهب إلى القول الثاني في المراد بالموصولَين. وأيّاً ما كان فالمرادُ بذلك بشارةُ موسى عليه السلام.

والمراد بقوله تعالى على ما قيل: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨﴾ تعجيبٌ له عليه السلام من ذلك، وإيذانٌ بأنَّ ذلك مُريدُه ومكوِّنُه ربُّ العالمين، تنبيهاً على أنَّ الكائن من جلائِلِ الأمور وعظائم الشؤون، ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين. أو خبرٌ له عليه السلام بتنزيهه سبحانه؛ لئلا يُتوَهَّم من سماع كلامه تعالى التشبيهُ بما للبشر. أو طلبٌ منه عليه السلام لذلك.

وجوِّز أن يكون تعجُّباً صادراً منه عليه السلام بتقدير القول، أي: وقال: سبحان الله .. إلخ.

وقال السديُّ: هو من كلام موسى عليه السلام، قاله لَمَّا سمع النداء من

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٤.

(٢) أي: مقرَّهم. حاشية الشهاب ٧/ ٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠، والبحر ٧/ ٥٦.

الشجرة تنزيهاً لله تعالى عن سمات المُحْدَثين. وكأنه على تقدير القول أيضاً، وجعل المقدَّر عطفاً على «نودي».

وقال ابن شجرة[(١)]: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: وبورك مَن سبَّح الله تعالى ربَّ العالمين. وهذا بعيدٌ من دلالة اللفظ جدًّا.

وقيل: هو خطابٌ لنبيِّنا ﷺ مرادٌ به التنزيهُ، وجُعِلَ معترضاً بين ما تقدَّم وقولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ فإنه متَّصلٌ معنًى بذلك.

والضمير للشأن، وقولهُ سبحانهُ: «أنا الله» مبتدأٌ وخبر، و«العزيزُ الحكيمُ» نعتان للاسم الجليل ممهِّدتان لِمَا أريد إظهارهُ على يده من المعجزة، أي: أنا الله القويُّ القادرُ على ما لا تنالُه الأوهام من الأمور العظام، التي من جملتها أمرُ العصا واليد، الفاعلُ كلَّ ما أفعلهُ بحكمةٍ بالغةٍ وتدبيرٍ رصين، والجملة خبر «إنَّ» مفسِّرةٌ لضمير الشأن.

وجوِّز أن يكون الضمير راجعاً إلى ما دلَّ عليه الكلام، وهو المكلِّم المنادي، و«أنا» خبر، أي: إنَّ مكلِّمك المنادي لك أنا، والاسمُ الجليل عطفُ بيانٍ لـ «أنا»، وتجوزُ البدليةُ عند مَن جوَّز إبدالَ الظاهر من ضمير المتكلِّم بدلَ كلٍّ، ويجوز أن يكون «أنا» توكيداً للضمير، و«الله» الخبر.

وتعقَّب أبو حيان إرجاعَ الضمير للمكلِّم المنادي بأنه إذا حُذف الفاعل وبُني فعلُه للمفعول لا يجوزُ عَوْدُ ضمير على ذلك المحذوف؛ لأنه نقضٌ للغرض من حذفه، والعزمِ على أن لا يكون محدَّثاً عنه[(٢)].

وفيه أنه لم يقل أحدٌ إنه عائدٌ على الفاعل المحذوف، بل على ما دلَّ عليه الكلام، ولو سلِّم فلا امتناعَ في ذلك إذا كان في جملةٍ أخرى[(٣)]. وأيضاً قولُه: والعزمِ على أن لا يكون محدَّثاً عنه، غيرُ صحيح، لأنه قد يكون محدَّثاً عنه ويحذفُ

---

(١) كما في البحر ٧/ ٥٦، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ٥٦.
(٣) كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ ثم قال: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الذي عفا، وهو ولي الدم. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥، والكلام منه.

للعلم به وعدمِ الحاجة إلى ذكره. ثم إنَّ الحمل مفيدٌ من غير رؤية، لأنه عليه السلام عَلِمَه سبحانه عِلْمَ اليقين بما وقر في قلبه، فكأنه رآه عزَّ وجلَّ.

هذا، وفي قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ إلخ أقوالٌ أُخَرُ:

الأول: أنَّ المراد بمن في النار نورُ الله تعالى، وبمن حولها الملائكة عليهم السلام، وروي ذلك عن قتادة والزجَّاج[١].

والثاني: أنَّ المراد بمن في النار الشجرةُ التي جعلها الله تعالى محلًّا للكلام، وبمن حولها الملائكةُ عليهم السلام أيضاً، ونقل هذا عن الجبائيِّ. وفي ما ذكر إطلاق «مَن» على غير العالِم.

والثالث: ما أخرجه ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه عن ابن عباس، قال في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾: يعني تبارَكَ وتعالى نفسَه، كان نورُ ربِّ العالمين في الشجرة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة عليهم السلام[٢]. واشتهر عنه كونُ المراد بمن في النار نفسَه تعالى، وهو مرويٌّ أيضاً عن الحسن وابن جبير وغيرهما، كما في «البحر»[٣].

وتعقَّب ذلك الإمامُ بأنَّا نقطعُ بأنَّ هذه الرواية عن ابن عباس موضوعةٌ مختلَقةٌ[٤].

وقال أبو حيان: إذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومَن ذُكر أُوِّلَ على حذفٍ، أي: بورك مَن قدرتُه وسلطانُه في النار[٥].

وذهب الشيخ إبراهيم الكورانيُّ في رسالته: «تنبيهُ العقول على تنزيهِ الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحادِ والحلول» إلى صحة الخبر عن الحبر رضي الله عنه، وعَدَم احتياجه إلى التأويل المذكور، فإنَّ الذي دعا المؤوِّلين أو الحاكِمينَ بالوضع

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠٩.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٠ و١٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٤٥ و٢٨٤٦-٢٨٤٧، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٠٢.

(٣) ٧/ ٥٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٢.

(٥) البحر ٧/ ٥٦.

إلى التأويل أو الحُكم بالوضع ظَنُّ دلالَتِه على الحلول المستحيل عليه تعالى، وليس كذلك بل ما يدلُّ عليه هو ظهورُه سبحانه في النار وتجلِّيه فيها، وليس ذلك من الحلول في شيء؛ فإنَّ كون الشيء مُجَلًّى لشيءٍ ليس كونه محلًّا له، فإنَّ الظاهر في المرآة مثلاً خارجٌ عن المرآة بذاته قطعاً، بخلاف الحالِّ في محلٍّ فإنه حاصلٌ فيه، ثم إنَّ تجلِّيَه تعالى وظهورَه في المَظاهِرِ يجامع التنزيه.

ومعنى الآية عنده: فلمَّا جاءها نودي أن بورك، أي: قُدِّسَ ـ أو نحو ذلك ـ من تجلَّى وظهر في صورة النار لما اقتضته الحكمةُ لكونها مطلوبةً لموسى عليه السلام، ومَن حولها من الملائكة، أو منهم ومن موسى عليهم السلام، وقوله تعالى: «وسبحان الله» دفعٌ لِمَا يوهمُه التجلِّي في مظهر النار من التشبيه، أي: وسبحان الله عن التقيُّد بالصورة والمكان والجهة وإن ظهر فيها بمقتضى الحكمة؛ لكونه موصوفاً بصفةِ «ربِّ العالمين» الواسع القدوس الغنيِّ عن العالمين، ومَن هو كذلك لا يتقيَّد بشيءٍ من صفات المحدَثات، بل هو جلَّ وعلا باقٍ على إطلاقه حتى عن قيدِ الإطلاق في حال تجلِّيه وظهوره فيما شاء من المَظاهِرِ؛ ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «سبحانك حيث كنتَ»[1] فأثبت له تعالى التجلِّيَ في الحيث، ونزَّهه عن أن يتقيَّد بذلك، «يا موسى إنه» أي: المنادي المتجلِّي في النار «أنا الله العزيزُ» فلا أتقيَّدُ بمظهرٍ للعزة الذاتية، لكنِّي الحكيم ومقتضَى الحكمة الظهورُ في صورة مطلوبك. وذَكَر أنَّ تقدير المضاف كما فعل بعضُ المفسِّرين عدولٌ عن الظاهر لظنِّ المحذور فيه، وقد تَبيَّن أنْ لا محذورَ، فلا حاجةَ إلى العدول. انتهى.

وكأني بك تقول: هذا طورُ ما وراءَ طورِ العقول.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٧٦)، وفي الأوسط (٦٤٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن كثير عند تفسير الآية (٨٥) من سورة الإسراء: هذا حديث غريب بل منكر. وقال عند تفسير الآية(٣٨) من سورة النبأ: هذا حديث غريب جدًّا، وفي رفعه نظر، وقد يكون موقوفاً على ابن عباس، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات.
وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٥٠٣) من طريق عبد الله بن المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جده، عن أنس، عن النبي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠: رواه الطبراني في الأوسط وقال: تفرد به عبد الله بن المنكدر، قلت: هو وأبوه ضعيفان. اهـ.

ثم إنه لا مانع على أصول الصوفية أن يريدوا بـ «من حولها» اللهَ عزَّ وجلَّ أيضاً؛ إذ ليس في الدار عندهم غيرُه سبحانه ديَّار.

ولا بُعْدَ في أن تكون الآية عند ابن عباس - إنْ صحَّ عنه ما ذكر - من المتشابه، والمذاهبُ فيه معلومةٌ عندك.

والأوفقُ بالعامة التأويلُ، بأن يقال: المراد: أنْ بورك مَن ظَهَر نورُه في النار، ولعل في خبر الحبر السابق ما يشير إليه.

وإضافةُ النور إليه تعالى لتشريف المضاف، وهو نورٌ خاصٌّ كان مَظْهَراً لعظيم قدرته تعالى وعظمته.

وسمعتُ من بعض أجلَّةِ المشايخ يقول: إنَّ هذا النور لم يكن عيناً ولا غيراً، على نحو قول الأشعريِّ في صفاته عزَّ وجلَّ الذاتية، وهو أيضاً منزعٌ صوفيٌّ يرجع بالآخرة إلى حديث التجلِّي والظهور كما لا يخفى، فتأمَّل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ عطف على «بورك» مُنْتظِمٌ معه في سلك تفسير النداء، أي: نودي أنْ بورك وأنْ ألقِ عصاك، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ﴾ [القصص: ٣١] بعد قوله سبحانه: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] بتكرير «أنْ»؛ فإنَّ القرآن يفسِّر بعضُه بعضاً، وهذا ما اختاره الزمخشريُّ(١).

وأُورد عليه أنَّ تجديد النداء في قوله تعالى: (يَـٰمُوسَىٰٓ) إلخ يأباه.

وُردَّ بأنه ليس بتجديدِ نداءٍ لأنه من جملة تفسير النداء المذكور.

وقيل: لا يأباه لأنه جملةٌ معترضةٌ. وفيه بحث.

واعترض أيضاً بأنَّ «بورك» إخبارٌ و«ألق» إنشاء، ولا يُعْطَفُ الإنشاءُ على الإخبار، ومن هنا قيل: إنَّ العطف على ذلك بتقديرِ: وقيل له: ألق، أو العطف على مقدَّرٍ، أي: افعل ما آمرُك وألق.

وفيه أنه في مثل هذا يجوزُ عطف الإنشاء على الإخبار؛ لكون النداء في معنى

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٣٨.

القول، بل أجاز سيبويه[1]: جاء زيد ومَن عمرو؟ بالعطف.

ولا يَرِدُ هذا أصلاً على مَن يجعل «بورك» إنشاءً، ويَرِدُ على مَن جَعَلَ العطف على «اِفْعَلْ» محذوفاً أنَّ الظاهر حينئذ: فأَلْقِ بالفاء.

واختار أبو حيان[2] كونَ العطف على جملةِ «إنه أنا الله العزيز الحكيم»، ولم يُبالِ باختلاف الجملتين اسميةً وفعليةً، وإخباريةً وإنشائية، لِمَا ذُكر أنَّ الصحيح عدمُ اشتراطِ تناسُبِ الجملتين المتعاطفتين في ذلك؛ لمَا سمعتَ آنفاً عن سيبويه.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحةٌ تُفْصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفتْ ثقةً بظهورها، ودلالةً على سرعة وقوع مضمونها، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حيةً فلما أبصرها تتحرَّك بشدةِ اضطرابٍ، وجملةُ «تهتزُّ» في موضع الحال من مفعول «رأى»، فإنها بَصَريةٌ كما أشرنا إليه، لا عِلْميةٌ كما قيل.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في موضع حالٍ أخرى منه، أو هو حالٌ من ضمير «تهتزُّ» على طريقة التداخُلِ.

والجانُّ: الحيَّة الصغيرة السريعةُ الحركةِ، شبَّهها سبحانه في شدة حركتها واضطرابها مع عظم جثتها بصغار الحيات السريعة الحركة، فلا ينافي هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧].

وقيل: يجوز أن يكون الإخبار عنها بصفاتٍ مختلفةٍ باعتبار تنقُّلها فيها.

وقرأ الحسن والزهريُّ وعمرو بن عبيد: «جَأَنٌّ» بهمزةٍ مفتوحةٍ[3] هرباً من التقاء الساكنين وإن كان على حدِّه، كما قيل: دَأَبَّة وشَأَبة.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: انهزم ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولمْ يَرْجِعْ على عَقِبِه، من عقَّب المقاتل: إذا كرَّ بعد الفرار، قال الشاعر:

فما عقَّبوا إذ قيل هل مِن مُعقِّبٍ ... ولا نزلوا يومَ الكريهة مَنْزِلا[4]

---

(١) كما في البحر ٧/ ٥٦.

(٢) في البحر ٧/ ٥٦.

(٣) المحتسب ٢/ ١٣٥، والبحر ٧/ ٥٦.

(٤) الكشاف ٣/ ١٣٨، والبحر ٧/ ٥٧، والدر المصون ٨/ ٥٧٧.

وهذا مرويٌّ عن مجاهد. وقريبٌ منه قولُ قتادة: أي: لم يلتفت. وهو الذي ذكره الراغب[1].

وكان ذلك منه عليه السلام لخوفٍ لَحِقَه؛ قيل: لمقتضَى البشرية؛ فإنَّ الإنسان إذا رأى أمراً هائلاً جدّاً يخاف طبعاً، أو لِمَا أنه ظنَّ أنَّ ذلك لأمرٍ أُريد وقوعُه به، ويدلُّ على ذلك قولُه سبحانه: (يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ) أي: من غيري أيَّ مخلوقٍ كان حيَّةً أو غيرَها، ثقةً بي واعتماداً عليَّ، أو: لا تخف مطلقاً، على تنزيلِ الفعل منزلةَ اللازم، وهذا إما لمجرَّد الإيناس دون إرادة حقيقة النهي، وإما للنهي عن منشأ الخوف، وهو الظنُّ الذي سمعتَه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ تعليل للنهي عن الخوف، وهو ـ على ما قيل ـ يؤيِّد أنَّ الخوف كان للظنِّ المذكور، وأنَّ المراد: لا تخف مطلقاً. والمراد من «لديَّ»: في حضرة القُرْبِ منِّي، وذلك حين الوحي، والمعنى: إنَّ الشأن لا ينبغي للمرسلين أن يخافوا حين الوحي إليهم، بل لا يخطر ببالهم الخوفُ وإنْ وُجِدَ ما يُخاف منه لفَرْطِ استغراقهم إلى تلقِّي الأوامر وانجذابِ أرواحهم إلى عالم الملكوت. والتقييد بـ «لديَّ» لأنَّ المرسلين في سائر الأحيان أخوفُ الناسِ من الله عزَّ وجلَّ، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] ولا أعلم منهم بالله تعالى شأنُهُ.

وقيل: المعنى: لا تخف من غيري، أو: لا تخف مطلقاً؛ فإنَّ الذي ينبغي أن يَخاف منه أمثالُك المرسلون إنما هو سوءُ العاقبة، وإنَّ الشأن لا يكون للمرسلين عندي سوءُ عاقبةٍ ليخافوا منه. والمراد بسوء العاقبة ما في الآخرة لا ما في الدنيا، لئلا يَرِدَ قتلُ بعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام. والمراد بـ «لدي» على ما قال الخفاجيُّ: عند لقائي[2]، و: في حكمي، على ما قال ابن الشيخ.

وأيًّا ما كان يلزمُ مما ذُكر أنَّ المرسلين عليهم السلام لا يخافون سوءَ العاقبة؛ لأنَّ الله تعالى آمَنَهم من ذلك، فلو خافوا لَزِمَ أن لا يكونوا واثقين به عزَّ وجلَّ،

(١) في مفرداته (عقب).
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣٦.

وهذا هو الصحيح ـ كما في «الحواشي الشهابية» ـ عند الأشعريِّ[١].

وظاهرُ الآثار يقتضي أنهم عليهم السلام كانوا يخافون ذلك، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يُكْثِر أن يقول: «يا مقلِّب القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك» فقالت له عائشة رضي الله عنها يوماً: يا رسول الله إنك تُكْثِرُ أن تدعوَ بهذا الدعاء، فهل تخشى؟ فقال ﷺ: «وما يُؤْمِنُني يا عائشةُ وقلوب العباد بين أُصْبُعينِ من أصابع الرحمن، إذا أراد يقلِّب قَلْبَ عبده [قلَّبه]»[٢].

وظاهرُ بعض الآيات يقتضي ذلك أيضاً، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وكونُ الله تعالى آمنهم من ذلك، إن أريد به ما جاء في ضمن تبشيرهم بالجنة، فقد صحَّ أنَّ المبشَّرين بالجنة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون من سوء العاقبة مع علمهم ببشارته تعالى إياهم بالجنة، ويُعلم منه أنَّ الخوف يجتمع مع البشارة، ولا يلزمُ من ذلك عدمُ الوثوق به عزَّ وجلَّ؛ لأنه لاحتمال أن يكون هناك شرطٌ لم يُظْهِرْه الله تعالى لهم؛ للابتلاء ونحوِه من الحِكَم الإلهية. وإن أريد به ما كان بصريح: آمَنتُكم من سوء العاقبة، كان هذا الاحتمالُ قائماً أيضاً فيه، ويحصل الخوف من ذلك.

وإن أريد به ما اقتضاه جَعْلُه تعالى إياهم معصومين من الكفر ونحوِه، وَرَدَ أنَّ الملائكة عليهم السلام جعلهم الله تعالى معصومين من ذلك أيضاً وهم يخافون، ففي الأثر: لمَّا مُكِر بإبليس بكى جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقال الله عزَّ وجلَّ لهما: ما يبكيكُما؟ قالا: يا ربِّ، ما نأمن مكرك. فقال تعالى: هكذا كونا لا تأمنَا مكري[٣].

ولعل ذلك لأنَّ العصمة عندنا على ما يقتضيه أصلُ استنادِ الأشياء كلِّها إلى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦١٣٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٤٦٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وما بين حاصرتين من هذه المصادر، وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه بنحوه أبو الشيخ في العظمة (٣٨٥) عن عبد العزيز بن أبي رواد قوله.

الفاعل المختار ابتداءً، كما في «المواقف» وشَرْحِه الشريفِ الشريفيِّ: أنْ لا يخلقَ الله تعالى في الشخص ذنباً. وعند الحكماء بناءً على ما ذهبوا إليه من القول بالإيجاب واعتبارِ استعداد القوابل: ملكةٌ تمنعُ الفجورَ وتحصُل ابتداءً بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، وتتأكَّد بتتابُع الوحي بالأوامر والنواهي[١].

وهي بكِلَا المعنيين لا تقتضي استحالةَ الذنب؛ أمَّا عدمُ اقتضائها ذلك بالمعنى الأول فِلأَنَّ عدمَ خَلْقِه تعالى إياه ليس بواجبٍ عليه سبحانه ليكون خلقُه مستحيلاً عليه تعالى، ومتى لم يكن الخلقُ مستحيلاً عليه تعالى فكيف يحصل الأمن من المكر؟ وأما عدمُ اقتضائها ذلك بالمعنى الثاني فلأنَّ زوال تلك الملكة ممكنٌ أيضاً، واقتضاءُ العلم بالمثالب والمناقب إياها ابتداءً وتأكُّدُها بتتابع الوحي ليس من الضرورات العقلية، ومتى كان الأمر كذلك لا يحصل الأمنُ بمجرَّد حصول الملكة.

نعم قال قوم: العصمةُ تكون خاصِّيةً في نفس الشخص أو في بدنه، يمتنع بسببها صدورُ الذنب عنه[٢]. وقد يستند إليه مَن يقول بالأمن، ولا يخفى أنه لو سلِّم تمامُ الاستدلال به على هذا المطلب فهو في حدِّ ذاته غيرُ صحيح.

ففي «المواقف» وشرحه: أنه يكذِّبُ هذا القولَ أنه لو كان صدورُ الذنب ممتنعاً لَمَا استحقَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام المدحَ بتَرْكِ الذنب؛ إذ لا مدحَ بترك ما هو ممتنعٌ؛ لأنه ليس بمقدورٍ[٣] داخلاً تحت الاختيار.

وأيضاً فالإجماع على أن الأنبياء عليهم السلام مكلَّفون بترك الذنوب مثابون به، ولو كان صدورُ الذنب ممتنعاً عنهم لما كان الأمر كذلك.

وأيضاً فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] يدلُّ على مماثلتهم عليهم السلام لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية، والامتيازُ بالوحي، فلا يمتنعُ صدورُ الذنب عنهم كما لا يمتنع صدوره عن سائر البشر[٤]. اهـ.

وذكر الخفاجيُّ في «شرح الشفاء» عن ابن الهمام أنه قال في «التحرير»:

(١) شرح المواقف للشريف علي بن محمد الجرجاني ٨/ ٢٨٠-٢٨١.
(٢) شرح المواقف: ٨/ ٢٨١.
(٣) في شرح المواقف: مقدوراً.
(٤) شرح المواقف ٨/ ٢٨١.

العصمةُ عدمُ القدرة على المعصية، أو خَلْقُ[1] مانعٍ عنها غير ملجئ، ثم قال: وهو مناسبٌ لقول الماتُريدي: العصمةُ لا تُزيل المِحنةَ، أي: الابتلاءَ المقتضيَ لبقاء الاختيار، ومعناه كما في «الهداية»: أنها لا تُجبره على الطاعة ولا تُعْجِزُه عن المعصية، بل هي لطفٌ من الله تعالى يحملُه على فعله ويزجُره عن الشرِّ، مع بقاءِ الاختيار تحقيقاً للابتلاء[2]. اهـ.

وهو ظاهر في[3] عدم الاستحالة الذاتية لصدور الذنب، ولعل ما وقع في كلام بعض الأجلَّة من استحالة وقوع الذنب منهم عليهم السلام محمولٌ على الاستحالة الشرعية، كما يؤذنُ به كلامُ العلَّامة ابنِ حجر في «شرح الهمزية».

وبالجملة: الذي تقتضيه الظواهرُ ويشهدُ له العقل أنَّ الأنبياء عليهم السلام[4] يخافون ولا يأمنون مكر الله تعالى؛ لأنه وإن استحال صدورُ الذنب عنهم شرعاً لكنه غيرُ مستحيلٍ عقلاً، بل هو من الممكنات التي يصحُّ تعلُّقُ قدرة الله تعالى بها.

ومع ملاحظة إمكانه الذاتيِّ، وأنَّ الله تعالى لا يجب عليه شيءٌ، وقيامِ احتمال تقييد المطلق بما لم يصرّح به لحكمةٍ كالمشيئة، لا يكاد يأمنُ معصومٌ من مكر الملك الحيِّ القيوم، فالأنبياءُ والملائكة كلُّهم خائفون، ومن خشيته سبحانه عز وجل مشفقون.

وليس لك أن تخصَّ خوفهم بخوف الإجلال؛ إذ الظاهرُ العموم، ولا دليل على الخصوص يعوَّلُ عليه عند فحول الرجال، نعم قد يقال بإمكان حصول الأمن من المكر، وذلك بخَلْقِ الله تعالى علماً ضرورياً في العبد بعدم تحقُّق ما يخاف منه في وقتٍ من الأوقات أصلاً؛ لِعلْمِ الله تعالى عَدَمَ تحقُّقِه كذلك وإن كان ممكناً ذاتيًّا، ولعله يحصل لأهل الجنة لتتمَّ لَذَّتُهم فيها، فقد قيل:

فإنْ شئتَ أن تحيا حياةً هنيةً ... فلا تتَّخِذْ شيئاً تخافُ له فَقْدَا

ولا يبعدُ حصوله لمن شاء الله تعالى من عباده يومَ القيامة قبل دخولها أيضاً،

(١) في (م): وخلق، والمثبت من الأصل وشرح الشفا.
(٢) شرح الشفا ٤/ ٣٩. ووقع في (م): وتحقيق، بدل: تحقيقاً، وهو تصحيف.
(٣) في (م): على.
(٤) قوله: السلام، ساقط من (م).

ولم تقم أمارةٌ عندي على حصوله في هذه النشأة لأحدٍ، والله تعالى أعلم، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولَّى هداك.

وروى الإمام عن بعضهم أنه قال في معنى الآية: إنِّي إذا أمرْت المرسلين بإظهارِ معجزٍ فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلَّق بإظهار ذلك، وإلَّا فالمرسَلُ قد يخاف لا محالةَ[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ الاستثناءُ فيه منقطعٌ عند كثيرٍ، إلا أنه رُوي[2] عن الفرَّاء والزجَّاج وغيرِهما أنَّ المراد بمن ظلم: مَن أذنب من غير الأنبياء عليهم السلام[3]؛ قال صاحب «المطلع»: والمعنى عليه: لكنْ مَن ظلم من سائر العباد ثم تاب فإنِّي أغفرُ له.

وقال جماعة: إن المراد به: مَن فرطتْ منه صغيرةٌ ما، وصدر منه خلافُ الأَوْلَى بالنسبة إلى شأنه من المرسلين عليهم السلام. والمراد استدراكُ ما يختلجُ في الصدر من نفي الخوف عن كلِّهم وفيهم مَن صدر منه ذلك، والمعنى عليه: لكنْ مَن صدر منه[4] منهم ما هو في صورة الظلم ثم تاب فإنِّي أغفر له، فلا ينبغي أن يخاف أيضاً. وهو شاملٌ ـ على ما قيل ـ لمن فعل منهم شيئاً من ذلك قبل رسالته، وخصَّه بعضُهم بمن صدر منه شيءٌ من ذلك قبل النبوة، وقال: يؤيِّده لفظةُ «ثم» فإنها ظاهرةٌ في التراخي الزماني. ولعل الظاهر كونُه خاصًّا بمن صدر منه بعد الرسالة؛ لظهور المرسَل في المتلبِّس بالرسالة لا فيمَن يتلبَّس بها بعدُ، أو الأعمّ. وكأنَّ فيما ذكر على الوجهين الأوَّلين[5] تعريضاً بما وقع من موسى عليه السلام من

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٤.

(٢) كذا جاء: إلا أنه روي، والصواب: وقد روي، فإن ما سيأتي مؤيِّدٌ لانقطاع الاستثناء، وينظر البحر ٦/ ٥٧.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧، ونقله عنه أبو حيان في البحر٦/ ٥٧، وقول الزجَّاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٠: «إلَّا» استثناء ليس من الأول، والمعنى والله أعلم: لكن من ظلم ثم تاب من المرسلين وغيرهم.

(٤) قوله: منه، ساقط من (م).

(٥) ويعني بهما: القولُ بشموله لمن فعل منهم شيئاً من ذلك قبل الرسالة، والقول بتخصيصه بما قبل النبوة.

وَكْزِه القبطيَّ واستغفارِه، وتسميتُه ظلماً مشاكلةٌ لقوله عليه السلام: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص: ١٦].

ولم يجعلوه على هذا متصلاً مع دخول المستثنى في المستثنى منه أعني المرسلين مطلقاً؛ لأنه لو كان متصلاً لزم إثباتُ الخوف لمن فرطت منه صغيرةٌ ما منهم لاستثنائه من الحكم وهو نفي الخوف عنهم، ونفيُ النفي إثباتٌ، وذلك خلافُ المراد، فلا يكون متَّصلاً بل هو شروعٌ في حكم آخر.

ورجَّح الطيبيُّ ما قاله الجماعة بأنَّ مقام تَلقِّي الرسالة وابتداءِ المكالمة مع الكليم يقتضي إزالةَ الخوف بالكلِّية، وهو ظاهرٌ على ما قالوه.

وروي عن الحسن ومقاتلٍ وابن جُريجٍ والضحَّاك ما يقتضي أنه استثناءٌ متَّصلٌ، والظاهر أنهم أرادوا بـ «مَن» مَن أراده الجماعة، وفي اتصاله على ما سمعت خفاءٌ.

وربما يقال: إنَّ مَن يطلقُ الاتِّصال عليه في رأي الجماعة يكتفي في الاتصال بمجرَّدِ كون المستثنى من جنس المستثنى منه، فإنْ كَفَى فذاك، وإلا يُلتزم[1] إثباتُ الخوف، ويُجعل «بدَّل» عطفاً على مستأنفٍ محذوفٍ، كأنه قيل: إلا مَن فرطت منه صغيرةٌ فإنه يخاف، فمن فرط ثم تاب غُفر له فلا يخاف. وحاصلُه: إلا مَن ظلم فإنه يخاف أولاً ويزولُ عنه الخوف بالتوبة آخِراً.

وعن الفرَّاء في روايةٍ أخرى عنه أنه استثناءٌ متَّصلٌ من جملة محذوفة، والتقدير: وإنما يخافُ غيرُهم إلَّا مَن ظلم[2].

وردَّه النحاس بأنَّ الاستثناء من محذوفٍ لا يجوزُ، ولو جاز هذا لجاز أن يقال: لا تضرب القومَ إلَّا زيداً، على معنى: وإنما اضْرِبْ غيرَهم إلا زيداً، وهذا ضدُّ البيان والمجيءُ بما لا يعرف معناه[3]. انتهى، وهو كما قال. ولا يجدي نفعاً القولُ باعتبار مفهوم المخالفة.

---

(١) في الأصل: يلزم.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٠.

وقالت فرقةٌ: إنَّ «إلا» بمعنى الواو، والتقديرُ: ولا من ظلم[1].. إلخ.

وتعقَّبه في «البحر» بأنه ليس بشيءٍ؛ للمباينة التامَّة بين «إلا» والواو، فلا تقع إحداهما موقعَ الأخرى[2]. وحُسْنُ الظنِّ يجوِّزُ أنهم لم يصرِّحوا بكون «إلا» بمعنى الواو، وإنما فَهِمَ مَن نَسَبه إليهم من تقديرهم، وهو يحتمل أن يكون تقديرَ معنىً لا إعراب، فلا تغفل.

والظاهرُ انقطاعُ الاستثناء، ولعل الأَوْفَقَ بشأن المرسلين أن يراد بـ «مَن ظلم»: مَن ارتكب ذنباً كبيراً أو صغيراً من غيرهم، و«ثم» يحتمل أن تكون للتراخي الزمانيِّ فتفيدُ الآيةُ المغفرةَ لمن بدَّل على الفور من باب أَوْلَى، ويحتمل أن تكون للتراخي الرُّتبيِّ وهو ظاهرٌ بين الظلم والتبديل المذكور.

والتبديلُ قد يتعدَّى إلى مفعولين بنفسه، نحو: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] وقد يتعدَّى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر بالباء أو بـ «مِن» وهو المذهوبُ به والمبدَلُ منه، نحو: بدَّله بخوفه ـ أو: من خوفه ـ أمناً، وقد يتعدَّى إلى واحدٍ نحو: بدَّلت الشيءَ، أي: غيَّرتُه، ومنه: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ [البقرة:١٨١].

والمعنى هنا على المتعدِّي إلى مفعولين، وقد تعدَّى إلى أحدهما وهو المبدَلُ منه بالباء أو بـ «مِن»، فكأنه قيل: ثم بدَّل بظلمه ـ أو من ظلمه ـ حسناً، ويشير إليه قولُه تعالى: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ وحاصلُه: ثم ترك الظلم وأتى بحُسْنٍ، والمراد به التوبةُ، فيكون المعنى في الآخرة: إلا مَن ظلم ثم تاب، وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لأنه أوفقُ بمقام الإيناس، كذا قيل، والظاهرُ عليه أنَّ إسناد التبديل إلى مَن ظَلَم حقيقيٌّ.

وقيل: إنَّ المعنى: ثم رفع الظلم والسوء ومَحَاه من صحيفة أعماله ووضع مكانه الحسنَ بسبب توبته، نظير ما في قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان:٧٠]، وإسنادُ التبديل إلى مَن ظلم على هذا مجازيٌّ؛ لأنه سببٌ لتبديل الله تعالى له بتوبته. وكأني بك تختار الأول.

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٧ عن بعض النحويين.

(٢) البحر ٧/ ٥٧.

ومحلُّ «مَن» على كلٍّ من تقديري انقطاعِ الاستثناء واتِّصاله ظاهرٌ[(١)]. والظاهر أنها موصولة في التقديرين، ولا يخفى أنها إذا اعتُبِرتْ منصوبةَ المحلِّ على الاستثناء، أو مرفوعتَه على البدل[(٢)]، تكون جملة «فإني» إلخ مستأنفةً. ومَن قدَّر في الكلام محذوفاً، وعطف عليه «بدَّل»، وقال: التقديرُ: فمن[(٣)] ظلم ثم بدَّل، جعل الجملةَ خبر «مَن».

وجوَّز بعضهم أن تكون شرطيةً وجملةُ «فإنِّي» إلخ جوابُها، فتأمَّل ولا تغفل.

وقرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم: «أَلَا مَن ظَلَمَ» بفتح الهمزة وتخفيفِ اللام[(٤)] على أنَّ «أَلَا» حرفُ استفتاح. وجَعَل أبو حيان «مَن» على هذه القراءة شرطيةً[(٥)]، ولا أراه واجباً.

وقرأ محمد بن عيسى الأصبهانيُّ: «حُسْنَى»[(٦)] على وزن فُعْلَى ممنوع الصرف. وقرأ ابن مقسم: «حُسُناً» بضم الحاء والسين منوَّناً[(٧)].

وقرأ مجاهدٌ وأبو حيوةَ وابنُ أبي ليلى[(٨)] والأعمشُ وأبو عمرو في رواية الجعفيِّ وعصمة وعبد الوارث وهارون وعيَّاش: «حَسَناً» بفتح الحاء والسين مع التنوين.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي: جيب قميصك، وهو مدخلُ الرأس منه، المفتوحُ إلى الصدر، لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوُها كما هو معروفٌ الآن؛ لأنه مولَّد،

---

(١) هو على الانقطاع منصوب على لغة الحجاز، وعلى لغة تميم يجوز فيه النصب والرفع على البدل من الفاعل قبله، وأما على الاتصال فيجوز فيه الوجهان على اللغتين، ويكون الاختيار البدل؛ لأن الكلام غير موجَبٍ. الدر المصون ٨/ ٥٧٨.

(٢) في الأصل: البدلية.

(٣) في (م): من.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٨، والمحتسب ٢/ ١٣٦، والبحر ٧/ ٥٧.

(٥) البحر ١٠/ ٥٧.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥١، والبحر ٧/ ٥٧.

(٧) البحر ٧/ ٥٧.

(٨) في الأصل و(م): وابن أبي علي، والمثبت من القراءات الشاذة ص١٠٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥١، والبحر ٧/ ٥٧.

ولم يقل سبحانه: في كمِّك؛ لأنه عليه السلام كان لابساً إذ ذاك مِدْرَعةً[١] من صوفٍ لا كمَّ لها.

وقيل: الجيب القميصُ نفسُه؛ لأنه يجاب، أي: يُقْطَع، فهو فَعْلٌ بمعنى مفعول.

وقال السديُّ: «في جيبك» أي: تحت إبطك. ولعل مراده أنَّ المعنى: أَدْخِلْها في جيبك وضَعْها تحت إبطك. وكانت مِدْرَعتُه عليه السلام على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لا أزرار لها.

وقد ورد في بعض الآثار أنَّ نبيَّنا ﷺ كان مطلقَ القميص في بعض الأوقات، ففي «سنن أبي داود»: باب في حلِّ الأزرار، ثم أخرج فيه من طريق معاويةَ بنِ قرَّة قال: حدثني أبي، قال: أتيتُ رسول الله ﷺ في رَهْطٍ من مُزينةَ، فبايعناه وإنَّ قميصه لمطلق - وفي روايةِ البغويِّ في «معجم الصحابة»: لمطلق الأزرار - قال: فبايعتُه ثم أدخلت يدي في جيب قميصه فَمَسِسْتُ الخاتمَ. قال عروة: فما رأيتُ معاويةَ ولا أباه قطُّ إلا مُطْلِقِي أزرارِهما، ولا يزرَّانها أبداً[٢].

وجاء أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر بزرِّ الأزرار؛ فقد أخرج الطبراني عن زيد بن أبي أوفى: أنَّ رسول الله ﷺ نظر إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فإذا أزرارُه محلولةٌ، فزرَّها رسول الله ﷺ بيده وقال: «اجْمَعْ عِطْفَيْ ردائِكَ على نَحْرِكَ»[٣].

وفي هذين الأثرين ما هو ظاهرٌ في أنَّ جيب القميص كان إذ ذاك على الصدر كما هو اليوم عند العرب، وهو يُبْطِلُ القولَ بأنه خلاف السنَّةِ، وأنه من شعائر اليهود.

---

(١) المدرعة بكسر الميم وسكون الدال: لباس لا أكمام له. حاشية الشهاب ٧/ ٣٦.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٥٥٨١)، وعزاه للبغوي ابن حجر في الإصابة ٨/ ١٥٣-١٥٤. ورواية أبي داود توافق رواية البغوي. وعروة هو ابن عبد الله بن قشير أبو مَهَل الجعفي، وهو الراوي عن معاوية بن قرة.

(٣) قطعة من حديث طويل، وهو في المعجم الكبير (٥١٤٦)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في العلل (٣٤٤) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

وأَمْرُه تعالى إياه عليه السلام بإدخال يده في جيبه ـ مع أنه سبحانه قادرٌ على أن يجعلها بيضاءَ من غير إدخالٍ ـ للامتحان، وله سبحانه أن يمتحنَ عباده بما شاء.

والظاهرُ أنَّ قوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾ جوابُ الأمر؛ لأنَّ خروجها مترتِّبٌ على إدخالها.

وقيل: في الكلام حذفٌ تقديره: وأَدْخِلْ يدك في جيبك تَدْخُلْ، وأَخْرِجْها تَخْرُجْ، فحذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول، فيكون في الكلام صنعةُ الاحتباك. وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حالٌ، وكذا قولُه تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وهو احتراسٌ، وقد تقدَّم الكلامُ فيه.

وكذا قولُه سبحانه: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: آيةً معدودةً من جملة تسعِ آيات، أو معجزةً لك معها، على أن التسع هي: الفَلْق، والطُّوفان، والجرادُ، والقمَّلُ، والضفادعُ، والدم، والطمسةُ وهي جَعْلُ أسبابهم حجارةً، والجَدْبُ في بواديهم، والنقصان في مزارعهم.

ولمن عدَّ العصا واليد من التسع أن يعدَّ الجدبَ والنقصان في المزارع واحداً ولا يعدّ الفَلْقَ منها؛ لأنه عليه السلام لم يُبعث به إلى فرعون وإن تقدَّمه بيسير؛ ومَن عدَّه يقول: يكفي معاينتُه له في البعث به، أو هو بعثٌ به لمن آمن من قومه ولمن تخلَّفَ من القِبْطِ ولم يؤمن.

وفي «التقريب»: أنَّ الطمسة والجدب والنقصان يرجع إلى شيءٍ واحد، فالتسعُ: هذا الواحد، والعصا، واليد، وما بقي من المذكورات.

وذهب صاحب «الفرائد» إلى أنَّ الجراد والقمَّل واحد، والجدبَ والنقصان واحد.

وجوِّز أن يكون «في تسع» منقطعاً عمَّا قبله متعلِّقاً بمحذوفٍ، أي: اذهب في تسع آيات، ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى بعدُ: (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا) و«في» بمعنى «مع»، ونظير هذا الحذف ما في قوله:

أَتَـوا نـاري فـقـلـتُ مَـنُـونَ أنـتـمْ ... فـقـالـوا الـجنُّ قلتُ عِمُـوا ظَلَامـا
وقـلـتُ إلـى الـطـعـام فـقـال مـنـهـم ... فـريـقٌ يـحـسـد الإنـسَ الـطـعـامـا(١)

فإنَّ التقدير: هلمُّوا إلى الطعام.

ويتعلَّق بهذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى ما تقدَّم يتعلَّق بمحذوفٍ وقع حالاً، أي: مبعوثاً أو مرسَلاً إلى فرعون، وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ مستأنفٌ استئنافاً بيانيًّا، كأنه قيل: لمَ أرسلت إليهم بما ذكر؟ فقيل: إنهم.. إلخ.

والمراد بالفسق إمَّا الخروجُ عمَّا ألزمهم الشرعُ إياه إن قلنا بأنهم قد أُرسِلَ قبل موسى عليه السلام مَن يَلْزَمُهم اتِّباعُه، وهو يوسف عليه السلام، وإمَّا الخروجُ عما ألزمه العقلُ واقتضاءُ الفطرة إن قلنا بأنه لم يرسَل إليهم أحدٌ قبله عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: ظهرتْ لهم على يد موسى عليه السلام، فالمجيءُ مجازٌ عن الظهور، وإسنادُه إلى الآيات حقيقيٌّ. وقال بعض الأَجِلَّة: المجيءُ حقيقةٌ، وإسناده إلى الآيات مجازيٌّ، وهو حقيقةٌ لموسى عليه السلام، ولِمَا بينهما من الملابسة لكونها معجزةً له عليه السلام ساغ ذلك.

ولعل النكتة في العدول عن: فلمَّا جاءهم موسى بآياتنا، إلى ما في النظم الجليل الإشارةُ إلى أنَّ تلك الآيات خارجةٌ عن طوقه عليه السلام كسائر

---

(١) نسبهما أبو زيد في النوادر ص١٢٤ لشمير بن الحارث الضبِّي. وورد البيت الأول برواية: عموا صباحاً، كما ذكر ابن السيد في الحلل ص٣٩٠ وقال: الشعر الذي على قافية الميم ينسب إلى شمير بن الحارث وينسب إلى تأبط شرًّا، وأما الشعر الذي على قافية الحاء فلا خلاف أنه لجذع بن سنان الغساني. اهـ. وقد ورد البيت الأول في الكتاب ٢/ ٤١١، والخزانة ٦/ ١٦٧، شاهداً على جمع «مَن» (في قوله: منون أنتم) في الوصل، وإنما تجمع في الوقف. ينظر شرح شواهد الكتاب للأعلم ص٣٨٦. وجملة: يَحسد، صفة لفريق، ويروى: نحسد، فالجملة مقول القول، ذكر أن الجن طرقته وقد أوقد ناراً لطعامه، فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه، وزعموا أنهم يحسدون الإنس في الأكل، وأنهم فضِّلوا عليهم بأكل الطعام. الخزانة ٦/ ١٧٢-١٧٣.

المعجزات، وأنه لم يكن له عليه السلام تصرُّفٌ في بعضها، وكونهُ معجزةً له لإخباره به ووقوعِه بدعائه ونحوه.

ولا ينافي هذا الإسنادَ إليه ـ لكونها جاريةً على يديه للإعجاز ـ في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [القصص:٣٦] في محلٍّ آخر. وقد بيَّن بعضُهم وجهاً لاختصاص كلٍّ منهما بمحلِّه، بأنَّ ثمةَ ذُكر مقاولتُه عليه السلام ومجادلتُهم معه، فناسَبَ الإسناد إليه، وهنا لمَّا لم يكن كذلك ناسبَ الإسنادَ إليها؛ لأن المقصود بيانُ جحودهم بها. وإضافةُ الآياتِ للعهد، وفي إضافتها إلى ضمير العظمة ما لا يخفى من تعظيم شأنها.

﴿مُبْصِرَةً﴾ حالٌ من الآيات، أي: بينةً واضحةً، وجُعِلَ الإبصارُ لها ـ وهو حقيقة لمتأمِّليها ـ للملابسة بينها وبينهم؛ لأنهم إنما يبصرون بسبب تأمُّلهم فيها، فالإسنادُ مجازيٌّ من باب الإسناد إلى السبب.

ويجوزُ أن يراد: مُبْصِرةً كلَّ مَن نظر إليها من العقلاء، أو من فرعون وقومِه لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] أي: جاعِلَته بصيراً، من أَبْصَرَه المتعدِّي بهمزةِ النقل مِن بصر، والإسنادُ أيضاً مجازيٌّ.

ويجوز أن تُجعل الآياتُ كأنها تُبْصِرُ فتَهْدِي؛ لأن العُمْيَ لا تقدرُ على الاهتداء فضلاً أنْ تهديَ غيرها، فيكون في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ مرشحة، قال في «الكشف»: وهذا الوجه أبلغ.

وقيل: إنَّ فاعلاً أُطْلِقَ للمفعول، فالمجازُ إما في الطَّرف أو في الإسناد، فتأمل.

وقرأ قتادة وعلي بن الحسين رضي الله عنهما: «مَبْصَرةً» بفتح الميم والصاد على وزن مَسْبَعَة[1]، وأصل هذه الصيغة أن تصاغ في الأكثر لمكانٍ كثُر فيه مبدأ الاشتقاق، فلا يقال: مَسْبعة مثلاً إلا لمكانٍ يَكْثُرُ فيه السباع، لا لِمَا فيه سبعٌ واحدٌ، ثم تجوِّز بها عمَّا هو سببٌ لكثرة الشيء وغَلَبته، كقولهم: الولد مجبنةٌ ومَبْخَلَة، أي: سببٌ لكثرة جُبْنِ الوالد وكثرةِ بُخْلِه، وهو المراد هنا، أي: سبباً لكثرة تبصُّر الناظرين

(١) المحتسب ٢/١٣٦، والبحر ٧/٥٨.

فيها. وقال أبو حيان: هو مصدرٌ أقيم مقام الاسم، وانتصب على الحال أيضاً[1].

﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أي: الذي نراه، أو نحوه ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ أي: واضحُ سِحْرِيَّتِه، على أنَّ «مبين» من أبان اللازم.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: وكذَّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: عَلِمَتْ علماً يقينيًّا أنها آياتٌ من عند الله تعالى. والاستيقانُ أبلغُ من الإيقان.

وفي «البحر»: أنَّ استفعل هنا بمعنى تفعَّل، كاستكبر بمعنى تكبَّر[2].

والأبلغ أن تكون الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حاليةٌ إما بتقديرِ «قد» أو بدونها.

﴿ظُلْمًا﴾ أي: للآيات، كقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] وقد ظلموا بها أيَّ ظُلْمٍ، حيث حَطُّوها عن رتبتها العاليةِ وسمَّوها سحراً. وقيل: ظلماً لأنفسهم. وليس بذاك.

﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: ترفُّعاً واستكباراً عن الإيمان بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وانتصابُهما إمَّا على العلِّية من «جحدوا»، وهي على ما قيل باعتبار العاقبة والادِّعاء، كما في قوله:

لِدُوا للموت وابنوا للخراب[3]

وإما على الحال من فاعله، أي: جَحَدوا بها ظالمين عالين.

ورجِّح الأول بأنه أبلغُ وأنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

(١) البحر ٧/ ٥٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وعجزه: فكلُّكم يصير إلى تراب، والبيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص٣٣. وورد في الديوان المنسوب لعليٍّ رضي الله عنه ص٢٩ عجزاً لبيت صدره: له ملكٌ ينادي كلَّ يوم. وروي ضمن حديث لأبي هريرة رضي الله عنه كما في العظمة (٥١٩)، وشعب الإيمان (١٠٧٣٠)، قال عنه الإمام أحمد: هو مما يدور في الأسواق، ولا أصل له. وينظر كشف الخفاء ١/ ١٨٣-١٨٤.

﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: ما آل إليه فرعونُ وقومُه من الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عبرةٌ للظالمين، وإنما لم يُذْكَر تنبيهاً على أنه عرضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مشهورٌ لدى كلِّ بادٍ وحاضرٍ، وأَدْخَلَ بعضهم في العاقبة حالَهم في الآخرة من الإحراق والعذاب الأليم. وفي إقامة الظاهر مقام الضمير ذمٌّ لهم وتحذيرٌ لأمثالهم.

وقرأ عبد الله وابن وثاب والأعمشُ وطلحةُ وأبان بن تغلب: و«عِلِيًّا» بقَلْبِ الواو ياء وكَسْرِ العين واللام[١]، وأصلهُ فُعول لكنهم كسروا العين إتباعاً[٢]، ورُوي ضمُّها عن ابن وثاب والأعمش وطلحة[٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لتقرير ما سبق من أنه عليه السلام تلقَّى القرآن من لَدُنْ حكيمٍ عليم، كقصة موسى عليه السلام، وتصديرُه بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه، أي: آتينا كلَّ واحدٍ منهما طائفةً من العلم لائقةً به من عِلْمِ الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختصُّ بكلٍّ منهما كصنعةِ لَبوسٍ ومَنْطِقِ الطير، وخصَّها مقاتلٌ بعلم القضاء، وابنُ عطاءٍ بالعلم بالله عزَّ وجلَّ، ولعل الأَوْلَى ما ذكر. أو علماً سنيًّا غزيراً.

فالتنوينُ على الأول للتقليل، وهو أوفقُ بكون القائل هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ كلَّ علمٍ عنده سبحانه قليل، وعلى الثاني للتعظيم والتكثير، وهو أوفقُ بامتنانه جلَّ جلالُه؛ فإنه سبحانه الملكُ العظيم، فاللائقُ بشأنه الامتنانُ بالعظيم الكثير، فلكلٍّ وجهة، وربما يرجَّح الثاني.

ومما ينبغي أن لا يُلتفت إليه كونُ التنوين للنوعية، أي: نوعاً من العلم، والمرادُ به علم الكيمياء.

﴿وَقَالَا﴾ أي: قال كلٌّ منهما شكراً لِمَا أوتيه من العلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ على أنَّ عبارة كلٍّ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٥٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) أي: إتباعاً للّام، وينظر تفصيل ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وينظر كذلك الدر المصون ٧/ ٥٧٠، و٨/ ٥٨١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٨، والبحر ٧/ ٥٨.

منهما: فضَّلني، إلَّا أنه عبَّر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلِّم مع الغير إيجازاً. وحكايةُ الأقوالِ المتعدِّدةِ سواءٌ كانت صادرةً عن المتكلِّم أو عن غيره بعبارةٍ جامعةٍ للكلِّ مما ليس بعزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١] قيل: وبهذا ظهر حُسْنُ موقع العطف بالواو دون الفاء؛ إذ المتبادرُ من العطف بالفاء ترتُّبُ حَمْدِ[1] كلٍّ منهما على إيتاء ما أُوتي كلٌّ منهما، لا على إيتاء ما أُوتي نفسه فقط.

وتعقِّب بأنه إذا سلِّم ما ذكر فالعطفُ بالواو أيضاً يتبادر معه كونُ حَمدِ كلٍّ منهما على إيتاء ما أوتي كلٌّ منهما، فما يمنعُ من ذلك مع الواو يمنع نحوه مع الفاء.

وقال العلَّامة الزمخشريُّ: عطف بالواو دون الفاء مع أنَّ الظاهر العكسُ كما في قولك: أعطيته فشكر؛ إشعاراً بأنَّ ما قالاه بعضُ ما أَحْدَثَ فيهما إيتاءُ العلم وشيءٌ من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال سبحانه: ولقد آتيناهما علماً فعملا فيه وعَلِماه وعَرَفا حقَّ النعمة فيه والفضيلة، وقالا: الحمد لله الذي فضَّلنا[2].

وحاصلُه أنَّ إيتاء العلم من جلائل النعم وفواضل المنح يستدعي إحداثَ الشكر أكثر ممَّا ذُكر، فجيء بالواو لأنها تستدعي إضماراً، فيُضْمَرُ ما يقتضيه موجبُ الشكر من قوله: فعملا به وعلماه، فإنه شكرٌ فعليٌّ، وقولِه: وعَرَفا حقَّ النعمة فيه والفضيلةِ، فإنه شكرٌ قلبيٌّ، وبقوله تعالى: «وقالا» إلخ تتمُّ أنواع الشكر لأنه شكرٌ لسانيٌّ، وفي الطيِّ إيماءٌ بأنَّ المَطْويَّ جاوَزَ حدَّ الإحصاء.

ويُعلم ممَّا ذُكر أنَّ هذا الوجه لاختيارِ العطف بالواو أَوْلَى مما ذهب إليه السكاكيُّ[3] من تفويض الترتُّبِ إلى العقل، لأنَّ المقام يستدعي الشكر البالغ، وهو ما يستوعبُ الأنواع، وعلى ما ذهب إليه يكون بنوع القوليِّ منها وحده.

---

(١) في (م): حمل، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٦، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٩.

(٣) في مفتاح العلوم ص٢٧٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٣٨.

وهو أَوْلَى مما قيل أيضاً: إنه لم يَعْطِفْ بالفاء لأنَّ الحمد على نعم عظيمةٍ من جملتها العلمُ، ولو عَطَفَ بالفاء لكان الحمد عليه فقط. لأنَّ السياق ظاهرٌ في أنَّ الحمد عليه، لا على ما يدخل هو في جملته.

وهل هناك على ما ذكره العلَّامة تقديرٌ حقيقةً، أم لا؟ قولان، وممَّن ذهب إلى الأول مَن يسمِّي هذه الواوَ الواوَ الفصيحة.

والظاهر أن المراد من الكثير المفضَّلِ عليه مَن لم يُؤْتَ مثلَ عِلْمِهما عليهما السلام. وقيل: ذاك، ومَن لم يؤتَ علماً أصلاً. وتعقِّب بأنه يأباه تبيينُ الكثير بعباده تعالى المؤمنين، فإنَّ خلوَّهم عن العلم بالمرة مما لا يمكن.

وفي تخصيصهما الكثير بالذكر إشارةٌ إلى أنَّ البعض مفضَّلون عليهما، كذا قيل، والمتبادر من البعض القليل. وفي «الكشاف»: أنَّ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ أنهما فضِّلَا على كثيرٍ وفضِّل عليهما كثيرٌ[1].

وتعقِّبَ بأنَّ فيه نظراً؛ إذ يدلُّ بالمفهوم على أنهما لم يفضَّلا على القليل، فإمَّا أن يفضِّل القليلُ عليهما، أو يساوياه فلا، بل يحتمل الأمرين.

وردَّه صاحب «الكشف» بأنَّ الكثير لا يقابله القليل في مثل هذا المقام، بل يدلُّ على أنَّ حكم الأكثر بخلافه، ولَمَّا بَعُدَ تساوي الأكثر من حيثُ العادةُ، لا سيما والأصلُ التفاوتُ، حَكَم صاحب «الكشاف» بأنه يدل على أنه فضِّل عليهما أيضاً كثير. على أنَّ العُرْفَ طرحُ التساوي في مثله عن الاعتبار، وجَعْلُ التقابُلِ بين المفضَّل والمفضَّل عليه، ألا ترى أنهم إذا قالوا: لا أَفْضَلَ من زيدٍ، فُهِمَ أنه أفضلُ من الكلِّ. انتهى.

وفي الآية أوضحُ دليلٍ على فضل العلم وشَرَفِ أهله، حيث شكرا على العلم وجعلاه أساسَ الفضل، ولم يعتبرا دونه مما أوتياه من الملك العظيم، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أنَّ في عباد الله تعالى مَن يَفْضُلُهم في العلم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٣٩.

ونِعْمَ ما قال أميرُ المؤمنين عُمر بنُ الخطاب ﷺ حين نهى على المنبر عن التغالي في المهور، فاعتَرضَتْ عليه عجوزٌ بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] الآية: كلُّ الناس أفقهُ من عمر[١]. وفيه من جَبْرِ قلبِ العجوز وفَتْحِ باب الاجتهاد ما فيه. وجَعْلُ الشيعةِ له من المثالب من أَعْظَمِ المثالب وأَعْجَبِ العجائب.

ولعل في الآية إشارةً إلى جواز أن يقول العالم: أنا عالم. وقد قال ذلك جملةٌ من الصحابة ﷺ منهم: أميرُ المؤمنين عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وعبدُ الله بنُ عباس ﷺ، وما شاع من حديث: «مَن قال: أنا عالمٌ، فهو جاهلٌ»[٢] إنما يُعرف من كلام يحيى بن أبي كثير موقوفاً عليه[٣]، على ضَعْفٍ في إسناده، ويحيى هذا من صغار التابعين، فإنه رأى أنس بنَ مالك وحده، وقد وهم بعضُ الرواة فرفعه إلى النبيِّ ﷺ، وتحقيقُه في «أعذب المناهل» للجلال السيوطي[٤].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: قام مقامه في النبوَّة والمُلْك، وصار نبيًّا ملكاً بعد موت أبيه دواد عليهما السلام، فوراثتُه إياه مجازٌ عن قيامه مقامه ـ فيما ذكر ـ بعد موته.

وقيل: المرادُ وراثةُ النبوَّةِ فقط. وقيل: وراثة الملك فقط.

وعن الحسن ونَسَبه الطبرسيُّ إلى أئمة أهل البيت: أنها وراثة المال[٥]. وتعقِّب بأنه قد صحَّ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[٦]، وقد ذكره الصدِّيقُ والفاروقُ ﷺ

---

(١) سلف الخبر ٥/ ٣٩٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٨٤٦) من حديث ابن عمر ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٦: فيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (١٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٦: فيه محمد بن أبي عطاء الثقفي ضعفه أحمد، وقال: هو منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، ومع ذلك فهو من قول يحيى موقوفاً عليه.

(٤) أعذب المناهل في حديث: «مَن قال أنا عالم فهو جاهل»، ضمن كتاب الحاوي ٢/ ٤٥، وعنه نقل المصنف.

(٥) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٥.

(٦) صحيح البخاري (٤٠٣٤)، وصحيح مسلم (١٧٥٨) من حديث عائشة ﷺ بلفظ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، وقد سلف تخريجه عند تفسير الآية (٨٥) من سورة البقرة.

بحضرةِ جَمْعٍ من الصحابة، وهم الذين لا يخافون في الله تعالى لومةَ لائم، ولم ينكره أحدٌ منهم عليهما.

وأخرج أبو داود والترمذيُّ عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ولكنْ ورَّثوا العلمَ، فَمَنْ أَخَذَه أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ»(١).

وروى محمد بن يعقوب الرازي في «الكافي» عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال ذلك أيضاً(٢).

ومما يدلُّ على أنَّ هذه الوراثةَ ليست وراثةَ المال ما روى الكُلينيُّ عن أبي عبد الله: أنَّ سليمان ورث داود، وأنَّ محمداً ورث سليمان ﷺ.

وأيضاً وراثةُ المال لا تختصُّ بسليمان عليه السلام؛ فإنه كان لداود عدَّةُ أولادٍ غيرِه كما رواه الكلينيُّ عنه أيضاً. وذكر غيره أنه عليه السلام تُوفِّي عن تسعةَ عشر ابناً(٣)، فالإخبارُ بها عن سليمان ليس في كثيرُ نفعٍ، وإن كان المرادُ الإخبارَ بما يلزمُها من بقاء سليمان بعد داود عليهما السلام، فما الداعي للعدول عمَّا يفيده من غير خفاءٍ مثل: وقال سليمانُ بعد موت أبيه داود: «يا أيها الناس» إلخ؟

وأيضاً السياقُ والسباقُ يأبيان أن يكون المرادُ وراثةَ المال كما لا يخفى على منصِفٍ، والظاهرُ أنَّ الرواية عن الحسن غيرُ ثابتةٍ، وكذا الروايةُ عن أئمة أهل البيت رضي الله عنهم، فقد سمعتَ في رواية الكُلينيِّ عن الصادق رضي الله عنه ما ينافي ثبوتَها.

ووراثةُ غير المال شائعةٌ في الكتاب الكريم فقد قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [فاطر:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف:١٦٩] ولا يضرُّ تفاوتُ القرينة فافهم.

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وسنن الترمذي (٢٦٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٧١٥)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) سلف ٤/ ٢١٨، ومحمد بن يعقوب الرازي هو أبو جعفر الكُليني بضم الكاف، من فقهاء الشيعة والمصنِّفين في مذهبهم. توفي سنة (٣٢٨هـ). الإكمال ٧/ ١٨٦.

(٣) البحر ٧/ ٥٩.

وكان عمرُه يوم توفِّي دواد عليهما السلام اثنتي عَشْرةَ سنةً أو ثلاثَ عَشْرةَ، وكان داود قد أوصى له بالملك، فلما توفِّي ملك وعمرُه ما ذكر.

وقيل: إنَّ داود عليه السلام ولَّاه على بني إسرائيل في حياته، حكاه في «البحر»[١].

﴿وَقَالَ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، وتعظيماً لقَدْرِها، ودعاءً للناس إلى التصديق بنبوَّته بذِكْرِ المعجزات الباهرات التي أوتيها، لا افتخاراً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الظاهرُ عمومُه جميعَ الناس الذين يمكن عادةً مخاطبتُهم. وقال بعض الأجلَّة: المراد به رؤساء مملكته وعظماءُ دولته من الثَّقَلين وغيرهم، والتعبيرُ عنهم بما ذكر للتغليب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعيِّ أنه قال: الناسُ عندنا أهلُ العلم[٢].

﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: نُطْقَه، وهو في المتعارَفِ: كلُّ لفظٍ يعبَّر به عما في الضمير مفرداً أو مركباً. وقد يطلَقُ على كلِّ ما يصوِّتُ به على سبيل الاستعارةِ المصرّحة، ويجوزُ أن يعتبر تشبيهُ المصوِّت بالإنسان[٣]، ويكون هناك استعارةٌ بالكناية وإثبات النطق تخييلاً[٤].

وقيل: يجوز أيضاً أن يراد بالنطق مطلقُ الصوت على أنه مجازٌ مرسَلٌ، وليس بذاك.

ويحتملُ الأوجهَ الثلاثة قولُه:

لم يَمنعِ الشربَ منها غيرَ أنْ نَطقَتْ　　　حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقالِ[٥]

وقد يطلق على ذلك للمشاكلة، كما في قولهم: الناطقُ والصامت، للحيوان والجماد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٥.

(٣) في الأصل: بالإسناد، وهو تصحيف، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٨، والكلام منه.

(٤) في حاشية الشهاب: تخييل.

(٥) سلف ١٨/ ٥٢٦.

والذي عُلِّمه عليه السلام من منطق الطير هو ـ على ما قيل ـ ما يُفْهَم بعضُه من بعضٍ من معانيه وأغراضه، ويُحكى أنه عليه السلام مرَّ على بلبلٍ في شجرةٍ يحرِّكُ رأسَه ويُميلُ ذَنَبَه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: اللهُ تعالى ونبيُّه أعلم. قال: يقول: أكلتُ نصفَ ثمرةٍ فعلى الدنيا العَفَاءُ. وصاحت فاختة[1]، فأخبَر أنها تقول: ليت ذا الخَلْقَ لم يُخلقوا. وصاح طاووسٌ فقال: يقول: كما تدينُ تُدان. وصاح هدهدٌ فقال: يقول: استغفروا الله تعالى يا مذنبون. وصاح طِيطَوى[2] فقال: يقول كلُّ حيٍّ ميتٌ وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاح خُطَّافٌ[3] فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه. وصاحت رَخْمةٌ فقال: تقول: سبحان ربيِّ الأعلى مِلءَ سمائه وأرضه. وصاح قُمْريٌّ فأخبر أنه يقول: سبحان ربِّي الأعلى.

وقال: الحدأة تقول: كلُّ شيء هالكٌ إلا الله تعالى، والقطاة تقول: مَن سَكَتَ سَلِم، والببغاءُ يقول: ويلٌ لمن الدنيا همُّه، والديكُ يقول: اذكروا الله تعالى يا غافلون، والنسر يقول: يا ابن آدم عِشْ ما شئت، آخِرُك الموت. والعُقاب يقول: في البعد من الناس أنسٌ، والضفدع يقول: سبحان ربِّي القدُّوس. والقنبرةُ[4] تقول: اللهم الْعَنْ مُبغِضَ محمدٍ وآل محمد، والزرزور يقول: اللهمَّ إنِّي اسألك قوتَ يوم بيومٍ يا رزَّاق، والدُّرَّاج يقول: الرحمنُ على العرش استوى[5]. انتهى، ونَظْمُ الضفدع في سلك المذكورات من الطير ليس في محلِّه، ومع هذا اللهُ تعالى أعلمُ بصحة هذه الحكاية.

وقيل: كانت الطير تكلِّمُه عليه السلام معجزةً له، نحو ما وقع من الهدهد في القصة الآتية.

---

(١) ضربٌ من الحمام المطوَّق، إذا مشى توسَّع في مشيه وباعد بين جناحيه وإبطيه وتمايل. المعجم الوسيط (فخت).

(٢) الطِّيطوى: طائر من طيور الماء لا يفارق الآجام وكثرة الماء. معجم متن اللغة ٣/ ٦٤٨.

(٣) كرَّمان: طائر أسود. القاموس (خطف).

(٤) كذا في الأصل و(م)، قال البلطليوسي في شرح أدب الكاتب ص١٨١ (القسم الثاني): هي لغة فصيحة. وقال الفيروزآبادي في القاموس (قبر): القُبر كسُكَّر وصُرَد طائر، الواحدة بهاء، ويقال: القُنَّبراء، ولا تقل: قُنْبُرة كقُنْفُذَة.

(٥) عرائس المجالس للثعلبي ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

وقيل: عُلِّمَ عليه السلام ما تقصدُه الطير في أصواتها في سائر أحوالها، فيفهم تسبيحَها ووَعْظَها وما تخاطبه به عليه السلام، وما يخاطبُ به بعضها بعضاً.

وبالجملة علم من مَنْطِقها ما علم الإنسان من منطق بني صنفه. ولا يُستبعد أن يكون للطير نفوسٌ ناطقةٌ ولغاتٌ مخصوصةٌ تؤدِّي بها مقاصدَها كما في نوع الإنسان، إلا أنَّ النفوس الإنسانية أقوى وأكملُ، ولا يبعُدُ أن تكون متفاوتةً تفاوُتَ النفوس الإنسانية الذي قال به مَن قال.

ويجوزُ أن يعلِّم الله تعالى منطقَها مَن شاء من عباده ولا يختصُّ ذلك بالأنبياء عليهم السلام، ويجري ما ذكرناه في سائر الحيوانات، وذهب بعض الناس إلى أنَّ سليمان عليه السلام علِّم منطقها أيضاً إلا أنه نصَّ على الطير لأنها كانت جنداً من جنوده يحتاج إليها في التظليل من الشمس، وفي البعث في الأمور، ولا يَخْفَى أنَّ الآية لا تدلُّ على ذلك، فيَحتاجُ القولُ به إلى نقلٍ صحيح.

وزعم بعضُهم أنه عليه السلام علِّم أيضاً منطقَ النبات، فكان يمرُّ على الشجرة فتذكرُ له منافعها ومضارَّها، ولم أجد في ذلك خبراً صحيحاً. وكثير من الحكماء مَن يعرف خواصَّ النبات بلونه وهيئته وطعمه وغير ذلك، ولا يحتاج في معرفتها إلى نُطْقِه بلسان القال.

والضمير في «علِّمنا» و«أوتينا» قيل: له ولأبيه عليهما السلام، وهو خلافُ الظاهر، والأَوْلَى كونُه له عليه السلام. ولمَّا كان ملكاً مطاعاً خاطب رعيَّته على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة من التمهيد لِمَا يُراد من الرعية من الطاعة والانقياد في الأوامر والنواهي، ولم يكن ذلك تَعاظُماً وتكبُّراً منه عليه السلام.

ومراعاةُ قواعد السياسة للتوصُّل بها إلى ما فيه رضا الله عزَّ وجلَّ من الأمور المهمة، وقد أَمَر نبيُّنا ﷺ العباس بحبْسِ أبي سفيان حتى تمرَّ عليه الكتائبُ يومَ الفتح لذلك.

و«كلّ» في الأصل للإحاطة، وتَرِدُ للتكثير كثيراً، نحو قولك: فلانٌ يقصده كلُّ أحدٍ، ويَعْلَم كلَّ شيء، وهي كنايةٌ في ذلك أو مجازٌ مشهور، وهذا المعنى هو المرادُ هنا إذا جُعِلَتْ «مِن» صلةً، وهو المناسبُ لمقام التحدُّثِ بالنعم، وإنْ لم

تُجْعَلْ صلةً فهي على أصلها فيما قيل. وأنت تعلم أنه لا يتسنَّى ذلك إلَّا إذا أُريد الكلُّ المجموعيُّ، وهو كما ترى.

وفي «البحر»: أنَّ قوله تعالى: (عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ) إشارةٌ إلى النبوَّة، وقوله سبحانه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارةٌ إلى الملك، والجملتان كالشرح للميراث[1].

وعن مقاتل: أنه أريد بما أوتيه النبوَّةُ والملكُ، وتسخيرُ الجنِّ والإنس والشياطين والريح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو ما يهمُّه عليه السلام من أمر الدنيا والآخرة. وقد يقال: إنه ما يحتاجه الملك من آلات الحرب وغيرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من التعليم والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ والإحسانُ من الله تعالى ﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ الواضحُ الذي لا يَخْفَى على أحدٍ.

﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾أو: إنَّ هذا الفضلَ الذي أوتيتهُ لهو الفضلُ المبين، فيكون من كلامه عليه السلام قطعاً، ذيَّل به ما تقدَّم منه ليدلَّ على أنه إنما قال ما قال على سبيل الشكر، كما قال ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فَخْر»[2] بالراء المهملة آخره كما في الرواية المشهورة، أي: أقولُ هذا القول شكراً لا فخراً. ويقرُب من هذا المعنى: «ولا فخز» بالزاي، كما في الرواية الغير المشهورة[3].

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ أي: جُمِعَ له عساكرهُ من الأماكن المختلفة ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ بيانٌ للجنود كما في «البحر» وغيره[4]. ولا يلزم من ذلك أن يكون الجنودُ المحشورون له عليه السلام جميعَ الجنِّ وجميعَ الإنس وجميعَ الطير، إذ يأبى ذلك ـ مع قَطْعِ النظر عن العقل ـ قصةُ بلقيس الآتيةُ بعدُ، وكذا قصةُ الهدهد.

---

(١) البحر ٧/ ٥٩.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩٨٧)، والترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون قوله: «ولا فخر».

(٣) ذكرها ابن عربي في الباب العاشر من الفتوحات ١/ ١٣٤، ولم نقف عليها عند غيره.

(٤) البحر ٧/ ٦٠، والدر المصون ٨/ ٥٨١.

ونُقل عن بعضهم أنه عليه السلام كان يأتيه من كلِّ صنفٍ من الطير واحدٌ، وهو نصٌّ في أنَّ المحشور ليس جميعَ الطير.

ولا يكاد يصحُّ إرادةُ الجميع في الجميع على ما ذكره الإمام في الآية أيضاً[1]، وهو أنَّ المعنى أنه جعل الله تعالى كلَّ هذه الأصناف جنودَه لأنه وإن لم يستدع الحضورَ والاجتماعَ في موضع واحدٍ بل يكفي فيه مجرَّد الانقيادِ والدخولِ في حيطة تصرُّفه والاتِّباعِ له حيث كانوا؛ لإباء قصة بلقيس أيضاً عنه، فإنَّ المناسب الإخبارُ بهذا الجعل بعد الإخبارِ بدخولها ومَن معها في حيطة تصرُّفه.

والظاهرُ أنَّ هذا الحشرَ ليس إلَّا جمعَ العساكر ليذهب بهم إلى محاربة مَن لم يدخل في ربقة طاعته عليه السلام، وكونُه ليذهب بهم إلى مكة شكراً على ما وفِّق له من بناء بيت المقدس خلافُ الظاهر، لكنْ إذا صحَّ فيه خبرٌ قُبِلَ. وأنَّ المجموع من الأنواع المذكورة ما يليقُ بشأنه وأُبَّهتِهِ وعظمتِهِ سواءٌ جُعِلَتْ «من» بيانيةً أو تبعيضيةً.

وكونُه عليه السلام أحدَ المؤمنَيْنِ اللذينِ مَلَكا المعمورةَ بأسرها، إذا سلَّمنا صحةَ الخبر الدالِّ عليه وسلامتَه من المُعارِض وأنه نصٌّ في المطلوب، لا يستدعي سوى دخولِ سكّان المعمورة في عداد رعيته وحيطةِ ملكته. وليس ذلك دفعيًّا، بل هو إن صحَّ كان بحسب التدريج، وقد ذكر بعض المؤرِّخين أنَّ بلقيس إنما دخلت تحت طاعته في السنة الخامسة والعشرين من ملكه، وكانت مدةُ ملكه عليه السلام أربعين سنةً، وكذا كانت مدةُ ملكِ أبيه داود عليهما السلام.

والظاهرُ أنَّ الحاشر لكلِّ نوعٍ من الأنواع الثلاثة أشخاصٌ منهم، فيكون من كلِّ نوعٍ أشخاصٌ مأمورون بذلك معدُّون له، ولا تَسْتَبعد[2] ذلك في الطير إذا كنت من المؤمنين بقصة الهدهد.

ولا يلزمُك التزامُ ما قاله الإمام من أنَّ الله تعالى جعل للطير عقلاً في أيام سليمان عليه السلام ولم يجعل لها ذلك في أيامنا[3]، فما عليك بأسٌ إذا قلتَ بأنها

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٤/١٨٧.

(٢) في (م): تستعبد، وهو تصحيف.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/١٨٧.

على حالةٍ واحدة اليومَ وذلك اليوم. ولا نعني بعقلها إلا ما تهتدي به لأغراضها، ووجودُ ذلك اليومَ فيها وكذا في غيرها من سائر الحيوانات مما لا ينكره إلا مكابِرٌ. وما علينا أن نقول: إنَّ عقولها من حيث هي كعقول الإنسان من حيث هي. ولعل فيها مَن يهتدي إلى مالا يهتدي إليه الكثيرُ[(١)] من بني آدم، كالنحل، ولَعَمْري إنها لو كانت خاليةً من العقل كما يقال وفرض وجود العقل فيها لا أظنُّ أنها تَصنعُ بعدَ وجوده أحسنَ ممَّا تصنعُه اليوم وهي خاليةٌ منه.

ولا يجب أن يكون كلُّ عاقلٍ مكلَّفاً، فلتكن الطيورُ كسائر العقلاء الذين لم يُبْعَثْ إليهم نبيٌّ يأمرهم وينهاهم، ويجوزُ أيضاً أن تكون عارفةً بربِّها مؤمنةً به جلَّ وعلا من غير أن يبعث إليها نبيٌّ، كمَن ينشأ بشاهِقِ جبلٍ وحده ويكون مؤمناً بربِّه سبحانه، بل كونُها مؤمنةً بالله تعالى مسبِّحةً له وكذا سائرُ الحيوانات ممّا تشهدُ له ظواهرُ الآيات والأخبار، وقد قدَّمنا بعضاً من ذلك[(٢)]، وليس عندنا ما يجب له التأويل.

وبالغ بعضهم فزعم أنها مكلَّفةٌ، وفيها وكذا في غيرها من الحيوانات أنبياءُ لهم شرائعُ خاصةٌ، واستَدلَّ عليه بما استَدلَّ، والمشهورُ إكفارُ مَن زعم ذلك. وقد نصَّ على إكفاره جمعٌ من الفقهاء.

وتخصيصُ الأنواع الثلاثة بالذكر ظاهرٌ في أنه عليه السلام لم يسخَّر له الوحش، وفي خبرٍ أخرجه الحاكم عن محمد بن كعب ما هو ظاهرٌ في تسخيره له عليه السلام أيضاً، وسنذكره قريباً إن شاء الله تعالى، لكنه لا يعوَّل عليه.

وتقديم الجنِّ للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزَّةِ سلطانه من أول الأمر؛ لِمَا أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ، وقبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ بعيدةٌ من الحشر والتسخير. ولم يقدَّم الطيرُ على الإنس مع أنَّ تسخيرها أشقُّ أيضاً وأدلُّ على قوة الملك وعزَّةِ السلطان؛ لئلَّا يُفْصَلَ بين الجنِّ والإنس المتقابلَيْنِ والمشتركَيْنِ في كثير من الأحكام.

---

(١) في الأصل: كثير.
(٢) ينظر ما سلف ١٤/٥٢٨ وما بعدها.

وقيل في تقديم الجنِّ: إنَّ مقام التسخير لا يخلو من تحقيرٍ، وهو مناسبٌ لهم. وليس بشيءٍ لأنَّ التسخير للأنبياء عليهم السلام شرفٌ؛ لأنه في الحقيقة لله عزَّ وجلَّ الذي سخَّر كلَّ شيءٍ. وإذا اعتبر في نفسه فالتعليلُ بذلك غيرُ مناسبٍ للمقام، ويكفي هذا في عدم قبوله.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يُحْبَسُ أوَّلُهم ليَلْحَقَ آخرُهم، فيكونوا مجتمعين لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، وذلك للكثرة العظيمة. ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر، والأول أولى، وفيه مع الدلالة على الكثرة والإشعارِ بكمال مسارعتهم إلى السير الدلالةُ على أنهم كانوا مَسُوسينَ غيرَ مهملين لا يتأذَّى أحدٌ بهم.

وأصلُ الوَزْعِ: الكفُّ والمنع، ومنه قولُ عثمان ﷺ: ما يَزَعُ السلطانُ أكثرُ مما يَزَعُ القرآن[(١)]. وقولُ الحسن: لابدَّ للقاضي من وَزَعَةٍ. وقول الشاعر:

ومَــن لــمْ يَــزَعْــه لــبُّــه وحــيــاؤه فــلــيس لــه من شيب فَوْدَيْهِ وازعُ[(٢)]

وتخصيص حَبْسِ أوائلهم بالذكر دون سَوْقِ أواخرهم مع أنَّ التلاحُقَ يحصل بذلك أيضاً؛ لأنَّ في ذلك شفقةً على الطائفتين، أمَّا الأوائلُ فمن جهةِ أن يستريحوا في الجملة بالوقوف عن السير، وأمَّا الأواخرُ فمن جهة أن لا يُجْهِدوا أنفسهم بسرعة السير.

وقيل: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ أواخرهم غيرُ قادرين على ما يقدر عليه أوائلُهم من السير السريع، وأخرج الطبرانيُّ والطستيُّ في «مسائله» عن ابن عباس ﷺ أنه يُحبسُ أوَّلهم على آخرهم حتى تنامَ الطير[(٣)]. والله تعالى أعلم بصحة الخبر. والظاهر أنَّ هذا الوزعَ إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجوِّ.

---

(١) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٨٨، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٨.

(٢) البيت لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي في رثاء الإمام الشافعي رحمه الله، كما في تاريخ بغداد ٢/ ٧١، وتهذيب الكمال ٢٤/ ٣٧٧. قوله: فوديه، الفَوْد: ناحية الرأس. القاموس (فود).

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٠٤.

والأخبارُ في قصته عليه السلام كثيرة؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كان يوضعُ لسليمان ثلاثُ مئةِ ألفِ كرسيٍّ، فيجلس مؤمني الإنس مما يليه ومؤمني الجن من ورائهم، ثم يأمر الطير فتظلُّه، ثم يأمر الريح فتحملُه، فيمرُّون على السنبلة فلا يحركونها(١).

وأخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال: بَلَغَنا أنَّ سليمان عليه السلام كان معسكره مئةَ فرسخ: خمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للجنِّ، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وخمسةٌ وعشرون للطير، وكان له ألفُ بيتٍ من قوارير على الخشب فيها ثلاث مئةِ منكوحةٍ وسبع مئة سُرِّيةٍ، فيأمر الريح العاصف فترفعهُ، ثم يأمر الرُّخاءَ فتسير به، وأوحى الله عز وجل إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إنِّي قد زدتُك في ملكك أنه لا يتكلَّم أحدٌ من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح إليك، وألقته في سمعك(٢).

ويُروى أنَّ الجنَّ نَسَجَتْ له عليه السلام بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ، ومنبرُه في وسطه من ذهب، فيصعد عليه وحوله ستُّ مئة ألف كرسيٍّ من ذهب وفضةٍ فتقعد الأنبياءُ عليهم السلام على كراسيِّ الذهب، والعلماءُ على كراسيِّ الفضة، وحولَهم الناسُ، وحول الناس الجنُّ والشياطين، وتُظِلُّه الطير بأجنحتها، وترفعُ ريحُ الصبا البساطَ فتسير به مسيرة شهر(٣).

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابنُ المنذر عن وهب بن منبه قال: مرَّ سليمانُ عليه السلام وهو في ملكه وقد حملته الريح على رجلٍ حرَّاثٍ من بني إسرائيل، فلمَّا رآه قال: سبحان الله! لقد أُوتيَ آل داود ملكاً. فحملتها الريحُ فوضعتها في أذنه فقال: ائتوني بالرجل، قال: ماذا قلت؟ فأخبره، فقال سليمان: إني خشيتُ عليك الفتنة، لَثَوَابُ «سبحان الله» عند الله يومَ القيامةِ أعظمُ ممَّا رأيتَ آلَ داود أُوتوا. فقال الحرَّاث: أَذْهَب الله تعالى همَّك كما أذهبت همِّي.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٥٥).
(٢) المستدرك ٢/ ٥٨٩.
(٣) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٩٦ عن مقاتل، وفيه: ثلاثة آلاف كرسي، بدل: ست مئة ألف كرسي.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام نزل ومشى إلى الحرَّاث وقال: إنما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تقدرُ عليه، ثم قال: لتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله تعالى خيرٌ مما أُوتي آل داود[١].

وأكثرُ الأخبار في هذا الشأن لا يعوَّلُ عليها، فعليك بالإيمان بما نطق به القرآن ودلَّت عليه الأخبار الصحيحة، وإياك من الانتصار لِمَا لا صحةَ له مما يذكره كثيرٌ من القُصَّاص والمؤرِّخين، مما فيه مبالغاتٌ شنيعةٌ بمجرَّدِ أنها أمورٌ ممكنةٌ يصحُّ تعلُّق قدرته عزَّ وجلَّ بها، فتفتح بذلك بابَ السخرية بالدين والعياذُ بالله تعالى. ولا يَبعُدُ أن يكون أكثر ما تضمَّن مثلُ ذلك من وضع الزنادقة يريدون به التنفير عن دين الإسلام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ «حتى» هي التي يبتدأ بها الكلام، ومع ذلك هي غايةٌ لِمَا قبلها، وهي ها هنا غايةٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ من السير، كأنه قيل: فساروا حتى إذا أتوا.. إلخ.

ووادي النمل وادٍ بأرض الشام كثيرُ النمل، على ما روي عن قتادة ومقاتل.

وقال كعب: هو وادي السدير من أرض الطائف.

وقيل: وادٍ بأقصى اليمن، وهو معروفٌ عند العرب مذكورٌ في أشعارها.

وقيل: هو وادٍ تسكنُه الجنُّ، والنملُ مراكبُهم. وهذا عندي مما لا يُلتفت إليه.

وتعديةُ الفعل إليه بكلمة «على» مع أنه يتعدَّى بنفسه أو بـ «إلى»؛ إمَّا لأنَّ إتيانهم كان من جانبٍ عالٍ، فعدِّي بها للدلالة على ذلك، كما قال المتنبي:

ولَشدَّ ما جاوَزْتَ قَدْرَكَ صاعداً ولَشدَّ ما قَرُبَتْ عليك الأنجمُ[٢]

لمَّا كان قربُ الأنجم ـ وإن أراد بها أبياتَ شعره ـ من فوق. وإمَّا لأنَّ المراد بالإتيان عليه قَطْعُه وبلوغُ آخره، من قولهم: أتى على الشيء، إذا أنفده[٣] وبلغ

---

(١) الزهد ص٥١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٣، ولفظ الرواية الأولى موافق لما في الدر، ولفظ الثانية موافق لما في الزهد.

(٢) ديوان المتنبي ٤/ ٢٥٩.

(٣) بالدال المهملة، بمعنى: أفناه، ومنه: «لَنَفَد البحر». حاشية الشهاب ٧/ ٣٩.

آخره. ثم الإتيانُ عليه بمعنى قَطْعِه مجازٌ عن إرادة ذلك، وإلَّا لم يكن للتحذير من الحَطْمِ الآتي وجهٌ؛ إذ لا معنى له بعد قَطْعِ الوادي الذي فيه النملُ ومُجاوَزَتِه.

والظاهرُ على الوجهين أنهم أتوا عليه مشاةً، ويحتملُ أنهم كانوا يسيرون في الهواء فأرادوا أن ينزلوا هناك فأحسَّت النملة بنزولهم فأنذرت النمل.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جوابُ «إذا»، والظاهر أنها صوَّتَتْ بما فهم سليمانُ عليه السلام منه معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهذا كما يَفهم عليه السلام من أصوات الطير ما يفهم، ولا يقدح في ذلك أنه عليه السلام لم يعلم إلَّا منطق الطير؛ إمَّا لأنها كانت من الطير ذات جناحين كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن الشعبيِّ، وهو وعبدُ الرزاق وعبدُ بن حميد وابنُ المنذر عن قتادة[1]. وكم رأينا نملةً لها جناحان تطيرُ بهما، وكونُ ذلك لا يقتضي عدَّها من الطير محلُّ نظرٍ. وإمّا لأنَّ فَهْمَ ما ذكر وقع له عليه السلام هذه المرةَ فقط، ولم يطَّرِدْ كَفَهْمِ أصوات الطير. وليس في الآية السابقة ولا في الأخبار ما ينفي فَهْمَ ما يقصدُه غيرُ الطير من الحيوانات بدون اطِّراد.

وقال ابن بحر: إنها نطقتْ بذلك معجزةً لسليمان عليه السلام كما نطق الضبُّ والذِّراع لرسول الله ﷺ[2].

قال مقاتل: وقد سمع عليه السلام قولَها من ثلاثة أميالٍ. ويلزمُ على هذا أنها أحسَّتْ بنزولهم من هذه المسافة، والسمعُ من سليمان منها غيرُ بعيدٍ؛ لأنَّ الريح كما جاء في الآثار تُوْصِلُ الصوت إليه، أو لأنَّ الله تعالى وهبه إذ ذاك قوةً قدسيةً

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر٥/ ١٠٤.

(٢) حديث الضب أخرجه مطولاً الطبراني في الأوسط (٥٩٩٦)، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٣٦-٣٨ من حديث عمر ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٤: رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن علي بن الوليد، قال البيهقي: والحمل في هذا الحديث عليه. اهـ. وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٥١: صدق والله البيهقي فإنّه خبر بالحل. وقال ابن دحية كما في تخريج أحاديث الشفا ص١٣٠ للسيوطي: حديث الضب موضوع. وقد سلف ١/ ١٠٠، و٧/ ١٦٦.
وحديث تكليم الذراع له ﷺ سلف ١٨/ ١٢٩.

سمع بها، إلا أنَّ إحساس النملة من تلك المسافة بعيدٌ، والمشهورُ عند العرب بالإحساس من بعيد القراد، حتى ضربوا به المثل[١]. وأنت تعلم أنه لا ضَرَرَ في إنكار صحة هذا الخبر.

وقيل: إنه عليه السلام لم يسمع صوتاً أصلاً، وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى. وقال الكلبي: أخبره مَلَكٌ بذلك. وإلى أنه لم يسمع صوتاً يشيرُ قول جرير:

لـو كـنـتُ أوتـيـتُ كـلامَ الـحُـكْـلِ عِـلْـمَ سـلـيـمـان كـلامَ الـنـمـل[٢]

فإذا أراد بالحُكْل مالا يُسمَعُ صوته.

وقال بعضهم: كأنها لمَّا رأتهم متوجِّهين إلى الوادي فرَّتْ عنهم مخافةَ حَطْمِهم، فتبعها غيرُها وصاحتْ صيحةً تنبَّهتْ بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها، فشبِّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومُناصَحتِهم، ولذلك أُجْرُوا مجراهم، حيث جُعِلتْ هي قائلةً وما عَدَاها من النمل مقولاً له، فيكون الكلام خارجاً مخرج الاستعارة التمثيلية، ويجوزُ أن يكون فيه استعارةٌ مكنيةٌ.

وأنت تعلمُ أنه لا ضرورةَ تدعو إلى ذلك. ومَن تتبَّع أحوال النمل لا يستبعدُ أن تكون له نفسٌ ناطقةٌ؛ فإنه يدَّخر في الصيف ما يقتاتُ به في الشتاء، ويشقُّ ما يدَّخره من الحبوب نصفين مخافةَ أن يصيبه الندى فينبتَ، إلَّا الكزبرةَ والعدسَ فإنه يقطع الواحدة منهما أربع قِطَعٍ ولا يكتفي بشقِّها نصفين؛ لأنها تنبتُ كما تنبت إذا لم تُشقَّ. وهذا وأمثالهُ يحتاج إلى علمٍ كلِّيٍّ استدلاليٍّ، وهو يحتاج إلى نفسٍ ناطقةٍ. وقد برهن شيخُ الأشراف على ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات، وظواهرُ

---

(١) حيث قالوا: أسمع من قراد، وذلك أنه يسمع وطء أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها. حياة الحيوان (قرد).

(٢) لم نقف عليه لجرير، وعزاه ابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/٦٣٦، والجاحظ في الحيوان ٤/٨، والأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ١٠٠-١٠١ لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٣١. وقال ابن بري كما في اللسان (حكل): الرجز للعجاج. ورواية الديوان وتهذيب اللغة واللسان: لو أنني أعطيت عِلْمَ الحُكْلِ، وفي المعاني: لو كنت علِّمتُ كلام الحكل. وقال ابن بري: صوابه: أو كنت. وجاء بينهما في الديوان: علمت منه مُسْتَسِرَّ الدَّخْلِ. وهو في البحر ٧/ ٦٠ بلفظ المصنف دون نسبة.

الآيات والأخبارُ الصحيحة تقتضيه كما سمعتَ قديماً وحديثاً، فلا حاجة بك إلى أن تقول: يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق في النملة إذ ذاك النطق وفيما عَدَاها من النمل العقلَ والفَهْمَ، وأما اليومَ فليس في النمل ذلك.

ثم إنه ينبغي أن يُعلم أنَّ الظاهر أنَّ علم النملة بأنَّ الآتيَ هو سليمانُ عليه السلام وجنودهُ كان عن إلهامٍ منه عزَّ وجلَّ، وذلك كعلم الضبِّ برسول الله ﷺ حين تكلَّم معه وشهد برسالته عليه الصلاة والسلام. والظاهرُ أيضاً أنها كانت كسائر النمل في الجثة، وفيه اليومَ ما يقربُ من الذبابة، ويسمَّى بالنمل الفارسي. وبالغَ بعضُ القصَّاص في كبرها، ولا يصحُّ له مستند.

وفي بعض الآثار أنها كانت عرجاء، واسمُها: طاخية، وقيل: جُرْمَى. وفي «البحر»: اختُلف في اسمها العَلَم، ما لَفْظُه؟ وليتَ شعري مَن الذي وضع لها لفظاً يخصُّها، أبنوا آدم أم النمل[1]؟! انتهى.

والذي يذهب إلى أنَّ للحيوانات نفوساً ناطقةً لا يمنع أن تكون لها أسماءٌ وَضَعها بعضُها لبعضٍ، لكنْ لا بألفاظٍ كألفاظنا بل بأصواتٍ تؤدَّى على نحوٍ مخصوصٍ من الأداء، ولعله يشتملُ على أمورٍ مختلفةٍ كلٌّ منها يقومُ مقام حرفٍ من الحروف المألوفة لنا، إذا أراد أن يُتْرجِم عنها مَن عَرَفَها مِن ذوي النفوس القدسية تَرْجَمها بما نعرفُ، ويقرِّبُ هذا لك أنَّ بعض كلام الإفرنج وأشباههم لا نسمعُ منه إلا كما نسمع من أصوات العصافير ونحوها، وإذا تُرجم لنا بما نعرفُه ظهر مشتملاً على الحروف المألوفة.

والظاهرُ أنَّ تاء «نملة» للوحدة، فتأنيث الفعل لمراعاة ظاهر التأنيث، فلا دليل في ذلك على أنَّ النملة كانت أنثى؛ قاله بعضهم.

وعن قتادة أنه دخل الكوفةَ فالتفَّ عليه الناس، فقال: سَلُوا عما شئتم. وكان أبو حنيفةَ رضي الله عنه حاضراً وهو غلامٌ حَدَثٌ، فقال: سلوه عن نملة سليمان، أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه فأُفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفتَ؟ فقال: من كتاب الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ ولو كان ذكراً لقال سبحانه: قال نملة، وذلك أنَّ النملة مثلُ الحمامة والشاة في وقوعها على

(١) البحر ٧/ ٦١.

الذكر والأنثى، فيميَّز بينهما بعلامةٍ، نحو قولهم: حمامةٌ ذَكَر وحمامةٌ أنثى، وهو وهي، كذا في «الكشاف»[١].

وتعقَّبه ابن المنير فقال: لا أدري العجبُ منه أم من أبي حنيفة إن ثَبَتَ ذلك عنه، وذلك أنَّ النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس، فيقال: نملةٌ ذكرٌ ونملةٌ أنثى، كما يقولون: حمامةٌ ذكرٌ وحمامةٌ أنثى، وشاةٌ ذكرٌ وشاةٌ أنثى، فلفظُها مؤنَّثٌ ومعناها محتمِلٌ، فيمكن أن تؤنَّث لأَجلِ لفظها وإن كانت واقعةً على ذَكَرٍ، بل هذا هو الفصيح المستعمل، ألا ترى قوله ﷺ: «لا يضحَّى بعوراء ولا عمياء ولا عجفاء»[٢] كيف أخرج عليه الصلاة والسلام هذه الصفات على اللفظ مؤنَّثةً، ولا يعني ﷺ الإناث من الأنعام خاصةً، فحينئذ قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ رُوعيَ فيه تأنيثُ اللفظ، وأمَّا المعنى فيحتمل التذكيرَ والتأنيثَ على حدٍّ سواء. وكيف يَسأل أبو حنيفةَ ﷺ بهذا ويفحِمُ به قتادةَ مع غزارة عِلْمِه، والأشبهُ أنَّ ذلك لا يصحُّ عنهما[٣]. اهـ.

وقال ابن الحاجب عليه الرحمة: التأنيثُ اللفظيُّ هو أن لا يكون بإزائه ذَكَرٌ في الحيوان كظلمة وعين، ولا فرق بين أن يكون حيواناً أو غيره كدجاجة وحمامة إذا قُصِدَ به مذكَّرٌ فإنه مؤنَّثٌ لفظيٌّ، ولذلك كان قولُ مَن زعم أنَّ النملة في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أنثى لورود تاء التأنيث في «قالت» وهماً؛ لجوازِ أن يكون مذكَّراً في الحقيقة، وورود تاء التأنيث كورودها في الفعل المؤنَّث اللفظيِّ، نحو: جاءت الظلمة.

وأجاب بعض فضلاء ما وراء النهر وقال: لعمري إنه قد تعسَّفَ ها هنا ابنُ الحاجب وترك الواجب، حيث اعترض على إمام أهل الإسلام، واعتراضُه بقوله: وورود تاء التأنيث كورودها.. إلخ، ليس بشيءٍ؛ إذ لو كان جائزاً أن يؤتى بتاء التأنيث في الفعل لمجرَّد صورة التأنيث في الفاعل المذكَّر الحقيقيِّ لكان ينبغي جوازُ أن يقال: جاءتني طلحةُ، مع أنه لا يجوز.

---

(١) ٣/ ١٤١-١٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٩٧) بنحوه من حديث البراء بن عازب ﷺ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الانتصاف ٣/ ١٤١ دون قوله: وكيف يسأل أبو حنيفة... إلخ.

وجوابُه عن ذلك في شرحه بقوله: وليس ذلك كتأنيث أسماء الأعلام؛ فإنها لا يعتبر فيها إلا المعنى دون اللفظ خلافاً للكوفيين، والسرُّ فيه هو أنهم نقلوها عن معانيها إلى مدلولٍ آخر فاعتبروا فيها المدلول الثاني، ولو اعتبروا تأنيثها لكان اعتباراً للمدلول الأول فيفسد المعنى، فلذلك لا يقال: أعجبتني طلحةُ = تناقُضٌ محضٌ، كأنَّه نسي ما أمضى في صدر كتابه من قوله: فإن سمِّي به مذكَّرٌ فشرطُه الزيادةُ، يعني فإنْ سمِّي بالمؤنَّث المعنويِّ فشرطُه الزيادة على ثلاثة أحرفٍ، فلا يخفى على مَن له أدنى مسكةٍ أنَّ عقرب مع أنَّ علامةَ التأنيث فيه مقدَّرةٌ، العَلَميةُ لا تمنعها عن اعتبار تأنيثها حتى تمنع من الصرف، فكيف تمنع العَلَمية عن اعتبار التأنيث في طلحة مع أنَّ علامة التأنيث فيه لفظية، فإذن ليس طرحُ التاء عن الفعل إلا لأنَّ التاء إنما يُجاء بها علامةً لتأنيث الفاعل، والفاعل ها هنا مذكَّرٌ حقيقيٌّ، فكذا النملةُ لو كان مذكَّراً لكان هو مع طلحة حَذْوَ القذةِ بالقذة.

وينصر قول أبي حنيفة ﵁ ما نقل عن ابن السكيت: هذا بطةٌ ذَكَر، وهذا حمامة ذَكَر، وهذا شاة: إذا عَنَيْتَ كبشاً، وهذا بقرة: إذا عنيت ثوراً، فإنْ عنيتَ به أنثى قلت: هذه بقرة[1]. اهـ. وارتضاه الطيبيُّ، ثم قال: فظهر أنَّ القول ما قالت حَذَامِ، والمذهب ما سلكه الإمام.

وفي «الكشف»: إنَّ التاء في «نملة» للوحدة، فهي في حكم المؤنَّث اللفظيِّ جاز أن تعامل معاملته كتمر وتمرة، على ما نصَّ عليه في «المفصَّل»[2]. ولا يُشْكِلُ بنحو طلحة حيث لم يجز إلحاق فعله التاءَ لأنَّ أسماء الأعلام يُعتبر فيها المعنى دون اللفظ، خلافاً للكوفيين، إلى آخر ما ذكره ابن الحاجب، ولا نقض باعتبار التأنيث في عقرب إن سمِّي به مذكَّرٌ، ولا في طلحة نفسِه باعتبار منع الصرف على ما ظنَّه بعضُ فضلاء ما وراء النهر.

وصوَّبه شيخنا الطيبيُّ لأنَّ اعتبار المعنى هو فيما يرجع إلى المعنى لا فيما يرجع إلى اللفظ، وإلحاق العلَامةِ باعتبار الفاعل إمَّا للتأنيث الحقيقيِّ وإما لشَبهِ التأنيث من الوحدة أو الجمعية ونحوها، فإذا لم يبق المعنى أعني التأنيثَ وشبهَ التأنيث فلا وجه للإلحاق. وأما منعُ الصرف فلا نظر فيه إلى معنى التأنيث، بل إلى هذه

---

(١) إصلاح المنطق ص٣٩٦.
(٢) شرح المفصل ٥/ ٧١.

الزيادة لفظاً أو تقديراً، وذلك غيرُ مختلفٍ في المنقول والمنقولِ عنه، وكفاك دليلاً لاعتبار اللفظ وحده في هذا الحكم تَفْرِقتُهم في «سقر» بين تسمية المذكَّر به والمؤنث، دون عقرب، فلو تأمَّل المناقضُ لكان ما أورده عليه لا له، هذا وإن الإمام ﷺ كوفيٌّ، والقاعدة على أصله مهدومةٌ. انتهى، وهو كلام متين.

والحزمُ القولُ بعدم صحة هذه الحكاية، فأبو حنيفةَ ﷺ مَن عرفْتَ وإن كان إذ ذاك غلاماً حَدَثاً، وقتادةُ بن دعامةَ السدوسيُّ بإجماع العارفين بالرجال كان بصيراً بالعربية، فيبعُدُ كلَّ البعد وقوعُ ما ذكر منهما، والله تعالى أعلم.

والحَطْمُ: الكسر، والمراد به الإهلاك. والنهيُ في الظاهر لسليمان عليه السلامُ وجنودِه، وهو في الحقيقة نهيٌ على طريق الكناية للنمل عن التوقُّف حتى تُحطم؛ لأن الحطم غيرُ مقدورٍ لها، نحو قولك: لا أرينَّك هاهنا، فإنه في الظاهر نهيٌ للمتكلِّم عن رؤية المخاطب، والمقصودُ نهيُ المخاطَبِ عن الكون بحيث يراه المتكلِّم، فالجملة استئنافٌ، أو بدلُ اشتمالٍ من جملة «ادخلوا مساكنكم». وقول بعضهم: إذا كان المعنى النهيَ عن التوقُّف حتى تُحطَم يحصلُ الاتِّحاد بين الجملتين. يقتضي أنه بدلُ كلٍّ من كلٍّ؛ بناءً على أنَّ الأمر بالشيء عينُ النهي عن ضدِّه، وعلى ما ذكر لا حاجة إليه. وبالجملة اعتراضُ أبي حيان[1] على وجه الإبدال باختلافِ مدلولَي الجملتين ليس في محلِّه.

وجوَّز الزمخشريُّ كون «لا يحطمنكم» جواباً للأمر[2]. أعني: «ادخلوا»، و«لا» حينئذٍ نافيةٌ.

وتعقِّب بأنَّ دخول النون في جواب الشرط مخصوصٌ بضرورةِ الشعر، كقوله:

فمهما[3] تَشَأْ منه فزارة تُعْطِه ومهما تَشَأْ منه فزارة تَمنعا[4]

---

(١) في البحر ٧/ ٦٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٢.

(٣) في الأصل و(م): مهما، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٥١٥، وابن عصفور في الضرائر ص٣٠ لابن الخَرِع، وهو عوف بن عطية بن الخرع، وقال البغدادي في الخزانة ١١/ ٣٩٨: والبيت غير موجود في ديوان ابن الخرع، وإنما هو من قصيدة للكميت بن ثعلبة. اهـ. وهو دون نسبة في معاني =

وفي «الكتاب»: وهو قليل في الشعر شبَّهوه بالنهي حيث كان مجزوماً غير واجب[١].

وأرادت النملة على ما في «الكشاف»: لا يحطمنَّكم جنودُ سليمان، فجاءت بما هو أبلغ، ونحوُه قولُه:

عجبتُ من نفسي ومن إشفاقها[٢]

حيث أراد: عجبتُ من إشفاق نفسي، فجاء بما هو أبلغ للإجمال والتفصيل.

وتعقَّب ذلك في «البحر» بأنَّ فيه القولَ بزيادة الأسماء، وهي لا تجوز، بل الظاهرُ إسنادُ الحَطْمِ إليه عليه السلام وإلى جنوده، والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: خَيْل سليمان وجنوده، أو نحو ذلك مما يصحُّ تقديره[٣]. وللبحث فيه مجالٌ.

وجملة «وهم لا يشعرون» حالٌ من مجموع المتعاطفين والضميرُ لهما. وجوِّز أن تكون حالاً من الجنود والضميرُ لهم. وأيّاما كان ففي تقييد الحطم بعدم الشعور بمكانهم، المشعِرِ بأنه لو شعروا بذلك لم يحطموا، ما يُشْعِرُ بغايةِ أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنودِه، وليت مَن طعن في أصحاب النبيِّ ﷺ ورضي الله عنهم تأسَّى بها فكفَّ عن ذلك وأَحْسَنَ الأدب.

ورُوي أن سليمان عليه السلام لمَّا سمع قول النملة: «يا أيها النمل» إلخ قال: ائتوني بها. فأتوا بها فقال: لَمَ حذَّرْتِ النملَ ظلمي؟ أما عَلِمْتِ أني نبيّ عدل، فلمَ قلتِ: لا يَحْطِمنَّكم سليمان وجنودُه. فقالت: أمَا سمعتَ قولي: وهم لا يشعرون،

= القرآن للفراء ١/ ١٦٢، والبحر ٧/ ٦٢، والدر المصون ٨/ ٥٨٧ دون نسبة، وروايته في المصادر عدا البحر: تعطكم، بدل: تعطه. وقال أبو حيان: وإذا لم يجز ذلك في جواب الشرط إلا في الشعر فأحرى أن لا يجوز في جواب الأمر إلا في الشعر، وكونه في جواب الأمر متنازع فيه على ما قرِّر في النحو.

(١) الكتاب ٣/ ٥١٥، والبحر ٧/ ٦٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٢، وبعده: ومن طِرادي الطير عن أرزاقها. والرجز لأبي البلاد خليفة بن بلاد كما في أنساب الأشراف ١١/ ٤٩٢، وفي غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦-٦٧: هو لأعرابي كان يطرد الطير عن زرعه في سنة جَدْبٍ.

(٣) البحر ٧/ ٦٢.

ومع ذلك إني لمْ أُرِدْ حَطْمَ النفوس وإنما أردتُ حَطْمَ القلوب، خشيتُ أن يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم فيقعوا في كفران النعم، فلا أقلَّ من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح. فقال لها سليمان: عِظِيني، فقالت: أعلمتَ لَمَ سمِّي أبوك داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحة قلبه، وهل تدري لَمَ سُمِّيتَ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليمُ القلب والصدر. ثم قالت: أتدري لَمَ سخَّر الله تعالى لك الريح؟ قال: لا. قالت: أخبرك الله تعالى بذلك أنَّ الدنيا كلَّها ريحٌ، فَمَنْ اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح.

وهذا ظاهرُ الوضع كما لا يخفى، وفيه ما يُشْبِهُ كلام الصوفية.

واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّةِ ما روي من أنها أهدتْ إليه نَبْقةً[1]، وأنه عليه السلام دعا للنمل بالبركة.

وجوَّز أن تكون جملة «هم لا يشعرون» في موضع الحال من النملة، والضميرُ للجنود كالضمائر السابقة في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا﴾، وهي من كلامه تعالى، أي: قالت ذلك في حال كون الجنود لا يشعرون به. وليس بشيء.

وقد يَقرُبُ منه ما قيل: إنه يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدَّرٍ، وهي من كلامه عزَّ وجلَّ كأنّه قيل: فَهِمَ سليمانُ ما قالت والجنودُ لا يشعرون بذلك.

وقرأ الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان وأبو سليمان[2] التيمي: «نَمُلةٌ» بضم الميم كسَمُرة. وكذلك «النَّمُل»، كالرَّجْل والرَّجُل لغتان، وعن سليمان[3] التيمي:

(١) النبقة: مفرد النَّبْق، وهو حمل السِّدْر، وأشبه شيء به العنَّاب قبل أن تشتد حمرته، ونبق هجر بأرض العرب هو أشد نبقٍ يعلم حلاوةً، وأطيبه رائحة، ويفوِّح فم آكله وثياب مُلابسه كما يفوح العطر. معجم متن اللغة (نبق).

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٧/ ٦١، وفي المحتسب ٢/ ١٣٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ١١٩: سليمان التيمي، بدل: أبو سليمان، وهو الصواب، ويؤيده أن في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤: وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٨ عن المفضل وطلحة والمعتمر بن سليمان.

(٣) في الأصل و(م): وعن أبي سليمان، والمثبت من المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٢٠، والبحر ٧/ ٦١، والكلام منه.

«نُمُلة» و«نُمُل» بضم النون والميم.

وقرأ شهر بن حوشب: «مَسْكَنكم» على الإفراد[(١)].

وعن أبيٍّ: «ادخُلْنَ مساكنكنَّ لا يَحطِمُنْكنَّ» مخفَّفةَ النون التي قبل الكاف[(٢)].

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى بن عمر الهمدانيُّ الكوفيُّ ونوح القاضي بضم الياء وفتح الحاء وشدِّ الطاء والنون مضارع حطَّم مشدَّداً[(٣)].

وعن الحسن بفتح الياء وإسكان الحاء وشدِّ الطاء، وعنه كذلك مع كَسْرِ الحاء، وأصله يحتطمنَّكم من الاحتطام[(٤)].

وقرأ ابن أبي إسحاق وطلحةُ ويعقوبُ وأبو عمرو في روايةِ عبيدٍ كقراءة الجمهور إلا أنهم سكَّنوا نون التأكيد[(٥)].

وقرأ الأعمش بحذف النون وجزم الميم[(٦)]. ولا خلافَ على هذه القراءة في جواز أن يكون الفعلُ مجزوماً في جواب الأمر.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تفريعٌ على ما تقدَّم، فلا حاجةَ إلى تقدير معطوفٍ عليه، أي: فسمعها فتبسَّم، وجَعْلِ الفاء فصيحةً كما قيل. ولعله عليه السلام إنما تبسَّم من ذلك سروراً بما أُلْهِمَتْ من حُسْنِ حاله وحالِ جنوده في باب التقوى والشفقة، وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به من إدراك ما هو همسٌ بالنسبة إلى البشر، وفَهْمِ مُرادِها منه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، والبحر ٧/ ٦١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، والبحر ٧/ ٦١.

(٣) أي: «يُحَطِّمَنَّكم»، والكلام من البحر ٧/ ٦١، وهي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ عن الحسن وأبي رجاء.

(٤) البحر ٧/ ٦١، والدر المصون ٨/ ٥٨٩. وقال السمين: وإسكان الحاء مشكل تقدم نظيره في ﴿لَّا يَهِدِّيٓ﴾ [يونس: ٣٥]. والثانية ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٣٧، وذكر عن الحسن أيضاً أنه قرأ «يَحَطِّمنَّكم» بفتح الياء والحاء.

(٥) هي رواية رويس عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٢٤٦، والكلام من البحر ٧/ ٦١.

(٦) أي: «يَحْطِمْكم». البحر ٧/ ٦١، والدر المصون ٨/ ٥٨٧.

وجوّز أن يكون ذلك تعجُّباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها. والأولُ أَظْهَرُ مناسبةً لِمَا بَعْدُ من الدعاء.

وانتصب «ضاحكاً» على الحال، أي: شارعاً في الضحك، أعني: قد تجاوز حدَّ التبسُّم إلى الضحك، أو مقدّر الضحك، بناءً على أنه حالٌ مقدَّرةٌ كما نقله الطيبيُّ عن بعضهم.

وقال أبو البقاء: هو حالٌ مؤكِّدةٌ[1]، وهو يقتضي كونَ التبسُّم والضحكِ بمعنًى، والمعروفُ الفرقُ بينهما. قال ابن حجر: التبسُّم: مبادئُ الضحك من غير صوت، والضحكُ: انبساطُ الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوتٍ خفيٍّ، فإن كان فيه صوتٌ يسمع من بعيدٍ فهو القهقهة[2]. وكأنَّ مَن ذهب إلى اتِّحاد التبسُّم والضحك خصَّ ذلك بما كان من الأنبياء عليهم السلام، فإنَّ ضحكهم تبسُّمٌ، وقد قال البوصيري في مدح نبيِّنا ﷺ:

سيـدٌ ضِـحْـكُـه الـتـبـسُّـمُ والـمـ ـشيُ الـهـويـنـا ونـومـهُ الإغـفـاءُ[3]

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيتهُ ﷺ مُسْتَجْمِعاً قطُّ ضاحكاً - أي: مقبلاً على الضحك بكلِّيته - إنما كان يتبسَّم[4].

والذي يدلُّ عليه مجموعُ الأحاديث أنَّ تبسُّمه عليه الصلاة والسلام أكثرُ من ضحكه، وربما ضحك حتى بَدَتْ نواجِذُه. وكونُه ضَحِكَ كذلك مذكورٌ في حديثِ آخرِ أهلِ النار خروجاً منها، وأهلِ الجنة دخولاً الجنةَ. وقد أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ[5]. وكذا في حديثٍ أخرجه البخاريُّ في المُواقِع أهلَه في رمضان[6]، وليس في حديث عائشةَ السابقِ أكثرُ من نَفْيِها رؤيتَها إياه ﷺ

---

(١) لم نقف عليه في الإملاء، وذكره السمين في الدر ٨/ ٥٩٠.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٠٤.
(٣) قصائد البوصيري ص١٣.
(٤) صحيح البخاري(٦٠٩٢).
(٥) صحيح البخاري (٦٥٧١)، وصحيح مسلم (١٨٦)، وسنن الترمذي (٢٥٩٥) و(٢٥٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٦) صحيح البخاري (٦٠٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند مسلم (١١١١).

مستجمِعاً ضاحكاً، وهو لا ينافي وقوع الضحك منه في بعض الأوقات حيث لم تره.

وأوَّلَ الزمخشريُّ ما رُوي من أنه ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه بأنَّ الغرض منه المبالغةُ في وصف ما وُجد منه عليه الصلاة والسلام من الضحك النبويِّ، وليس هناك ظهورُ النواجذ ـ وهي أواخرُ الأضراس ـ حقيقةً[1].

ولعله إنما لم يقل سبحانه: فتبسَّم من قولها، بل جاء جلَّ وعلا بـ «ضاحكاً» نصباً على الحال ليكون المقصودُ بالإفادة التجاوزَ إلى الضحك، بناءً على أنَّ المقصود من الكلام الذي فيه قيدٌ إفادةُ القيد نفياً أو إثباتاً، وفيه إشعارٌ بقوة تأثير قولها فيه عليه السلام، حيث أدَّاه ما عراه منه إلى أن تجاوز حدَّ التبسُّم آخِذاً في الضحك، ولم يكن حاله التبسُّمَ فقط.

وكأنه لمَّا لم يكن قولُ: فضحك من قولها، في إفادة ما ذكرنا مِثْلَ ما في النظم الجليل، لم يُؤْتَ به.

وفي «البحر»[2]: أنه لمَّا كان التبسُّم يكون للاستهزاء وللغضب، كما يقولون: تبسَّم تبسُّم الغضبان، وتبسَّم تبسُّم المستهزئ، وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح، أتى سبحانه بقوله تعالى: (ضَاحِكًا) لبيان أنَّ التبسُّم لم يكن استهزاءً ولا غضباً. انتهى.

ولا يخفى أنَّ دعوى أن الضحك لا يكون إلا للسرور والفرح يكذبها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] فإنَّ هذا الضحك كان من مشركي قريش استهزاءً بفقرائهم، كعمارٍ وصهيبٍ وخبَّابٍ وغيرِهم كما ذكره المفسرون، ولم يكن للسرور والفرح. وكذا قولُه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] كما هو الظاهر، وإن هُرِعْتَ إلى التأويل قلنا: الواقعُ يكذِّبها، فإنْ أنكرْتَ ضحكَ منك أولو الألباب، وفيه أيضاً غيرُ ذلك، فتأمل والله تعالى الهادي إلى صوب الصَّواب.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٢.

(٢) ٧/ ٦٢.

وقرأ ابن السميفع[1]: «ضَحِكاً»[2] على أنه مصدرٌ في موضع الحال، وجوِّز أن يكون منصوباً على أنه مفعولٌ مطلقٌ، نحو: شكراً، في قولك: حَمِدَ شكراً.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي: اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك، أي: أكفُّه وأرتبطهُ لا ينفلتُ عنِّي، وهو مجازٌ عن ملازمةِ الشكر والمداوَمةِ عليه، فكأنه قيل: ربِّ اجعلني مُداوماً على شكر نعمتك. وهمزةُ أَوْزعْ للتعدية، ولا حاجةَ إلى اعتبار التضمين وكونِ التقدير: ربِّ يسِّر لي أن أشكر نعمتك وازعاً إياه.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: اجعلني أشكر. وقال ابن زيد: أي: حرِّضني. وقال أبو عبيدة: أي: أَوْلعني[3]. وقال الزجَّاج فيما قيل: أي: ألهمني. وتأويلُه في اللغة: كُفَّني عن الأشياء التي تُباعِدُني عنك[4]. قال الطيبيُّ: فعلى هذا هو كنايةٌ تلويحيةٌ، فإنه طلب أن يكفَّه عمَّا يؤدِّي إلى كفران النعمة بأنْ يُلْهِمَه ما به تقيُّدُ النعمة من الشكر. وإضافة النعمة للاستغراق، أي: جميع نعمك.

وقرئ: «أَوْزِعنيَ» بفتح الياء[5].

﴿الَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ أي: أَنعَمْتَها، وأصلهُ: أنعمتَ بها، إلَّا أنه اعتُبِر الحذفُ والإيصال لفَقْدِ شَرْطِ حَذْفِ العائد المجرور، وهو أن يكون مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصولُ لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً، ومَن لا يقول باطِّراد ذلك لا يعتبرُ ما ذكر، ولا أرى فيه بأساً.

﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أدْرَجَ ذِكْرَ والديه تكثيراً للنعمة؛ فإنَّ الإنعام عليهما إنعامٌ عليه من وجهٍ مستوجب للشكر، أو تعميماً لها فإنَّ النعمة عليه عليه السلام يرجع

---

(١) جاء في هامش الأصل: بفتح السين والفاء، وقد تضم.

(٢) المحتسب ٢/ ١١٩، والبحر ٧/ ٦٢.

(٣) نقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٧/ ٦٣. وفي مجاز القرآن ٢/ ٩٢: «أوزعني أن أشكر نعمتك» مجازه: سدِّدني إليه، ومنه قولهم: وَزَعني الحلم عن السفاه، أي: منعني. وقال أيضاً ٢/ ٢١٣: «أوزِعني»: أَلْهِمْني. ونقل ذلك عنه ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٠٥. وتصحف: سددني، في مطبوع المجاز إلى: شددني.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٢-١١٣.

(٥) هي قراءة ورش والبزي. التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤٠.

نفعُها إليهما، والفرق بين الوجهين ظاهر. واقْتَصَر على الثاني في «الكشاف»[(١)]، وهو أوفقُ بالشكر وكونِ الدعاء المذكور بعد وفاة والديه عليهما السلام قطعاً، ورجّح الأول بأنه أوفقُ بقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] بعد قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ إلخ [سبأ: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ إلخ [سبأ: ١٢] فتدبَّر فإنه دقيق.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ عطف على «أنْ أشْكُرَ»، فيكونُ عليه السلام قد طلب جَعْلَه مداوماً على عمل العمل الصالح أيضاً. وكأنه عليه السلام أراد بالشكر الشكرَ باللسان المستلزمَ للشكر بالجَنان، وأردفه بما ذكر تتميماً له؛ لأنَّ عَمَلَ الصالح شكرٌ بالأركان.

وفي «البحر»: أنه عليه السلام سأل أولاً شيئاً خاصًّا وهو شكرُ النعمة، وثانياً شيئاً عاماً وهو عملُ الصالح[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ قيل: صفةٌ مؤكِّدةٌ، أو مخصِّصةٌ إنْ أُريدَ به كمالُ الرضا، واختير كونُه صفةً مخصِّصةً، والمراد بالرضا القبول، وهو ليس من لوازم العمل الصالح أصلاً، لا عقلاً ولا شرعاً.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: في جملتهم، والكلام عند[(٣)] الزمخشريِّ كنايةٌ عن جَعْلِه من أهل الجنة[(٤)]. وقدَّر بعضهم: الجنةَ، مفعولاً ثانياً لـ «أدخلني»، وعلى كونه كنايةً لا حاجةَ إلى التقدير، والداعي لأحد الأمرين - على ما قيل - دفعُ التكرار مع ما قبلُ؛ لأنه إذا عمل عملاً صالحاً كان من الصالحين البتة؛ إذ لا معنى للصالح إلا العاملُ عملاً صالحاً، وأردف طلبَ المداومة على عمل الصالح بطلب إدخاله الجنةَ لعدم استلزام العمل الصالح بنفسه إدخالَ الجنة، ففي الخبر: «لن يُدْخِلَ أحدَكم الجنةَ عملُه» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

---

(١) ٣/ ١٤٢.
(٢) البحر ٧/ ٦٣.
(٣) في (م): عن.
(٤) الكشاف ٣/ ١٤٢.

«ولا أنا، إلا أنْ يتغمدَّني اللهُ تعالى برحمته»[1]. وكأنَّ في ذكر «برحمتك» في هذا الدعاء إشارةٌ إلى ذلك.

ولا يأبَى ما ذكر قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] لأنَّ سببية العمل للإيراث برحمة الله تعالى.

وقال الخفاجيُّ: لك أن تقول: إنه عليه السلام عدَّ نفسه غير صالح تواضعاً[2]، أي: فلا يحتاج إلى التقدير، ولا إلى نظم الكلام في سلك الكناية، ولا يخفى أنَّ هذا لا يدفع السؤال بإغناء الدعاء بالمداومة على عمل الصالح عنه.

وقيل: المراد أن يجعله سبحانه في عداد الأنبياء عليهم السلام، ويُثبِتَ اسمه مع أسمائهم، ولا يعزلَه عن منصب النبوة الذي هو منحةٌ إلهيةٌ لا تُنال بالأعمال، ولذا ذكر الرحمة في البين، ونقل الطبرسيُّ عن ابن عباس ما يلوِّحُ بهذا المعنى[3].

وقيل: المراد: أدخلني في عداد الصالحين، واجعلني أُذكَرُ معهم إذا ذُكروا، وحاصلهُ طلبُ الذكر الجميل الذي لا يستلزمُه عمل الصالح، إذ قد يتحقَّق من شخصٍ في نفس الأمر ولا يَعُدُّه الناس في عداد الصالحين. وفي هذا الدعاء شمةٌ من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] ومقاصدُ الأنبياء في مثل ذلك أخرويةٌ.

وقيل: يحتمل أنه أراد بعمل الصالح القيامَ بحقوق الله عزَّ وجلَّ، وأراد بالصلاح في قوله: «في عبادك الصالحين» القيامَ بحقوقه تعالى وحقوقِ عباده، فيكون من قبيل التعميم بعد التخصيص.

وتعيينُ ما هو الأَوْلَى من هذه الأقوال مفوَّضٌ إلى فكرك، والله تعالى الهادي.

وكان دعاؤه عليه السلام على ما في بعض الآثار بعد أن دخل النملُ مساكنهنَّ، قال في «الكشاف»: روي أنَّ النملة أحسَّتْ بصوت الجنود ولا تعلمُ أنهم في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٤١.
(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٨.

الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريحَ فوقفت لئلا يُذْعَرْنَ حتى دَخَلْنَ مساكنهنَّ، ثم دعا بالدعوة(١).

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: أراد معرفة الموجودِ منها من غيره، وأصل التفقُّد معرفةُ الفَقْدِ، والظاهرُ أنه عليه السلام تفقَّد كلَّ الطير، وذلك بحسب ما تقتضيه العنايةُ بأمور الملك والاهتمامُ بالرعايا لا سيما الضعفاء منها؛ قيل: وكان يأتيه من كلِّ صنفٍ واحدٌ، فلم يَرَ الهدهد.

وقيل: كانت الطير تظلُّه من الشمس، وكان الهدهدُ يستر مكانه الأيمن، فمسَّته الشمسُ فنظر إلى مكانِ الهدهد فلم يَرَه.

وعن عبد الله بن سلام: أنَّ سليمان عليه السلام نزل بمفازةٍ لا ماء فيها، وكان الهدهدُ يرى الماء في باطن الأرض فيخبرُ سليمان بذلك، فيأمر الجنَّ فتسلخ الأرض عنه في ساعة كما تُسلخ الشاة، فاحتاجوا إلى الماء، فتفقَّد لذلك الطيرَ فلم يَرَ الهدهد(٢).

﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ وهو طائرٌ معروفٌ مُنْتِنٌ يأكل الدمَ فيما قيل، ويُكْنَى بأبي الأخبار، وأبي الربيع، وأبي ثمامة، وبغير ذلك مما ذكره الدميري(٣). وتصغيرهُ على القياس هُدَيْهِد، وزعم بعضُهم أنه يقال في تصغيره: هُدَاهِد، بقَلْبِ الياء ألفاً، وأنشدوا:

كهُدَاهِدٍ كسر الرماة جناحه(٤)

ونظير ذلك: دُوابَّة وشُوابَّة في دُوَيبَّة وشُوَيبَّة.

والظاهرُ أنَّ قوله عليه السلام ذلك مبنيٌّ على أنه ظنَّ حضوره ومَنَع مانعٌ له من رؤيته، أي: عدمُ رؤيتي إياه مع حضوره لأيِّ سببٍ، أَلِسَاترٍ أم لغيره؟ ثم لاح له أنه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلك وأخذ يقول: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ كأنه يَسأَلُ عن

---

(١) الكشاف ٣/١٤٢.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/٥٦٦-٥٦٧، والطبري ١٨/٣٠.

(٣) في حياة الحيوان ٢/٣٧٨.

(٤) وعجزه: يدعو بقارعة الطريق هديلا، والبيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٣٨.

صحة ما لاح له، فـ «أم» هي المنقطعة، كما في قولهم: إنها لإبلٌ أم شاءٌ.

وقال ابن عطية: مقصدُ الكلام: الهدهد غاب، ولكنه أخذ اللازم من مغيبه وهو أن لا يراه، فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم، وهذا ضربٌ من الإيجاز، والاستفهامُ الذي في قوله: «مالي» ناب منابَ الهمزة التي تحتاجها «أم»[١]. انتهى.

وظاهره أنَّ «أم» متصلةٌ والهمزةُ قائمةٌ مقام همزة الاستفهام[٢]، فالمعنى عنده: أغاب عنِّي الآن فلم أره حالَ التفقُّد، أم كان ممن غاب قبلُ ولم أشعر بغيبته. والحقُّ ما تقدَّم.

وقيل: في الكلام قلبٌ، والأصل: ما للهدهد لا أراه، ولا يخفى أنه لا ضرورةَ إلى ادِّعاء ذلك، نعم قيل: هو أوفقُ بكون التفقُّد للعناية.

وذُكر أنَّ اسم هذا الهدهد يعفور. وكونُ الهدهد يرى الماء تحت الأرض رواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم وسعيد بن منصور عن يوسف بن ماهك، أنَّ ابن عباس حين قال ذلك اعترض عليه نافع بنُ الأزرق كعادته، بأنه كيف ذاك والهدهدُ يُنْصَبُ له الفخُّ ويوضع فيه الحبة وتُستَرُ بالتراب فيُصْطاد؟ فقال رضي الله عنه: إنَّ البصر ينفع ما لم يأت القدر، فإذا جاء القدر حال دون البصر. فقال ابن الأزرق: لا أجادلُك بعدها بشيء[٤].

ولا مانع من أن يقال: يجوزُ أن يرى الحبة أيضاً، إلا أنه لا يعرف أنَّ التقاطها من الفخِّ يوجبُ اصطياده، وكثيرٌ من الطيور وسائر الحيوانات يُصْطاد بما يَراه بنوع حيلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.

(٢) كذا وقعت العبارة عند المصنف، وجاء في البحر ٦/ ٦٤ (والكلام فيه بنحوه): فظاهر هذا الكلام(يعني كلام ابن عطية) أن «أم» متصلة، وأن الاستفهام الذي في قوله:«ما لي» ناب مناب ألف الاستفهام.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١١/٥٣٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٩، والمستدرك ٢/ ٤٠٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٤.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٩-٢٨٦٠، وعزاه لسعيد بن منصور السيوطي في الدر ٥/ ١٠٤.

ويجوز أيضاً أن يراها ويعرفَ المكيدةَ في وضعها إلّا أنَّ القدر يغلبُ عليه فيظنُّ أنه ينجو إذا التقطها بأحد وجوهٍ يتخيَّلُها، فيكون نظيرَ مَن يخوض المهالك لظنِّ النجاة مع مشاهدةِ هلاك الكثير ممن خاضها قبله، وإذا أراد الله تعالى بقومٍ أمراً سلب من ذوي العقول عقولَهم.

نعم إنَّ رؤيته الماء تحت الأرض وإن جاز على ما تقتضيه أصول الأشاعرة أمرٌ يستبعدُه العقل جدّاً، ولا جَزْمَ لي بصحة الخبر السابق، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه عند المحدّثين بما تعلم، ومثلُه ما تقدمَّ عن ابن سلام، وكذا غيرُه من الأخبار التي وقفتُ عليها في هذا الشأن، وليس في الآية إشارةٌ إلى ذلك، بل الظاهرُ بناءً على ما يقتضيه حالُ سليمان عليه السلام أنَّ التفقُّد كان منه عليه السلام عنايةً بأمور ملكه، واهتماماً بضعفاء جنده، وكأنه عليه السلام أخرج كلامه كما حكاه النظمُ الجليل لغلبة ظنِّه أنه لم يُصِبْه ما أهلكه، وليكون ذلك مع التفقُّد من باب الجمع بين صفتي الجمال والجلال، وهو الأكملُ في شأن الملوك.

ولعل ما وقع من حديث النملة كان كالحالة المذكِّرة له عليه السلام للتفقُّد. وعلى ما تقدَّم عن ابن سلام أنَّ الحالةَ المذكِّرة بل الداعية هي النزولُ في المفازة التي لا ماء فيها، وكونُ الهدهد قُنَاقِنَه[1]، ويحكون في ذلك أنَّ سليمان عليه السلام حين تمَّ له بناءُ بيتِ المقدس تجهَّز ليحجَّ بحَشْرِه، فوافَى الحرمَ وأقام به ما شاء، وكان يقرِّب كلَّ يوم طولَ مقامه خمسةَ آلافِ بقرةٍ، وخمسةَ آلافِ ناقةٍ، وعشرين ألفَ شاةٍ، وقال لأشرافِ مَن معه: إنَّ هذا مكانٌ يخرج منه نبيٌّ عربيٌّ صفتُه كذا وكذا، يُعْطَى النصرَ على مَن عاداه، ويُنصَرُ بالرعب من مسيرة شهرٍ، القريبُ والبعيدُ عنده سواءٌ في الحقِّ، لا تأخذُه في الله تعالى لومةُ لائم. قالوا: فبأيِّ دينٍ يَدِيْنُ يانبيَّ الله؟فقال: بدينِ الحنيفية، فطوبى لمن آمنَ به وأدركه، فقالوا: كما بيننا وبين خروجه؟ قال: مقدارُ ألفِ عامٍ، فلْيبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ فإنه سيدُ الأنبياء وخاتَمُ الرسل عليهم السلام. ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يؤمُّ سهيلاً، فوافى صنعاء وقتَ الزوال وذلك مسيرةُ شهرٍ، فرأى أرضاً أعجبته خضرتُها

(١) القُناقِن بالضم: البصير بالماء في حفر القُنِيِّ، جمعها بالفتح. القاموس (قنن).

فنزل ليتغذَّى ويصلِّي، فلم يجدوا الماء فكان ما كان[(١)].

وفي بعض الآثار ما يعارضُ حكايةَ الحجِّ، فقد روي عن كعبِ الأحبار[(٢)] أنَّ سليمان عليه السلام سار من إصْطَخْرَ يريدُ اليمن، فمرَّ على مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: هذه دارُ هجرة نبيٍّ يكون آخِرَ الزمان، طوبى لمن اتَّبعه. ولمَّا وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناماً تُعبد، فجاوزه فبكى البيتُ، فأوحى الله تعالى إليه: ما يبكيك؟ قال: يا ربّ، أبكاني أنَّ هذا نبيٌّ من أنبيائك ومعه قومٌ من أوليائك، مرُّوا عليَّ ولم يهبطوا ولم يصلُّوا عندي، والأصنامُ تُعبد حولي من دونك. فأوحى الله تعالى إليه: لا تَبْكِ فإنِّي سوف أُبكيك[(٣)] وجوهاً سجَّداً، وأُنْزِلُ فيك قرآناً جديداً، وأبعثُ منك نبياً في آخر الزمان أَحَبَّ أنبيائي إليَّ، وأجعلُ فيك عمَّاراً من خَلْقي يعبدونني، وأفرضُ عليهم فريضةً يرفُّون إليك رفيفَ النسر إلى وكره، ويحنُّون إليك حنينَ الناقة إلى ولدها، والحمامةِ إلى بيضها، وأطهِّرُك من الأوثان وعَبَدةِ الشيطان. ثم مضى سليمان حتى أتى على وادي النمل.

ولا يظهرُ الجمع بين الخبرين، ولعل المقدار الذي يصحُّ من الأخبار أنه عليه السلام لمَّا تمَّ له بناءُ بيت المقدس حجَّ، وأكثرَ من تقريب القرابين، وبشَّر بالنبيِّ ﷺ، وقَصَدَ اليمن، وتفقَّد الطير فلم يَرَ الهدهدَ فتوعَّده بقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: بِنَتْفِ ريشه، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج. والظاهرُ أنَّ المراد جميعُ ريشه.

وقال يزيد بن رومان: بنتفِ ريش جناحيه. وقال ابن وهب: بنتفِ نصف ريشه. وزاد بعضهم مع النتف إلقاءه للنمل، وآخرُ تركَه في الشمس.

وقيل: ذلك بطَلْيِه بالقَطِران وتشميسه. وقيل: بحبسه في القفص، وقيل: بجمعه مع غير جنسه، وقيل: بإبعاده من خدمة سليمان عليه السلام، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلْفِه، وقيل: بإلزامه خدمةَ أقرانه.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤١٢، وبنحوه في عرائس المجالس ص٣١٢-٣١٣.
(٢) كما في تفسير البغوي ٣/ ٤١٠-٤١١.
(٣) في تفسير البغوي: أملؤك.

وفي «البحر»: الأجودُ أن يجعل كلٌّ من الأقوال من باب التمثيل وهذا التعذيبُ للتأديب، ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لِمَا رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح سبحانه ذَبْحَ البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع، وإذا سخّر له الطير ولم يتم ما سخّر من أجله إلا بالتأديب والسياسةِ جاز أن يباح له ما يُسْتَصْلَح به[1].

وفي «الإكليل» للجلال السيوطيِّ: قد يستدلُّ بالآية على جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي أو إسراعها أو نحو ذلك، وعلى جوازِ نتفِ ريش الحيوان لمصلحةٍ بناءً على أنَّ المراد بالتعذيب المذكور نتفُ ريشه.

وذَكَر فيه أنَّ ابن العربيِّ استدلَّ بها على أنَّ العذاب على قَدْرِ الذنب لا على قَدْرِ الجسد، وعلى أنَّ الطير كانوا مكلَّفين؛ إذ لا يعاقَبُ على ترك فعل إلا مَن كلِّف به[2]. اهـ فلا تغفل.

﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ كالترقِّي من الشديد إلى الأشدِّ، فإنَّ في الذبح تجريعُ كأسِ المنيَّةِ، وقد قيل: كلُّ شيءٍ دون المنية سهلٌ.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: بحجَّةٍ تُبينُ عُذْرَهُ في غيبته. وما ألطفَ التعبيرَ بالسلطان دون الحجة هنا؛ لَما أنَّ ما أتى به من العذر انجرَّ إلى الإتيان ببلقيس وهي سلطان.

ثم إنَّ هذا الشقَّ وإنْ قُرِنَ بحرف القَسَم ليس مُقْسَماً عليه في الحقيقة، وإنما المقسَمُ عليه حقيقةً الأوَّلان، وأدخل هذا في سلكهما للتقابل، وهذا كما في «الكشف» نوعٌ من التغليب لطيفُ المسلك، ومآلُ كلامه عليه السلام: ليكوننَّ أحدُ الأمور، على معنى: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيبٌ ولا ذبحٌ، وإن لم يكن كان أحدُهما، فـ «أو» في الموضعين للترديد.

وقيل: هي في الأول للتخيير بين التعذيب والذبح، وفي الثاني للترديد بينهما وبين الإتيان بالسلطان، وهو كما ترى.

---

(١) بنحوه في البحر ٦/ ٦٥.

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٠١، وكلام ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٣.

وزعم بعضهم أنها في الأول للتخيير وفي الثاني بمعنى «إلا»، وفيه غفلةٌ عن لام القَسَم.

وجوِّز أن تكون الأمورُ الثلاثة مقسماً عليها حقيقةً، وصحَّ قَسَمُه عليه السلام على الإتيان المذكور لعِلْمِه بالوحي أنه سيكون، أو غلبةِ ظنِّه بذلك لأمرٍ قام عنده يفيدُها.

وإلَّا فالقسمُ على فِعْلِ الغير في المستقبل من دون علم أو غلبةِ ظنٍّ به لا يكاد يَسُوغُ في شريعةٍ من الشرائع.

وتعقِّب بأن قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الآية: ٢٧] ينافي حصول العلم وما حاكاه له. ودفع المنافاة بأنه يجوز أن يأتي بحجَّةٍ لا يعلمُ سليمان عليه السلام ولا يظنُّ صدقَها وكذبها غيرُ سديدٍ؛ إذ قوله: «مبين» يأباه.

وبالجملة الوجهُ ما ذُكر أوَّلاً. فتأمَّل.

وقرأ عيسى بن عمر: «ليأتينَّ» بنونٍ مشدَّدةٍ مفتوحةٍ بغير ياء[1]. وكُتب في الإمام: «لا أذبحنه» بزيادة ألفٍ بين الذال والألف المتَّصلةِ باللام[2]، ولا يعلمُ وجهه كأكثر ما جاء فيه مما يخالفُ الرسم المعروف. وقيل: هو التنبيهُ على أنَّ الذبح لم يقع.

وقال ابن خلدون في «مقدمة» تاريخه: إنَّ الكتابة العربيةَ كانت في غاية الإتقان والجودة في حِمْيَرَ، ومنهم تعلَّمها مُضر، إلا أنهم لم يكونوا مُجيدين لبعدهم عن الحضارة، وكان الخطُّ العربيُّ أولَ الإسلام غيرَ بالغٍ إلى الغاية من الإتقان والجودة وإلى التوسُّط؛ لمكان العرب من البداوة والتوحُّش وبُعْدِهم عن الصنائع، وما وقع في رسم المصحف من الصحابة ﷺ من الرسوم المخالِفَةِ لِمَا اقتضته أقيسةُ رسوم الخطِّ وصناعته عند أهلها كزيادة الألف في «لا اذبحنه» من قلَّة الإجادة لصنعة الخطِّ، واقتفاءُ السَّلَفِ رَسْمَهم ذلك من باب التبرُّك.

وتوجيهُ بعض المغفَّلين تلك المخالفةَ بما وجَّهه بها ليس بصحيح، والداعي له

---

(١) البحر ٧/ ٦٥.

(٢) المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار لأبي عمرو الداني ص٨٨، والوسيلة إلى كشف العقيلة لعَلَم الدين السخاوي ص٤٠ و ١٥٧.

إلى ذلك تنزيهُ الصحابة عن النقص لما زعم أنَّ الخطَّ كمالٌ، ولم يتفطَّن لأنَّ الخطَّ من جملة الصنائع المدنية المعاشية، وذلك ليس بكمال في حقِّهم؛ إذ الكمالُ في الصنائع إضافيٌّ وليس بكمالٍ مطلقٍ؛ إذ لا يعودُ نقصُه على الذات في الدين ونحوه، وإنما يعود على أسباب المعاش.

وقد كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام أميًّا، وكان ذلك كمالاً في حقِّه وبالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام. ومِثْلُ الأمية تَنزُّهُه عليه الصلاة والسلام عن الصنائع العملية التي هي أسبابُ المعاش والعمران، ولا يُعدُّ ذلك كمالاً في حقِّنا؛ إذ هو ﷺ منقطعٌ إلى ربِّه عز وجل، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم». انتهى ملخَّصاً[1].

وأنت تعلم أنَّ كون زيادة الألف في «لا اذبحنه» لقلَّة إجادتهم ﷺ صنعةَ الكتابة في غاية البعد، وتعليلُ ذلك بما تقدَّم من التنبيه على عدم وقوع الذبح كذلك، وإلا لزادوها في «لأعذبنه» لأنَّ التعذيب لم يقع أيضاً.

وما أشار إليه من أنَّ الإجادة في الخطِّ ليس بكمالٍ في حقِّهم، إن أراد به أنَّ تحسين الخطِّ وإخراجَه على صورٍ متناسبةٍ يستحسنُها الناظر وتميلُ إليها النفوسُ كسائر النقوش المستحسنة ليس بكمالٍ في حقِّهم ولا يضرُّ بشأنهم فَقْدُه فمسلَّم، لكنَّ هذا شيءٌ وما نحن فيه شيٌ. وإن أراد به أنَّ الإتيان بالخطِّ على وجهه المعروفِ عند أهله، من وَصْلِ ما يَصِلونه وفَصْلِ ما يفصلونه، ورَسْمِ ما يرسمونه وتَرْكِ ما يتركونه، ليس بكمال فهذا محلُّ بحثٍ، ألا ترى أنه لا يُعترض على العالم بقبح الخطِّ وخروجِه عن الصور الحسنة والهيئات المستحسنة، ويُعترضُ عليه بوَصْلِ ما يُفْصَلُ وفَصْلِ ما يُوْصَلُ، ورَسْمِ ما لا يُرْسَمُ وعَدَمِ رَسْمِ ما يُرْسَمُ، ونحوِ ذلك، إن لم يكن ذلك لنكتة.

والظاهر أنَّ الصحابة الذين كتبوا القرآن كانوا متقنين رسمَ الخطِّ، عارفين ما يقتضي أن يكتب وما يقتضي أن لا يكتب، وما يقتضي أن يُوْصَلَ، وما يقتضي أن لا يُوْصَلَ، إلى غير ذلك، لكنْ خالفوا القواعد في بعض المواضع لحكمةٍ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٣-٥٠٦، دون الحديث، والحديث سلف ١٤/ ٢٦٣.

ويُستأنَسُ لذلك بما أخرجه ابن الأبَّار[1] في كتابه «التكملة» عن عبد الله بن فرُّوخ [عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه] قال: قلت لابن عباس: يا معشر قريش، أخبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يَبعث الله تعالى محمداً ﷺ، تجمعون منه ما اجتمع وتفرِّقون منه ما افترق، مثل الألف واللام [والميم] والنون؟ قال: نعم. قلت: وممن أخذتُموه؟ قال: من حرب بن أمية. قلت: وممن أخذه حربٌ؟ قال: من عبد الله بن جدعان. قلت: وممن أخذه عبد الله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار. قلت: وممن أخذه أهلُ الأنبار؟ قال: من طارئٍ طرأ عليهم من أهل اليمن. قلت: وممن أخذ ذلك الطارئ؟ قال: من الخلجان بن القسم كاتبِ الوحي لهودٍ النبيِّ عليه السلام، وهو الذي يقول:

أفي كلِّ عامٍ سنَّةٌ تُحْدِثونها ... ورأيٌ على غير الطريق يعبِّرُ
ولَلْموْتُ خيرٌ من حياةٍ تسبُّنا ... بها جرهُم فيمَن يَسُبُّ وحِمْيرُ[2]

انتهى.

وفي كتاب «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر»[3] أنَّ أول مَن اشتهر بالكتابة في الإسلام من الصحابة أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وأبي بنُ كعب وزيد بنُ ثابت ﷺ، والظاهر أنهم لم يشتهروا في ذلك إلا لإصابتهم فيها.

والقولُ بأنَّ هؤلاء الأجلَّةَ وسائرَ الصحابة لم يعرفوا مخالفةَ رَسْمِ الألف هنا لِمَا

---

(١) في الأصل و(م): ابن الأنباري، وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه، وهو الموافق لما في مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٤، والكلام منه. وابن الأبار هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعيُّ الأندلسيُّ البَلَنْسيُّ، أبو عبد الله الحافظ المقرئ، ويقال له: الأبار وابن الأبار، له: تكملة الصلة، وتحفة القادم، والمعجم، وغيرها، مات مقتولاً سنة (٦٥٨هـ). سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٣٦.

(٢) التكملة ٢/ ٢٢٨، ومقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٤، وذكره أيضاً ابن الجوزي في المنتظم ١١/ ١٩٦، وما سلف بين حاصرتين من المصادر.

(٣) لعلي دَدَه بن مصطفى الموستاري ثم السكتواري، علاء الدين الملقب بشيخ التربة، فاضل بوسنوي ولد في بلدة موستار، وتوفي سنة (١٠٠٧هـ). كشف الظنون ١/ ٤٨٣ و٢/ ١٦١٠، والأعلام ٤/ ٢٨٧.

يقتضيه قوانينُ أهل الخطِّ، وكذا سائر ما وقع من المخالفة، ممَّا لا يُقْدِمُ عليه مَن له أدنى أدبٍ وإنصاف.

ومثلُ هذا القولُ بأنه يحتمل أنه عَرف ذلك مَن عرف منهم إلا أنه ترك تغييره إلى الموافق للقوانين أو وافقه على الغلط للتبرُّك.

ومن الناس مَن جوَّز أن يكون ما وقع من الصحابة من الرسم المخالفِ بسبب قلَّة مهارةِ مَن أخذوا عنه صنعةَ الخطِّ، فيكون هو الذي خالف في مثل ذلك ولم يعلموا أنه خالف، فالقصورُ ـ إن كان ـ ممن أخذوا عنه، وأمَّا هم فلا قصورَ فيهم إذ لم يُخلُّوا بالقواعد التي أخذوها، وإخلالُهم بقواعدَ لم تصل إليهم ولم يعلموا بها لا يعدُّ قصوراً، وهذا قريبٌ مما تقدَّم إلا أنه ليس فيه ما فيه من البشاعة.

ثم إن الإنصاف بعد كلِّ كلامٍ يقتضي الإقرار بقوة دعوة أنَّ المخالفة لضَعْفِ صناعة الكتابة إذ ذاك إن صحَّ أنها وقعت أيضاً في غير الإمام من المكاتبات وغيرها، ولعله لم يصحَّ وإلا لَنُقِلَ، فتأمَّل والله تعالى يتولَّى هداك.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ الظاهرُ أنَّ الضمير للهدهد، و«بعيد» صفةُ زمانٍ، والكلامُ بيانٌ لمقدَّرٍ، كأنه قيل: ما مضى من غيبته بعد التهديد؟ فقيل: مكث غير بعيد، أي: مكث زماناً غيرَ مديدٍ، ووَصْفُ زمانِ مكثه بذلك للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان عليه السلام، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له.

وقيل: الضميرُ لسليمان. وهو كما ترى.

وقيل: «بعيد» صفةُ مكانٍ، أي: فمكث الهدهدُ في مكانٍ غير بعيدٍ من سليمان. وجَعْلُه صفةَ الزمان أولى.

ويُحكى أنه حين نزل سليمان عليه السلام حلَّق الهدهدُ فرأى هدهداً ـ واسمه فيما قيل: عفير ـ واقعاً، فانحطَّ إليه فوصف له ملكَ سليمان وما سخِّر له من كلِّ شيءٍ، وذكر له صاحبُه مُلْكَ بلقيس، وذهب معه لينظر، فما رجع إلَّا بعد العصر.

وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لَّما لم يره دعا عريف الطير وهو النسر، فسأله فلم يجد عنده عِلْمَه، ثم قال لسيد الطير وهو العُقاب: عليَّ به. فارتفعتْ فنظرتْ فإذا هو مقبلٌ، فقصدته فناشدها الله تعالى وقال: بحقِّ الله الذي قوَّاك

وأَقْدَرَكِ عليَّ إلا رحمتني. فتركته وقالت: ثكلتك أُمُّك إن نبيَّ الله تعالى قد حلف ليعذِّبنَّك أو ليذبحنَّك. قال: وما استثنى؟ قالت: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فقال: نجوتُ إذاً. فلما قَرُبَ من سليمان أرخى ذَنَبه وجناحيه يجرُّها على الأرض تواضُعاً له، فلمَّا دنا منه أخذ برأسه فمدَّه إليه، فقال: يا نبيَّ الله تعالى، اذْكُرْ وقوفك بين يدي الله عزَّ وجلَّ. فارْتَعدَ سليمانُ وعفا عنه[1].

وعن عكرمةَ أنه إنما عفا عنه لأنه كان بارًّا بأبويه يأتيهما بالطعام فيزقُّهما[2] لكبرهما.

ثم سأله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علماً ومعرفةً، وحفظتُه من جميع جهاته، وابتداءُ كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام، وترغيبِه في الإصغاء إلى اعتذاره، واستمالةِ قلبه نحوَ قبوله؛ فإنَّ النفس للاعتذار المنبئ عن أمرٍ بديعٍ أَقْبلُ، وإلى تلقِّي ما لا تعلمهُ أَمْيلُ.

وأيَّد ذلك بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ حيث فسَّر إبهامَه السابق نوعَ تفسيرٍ، وأراه عليه السلام أنه كان بصدد إقامةِ خدمةٍ مهمَّةٍ له، حيث عبَّر عما جاء به بالنبأ الذي هو الخبرُ الخطيرُ والشأنُ الكبير، ووصفه بما وصفه.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ الله تعالى أَلْهَم الهدهدَ فكافح سليمانَ بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوَّة والحكمة والعلوم الجمَّة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاءً له في علمه، وتنبيهاً على أنَّ في أدنى خَلْقِه وأضعفِه مَن أحاط علماً بما لم يُحِط به، لتتحاقَر إليه نفسُه، ويصغر إليه علمه، ويكون لطفاً به في ترك الإعجاب الذي هو فتنةُ العلماء وأَعْظِمْ بها فتنة[3]. انتهى.

وتعقِّب بأنَّ ما أحاط به من الأمور المحسوسة التي لا تعدُّ الإحاطةُ بها فضيلةً، ولا الغفلةُ عنها نقيصةً؛ لعدم توقُّف إدراكها إلَّا على مجرَّدِ إحساسٍ يستوي فيه العقلاء وغيرُهم، وماذا صدر عنه عليه السلامُ مع ما حُكي عنه ما حُكي من الحمد والشكر والدعاء حتى يليقَ بالحكمة الإلهية تنبيهُه عليه السلام على تركه؟!

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٤-٣١٥.

(٢) زَقَّ الطائرُ فرخَه: أطعمه بفِيْه. مختار الصحاح (زقق).

(٣) الكشاف ٣/ ١٤٣.

واعتُرِض بأنَّ قوله: «أحطتُ» إلخ ظاهرٌ في أنه كلامُ مدلٍّ بعِلْمِه مصغِّرٍ لِمَا عند صاحبه، وأنَّ العلم بالأمور المحسوسة وإن لم يكن فضيلةً إلا أنَّ فَقْدَه بالنسبة إلى سليمان عليه السلام وملكِه، وإلقاءِ الريح الأخبارَ في سمعه، يدلُّ على ما يدل، وفي التنبيه المذكور تثبيتٌ منه تعالى له عليه السلام على الحمد والشكر، وهو مما يناسبُ دعاءه السابقَ بقوله: «ربِّ أوزِعْني أنْ أشكرَ نعمَتك»، ولعل الأَوْلَى والأظهرُ مع هذا ما ذكر أوَّلاً.

و«سبأ» منصرفٌ على أنه لِحَيٍّ من الناس سُمُّوا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وفي حديث فروةَ وغيره عن رسول الله ﷺ أنَّ سبأ اسمُ رجلٍ وَلَدَ عشرةً من الولد، تَيامَنَ منهم ستةٌ وتشاءَمَ أربعةٌ، والستة: حِمْيرٌ وكِنْدَةُ والأَزْدُ وأَشْعَرُ وخَثْعَم، والأربعة: لَخْمٌ وجُذامٌ وعاملةُ وغسَّان(١).

وقيل: سبأ لقبٌ لأبي هذا الحيِّ من قحطان، واسمهُ: عبد شمس، وقيل: عامر، ولقِّب بذلك لأنه أولُ مَن سَبَى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «من سَبَأَ» بفتح الهمزة غير مصروف(٢)، على أنه اسمٌ للقبيلة، ثم سمِّيتْ به مأرب: سبأ، وبينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاثٍ، وجوِّز أن يراد به على الصرف الموضعُ المخصوصُ، وعلى منع الصرف المدينةُ المخصوصةُ، وأنشدوا على صَرْفِه قولهُ:

الــواردون وتــيــمٌ فــي ذُرَا ســبــأٍ ... قد عَضَّ أعناقهم جِلْدُ الجواميسِ(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٠٩/٨٩)، والترمذي (٣٢٢٢) وقال: حديث حسن غريب. وجاء فيهما أن الستة الذين تيامنوا: «الأَزْدُ والأشعريون وحميرٌ ومَذْحجٌ وأنمارٌ وكندةُ» وفي آخره: فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعمٌ وبجيلةُ».

(٢) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧، وهي عن ابن كثير من رواية البزي، وستأتي رواية قنبل عنه.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ١٣٠، والكشاف ٣/ ١٤٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، وزاد المسير ٤/ ٤٥٢، والبحر ٧/ ٦٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٣٥ ورواية الديوان:
تدعوك تيمٌ وتيمٌ في قرى سبأ . . . ، أراد أنهم أسرى وفي أعناقهم أطواق من جلد الجواميس.

وقرأ قنبل من طريق النبال بإسكان الهمزة[(١)]، وخرِّج على إجراء الوصل مجرى الوقف، وقال مكِّي: الإسكانُ في الوصل بعيدٌ غيرُ مختارٍ ولا قويٍّ[(٢)].

وقرأ الأعمش: «من سَباءِ» بكسر الهمزة من غير تنوينٍ، حكاها عنه ابن خالويه وابن عطية[(٣)]، وخرِّجت على أنَّ الجرَّ بالكسرة لرعاية ما نقل عنه، فإنه في الأصل اسمُ الرجل أو مكانٌ مخصوصٌ، وحذف التنوين لرعاية ما نُقل إليه، فإنه جُعل اسماً للقبيلة أو للمدينة، وهو كما ترى.

وقرأ ابن كثير في روايةٍ: «من سَبًى» بتنوين الباء على وزن رحًى، جَعَله مقصوراً مصروفاً. وذكر أبو معاذ أنه قرأ: «من سَبْأَى» بسكون الباء وهمزةٍ مفتوحة غيرِ منَّونةٍ على وزن فَعْلَى، فهو ممنوعٌ من الصرف للتأنيث اللازم[(٤)].

وروى ابن حبيب عن اليزيديِّ: «من سبا» بألفٍ ساكنة، كما في قولهم: تفرَّقوا أيدي سبا[(٥)].

وقرأت فرقة: «بنبا» بالألف عوض الهمزة، وكأنها قراءةُ من قرأ «سبا» بالألف؛ لتتوازنَ الكلمتان كما توازنتْ في قراءة مَن قرأهما بالهمزة المكسورة والتنوين.

وفي «التحرير»: أنَّ مِثْلَ: «من سبأ بنبأ» يسمَّى تجنيسَ التصريف، وهو أن تنفرد كلٌّ من الكلمتين بحرفٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥] وحديثِ: «الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ»[(٦)].

وقال الزمخشريُّ[(٧)]: إنَّ قوله تعالى: (مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ) من جنس الكلام الذي سمَّاه المحدَثون: البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلَّق باللفظ، بشرط أن يجيءَ

---

(١) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧، والبحر ٧/ ٦٦.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات لمكي بن أبي طالب ٢/ ١٥٦، والبحر ٧/ ٦٦.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، والبحر ٧/ ٦٦.
(٤) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٦٦، والكلام منه.
(٥) أي: تفرَّقوا تفرُّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال ٢/ ٢٧٥، والكلام من البحر ٧/ ٦٦.
(٦) أخرجه أحمد (٥١٠٢)، والبخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، والكلام من البحر ٧/ ٦٦.
(٧) في الكشاف ٣/ ١٤٤.

مطبوعاً أو يَصِيغَه[١] عالمٌ بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسدادَه، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنًى، ألا ترى لو وضع مكان «بنبأ»: بخبر، لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصحُّ؛ لَمَا في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصفُ الحال. اهـ.

وهذه الزيادةُ كونُ الخبر ذا شأنٍ. وكونُ النبأ بمعنى الخبر الذي له شأنٌ ممَّا صرَّح به غيرُ واحدٍ من اللغويين، والظاهر أنه معنًى وضعيٌّ له. وزعم بعضهم أنه ليس بوضعيٍّ، وليس بشيءٍ. وقول المحدِّثين: أنبأنا، أحطُّ درجةً من: أخبرنا، غيرُ واردٍ لأنه اصطلاحٌ لهم.

وقرأ الجمهور: «فمكُث» بضم الكافِ. والفتحُ قراءةُ عاصم، وأبي عمرو في رواية الجعفيِّ، وسهلٍ وروح[٢].

وقرأ أبيٌّ: «فمكث ثم قال». وعبد الله: «فمكث فقال». وكلتا القراءتين في الحقيقة ـ على ما في «البحر» ـ تفسيرٌ لا قراءةٌ؛ لمخالفتها سوادَ المصحف[٣].

وقرئ في السبعة: «أحطت» بإدغام التاء في الطاء مع بقاء صفة الإطباق، وليس بإدغامٍ حقيقيٍّ. وقرأ ابن محيصن بإدغامٍ حقيقي[٤].

واعترض ابنُ الحاجب القراءةَ الأولى بأنَّ الإطباق، وهو رفعُ اللسان إلى ما يحاذيه من الحنك للتصويت بصوتِ الحرف المخرَج، لا يستقيم إلا بنفس الحرف وهو الطاءُ هنا، والإدغامُ يقتضي إبدالها تاءً وهو ينافي وجود ذلك؛ لأنه يقتضي أن تكون موجودةً وغيرَ موجودةٍ، وهو تناقضٌ، فالتحقيقُ أن نحو: «أحطتُ» بالإطباق ليس فيه إدغامٌ، ولكنه لمَّا أَمْكَنَ النطقُ بالثاني مع الأول من غير ثقلٍ على اللسان كان كالنطق بالمِثْلِ بعد المِثْلِ فأطلق عليه الإدغام توسُّعاً، قاله الطيبيُّ.

---

(١) في الكشاف: يصنعه.

(٢) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧ عن عاصم وروح، وقرأ باقي العشرة بضمّ الكاف، والكلام من البحر ٧/ ٦٥.

(٣) البحر ٧/ ٦٥، ووقع فيه: فيمكث، في القراءتين.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٤١، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٩.

وفي «النشر» أنَّ التاء تُدغم في الطاء في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[١] [هود: ١١٤]، وفي «التسهيل» أنه إذا أُدْغِمَ المُطْبَقُ يجوزُ إبقاء الإطباق وعدُمه[٢]. وقال سيبويه: كلٌّ كلامٌ عربيٌّ[٣]، كذا في[٤] الحواشي الشهابية[٥]، فتأمَّل.

وفي قوله تعالى: (أَحَطتُ) إلخ دليلٌ بإشارةِ النصِّ والإدماج على بطلان قول الرافضة: إنَّ الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيءٌ من الجزئيات. ولا يَخْفَى أنهم إن عَنَوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمامُ عالماً على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعُها، وأن يكون مستحضراً الجوابَ الصحيحَ عن كلِّ ما يُسأل عنه، فبطلانُ كلامهم في غاية الظهور، وقد سئل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وهو على منبر الكوفة عن مسألةٍ فقال: لا أدري. فقال السائل: ليس مكانُك هذا مكانَ مَن يقول: لا أدري. فقال الإمام كرم الله تعالى وجهه: بلى واللهِ، هذا مكانُ مَن يقول: لا أدري، وأمَّا مَن لا يقول ذلك فلا مكان له. يعني به اللهَ عزَّوجلَّ.

وإنْ عَنَوا أنه يجب أن يكون عالماً بجميع القواعد الشرعية وبكثيرٍ من الفروع الجزئية لتلك القواعد بحيث لو حَدَثَتْ حادثةٌ ولا يُعلم حكمُها يكون متمكِّناً من استنباط الحكم فيها على الوجه الصحيح، فذاك حقٌّ وهو في معنى قول الجماعة: يجبُ أن يكون الإمام مجتهداً. وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلَبُ من محلِّه.

وقوله تعالى ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ ـ أي: تتصرَّفُ بهم ولا يَعترضُ عليها أحدٌ ـ استئنافٌ لبيان ما جاء به من النبأ، وتفصيلٌ له إثر إجمالٍ، وعَنَى بهذه المرأة بلقيس[٦] بنت شَراحيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب بن قطحان، ويقال: من نسل تبَّع الحميريِّ.

---

(١) النشر ١/ ٢٨٩، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٤٢.

(٢) ينظر التسهيل ص٣٢٣، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٤٢.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٦٠، وحاشية الشهاب ٧/ ٤٢.

(٤) قوله: في، ساقط من (م).

(٥) ٧/ ٤٢.

(٦) جاء في هامش (م): بكسر الباء معرَّب، وهو قبل التعريب بفتحها. اهـ منه، وذكره الشهاب في الحاشية ٧/ ٤٢ نقلاً عن الطيبي.

وروى ابن عساكر عن الحسن أنَّ اسم هذه المرأة ليلى[١]، وهو خلافُ المشهور.

وقيل: اسم أبيها السَّرْحُ بن الهداهد.

ويحكى أنه كان أبوها ملك أرض اليمن كلِّها، ووَرِث المُلْكَ من أربعين أباً، ولم يكن له ولدٌ غيرُها، فغَلَبتْ بعده على الملك ودانت لها الأمة.

وفي بعض الآثار أنه لما مات أبوها طمعت في الملك، وطلبت من قومها أن يبايعوها، فأطاعها قومٌ وأبى آخرون، فملَّكوا عليهم رجلاً يقال: إنه ابن عمِّها، وكان خبيثاً فأساء السيرة في أهل مملكته، حتى كان يفجُرُ بنساء رعيته، فأرادوا خَلْعَه فلم يقدروا عليه، فلما رأت ذلك أدركتها الغيرةُ، فأرسلت إليه تعرضُ نفسَها عليه، فأجابها وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأسُ منك. قالت: لا أغربُ عنك لأنك كفؤٌ كريمٌ، فاجمع رجال أهلي واخطبني. فجمعهم وخطبها، فقالوا: لا نراها تفعل. فقال: بلى إنها رغبت فيَّ، فذكروا لها ذلك فقالت: نعم. فزوَّجوها منه، فلما زُفَّت إليه خرجت مع أناسٍ كثيرٍ من حشمها وخدمها، فلمَّا خَلَتْ به سقته الخمر حتى سكر، فقتلته وحزَّتْ رأسه وانصرفت إلى منزلها، فلمَّا أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرَّعتهم، وقالت: أما كان فيكم مَن يأنَفُ من الفجور بكرائم عشيرته؟! ثم أرتهم إياه قتيلاً، وقالت: اختاروا رجلاً تملِّكوه عليكم. فقالوا: لا نرضى غيرك. فملَّكوها وعَلِموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعةً منها.

واشتهر أنَّ أمَّها جنيَّة، وقد أخرج ذلك ابنُ أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد[٢]، والحكيم الترمذيُّ وابن مردويه عن عثمان بن حاضر: أنَّ أمَّها امرأةٌ من الجنِّ يقال لها: بلقمة بنت شيصا[٣]. وابن أبي حاتم عن زهير بن محمد: أنَّ أمَّها فارعة الجنيَّة[٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٠٥.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٠٥ بلفظ: صاحبة سبأ كانت أمها جنية، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٩ دون قوله: أمها.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٠٥-١٠٦، وفيه: شيصان بالنون.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٦٥.

وفي التفسير الخازنيِّ: أن أباها شراحيل كان يقول لملوك الأطراف: ليس أحدٌ منكم كفؤاً لي، وأَبَى أن يتزوَّج فيهم، فخطب إلى الجنِّ فزوَّجوه امرأةً يقال لها: ريحانة بنت السكن. وسببُ وصوله إلى الجنِّ حتى خطب إليهم ـ على ما قيلَ ـ أنه كان كثيرَ الصيد، فربما اصطاد الجنَّ وهم على صور الظباء فيخلِّي عنهم، فظهر له مَلِك الجنِّ وشكره على ذلك واتَّخذه صديقاً، فخطب ابنته فزوَّجه إياها.

وقيل: إنه خرج متصيِّداً فرأى حيَّتين يقتتلان بيضاء وسوداء، وقد ظهرت السوداء على البيضاء، فقَتَل السوداء وحمل البيضاء وصبَّ عليها الماء فأفاقت فأطلقها، فلمَّا رجع إلى داره جلس وحده منفرداً، فإذا هو معه شابٌّ جميلٌ فخاف منه، فقال: لا تخف، أنا الحيةُ البيضاء الذي أحييتني، والأسودُ الذي قتلته هو عبدٌ لنا تمرَّد علينا وقتل عدَّةً منَّا، وعرض عليه المال، فقال: لا حاجة لي به، ولكن إن كان لك بنتٌ فزوِّجْنيها. فزوَّجه ابنته فولدت له بلقيس[1]. انتهى.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في «العظمة» وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحدُ أبوي بلقيس كان جنياً»[2]. والذي ينبغي أن يعوَّل عليه عدمُ صحة هذا الخبر.

وفي «البحر»: قد طوَّلوا في قصصها ـ يعني بلقيس ـ بما لم يثبت في القرآن ولا الحديث الصحيح[3].

وإنَّ ما ذكر من الحكايات أشبهُ شيءٍ بالخرافات، فإنَّ الظاهر ـ على تقدير وقوع التناكُح بين الإنس والجنِّ، الذي قيل: يُصْفَعُ السائلُ عنه لحماقته وجهله ـ أن لا يكون توالدٌ بينهما، وقد ذكر عن الحسن فيما رَوى ابن عساكر أنه قيل بحضرته:

---

(١) تفسير الخازن ٥/ ١٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٨٣، والعظمة (١١١٣)، وتاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٦٧، وهو فيه دون إسناد، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٠٥، وقال المناوي في فيض القدير ١/ ١٨٦: وفيه سعيد بن بشر، قال في الميزان عن ابن معين: ضعيف، وعن ابن مسهر: لم يكن ببلدنا أحفظ منه، وهو ضعيف منكر الحديث. ثم ساق من مناكيره هذا الخبر.

(٣) البحر ٧/ ٦٧.

إنَّ ملكة سبأ أحدُ أبويها جنِّي، فقال: لا يتوالدون، أي: أن المرأة من الإنس لا تلد من الجنِّ، والمرأة من الجنِّ لا تلدُ من الإنس[1].

نعم رُوي عن مالك ما يقتضي صحة ذلك؛ ففي «الأشباه والنظائر» لابن نجيم: روى أبو عثمان [سعيد بن العباس الرازي في كتاب «الإلهام والوسوسة» فقال: حدثنا مقاتل، حدثني] سعيد بن داود الزبيديُّ قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالكٍ يسألونه عن نكاح الجنِّ، وقالوا: إنَّ هاهنا رجلاً من الجنِّ زعم أنه يريد الحلال. فقال: ما أرى بأساً في الدِّين، ولكنْ أكره إذا وُجِدَتِ امرأةٌ حاملٌ قيل لها: مَن زوجُك؟ قالت: من الجنِّ، فيكثر الفساد في الإسلام بذلك[2]. انتهى، ولعله لم يثبت عن مالك لظهور ما يَردُ على تعليل الكراهة.

ثم ليت شعري، إذا حملت الجنِّيةُ من الإنسيِّ، هل تبقى على لطافتها فلا تُرى والحملُ على كثافته فيُرى، أو يكونُ الحمل لطيفاً مثلها فلا يُرَيان، فإذا تمَّ أمره تكثف[3] وظهر كسائر بني آدم، أو تكونُ متشكِّلةً بشَكْلِ نساءِ بني آدم ما دام الحملُ في بطنها، وهو فيه يتغذَّى وينمو بما يصل إليه من غذائها؟ وكلٌّ من الشقوق لا يخلو عن استبعادٍ كما لا يخفى.

وإيثارُ «وجدتُ» على: رأيتُ، لِمَا أُشير إليه فيما سبق من الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام، بإبرازِ نفسه في معرض مَن يتفقَّد أحوالها ويتعرَّفُها: كأنها طِلْبتُه وضالَّتُه، لِيَعْرِضَها على سليمان عليه السلام، وقيل: للإشعار بأنَّ ما ظفر به أمرٌ غيرُ معلومٍ أوَّلاً؛ لأن الوجدان بعد الفَقْدِ، وفيه رمزٌ بغرابة الحال.

وضمير «تملكهم» لسبأ على أنه اسمٌ للحيِّ، أو لأهلها المدلولِ عليهم بذكر مدينتهم على أنها اسمٌ لها. وليس في الآية ما يدلُّ على جواز أن تكون المرأة ملكةً، ولا حجةَ في عمل قومٍ كفرةٍ على مثل هذا المطلب؛ وفي «صحيح البخاريِّ»

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٦٧.
(٢) الأشباه والنظائر ص٣٩٠، وذكره أيضاً الشبلي في أحكام الجان ص٩٧، وما سلف بين حاصرتين منهما.
(٣) في الأصل: تكشف.

من حديث أبي بكرة[١]، أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بلغه أنَّ أهل فارس قد ملَّكوا بنتَ كسرى، قال: «لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأة»[٢].

ونقل عن محمد بن جرير[٣] أنه يجوز أن تكون المرأة قاضيةً، ولم يصحَّ عنه.

وفي «الأشباه»: لا ينبغي أن تولَّى القضاءَ وإن صحَّ منها بغير الحدود والقصاص[٤].

وذكر أبو حيان أنه نُقل عن أبي حنيفة عليه الرحمةُ أنها تقضي فيما تَشْهَدُ فيه، لا على الإطلاق، ولا أَنْ يُكتَبَ لها منشورٌ بأنَّ فلانة مُقْدِمةٌ على الحكم وإنما ذلك على سبيل التحكيم لها[٥].

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من الأشياء التي تحتاجُ إليها الملوك، بقرينةِ «تملِكهُم»، وقد يقال: ليس الغرض إلا إفادةَ كثرة ما أوتيت. والجملةُ تحتمل أن تكون عطفاً على جملة «تملكهم»، وأن تكون حالاً من ضمير «تملكهم» المرفوعِ، بتقدير «قد» أو بدونه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس كما أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر: أي: سريرٌ كريمٌ من ذهبٍ وقوائمه من جوهرٍ ولؤلؤ، حَسَنُ الصنعة غالي الثمن[٦]. وروي عنه أيضاً أنه كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، وكان طولُه في السماء ثلاثين ذراعاً أيضاً. وقيل: كان طوله ثمانين في ثمانين، وارتفاعه ثمانين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد: أنه سريرٌ من ذهبٍ، وصفحتاه مرصَّعتان بالياقوت والزَّبَرْجَد، طولُه ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً[٧].

---

(١) في الأصل و(م) والبحر: ابن عباس، والتصويب من صحيح البخاري.
(٢) صحيح البخاري (٤٤٢٥)، وهو عند أحمد (٢٠٤٣٨).
(٣) كما في البحر ٧/ ٦٧، وعنه نقل المصنف.
(٤) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص٣٨٥.
(٥) البحر ٧/ ٦٧.
(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٤٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٦.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٦٧.

وقيل: كان من ذهب مكلَّلاً بالدرِّ والياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزُّمرُّد، وعليه سبعةُ أبياتٍ على كلِّ بيتٍ بابٌ مغلقٌ.

وقيل غيرُ ذلك، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

وبالجملة فالظاهرُ أن المراد بالعرش السرير، وقال أبو مسلم: المرادُ به المُلْكُ، ولا داعي إليه.

واستعظامُ الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهدُه من مُلْكِ سليمان عليه السلام، إمَّا بالنسبة إلى حالها، أو إلى عروش أمثالها من الملوك. وجوِّز أن يكون ذلك لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثلُه وإن كان عظيم الملك، فإنه قد يوجدُ لبعض أمراء الأطراف شيءٌ لا يكون للمَلِكِ الذي هم تحت طاعته.

وأيّاً ما كان فوصفُه بذلك بين يديه عليه السلام لِما ذُكر أوَّلاً من ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وفيه توجيهٌ لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها، ولذلك عقبه بما يُوجبُ غزوَها من كُفرِها وكُفْرِ قومها، حيث قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى. قال الحسن كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. وقيل: كانوا زنادقة.

والظاهر أنَّ هذه الجملة استئنافُ كلامٍ، وأنَّ الوقف على «عظيم»، قال صاحب «المرشد»: ولا يُوْقَفُ على «عرش»، وقد زعم بعضهم جوازَه، وقال: معناه: عظيم عند الناس. وقد أنكر هذا الوقف أبو حاتم وغيرُه من المتقدِّمين، ونسبوا القائل به إلى الجهل. وقولُ مَن قال: معناه: عظيمٌ عبادتهم للشمس من دون الله تعالى، قولٌ ركيكٌ لا يُعتَدُّ به، وليس في الكلام ما يدل عليه.

وفي «الكشاف»: من نَوْكَى القصَّاص مَن وقف على «عرش» يريد: عظيمٌ أنْ وجدتُها، فرَّ من استعظام الهدهدِ عرشَها، فوقع في عظيمةٍ وهي نسخُ كتاب الله تعالى[1].

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤٤، وفيه: مسخ، بدل: نسخ، وكذا نقل عنه السمين في الدر ٨/ ٥٩٧. وقال السمين: النوكى: الحمقى، جمع أحمق، وهذا الذي ذكره من أمر الوقف نقله الداني عن نافع وقرَّره، وأبو بكر بن الأنباري عن بعض أهل العلم، فلا ينبغي أن يقال: نوكى القصاص.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي هي عبادةُ الشمس، ونظائرُها من أصناف الكفر والمعاصي. والجملة تحتمل العطفَ على جملة «يسجدون»، والحاليةَ من الضمير على نحو ما مرَّ آنفاً.

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ أي: الشيطان، وجوّز كونُ الضمير للتزيين المفهوم من الفعل، أي: فصدَّهم تزيينُ الشيطان ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقِّ والصوابِ ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: لئلا يسجدوا، واللامُ للتعليل، وهو متعلِّقٌ بـ «صدَّهم» أو «زين». والفاء في «فصدَّهم» لا يلزم أن تكون سببيةً؛ لجواز كونها تفريعيةً أو تفصيلية. أي: فصدّهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله عز وجل، أو: زيَّن لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا له تعالى.

وجوّز أن تكون «أن» وما بعدها في تأويل مصدرٍ وقع بدلاً من «أعمالهم» وما بينهما اعتراضٌ، كأنه قيل: وزيَّن لهم الشيطان عَدَمَ السجود لله تعالى. وتعقِّب بأنه ظاهرٌ في عدِّ عدم السجود من الأعمال، وهو بعيد.

وجوّز أن يكون ذلك بدلاً من السبيل، و«لا» زائدة مثلها في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، كأنه قيل: فصدَّهم عن السجود لله تعالى.

وجوّز أن يكون بتقدير «إلى» و«لا» زائدة أيضاً، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «يهتدون»، كأنه قيل: فهم لا يهتدون إلى السجود له عز وجل.

وأنت تعلم أنَّ زيادة «لا» وإن وقعت في الفصيح خلافُ الظاهر.

وجوّز أن لا يكون هناك تقديرٌ، والمصدرُ خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: دأبُهم عدمُ السجود. وقيل: التقدير: هي ـ أي: أعمالُهم ـ عدمُ السجود، وفيه ما مرَّ آنفاً.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر والزهريُّ والسُّلميُّ والحسن وحميد والكسائيُّ: «ألَا» بالتخفيف[1]، على أنها للاستفتاح، و«يا» حرفُ نداء، والمنادى محذوف،

(١) التيسير ص١٦٧-١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٧ عن الكسائي وأبي جعفر ورويس عن يعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٦٨.

أي: أَلَا يا قوم اسجدوا، كما في قوله:

ألا يا اسلمي ذاتَ الدمالج والعِقْدِ[١]

ونظائرِه الكثيرة. وسقطت ألفُ «يا» وألفُ الوصل في «اسجدوا» وكتبت الياء متصلةً بالسين على خلاف القياس، ووقف الكسائيُّ في هذه القراءة على «يا» وابتدأ بـ «اسجدوا»[٢]، وهو وقفُ اختيارٍ.

وفي «البحر»[٣]: الذي أذهبُ إليه أنَّ مثل هذا التركيب الواردِ عن العرب ليست «يا» فيه للنداء والمنادى محذوف؛ لأنَّ المنادى عندي لا يجوزُ حذفُه؛ لأنه قد حُذِفَ الفعلُ العامل في النداء وانحذف فاعلُه لحذفه، فلو حذفنا المنادى لكان في ذلك حذْفُ جملة النداء وحَذْفُ متعلّقِه وهو المنادَى، وإذا لم نحذفه كان دليلاً على العامل فيه وهو جملةُ النداء، وليس حرفُ النداء حرفَ جوابٍ كـ : نَعَم وبلى ولا وأَجَلْ، فيجوز حذف الجملة بعده كما يجوز حذفها بعدهنَّ لدلالة ما سبق من السؤال على الجملة المحذوفة، فـ «يا» عندي في تلك التراكيب حرفُ تنبيهٍ أُكِّد به «ألا» التي للتنبيه، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين، ولقصد المبالغة في التوكيد. وإذا كان قد وُجِدَ التأكيد في اجتماع الحرفين المختلفي اللفظِ العامليْنِ في قوله:

فأصبحن لا يسألنني عن بما به[٤]

---

(١) وعجزه: وذاتَ الثنايا الغُرِّ والفاحِم الجَعْدِ، والبيت لأبي الأخيل العجلي كما في منتهى الطلب ٨/ ١٧٦، ونُسب للعُدَيْل بن الفرخ العجلي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧٢٩، وللتبريزي ٢/ ١٢٦، وقال أبو رياش كما نقل عنه التبريزي: ليست هذه الأبيات للعُديل، وهي قصيدة طويلة لأبي الأخيل العجلي قالها في آخر أيام بني أمية، وجاء في المصادر: الدماليج، بدل: الدمالج، قال المرزوقي: الدماليج: جمع الدملوج: وهي المِعْضَد.

(٢) التيسير ص١٦٧-١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٧، والكلام من البحر ٧/ ٦٩.

(٣) ٧/ ٦٩.

(٤) وعجزه: أَصَعَّد في عُلْوِ الهوى أم تَصَوَّبا، والبيت للأسود بن يعفر كما في المقاصد النحوية للعيني بهامش الخزانة ٤/ ١٠٣ (طبعة دار صادر)، وهو دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢١، وسر صناعة الإعراب ١/ ١٣٦، والضرائر ص٧٠ و٣٠٣، والخزانة ٩/ ٥٢٧. وجاء في بعض المصادر: يسألنه.

والمتَّفِقي اللفظِ العاملين أيضاً في قوله:

فـلا واللهِ لا يُـلْـفَـى لـمـا بـي ... ولا لِـلِـمَـا بـهـم أبـداً دواءُ(١)

وجاز ذلك وإن عَدُّوْه ضرورةً أو قليلاً، فاجتماعُ غير العاملين وهما مختلفا اللفظ يكون جائزاً. وليس «يا» في قوله:

يـا لـعـنـةُ الله والأقـوام كـلِّـهـم(٢)

حرفَ نداءٍ عندي، بل حرفَ تنبيهٍ جاء بعده المبتدأ وليس مما حذف فيه المنادى لمَا ذكرناه. انتهى، وللبحث فيه مجال.

وعلى هذه القراءةِ يحتملُ أن يكون الكلام استئنافاً من كلام الهدهد إما خطاباً لقوم سليمان عليه السلام للحثِّ على عبادة الله تعالى، أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلةَ المخاطبين، ويحتمل أن يكون استئنافاً من جهة الله عزَّ وجلَّ، أو من سليمان عليه السلام كما قيل، وهو حينئذٍ بتقدير القول.

ولعل الأظهرَ احتمالُ كونه استئنافاً من جهته عزَّ وجلَّ خاطب سبحانه به هذه الأمة، والجملةُ معترضةٌ.

ويوقف على هذه القراءة على «يهتدون» استحساناً، ويوجبُ ذلك زيادةَ عدَّةِ آيات هذه السورة على ما قالوه فيها عند بعض، وقيل: لا يوجبها، فإنَّ الآيات توقيفيةٌ ليس مدارُها على الوقف وعدمِه، فتأمل.

والفرق بين القراءتين معنًى: أنَّ في الآية على الأولى ذمًّا على ترك السجود، وفيها على الثانية أمراً بالسجود. وأيًّا ما كان فالسجودُ واجب عند قراءة الآية،

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٦٨، والخصائص ٢/ ٢٨٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٧ و٨/ ٤٣، والخزانة ٢/ ٣٠٨. قال البغدادي: وهذا البيت من قصيدة لمسلم بن معبد الوالبي شاعر إسلامي في الدولة الأموية.

(٢) وعجزه: والصالحين على سمعان من جار، وهو في الكتاب ٢/ ٢١٩، والإنصاف ١/ ١١٨، ومغني اللبيب ص٤٨٨، وشرح المفصل ٢/ ٢٤، وفيه: ويروى: والصالحون والصالحين مرفوعاً ومخفوضاً.

وزعم الزجَّاج وجوبه على القراءة الثانية[١]، وهو مخالفٌ لِمَا صرَّح به الفقهاء، ولذا قال الزمخشريُّ: إنه غيرُ مرجوعٍ إليه[٢].

وقرأ الأعمش: «هلَّا يسجدون»[٣] على التحضيض وإسنادِ الفعل إلى ضمير الغائبين. وفي قراءة أبيٍّ: «ألا تسجدون» على العَرْض وإسنادِ الفعل إلى ضمير المخاطبين. وفي حرف عبد الله: «ألا هل تسجدون» بـ «ألا» الاستفتاحية و«هل» الاستفهامية، وإسنادِ الفعل إلى ضمير المخاطبين، قاله ابن عطية[٤]. وفي «الكشاف» ما فيه مخالفةٌ ما له[٥]، والعالم بحقيقة الحال هو الله عز وجل.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُظْهِرُ الشيءَ المخبوءَ فيهما كائناً ما كان، فالخبءُ مصدرٌ أُريدَ به اسمُ المفعول. وفسره بعضهم هنا بالمطر والنبات، ورُوي ذلك عن ابن زيد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه فسَّره بالماء[٦].

والأَوْلَى التعميم كما رَوَى ذلك جماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

و«في السماوات» متعلِّقٌ بـ «الخبء». وعن الفرَّاء أنَّ «في» بمعنى «مِن»[٧]، فالجارُّ والمجرورُ على هذا متعلِّقٌ بـ «يُخرج»، والظاهرُ ما تقدم.

واختيارُ هذا الوصف لِمَا أنه أوفقُ بالقصة، حيث تضمَّنَتْ ما هو أشبهُ شيءٍ بإخراج الخَبْءِ وهو إظهارُ أمرِ بلقيس وما يتعلَّق به. وعلى هذا القياس اختيارُ ما ذكر بعدُ من صفاته عزَّ وجل.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٥، وفيه: ومن قرأ بالتخفيف فهو موضع سجدة من القرآن، ومن قرأ بالتشديد فليس بموضع سجدة.
(٢) الكشاف ٣/ ١٤٥، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٤٣.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، وذكرها السمين في الدر المصون ٨/ ٦٠٤ دون نسبة.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ٦٨، وقراءة أبيّ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٠، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٤٥.
(٥) الكشاف ٣/ ١٤٥، وقد ورد فيه اختلافٌ في ألفاظ هذه القراءات ونسبتها.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٦٨.
(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩١.

وقيل: إنَّ تخصيص هذا الوصف بالذكر لِمَا أنَّ الهدهد أرسخُ في معرفته والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض. وأنت تعلم أنَّ كون الهدهد أُوْدِعَ فيه القدرةُ على ما ذُكر مما لم يجئ فيه خبرٌ يعوَّلُ عليه.

وأيضاً التعليلُ المذكورُ لا يتسنَّى على قراءة ابن عباس والستةِ الذين معه: «ألا يسجدوا» بالتخفيف، إذا جُعِلَ الكلام استئنافاً من جهته عزَّ وجلَّ، أو من جهة سليمان عليه السلام.

وقرأ أبيٌّ وعيسى: «الخبَ» بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة[1]. وحكى ذلك سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد[2].

وقرأ عكرمة بألفٍ بدل الهمزة، فلزم فتحُ ما قبلها، وهي قراءة عبد الله ومالك بن دينار[3]، وخرِّجَتْ على لغةِ مَن يقول في الوقف: هذا الخبو، ومررت بالخبي، ورأيتُ الخبا، وأجري الوصل مجرى الوقف.

وأجاز الكوفيون أن يقال في المرأة والكمأة: المراة والكماة، بإبدال الهمزة ألفاً وفتحِ ما قبلها، وذُكر أنَّ هذا الإبدالَ لغةٌ، وجوِّز أن يكون «الخبء»[4] من ذلك، ومنعه الزمخشريُّ مدَّعياً أنَّ ذلك لغةٌ ضعيفةٌ مسترذلةٌ[5]. وعلَّل بأنَّ الهمزة إذا سكن ما قبلها فطريقُ تخفيفها الحذفُ لا القلبُ، كما يقال في الكمْءِ[6]: كمه.

وتعقَّبه في «الكشف» فقال: تخريجه على الوقف فيه ضَعْفان؛ لأنَّ الوقف على ذلك الوجه ليس من لغة الفصحاء، وإجراءُ الوصل مجرى الوقف فيما لا يكثر استعماله كذلك، وأما تلك اللغة فعن الكوفيين أنها قياس. انتهى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ٦٩.

(٢) الكتاب ٣/ ٥٤٥ و٤/ ١٧٧، والكلام من البحر ٧/ ٦٩.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧، والكشاف ٣/ ١٤٥، والبحر ٧/ ٦٩، والكلام منه.

(٤) في الأصل: الخبا.

(٥) الكشاف ٣/ ١٤٥.

(٦) في الأصل: الكماء.

وزعم أبو حاتم أنَّ «الخبا» بالألف لا يجوز أصلاً، وهو من قُصور العلم؛ قال المبرِّد: كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو، ولم يلحق بهم، إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلْقَ أعلم منه[١].

وأشير بعطف قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝﴾ على «يُخْرِجُ» إلى أنه تعالى يُخْرِجُ ما في العالَم الإنسانيِّ من الخفايا كما يُخْرِجُ ما في العالم الكبير من الخبايا؛ لما أنَّ المراد: يُظهر ما تُخفونه من الأحوال فيجازيكم بها، وذكر «ما تعلنون» لتوسيع دائرة العلم، أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي، كذا قيل.

ويُشْعِرُ كلام بعضهم بأنه أشير بما تقدَّم إلى كمال قدرته تعالى، وبهذا إلى كمال علمه عزَّ وجلَّ، وأنه استوى فيه الباطن والظاهر، وقدّم «ما تُخْفون» لذلك، مع مناسبته لِمَا قبله من «الخبء»، وقدّم وصفه تعالى بإخراج الخبء من السماوات لأنه أشدُّ ملاءمةً للمقام.

والخطاب على ما قيل: إما للناس، أو لقوم سليمان، أو لقوم بلقيس. وفي الكلام التفاتٌ.

وقرأ الحِرْميَّان والجمهور: «ما يخفون وما يعلنون» بياء الغيبة[٢].

وفي «الكشاف» عن أبيٍّ أنه قرأ: «ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون»[٣].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ في معنى التعليل لوَصْفِه عزَّ وجلَّ بكمال القدرة وكمال العلم. و«العظيم» بالجرِّ صفةُ العرش، وهو نهايةُ الأجرام فلا جرمَ فوقه، وفي الآثار مِن وَصْفِ عظمه ما يبهرُ العقول، ويكفي في ذلك أنَّ

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٧ عن علي بن سليمان عن محمد بن يزيد المبرد، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٦٩.

(٢) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٧، وقرأ بالخطاب حفص والكسائي.

(٣) الكشاف ٣/ ١٤٥.

الكرسيَّ الذي نطق الكتابُ العزيز بأنه وَسِعَ السماواتِ والأرضَ بالنسبة إليه كحلقة في فلاة[١].

وهو عند الفلاسفة محدِّدُ الجهات، وذهبوا إلى أنه جسمٌ كريٌّ خالٍ عن الكواكب، محيطٌ بسائر الأفلاك، محرِّكٌ لها قسراً من المشرق إلى المغرب، ولا يَكاد يَعلم مقدارَ ثخنه إلا الله تعالى. وفي الأخبار الصحيحة ما يأبى بظاهره بعضَ ذلك[٢]. وأيًّا ماً كان فبين عِظَمِه وعِظَمِ عَرْشِ بلقيس بونٌ عظيم.

وقرأ ابن محيصن وجماعة: «العظيمُ» بالرفع[٣]، فاحتمل أن يكون صفةً للعرش مقطوعةً بتقديرِ هو، فتستوي القراءتان معنًى، واحتمل أن يكون صفةً للرَّب.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند قوله ذلك؟ فقيل: قال: ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي: فيما ذكرتَه، من النظر بمعنى التأمُّل والتفكُّر، والسينُ للتأكيد، أي: سنتعرَّفُ بالتجربة البتة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ جملةٌ معلَّقٌ عنها الفعلُ للاستفهام.

وكان مقتضَى الظاهر: أم كذبتَ، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم للإيذان بأنَّ كذبه في هذه المادة يستلزمُ انتظامَه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه، فإنَّ مساق هذه الأقاويل الملفَّقة مع ترتيبٍ أنيقٍ يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداقٌ أصلاً، لا سيما بين يدي نبيٍّ عظيمٍ تُخشى سطوتُه، لا يكاد يَصْدُر إلَّا عمن رسختْ قدمُه في الكذب والإفك، وصار سجيةً له حتى لا يملك نفسه عنه في أيِّ موطنٍ كان. وزَعَم بعضُهم أنَّ ذاك لمراعاة الفاصلة، وليس بشيءٍ أصلاً.

---

(١) أخرجه الطبري ٤/ ٥٣٩، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٤) من طريق زيد بن أسلم عن أبي ذرٍّ ﷺ مرفوعاً، وإسناده منقطع، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٥٠) عن مجاهد قوله.

(٢) منها ما أخرجه أحمد (٨٤١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن...، وعن عبادة بن الصامت عند أحمد أيضاً (٢٢٦٩٥) نحوه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٧٠.

وفي الآية على ما في «الإكليل» قبولُ الوالي عذرَ رعيته، ودرءُ العقوبة عنهم، وامتحانُ صدقهم فيما اعتذروا به[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية النظر الذي وَعَده عليه السلام بعدما كتب كتابه في ذلك المجلس أو بعده، فـ «هذا» إشارةٌ إلى الحاضر. وتخصيصُه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجنِّ الأقوياء على التصرُّف والتعرُّف؛ لِمَا عاين فيه من مخايل العلم والحكمة، ولئلَّا يبقى له عذرٌ أصلاً.

وفي الآية دليلٌ على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام لإبلاغ الدعوة والدعاء إلى الإسلام. وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرِهما من ملوك العرب.

وقرئ في السبعة: «فألقه» بكسر الهاء وياءٍ بعدها، وباختلاس الكسرة، وبسكون الهاء[٢]. وقرأ مسلم بن جندب بضم الهاء وواو بعدها[٣].

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تَنحَّ، وحُمِلَ على ذلك لأنَّ التولِّيَ بالكلِّية ينافي قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إلَّا أنْ يُحمل على القَلْبِ كما زعم ابن زيد وأبو عليٍّ[٤]، وهو غيرُ مناسبٍ.

وأَمْرُه عليه السلام إياه بالتنحِّي من باب تعليم الأدب مع الملوك كما روي عن وهب.

والنظر بمعنى التأمُّل والتفكُّر، و«ماذا» إمَّا كلمةُ استفهامٍ في موضع المفعول

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٠١.
(٢) قرأ بسكون الهاء أبو عمرو وعاصم وحمزة وأبو جعفر، وباختلاس الكسرة قالون ويعقوب وهشام بخلف عنه، وبكسر الهاء وبالياء الباقون، وهو الوجه الثاني لهشام. النشر ١/ ٣٠٥-٣٠٦.
(٣) البحر ٧/ ٧٠.
(٤) البحر ٧/ ٧٠، وفيه: قال ابن زيد: أمره بالتولِّي بمعنى الرجوع إليه، أي: ألقه وارجع، قال: وقوله: «فانظر ماذا يرجعون» في معنى التقديم مع قوله: «ثم تولَّ عنهم». وقاله أبو علي، ولا ضرورة تدعو إلى التقديم والتأخير. اهـ.

لـ «يرجعون»، ورجع تكون متعدِّيةً كما تكون لازمةً، أو مبتدأ وجملة «يرجعون» خبره. وإمَّا أن تكون «ما» استفهاميةً مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبره، وجملة «يرجعون» صلة الموصول والعائد محذوفٌ. وأيًّا ما كان فالجملةُ معلَّقٌ عنها فعلُ القلب فمحلُّها النصبُ على إسقاط الخافض.

وقيل: النظر بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] فلا تعليق، بل كلمة «ماذا» موصولٌ في موضع المفعول، كذا قيل، والظاهر أنه بمعنى التأمُّل، وأنَّ المراد: فتأمَّل وتعرَّف ماذا يردُّ بعضُهم على بعض من القول. وهذا ظاهرٌ في أنَّ الله تعالى أعطى الهدهد قوةً يفهم بها ما يسمعه من كلامهم. والتعبير بالإلقاء لأنَّ تبليغه لا يمكن بدونه. وجمع الضمير لأنَّ المقصود تبليغُ ما فيه لجميع القوم، والكشف عن حالهم بعده.

﴿قَالَتْ﴾ أي: بعد ما ذهب الهدهدُ بالكتاب فألقاه إليهم وتنحَّى عنهم حَسْبَما أُمِرَ به، وإنما طوي ذِكْرُه إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أُمر به من الخدمة، وإشعاراً بالاستغناء عن التصريح به لغاية ظهوره.

روي أنه عليه السلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد، فذهب به فوجدها راقدةً في قصرها بمَأْرِب، وكانت إذا رقدتْ غلَّقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل من كوَّةٍ وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وفي رواية: بين ثدييها. وقيل: نقرها فانتبهت فزعة.

وقيل: أتاها والقادةُ والجنودُ حواليها، فرفرف ساعةً والناسُ ينظرون حتى رفعت رأسها، فألقى الكتاب في حِجْرها، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فقالت ما قالت.

وقيل: كانت في البيت كوَّةٌ تقع الشمس منها كلَّ يومٍ، فإذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد فسدَّها بجناحيه، فرأت ذلك وقامت إليه فألقى الكتاب إليها، وكانت قارئةً كاتبةً عربيةً من نسل يعرب بن قحطان، واشتهر أنها من نسل تُبَّع الحميريِّ، وكان الخطُّ العربيُّ في غاية الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، وهو المسمَّى بالخط الحميريِّ، وكان بحِمْير كتابةٌ تسمَّى المسند حروفُها مفصَّلةٌ،

وكانوا يَمنعون من تعليمها إلا بإذنهم، ومن حمير تعلَّم مضر، وقد تقدَّم بعضُ الكلام في ذلك[١].

واختار ابن خلدون القول بأنه تعلَّم الكتابة العربية من التبابعة وحمير أهلُ الحيرة، وتعلَّمها منهم أهلُ الحجاز[٢].

وظاهرُ كونِ بلقيس من العرب وأنها قرأت الكتاب يقتضي أنَّ الكتاب كان عربيًّا، ولعل سليمان عليه السلام كان يعرف العربيَّ وإن لم يكن من العرب، ومَن علِّم منطِقَ الطير لا يَبْعُدُ أن يعلم منطق العرب الذي هو أشرفُ منطق. ويحتمل أن يكون عنده مَن يعرِفُ ذلك، وكذا مَن يعرف غيره من اللغات، كعادة الملوك يكون عندهم مَن يتكلَّم بعدَّة لغاتٍ ليترجم لهم ما يحتاجونه.

ويجوزُ أن يكون الكتاب غيرَ عربيٍّ، بل بلغة سليمان عليه السلام وقلمِه، وكان قلمُه كما نقل عن الإمام أحمد البوني[٣] كاهنيًّا، وكان عند بلقيس من ترجَمَه لها وأعْلَمها بما فيه، فجمعت أشرافَ قومها وأخبرتهم بذلك، واستشارتهم كما حَكَى سبحانه عنها بقوله جلَّ وعلا: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ إلخ. وأَقْدَمَ سليمانَ عليه السلام على كتابة الكتاب إليها كذلك قولُ الهدهد: «وأُوتِيتْ من كلِّ شيءٍ»، والمترجِمُ من الأشياء التي يحتاج إليها الملك، وأنَّ اللائق بشأنه وعظمته أن لا يترك لسانه ويتشبَّهَ بها في لسانها. ويحتملُ أنها كانت بنفسها تعرفُ تلك الكتابة فقرأت الكتاب لذلك.

ورجَّح احتمالَ أن يكون الكتابُ غيرَ عربيٍّ بأنَّ الكتابة لها بالعربية تستدعي الوقوف على حالها، وهو عليه السلام ما وقف عليه بعد.

وتعقَّب بأنه دلَّه على كونها عربيةً قولُ الهدهد: «جئتك من سبأ بنبأ يقين إنِّي

(١) ص١٨٤ من هذا الجزء.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٥٠٣.

(٣) هو: أحمد بن علي بن يوسف البوني، تقي الدين، أبو العباس القرشي، من مصنفاته: أسرار الحروف والكلمات، شمس المعارف ولطائف العوارف، ولطائف الإشارات في أسرار الحروف العلويات، وغيرها، توفي سنة (٦٢٢هـ). هدية العارفين ١/ ٩٠، وكرامات الأولياء ١/ ٣٠٦.

وجدتُ امرأة تملكُهم» فإنه عليه السلام ممن لا يخفَى عليه كون سبأ من العرب، والظاهرُ كونُ ملكتهم منهم.

ووَصَفتِ الكتاب بالكرم لكونه مختوماً، ففي الحديث: «كرمُ الكتاب خَتْمُه»[1]. وفي «شرح أدب الكاتب»: يقال: أكرمتُ الكتاب فهو كريمٌ، إذا ختمته[2]. وقال ابن المقنع[3]: مَن كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخفَّ به. وقد فسَّر ابنُ عباس وقتادةُ وزهير بن محمد «الكريم» هنا بالمختوم، وفيه ـ كما قيل ـ استحبابُ ختم الكتب[4].

أو[5]: لكرم مضمونه وشرفه.

أو: لكرم مُرسِله وعلوِّ منزلته، وعلمتْ ذلك بالسماع، أو بكون كتابه مختوماً باسمه على عادة الملوك والعظماء، أو بكون رسوله به الطير، أو لبداءته باسم الله عز وجل، أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاجٍ غيرِ معتاد.

وقيل: إنَّ ذلك لظنِّها إياه ـ بسبب أنَّ الملقيَ له طير ـ أنه كتاب سماويٌّ. وليس بشيءٍ.

وبناء «أُلقي» للمفعول لعدم الاهتمام بالفاعل. وقيل: لجهلها به أو لكونه حقيراً. وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في «الفصوص»: من حكمة بلقيس كونُها لم تذكر مَن ألقى إليها الكتاب، وما ذاك إلا لتُعْلِم أصحابها أنَّ لها اتِّصالاً إلى أمورٍ لا يعلمون طريقها، وفي ذلك سياسةٌ منها أَوْرثَتِ الحذر منها في أهل مملكتها وخواصِّ مدبِّريها، وبهذا استحقَّت التقديمَ عليهم. انتهى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٧٢) من حديث ابن عباس ﵄ بلفظ: «كرامة الكتاب...». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٩: فيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك.

(٢) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي ١/ ١٨٧.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفيض القدير ٤/ ٥٥٠، وحاشية الشهاب ٧/ ٤٤، والكلام منه، وفي الكشاف ٣/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ١٥٢: المقفع.

(٤) في (م): الكتاب.

(٥) قوله: أو، ساقط من (م).

وتأكيدُ الجملة للاعتناء بشأن الحكم، وأمَّا التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ فلذاك أيضاً، أو لوقوعه في جواب سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: ممَّن هذا الكتاب، وماذا مضمونُه؟ فقيل: إنه من سليمان.. إلخ، ويَحسُنُ التأكيد بـ «إنَّ» في جواب السؤال، ولا أرى فرقاً في ذلك بين المحقَّق والمقدَّر. ويعلم مما ذكر أنَّ ضمير «إنه» الأولَ للكتاب، وضميرَ «إنه» الثاني للمضمون وإنْ لم يذكر.

وليس في الآية ما يدلُّ على أنه عليه السلام قدَّم اسمه على اسم الله عز وجل، وعِلْمُها بأنه من سليمان يجوزُ أن يكون لكتابة اسمه بعدُ، وقد أخرج ابن أبي حاتم(١) عن يزيد بن رومان أنه قال: كتب سليمانُ: بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن داود إلى بلقيس ابنة ذي شرح وقومِها «أنْ لا تعلوا» إلخ.

وجوِّز أن يكون لكتابته في ظاهر الكتاب، وكان باطنُ الكتاب «بسم الله» إلخ.

وقيل: ضمير«إنه» الأول للعنوان، وإنه عليه السلام عَنْوَنَ الكتاب باسمه مقدِّماً له، فكتب: من سليمان «بسم الله» إلخ، واستظهر هذا أبو حيان ثم قال: وقدَّم عليه السلامُ اسمه لاحتمال أن يبدر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة، فيكون اسمه وقاية لاسم الله عز وجل(٢). وهو كما ترى.

وكتابة البسملة في أوائل الكتب مما جرت به سنَّة نبيِّنا ﷺ بعد نزول هذه الآية بلا خلاف، وأما قبله فقد قيل: إنَّ كُتُبَه عليه الصلاة والسلام لم تُفتتح بها، فقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرُهما عن الشعبيِّ قال: كان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم، فكتب النبيُّ ﷺ أولَ ما كتب: باسمكَ اللهم، حتى نزلت: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١] فكتب: بسم الله، ثم نزلت: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠] فكتب: بسم الله الرحمن، ثم نزلت آية «النمل»: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم(٣).

---

(١) في تفسيره ٩/ ٢٨٧٢-٢٨٧٣.

(٢) البحر ٧/ ٧٢.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٨١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٦.

وأخرج أبو داود في «مراسيله» عن أبي مالك قال: كان النبيُّ ﷺ يكتب: باسمك اللهم، فلما نزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾ الآية كتب: بسم الله.. إلخ[(١)].

وروي نحوُ ذلك عن ميمون بن مهران وقتادة. وهذا عندي مما لا يكاد يتسنَّى مع القول بنزول البسملة قبل نزول هذه الآية، وهذا القول مما لا ينبغي أن يُذهَبَ إلى خلافه، فقد قال الجلال السيوطيُّ في «إتقانه»[(٢)]: اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال: أحدها وهو الصحيح: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ واحتجَّ له بعدَّة أخبارٍ منها خبرُ الشيخين في بدء الوحي[(٣)]، وهو مشهور. وثانيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وثالثها: سورة الفاتحة. ورابعها: البسملة. ثم قال: وعندي أنَّ هذا لا يعدُّ قولاً برأسه، فإنه من ضرورة نزول السورة نزولُ البسملة معها، فهي أول آيةٍ نزلت على الإطلاق. اهـ.

وهو يقوِّي ما قلناه، فإنَّ البسملة إذا كانت أولَ آيةٍ نزلت كانت هي المفتتح لكتاب الله تعالى، وإذا كانت كذلك كان اللائقُ بشأنه ﷺ أن يفتتح بها كتبه، كما افتتح الله تعالى بها كتابه وجَعَلَها أولَ المنزلِ منه.

والقولُ بأنها نزلت قبلُ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم مشروعيتها في أوائل الكتب والرسائل حتى نزلت هذه الآيةُ المتضمِّنة لكتابة سليمان عليه السلام إياها في كتابه إلى أهل سبأ، مما لا يقدِمُ عليه إلا جاهل بقَدْرِه عليه الصلاة والسلام.

وذَكَرَ بعضُ الأجلَّة أنها إذا كتبت في الكتب والرسائل فالأولى أن تُكتَب سطراً وحدها.

وفي «أدب الكتاب» للصُّولي: أنهم يختارون أن يبدأ الكاتب بالبسملة من حاشية القرطاس، ثم يكتب الدعاء مساوياً لها، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلاً بقليل، ولا يكتبونها وسطاً ويكون الدعاء فاضلاً[(٤)]. اهـ، وما ذُكِر من كتابة

---

(١) المراسيل (٣٥).
(٢) ١/ ٧٦-٨٠.
(٣) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠) من حديث عائشة ﵂.
(٤) أدب الكتاب ص٣٦. والصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله البغدادي صاحب =

الدعاء بعدها لم يكن في الصدر الأول، وإنما كان فيه كتابةُ: من فلان إلى فلان.

وتقديم اسم الكاتب على اسم المكتوب له مشروعٌ وإن كان الأول مفضولاً والثاني فاضلاً، ففي «البحر» عن أنس: ما كان أحدٌ أعظمَ حرمةً من رسول الله ﷺ، وكان أصحابُه إذا كتبوا إليه كتاباً بدؤوا بأنفسهم[1].

وقال أبو الليث في «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز؛ لأنَّ الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه[2]. انتهى.

وظاهر الآية أنَّ البسملة ليست من الخصوصيات، وقال بعضهم: إنَّها منها لكنْ باللفظ العربيِّ والترتيب المخصوص، وما في كتاب سليمان عليه السلام لم تكن باللفظ العربي وتُرجمت لنا به، وليس ذلك ببعيد.

وقرأ عبد الله: «وإنه من سليمان» بزيادة واو، وخرَّجه أبو حيان على أنها عاطفةٌ للجملة بعدها على جملةِ: «إنِّي ألقي»[3]. وقيل: هي واو الحال، والجملةُ حالية.

وقرأ عكرمة وابنُ أبي عبلة: «أنه من سليمان وأنه» بفتح همزة «أنَّ» في الموضعين[4]، وخرِّج على الإبدال من «كتاب»، أي: أُلقيَ إليَّ أنه.. إلخ، أو على أن يكون التقدير: لأنه.. إلخ، كأنها علَّلت كرم الكتاب بكونه من سليمان، وبكونه مصدّراً باسم الله عز وجل.

وقرأ أبيٌّ: «أنْ من سليمان وأنْ بسم الله» بفتح الهمزة وسكون النون، وخرِّج على أنَّ «أنْ» هي المفسِّرة؛ لأنه قد تقدَّمت جملةٌ فيها معنى القول، أو على أنها المخفَّفة من الثقيلة وحذفت الهاء[5].

= التصانيف، حدث عن أبي داود السجستاني وثعلب والمبرد وغيرهم، توفي سنة(٣٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠٢.

(١) البحر ٧/ ٧٢، وعزاه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ١٠٠ للبيهقي، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٨) من حديث سلمان رضي الله عنه.

(٢) بستان العارفين ص٦٣، والكلام من البحر ٧/ ٧٢.

(٣) البحر ٧/ ٧٢، وقاله أيضاً الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ١٤٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٧٢، والكلام منه.

(٥) البحر ٧/ ٧٢، وقراءة أبيٍّ في القراءات الشاذة ص١٠٩.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ يحتمل أن تكون مفسِّرةَ و«لا» ناهية، ويحتمل أن تكون مصدريةً ناصبةً للفعل و«لا» نافية، وقيل: يجوز كونُها ناهيةً أيضاً[1].

ومحلُّ المصدر الرفعُ على أنه بدلٌ من «كتاب»، أو خبرٌ لمبتدأ مضمَرٍ يليقُ بالمقام، أي: مضمونُه أن لا تعلوا عليَّ، أي: أن لا تتكبَّروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما في رواية وهب بن منبِّهٍ والأشهبُ العقيليُّ: «أن لا تغلوا» بالغين المعجمة[2]، من الغلوِّ وهو[3] مجاوزةُ الحدِّ، أي: أنْ لا تتجاوزوا حدَّكم.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ عطف على ما قبله، فإن كانت فيه «لا» ناهيةً فعطفُ الأمر عليه ظاهرٌ، وإن كانت نافيةً و«أن» مصدرية فعَطْفُه عليه من عَطْفِ الإنشاء على الإخبار، والكلامُ فيه مشهور، والأكثرون على جوازه في مثل هذا.

والمراد بالإسلام الإيمانُ، أي: وأتوني مؤمنين، وقيل: المراد به الانقياد، أي: ائتوني منقادين مستسلمين. والدعوةُ على الأول دعوةُ النبوَّة، وعلى الثاني دعوةُ الملك. واللائقُ بشأنه عليه السلام هو الأول، وفي بعض الآثار ـ كما ستعلم إن شاء الله تعالى ـ ما يؤيِّده.

ولا يَرِدُ أنه يلزمُ عليه أن يكون الأمرُ بالإيمان قبل إقامة الحجة على رسالته فيكون استدعاءً للتقليد؛ لأنَّ الدعوة المذكورة هي الدعوةُ الأولى التي لا تستدعي إظهار المعجزة وإقامةَ الحجة، وعادةُ الأنبياء عليهم السلام الدعوةُ إلى الإيمان أولاً، فإذا عُورضوا أقاموا الدليل وأظهروا المعجزة، وفيما نحن فيه لم يَصْدُرْ معارضة.

---

(١) ذكر القولين في «لا» السمين في الدر ٨/ ٦١٠ ثم قال: القول بأنها للنفي لا يظهر؛ إذ يصير المعنى على الإخبار منه عليه السلام بأنهم لا يعلون عليه، وليس هذا مقصوداً، وإنما المقصود أن ينهاهم عن ذلك.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحتسب ٢/ ١٣٩، والبحر ٧/ ٧٢.

(٣) في (م): وهي.

وقيل: إنَّ الدعوة ما كانت إلا مقرونةً بإقامة الحجة؛ لأنَّ إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة التي ذكرت فيما مرَّ أوّلاً معجزةٌ باهرةٌ دالَّةٌ على رسالته عليه السلام دلالةً بيِّنةً.

وتعقِّب بأنَّ كون الإلقاء المذكور معجزةً غيرُ واضحٍ، خصوصاً وهي لم تقارن التحدِّي.

ورجِّح الثاني بأنَّ قولها: «إنَّ الملوك» إلخ صريحٌ في دعوة الملك والسلطنة.

وأجيب بأنَّ ذاك لعدم تيقُّنها رسالته عليه السلام حينئذٍ، أو هو من باب الاحتيال لجَلْبِ القوم إلى الإجابة، بإدخال الرَّوْعِ عليهم من حيثيةِ كونه عليه السلام ملكاً، وهذا كما ترى.

والظاهر أنه لم يكن في الكتاب أكثرُ مما قَصَّ الله تعالى، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد. وثانيتهما أنَّ فيه: السلامُ على مَن اتَّبع الهدى، أمَّا بعد فلا تَغْلُوا عليَّ وأتوني مسلمين.

وفي بعض الآثار أنَّ نسخة الكتاب: من عبد الله سليمانَ بن داود إلى بلقيس ملكةِ سبأ، السلامُ على مَن اتَّبع الهدى، إلى آخر ما ذكر[1]. ولعلها على ما هو الظاهرُ عرفتْ أنهم المعنيُّون بالخطاب من قرائن الأحوال.

وقد تضمَّن ما قصَّه سبحانه: البسملةَ التي هي هي في الدلالة على صفاته تعالى صريحاً والتزاماً، والنهيَ عن الترفُّع الذي هو أمُّ الرذائل، والأمرَ بالإسلام الجامعِ لأمَّهات الفضائل، فيا له كتابٌ في غاية الإيجاز ونهايةِ الإعجاز.

وعن قتادة: كذلك كانت الأنبياء عليهم السلام تكتب جملاً لا يطيلون ولا يُكْثِرون.

هذا ولم أَرَ في الآثار ما يُشْعِرُ بأنه عليه السلامُ كتب ذلك على الكاغَد[2] أو الرقِّ أو غيرهما، واشتهر على ألسنة الكتَّاب أنَّ الكتاب كان من الكاغَدِ المعروف،

---

(١) وهي أيضاً رواية عن مجاهد أخرجها عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/ ١٠٦.

(٢) الكاغَد والكاغِد والكاغَذ والكاغِط: القرطاس، فارسي أو صيني معرب، يتخذ من الخرق والقنَّب ونحو ذلك. معجم متن اللغة (كغد).

وأنَّ الهدهد أخذه من طرفه بمنقاره فابتلَّ ذلك الطرفُ بريقه وذهب منه شيءٌ، وكان ذلك الزاوية اليمنى من جهة أسفل الكتاب. وزعموا أنَّ قَطْعَهم شيئاً من القرطاس من تلك الزاوية تشبيهاً لِمَا يكتبونه بكتاب سليمان عليه السلام، وهذا مما لا يعوَّل عليه، ولسائرِ أربابِ الصنائع والحِرَفِ حكاياتٌ من هذا القبيل، وهي عند العقلاء أحاديثُ خرافةٍ.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ كرِّرَت حكايةُ قولها للإيذان بغايةِ اعتنائها بما في حيِّزها. والإفتاءُ على ما قال صاحب «المطلع»: الإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير، وهو إزالةُ ما حدث له من الإشكال، كالإشكاء: إزالة الشكوى. وفي «المُغْرِب»: اشتقاق الفتوى من الفتى؛ لأنها جوابٌ في حادثةٍ، أو إحداثُ حكمٍ، أو تقويةٌ لبيان مُشْكلٍ[1].

وأيًّا ما كان فالمعنى: أشيروا عليَّ بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرْتُ لكم خلاصتَه، وقصدتْ بما ذكرتْ استعطافَهم وتطييبَ نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها، وأكَّدت ذلك بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ما أَقْطَعُ أمراً من الأمور المتعلِّقة بالملك إلا بمحضَركم وبموجبِ آرائكم، والإتيانُ بـ «كان» للإيذان بأنها استمرَّت على ذلك، أوْ لم يقع منها غيرَه في الزمن الماضي، فكذا في هذا، و«حتى تشهدون» غايةٌ للقطع.

واستُدلَّ بالآية على استحباب المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمَّة. وفي قراءة عبد الله: «ما كنتُ قاضيةً أمراً»[2].

﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية قولها، كأنه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ فقيل: قالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ في الأجساد والعدد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: نجدةٍ وشجاعةٍ مُفْرِطةٍ وبلاءٍ في الحرب، قيل: كان أهلُ مشورتها ثلاثَ مئةٍ واثني عشر رجلاً، كلُّ واحدٍ على عشرة آلاف، وروي ذلك عن قتادة.

---

(١) المغرب ٢/ ١٢٢.
(٢) الكشاف ٣/ ١٤٦، والبحر ٧/ ٧٣.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيلٍ، تحت يدِ كلِّ قيلٍ مئة ألف[1].

وقيل: كان تحت يدها أربعُ مئةِ مَلِكٍ، كلُّ ملكٍ على كورةٍ، تحت يدِ كلِّ ملكٍ أربعُ مئةِ ألفِ مقاتلٍ، ولها ثلاث مئة وزيرٍ يُدبِّرون ملكَها، ولها اثنا عشر ألفَ قائدٍ، كلُّ قائد تحت يده اثنا عَشَرَ ألف مقاتلٍ.

وهذه الأخبارُ إلى الكذب أقربُ منها إلى الصدق، ولعمري إنَّ أرض اليمن لتكاد تضيقُ عن العدد الذي تضمَّنه الخبران الأخيران، وليت شعري ما مقدارُ عدد رعيتها الباقين الذين تحتاج إلى هذا العسكر والقوَّاد والوزراءِ لسياستهم وضبطِ أمورهم وتنظيم أحوالهم؟!

﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ تسليمٌ للأمر إليها بعد تقديم ما يدلُّ على القوة والشجاعة، حتى لا يُتوهَّم أنه من العجز. والأمرُ بمعناه المعروفِ، أو المعنى: الشأنُ، وهو مبتدأ و«إليك» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً له، ويقدَّر مؤخَّراً ليفيد الحصر المقصودَ لفَهْمِه من السياق، أي: والأمرُ إليكِ موكولٌ.

﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من الصلح والمقاتلة، نُطِعْكِ ونتَّبعْ رأيَكِ.

وقيل: أرادوا: نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة، وإليك الرأيُ والتدبير فانظري ماذا ترين نكنْ في الخدمة.

فلمَّا أحسَّتْ منهم الميل إلى الحرب، والعدولَ عن السَّنَنِ الصَّوابِ، شَرَعَتْ في تزييف مقالتهم المنبئةِ عن الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام حَسْبَما تعتقدُه، وذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ من القرى على منهاج المقاتَلةِ والحرب ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عماراتها وإتلافِ ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغيرِ ذلك من فنون الإهانة والإذلال، ولم يقل: وأذلُّوا أعزَّة أهلها، مع أنه أخصر؛ للمبالغة في التصيير والجعل.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٧٥، والخبر فيه عن مجاهد، وليس عن ابن عباس كما ذكر المصنف.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تصديقٌ لها من جهته عزَّ وجلَّ على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١)]، أو هو من كلامها جاءت به تأكيداً لِمَا وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييليِّ وتقريراً[(٢)] له بأنَّ ذلك عادتُهم المستمرَّةُ، فالضمير للملوك.

وقيل: هو لسليمان ومَن معه، فيكون تأسيساً لا تأكيداً. وتعقِّب بأنَّ التأكيد لازمٌ على ذلك أيضاً؛ للاندراج تحت الكلِّية. وكأنها أرادت على ما قيل: إنَّ سليمان ملكٌ والملوكُ هذا شأنُهم، وغَلَبَتُنا عليه غيرُ محقَّقةٍ، ولا اعتمادَ على العدد والعدَّةِ والشجاعة والنجدة، فربما يغلبنا فيكون ما يكون، فالصُّلْحُ خيرٌ.

وقيل: إنها غَلَبَ على ظنِّها غَلَبتُه، حيث رأت أنه سخِّر له الطيرُ فجَعَلَ يرسله بأمرٍ خاصٍّ إلى شخصٍ خاصٍّ مُغَلَّقٍ عليه الأبوابُ، فأشارت لهم إلى أنه يغلبُ عليهم إذا قاتلوه، فيُفْسِدُ القرى ويذلُّ الأعزَّةَ.

وأفسدت بذلك رأيهم وما أحسَّته منهم من الميل إلى مقاتلتِه عليه السلام، وقرَّرت رأيها بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، وهذا ظاهرٌ في أنها لم تثق بقبوله عليه السلام هديَّتها.

وروي أنها قالت لقومها: إن كان ملكاً دنياويًّا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يُرضِه المال، وينبغي أن نتَّبعه على دينه.

والهدية: اسمٌ لِمَا يُهْدَى، كالعطية اسمٌ لِمَا يُعْطَى، والتنوينُ فيها للتعظيم. و«ناظرة» عطف على «مرسلة»، و«بم» متعلِّقٌ بـ «يرجع»، ووقع للحوفيِّ أنه متعلِّق بـ «ناظرة»، وهو وهمٌ فاحشٌ كما في «البحر»[(٣)]، والنظر معلَّقٌ، والجملةُ في موضع المفعول به له، والجملة الاسمية الدالَّةُ على الثبات المصدَّرة بحرفِ التحقيق للإيذان بأنها مُزْمِعةٌ على رأيها لا يلويها عنه صارفٌ، ولا يُثْنيها عاطفٌ.

واختلف في هديتها؛ فعن ابن عباس أنها كانت مئةَ وصيفٍ ومئةَ وصيفة. وقال

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٧٧.

(٢) في (م): وتقرير، وهو خطأ.

(٣) ٧/ ٧٤.

وهب وغيره: عمدتْ بلقيس إلى خمس مئة غلام وخمسِ مئة جاريةٍ، فألبست الجواريَ لبسَ الغلمان؛ الأقبيةَ والمناطق، وألبست الغلمانَ لباس الجواري، وجعلت في أيديهم أساوِرَ الذهب، وفي أعناقهم أطواقَ الذهب، وفي آذانهم أقرطةً وشنوفاً[1] مرصَّعة بأنواع الجواهر، وحَمَلتِ الجواريَ على خمس مئة رمكةٍ، والغلمانَ على خمس مئة برذون، على كلِّ فرس سرجٌ من الذهب مرصَّعٌ بالجوهر، وعليه أغشيةُ الديباج، وبعثت إليه لَبناتٍ من ذهب ولبناتٍ من فضة، وتاجاً مكلَّلاً بالدرِّ والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود، وعمدت إلى حُقٍّ فجعلت فيه درةً عذراء وخَرْزَةَ جزْعٍ معوجَّة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّت إليه رجالاً من قومها أصحابَ رأي وعقل، وكتبت معه كتاباً تذكرُ فيه الهديةَ، وقالت فيه: إنْ كنت نبيًّا ميِّز بين الغلمان والجواري، وأخبِرْ بما في الحُقِّ قبل أن تفتحه، ثم قالت للرسول: فإن أخبر فقل له: اثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأَدْخِلْ في الخرزة خيطاً من غير علاج إنسٍ ولا جنٍّ. وقالت للغلمان: إذا كلَّمكم سليمان فكلِّموه بكلامٍ فيه تأنيثٌ وتخنُّثٌ يشبه كلامَ النساء، وأمرت الجواريَ أن يكلِّموه بكلامٍ فيه غِلْظةٌ يشبه كلامَ الرجال. ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلتَ، فإن نظر إليك نظراً فيه غضبٌ فاعلم أنه ملكٌ، فلا يهولنَّك منظرُه فأنا أعزُّ منه، وإن رأيتَ الرجل بشاشاً لطيفاً، فاعلم أنه نبيٌّ فتفهَّمْ منه قولَه وردَّ الجواب.

فانطلق الرجل بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر، فأمر عليه السلام الجنَّ أن يضربوا لبناً من الذهب والفضة ففعلوا، وأمرهم بعمل ميدانٍ مقدارَ تسعِ فراسخَ، وأن يفرشوا فيه لَبِنَ الذهب والفضة وأن يُخلُّوا قَدْرَ تلك اللَّبِنات التي معهم، وأن يعملوا حول الميدان حائطاً مشرفاً من الذهب والفضة، ففعلوا، ثم قال: أيُّ دوابِّ البرِّ والبحر أحسن؟ فقالوا: يا نبيَّ الله، ما رأينا أحسنَ من دوابَّ في البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانُها، لها أجنحةٌ وأعرافٌ ونواصٍ، قال: عليَّ بها الساعة. فأتوه بها، قال: شدُّوها عن يمين الميدان وشماله. وقال للجنِّ:

---

(١) جمع شَنْف: القرط الأعلى، أو ما علِّق في أعلى الأذن، وأما ما علِّق في أسفلها فقرط. القاموس (شنف).

عليَّ بأولادكم، فاجتمع منهم خَلْقٌ كثير، فأقامهم على يمين الميدان وعلى شماله، وأمر الجنَّ والإنسَ والشياطين والوحوش والسباع والطير، ثم قعد في مجلسه على سريره ووضع أربعة آلافِ كرسيٍّ على يمينه وعلى شماله، وأمر جميع الإنس والجنِّ والشياطين والوحوش والسباع والطير، فاصطفُّوا فراسخَ عن يمينه وشماله.

فلمَّا دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان عليه السلام، ورأوا الدوابَّ التي لم يروا مثلها تَروثُ على لبن الذهب والفضة، تصاغرت إليهم أنفسُهم، وخبَّؤوا ما كان معهم من الهدايا.

وقيل: إنهم لمَّا رأو ذلك الموضع الخَاليَ من اللَّبنات خالياً، خافوا أن يُتَّهموا بذلك، فوضعوا ما معهم من اللبن فيه. ولمَّا نظروا إلى الشياطين هالَهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين: جُوْزوا لا بأس عليكم. وكانوا يمرُّون على كراديس الجنِّ والوحش والطير، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فأقبل عليهم بوجهٍ طَلْقٍ وتلقَّاهم ملقًى حسناً، وسألهم عن حالهم، فأخبره رئيسُ القوم بما جاؤوا فيه، وأعطاه الكتاب، فنظر فيه وقال: أين الحُقُّ؟ فأُتيَ به فحرَّكه، فجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما فيه، فقال لهم: إنَّ فيه درَّةً غيرَ مثقوبةٍ وجَزْعةً معوجَّةَ الثقب. قال الرسول: صدقتَ، فاثقُبِ الدرَّة وأدْخِل الخيطَ في الجزعة. فقال سليمان عليه السلام: مَن لي بثَقْبِها؟ وسأل الجنَّ والإنس، فلم يكن عندهم علمُ ذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا: نُرسل إلى الأَرَضَة، فلما جاءت أخذت شعرةً بفيها ونفذت في الدرَّة حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها: ما حاجتُك؟ قالت: تصيِّر رزقي في الشجر. فقال: لكِ ذلك، ثم قال: مَن لهذه الخرزة؟ فقالت دودةٌ بيضاء: أنا لها يا نبي الله. فأخذت الخيطَ بفيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال: ما حاجتُك؟ قالت: يكون رزقي في الفواكه. فقال: لك ذلك، ثم ميَّز بين الغلمان والجواري؛ أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضربُ بها الأخرى وتغسلُ وجهها، والغلامُ يأخذ الماء بيديه ويضرب به وجهه، وكانت الجارية تصبُّ الماء على باطن ساعديها، والغلامُ على ظاهره، ثم ردَّ سليمان عليه السلام الهديةَ كما أخبر الله تعالى.

وقيل: إنها أنفذتْ مع هداياها عصاً كان يتوارثها ملوك حمير، وقالت: أريد أنْ

تعرِّفني رأسها من أسفلها. وبقدح ماء وقالت: تملؤه ماءً رواءً ليس من الأرض ولا من السماء. فأرسل عليه السلام العصا إلى الهواء. وقال: أيُّ الطرفين سبق إلى الأرض فهو أصلُها. وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، وقال: هذا ليس من ماء الأرض ولا من ماء السماء[١]. اهـ.

وكلُّ ذلك أخبارٌ لا يُدْرَى صحتُها ولا كذبها، ولعل في بعضها ما يميل القلب إلى القول بكذبه، والله تعالى أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ في الكلام حذف، أي: فأرسلت الهدية فلمَّا جاء.. إلخ، وضمير «جاء» للرسول: وجوِّز أن يكون لِمَا أهدت إليه، والأولُ أولى.

وقرأ عبد الله: «فلمَّا جاؤوا»[٢] أي: المرسلون.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ خطابٌ للرسول والمرسِل تغليباً للحاضر على الغائب، وإطلاقاً للجمع على الاثنين، وجوِّز أن يكون للرسول ومَن معه، وهو أوفقُ بقراءة عبد الله، ورجِّح الأول لِمَا فيه من تشديد الإنكار والتوبيخِ المستفادين من الهمزة على ما قيل، وتعميمهما لبلقيس وقومها، وأيِّد بمجيء قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ بالإفراد، وتنكيرُ «مال» للتحقير.

وقرأ جمهور السبعة: «تمدونن» بنونين، وأثبت بعضٌ الياء، وقرأ حمزة بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثباتِ ياء المتكلِّم[٣]. وقرأ المسيبي عن نافع بنون واحدةٍ خفيفةٍ[٤]، والمحذوفُ نونُ الوقاية، وجوِّز أن يكون الأولى، فرَفْعُه بعلامةٍ مقدَّرةٍ كما قيل في قوله:

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٨-٣١٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٧-٤١٩. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الاسرائيليات، والظاهر أن سليمان لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٧، والبحر ٧/ ٧٤.

(٣) وهي قراءة يعقوب من العشرة، وقرأ بنونين باقي العشرة، وأثبت الياء في الوصل نافع وأبو جعفر وأبو عمرو، وأثبتها في الحالين ابن كثير، وكذلك حمزة ويعقوب إلا أنهما يدغمان النون كما تقدم. التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤٠

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٩، والبحر ٧/ ٧٤.

أَبِيتُ أَسْرِي وتَبِيتِي تَدْلُكِي وجهَكِ بالعنبر والمِسْكِ الذكي[(١)]

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ أي: من النبوَّة والملك الذي لا غايةَ وراءه ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: من المال الذي جملته ما جئتم به.

وقيل: عَنَى بما آتاه المالَ؛ لأنه المناسبُ للمفضَّل عليه. والأولُ أَوْلَى لأنه أبلغ.

والجملةُ تعليلٌ للإنكار، والكلام كنايةٌ عن عدم القبول لهديتهم، وليس المراد منه الافتخارَ بما أوتيه، فكأنه قيل: أُنكر إمدادكم إياي بمالٍ لأنَّ ما عندي خيرٌ منه، فلا حاجةَ لي إلى هديتكم، ولا وَقْعَ لها عندي.

والظاهر أنَّ الخطاب المذكور كان أول ما جاؤوه، كما يؤذِنُ به قولُه تعالى: (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ) إلخ، ولعل ذلك لمزيد حرصه على إرشادهم إلى الحقِّ. وقيل: لعله عليه السلام قال لهم ما ذكر بعد أن جرى بينهم وبينه ما جرى مما في خبر وهب وغيره.

واستُدلَّ بالآية على استحباب ردِّ هدايا المشركين، والظاهر أنَّ الأمر كذلك إذا كان في الردِّ مصلحةٌ دينيةٌ، لا مطلقاً.

وإنما لم يقل: وما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم، لتكون الجملة حالاً؛ لِمَا أنَّ مثل هذه الحال وهي الحالُ المقرِّرة للإشكال يجبُ أن تكون معلومةً، بخلافِ العلة، وهي هنا ليست كذلك[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إضرابٌ عمَّا ذكر من إنكار الإمداد بالمال وتعليله، إلى بيان ما حملهم عليه من قياس حاله عليه السلام على حالهم،

---

(١) الخصائص ١/٣٨٨، والخزانة ٨/٣٣٩، قال البغدادي: وهذا البيت لم أعرف قائله.

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٣/١٤٨: فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدُّني بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلتُه بالواو فقد جعلتُ مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار وهو مع ذلك يمدُّني بالمال، وإذا قلتُه بالفاء فقد جعلتُه ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له: أُنكر عليك ما فعلت فأنا أغنى منك.

وهو قصورُ همَّتهم على الدنيا والزيادةِ فيها، فالمعنى: أنتم تفرحون بما يُهدَى إليكم لقصور همتكم على الدنيا، وحبِّكم الزيادةَ فيها، ففي ذلك من الحطِّ عليهم مالا يخفى، والهديةُ مضافةٌ إلى المهدَى إليه، وهي تضاف إلى ذلك كما تضافُ إلى المهدي.

أو إضرابٌ عن ذلك إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أَهدَوْها إليه عليه السلام فَرَحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها، وفائدةُ الإضراب التنبيهُ على أنَّ إمداده عليه السلام بالمال منكرٌ قبيحٌ، وعدُّ ذلك مع أنه لا قَدْر له عنده عليه السلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح، والتوبيخ به أَدْخَل.

قيل: ويُنْبئُ عن اعتدادهم بتلك الهدية التنكيرُ في قول بلقيس: «وإنِّي مُرْسِلةٌ إليهم بهديةٍ» بعد عدِّها إياه عليه السلام مَلِكاً عظيماً. وكذا ما تقدَّم في خبر وهب وغيره من حديث الحُقِّ والجَزْعةِ، وتغيير زيِّ الغلمان والجواري، وغيرِ ذلك.

وقيل: فرحُهم بما أهدَوْه إليه عليه السلام من حيث توقُّعُهم به ما هو أزيَدُ منه، فإنَّ الهدايا للعظماء قد تفيد ما هو أزيدَ منها مالاً أو غيره، كمنع تخريب ديارهم هنا.

وقيل: الكلامُ كنايةٌ عن الردِّ، والمعنى: أنتم من حقِّكم أن تفرحوا بأخذ الهدية لا أنا، فخذوها وافرحوا، وهو معنًى لطيفٌ إلَّا أنَّ فيه خفاءً.

﴿ٱرْجِعْ﴾ أمرٌ للرسول، ولم يَجْمَعِ الضميرَ كما جَمَعه فيما تقدَّم من قوله: «أتُمدونني» إلخ لاختصاص الرجوع به، بخلاف الإمداد ونحوه.

وقيل: هو أمرٌ للهدهد محمَّلاً كتاباً آخر، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد(١). وتعقِّب بأنه ضعيف درايةً وروايةً.

وقرأ عبد الله: «ارجعوا»(٢) على أنه أمرٌ للمرسَلين.

والفعلُ هنا لازمٌ، أي: انْقَلِبْ وانْصَرِفْ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى بلقيس وقومِها

---

(١) في الأصل و(م): زهير بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨١، والدر المنثور ٥/ ١٠٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩، والبحر ٧/ ٧٤.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي: فوالله لنأتينَّهم ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم بمقاومتها، ولا قدرةَ لهم على مقابلتها، وأصلُ القِبَل المقابلةُ، فجُعل مجازاً أو كنايةً عن الطاقة والقدرة عليها. وقرأ عبد الله: «بهم»[1].

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عطفٌ على جواب القَسَم ﴿مِّنْهَآ﴾ أي: من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ أي: حالَ كونهم أذلةً بعد ما كانوا فيه من العزِّ والتمكين، وفي جمع القلَّة تأكيدٌ لذلَّتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ حالٌ أخرى، والصَّغار وإن كان بمعنى الذلِّ إلَّا أنَّ المراد به هنا وقوعُهم في أسرٍ واستعبادٍ، فيفيد الكلام أنَّ إخراجهم بطريق الأَسْرِ لا بطريق الإجلاء، وعدمُ وقوع جواب القَسَم لأنه كان معلَّقاً بشرطٍ قد حُذف عند الحكاية ثقةً بدلالة الحال عليه، كأنه قيل: ارجِعْ إليهم فليأتوني مسلمين وإلَّا فلنأتينَّهم.. إلخ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فرجع الرسول إليها وأخبرها بما أقسم عليه سليمان، فتجهَّزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبيٌّ ولا طاقةَ لها بقتاله، فرُوي أنها أمرت عند خروجها فجُعِل عرشُها في آخرِ سبعةِ أبياتٍ بعضُها في جوف بعضٍ، في آخرِ قصرٍ من قصورها، وغلَّقت الأبوابَ ووكَّلت به حرَّاساً يحفظونه، وتوجَّهت إلى سليمان في أقيالها وأتباعهم، وأرسلت إلى سليمان: إنِّي قادمةٌ عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرُك، وما تدعو إليه من دينك. قال عبد الله بن شدَّاد: فلمَّا كانت على فرسخٍ من سليمان قال: أيُّكم يأتيني بعرشها؟

وعن ابن عباس: كان سليمان مهيباً لا يُبتدأ بشيءٍ حتى يكون هو الذي يَسأل عنه، فنظر ذاتَ يوم رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس. فقال: أيُّكم.. إلخ.

ومعنى «مسلمين» على ما روي عنه: طائعين. وقال بعضهم: هو بمعنى مؤمنين.

(١) الكشاف ٣/ ١٤٨، والبحر ٧/ ٧٤.

واختلفوا في مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشَها؛ فعن ابن عباس وابن زيد: أنه عليه السلام استدعى ذلك ليُرِيَها القدرةَ التي هي من عند الله تعالى، وليُغْرِبَ[1] عليها. ومن هنا قال في «الكشاف»: لعله أُوحي إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يُغْرِبَ عليها، ويريَها بذلك بعضَ ما خصَّه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قُدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوَّة سليمان عليه السلام ويصدِّقها[2]. انتهى.

وتقييدُ الإتيان بقوله: «قَبْلَ» إلخ لِمَا أنَّ ذلك أبدعُ وأغربُ وأبعدُ من الوقوع عادةً، وأدلُّ على عظيم قدرة الله عزَّ وجلَّ، وصحةِ نبوَّتِه عليه السلام، وليكون إطلاعُها على بدائع المعجزات في أول مجيئها.

وقال الطبريُّ: أراد عليه السلام أن يختبر صدقَ الهدهد في قوله: «ولها عرشٌ عظيم»[3]. واستُبعِدَ ذلك لعدم احتياجه عليه السلام إلى هذا الاختبار، فإنَّ أمارة الصدق في ذلك في غاية الوضوح لديه عليه السلام، لا سيما إذا صحَّ ما روي عن وهب وغيرِه.

وقيل: أراد أن يؤتَى به فيُنكَّرَ ويغيَّر، ثم ينظر أَتُثْبِتُهُ أم تُنْكِره، اختباراً لعقلها.

وقال قتادة وابن جُريجٍ: إنه عليه السلام أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومَها الإيمان، ويُمنعَ أَخْذَ أموالهم. قال في «الكشف»: فيه أنَّ حِلَّ الغنائم مما اختصَّ به نبيُّنا ﷺ. وقال في «التحقيق»: لا يناسبُ ردَّ الهدية وتعليلَه بقوله: «فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم».

وأجيب بأنَّ هذا ليس من باب أَخْذِ الغنائم، وإنما هو من باب أخذ مال الحربيِّ والتصرُّفِ [فيه][4] بغير رضاه، مع أنَّ الظاهر أنه بوحي، فيجوزُ أنه من

---

(١) أَغْرَبَ: جاء بالشيء الغريب. المعجم الوسيط (غرب).

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٨.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٧٦، وقد اختار الطبري بعد ذلك مثل ما نقل المصنف عن الزمخشري.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٤٧، والكلام فيه بنحوه.

خصوصياته لحكمةٍ، ولم يكن ذلك هديةً لها حتى لا يناسبَ الردَّ السابق، وفيه بحث.

ولعلَّ الألصق بالقلب أنَّ ذاك لينكِّره فيمتحنَها اختباراً لعقلها، مع إراءتها بعض خوارقه الدالَّةِ على صحة نبوَّته وعظيم قدرة الله عز وجل.

ثم الظاهرُ أنَّ هذا القول بعد ردِّ الهدية، وهو الذي عليه الجمهور، وفي رواية عن ابن عباس: أنه عليه السلام قال ذلك حين ابتدأ النظر في صدق الهدهد من كذبه لمَّا قال: «ولها عرشٌ عظيم» ففي ترتيب القصص تقديمٌ وتأخيرٌ، وأظنُّ أنه لا يصحُّ هذا عن ابن عباس.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ﴾ أي: خبيثٌ ماردٌ ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ بيانٌ له؛ إذ يقال للرجل الخبيث المنكَرِ الذي يعفِّر أقرانه. وقرأ أبو حيوة: «عَفريت» بفتح العين[1]. وقرأ أبو رجاء وأبو السَّمَّال وعيسى ورُويت عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه: «عِفْرِيَةٌ» بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التأنيث[2]، وقال ذو الرُّمَّة:

كأنه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ مصوَّبٌ في سواد الليل مُنْقَضِبُ[3]

وقرأت فرقةٌ: «عِفْر» بلا ياء ولا تاء[4]، ويقال في لغة طيئ وتميم: عفراة بألف بعدها تاء التأنيث، وفيه لغة سادسة عُفَارِيَة. وتاء عفريت زائدة للمبالغة في المشهور، وفي «النهاية»: الياء في عِفْرِيَة وعُفَارِيَة للإلحاق بشِرْذِمَة وعُذَافِرَة، والهاءُ فيهما للمبالغة، والتاءُ في عفريت للإلحاق بقنديل[5]. اهـ.

---

(١) البحر ٧/ ٧٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٩، والمحتسب ٢/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠، والبحر ٧/ ٧٦، والكلام منه.

(٣) ديوان ذي الرمَّة ١/ ١١١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠، والبحر ٧/ ٧٦، ورواية الديوان: مسوَّمٌ، بدل: مصوَّب. وجاء في شرح الديوان: يصف ثوراً، فيقول: كأن الثور في سرعته كوكبٌ في إثر شيطان. ومسوَّم، يريد: الكوكب مُعلمٌ، مسوَّم بالبياض في سواد الليل، ويكون بمعنى: مخلًّى عنه. ومنقضب: منقضٌّ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠.

(٥) النهاية (عفر).

واسم هذا العفريت على ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس: صخر[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شعيب الجبائيِّ أن اسمه كوزن[(٢)]. وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أن اسمه كوزي[(٣)]. وقيل: اسمه ذكوان.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: بعرشها، و«آتي» يحتمل أن يكون مضارعاً، وأن يكون اسمَ فاعلٍ؛ قيل: وهو الأنسبُ بمقام ادِّعاء الإتيان به في المدة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة، وكان عليه السلام يجلس من الصبح إلى الظهر في كلِّ يوم؛ قاله قتادة ومجاهد ووهب وزهير بن محمد.

وقيل: أي: قبل أن تستويَ من جلوسك قائماً.

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ﴾ لا يَثْقلُ عليَّ حمله، والقوةُ صفةٌ تَصْدُرُ عنها الأفعالُ الشاقَّة، ويُطيق بها مَن قامت به تَحمُّلَ[(٤)] الأجرام العظيمة، ولذا اختير «قوي» على قادر هنا. وظاهرُ كلام بعضهم أنَّ في الكلام حذفاً، فمنهم مَن قال: أي: على حَمْلِه، ومنهم قال: أي: على الإتيان به. ورجِّح الثاني بالتبادرِ نظراً إلى أول الكلام، والأولُ بأنه أنسبُ بقوله: «القويّ».

﴿أَمِينٌ ۝٣٩﴾ لا أقتطعُ منه شيئاً ولا أبدِّله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فَصَله عمَّا قبله للإيذان بما بين القائلَين ومقالتيهما وكيفيتي قدرتيهما على الإتيان به من كمال التبايُن، أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار.

واختلف في تعيين هذا القائل، فالجمهورُ ومنهم ابن عباس ويزيد بن رومان والحسن على أنه آصف بن برخيا بن شمعيا بن منكيل، واسم أمِّه باطورا من بني

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٥، وعزاه للطبري وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٨.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٦-٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٤.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٤.
(٤) في الأصل و(م): لتحمل، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٤٧، والكلام منه.

اسرائيل، كان وزيرَ سليمان على المشهور، وفي «مجمع البيان»[(١)]: أنه وزيره وابن أخته، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم. وقيل: كان كاتبه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: أنه رجل اسمه أسطوم[(٢)]. وقيل: أسطورس.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أنه رجل يقال له: ذو النور. وأخرج هو أيضاً عن ابن لهيعة أنه الخَضِر عليه السلام[(٣)].

وعن قتادة أنَّ اسمه مليخا. وقيل: ملخ. وقيل: تمليخا. وقيل: هود.

وقالت جماعةٌ: هوضبة بن أُدّ جدُّ بني ضبة من العرب[(٤)]، وكان فاضلاً يخدم سليمان، كان على قطعة من خيله.

وقال النخعيُّ: هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو مَلَكٌ آخر أيَّد الله تعالى به سليمان عليه السلام.

وقال الجبائي: هو سليمان نفسُه عليه السلام. ووجه الفصل عليه واضحٌ، فإنَّ الجملة حينئذٍ مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فما قال سليمان عليه السلام حين قال العفريت ذلك؟ فقيل: قال.. إلخ، ويكون التعبير عنه بما في النظم الكريم للدلالة على شرف العلم، وأنَّ هذه الكرامةَ كانت بسببه، ويكون الخطاب في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريت، وإنما لم يأتِ به أولاً بل استفهم القومَ بقوله: «أيُّكم يأتيني بعرشها» ثم قال ما قال وأتى به؛ قصداً لأنْ يُريَهم أنه يتأتَّى له ما لا يتهيَّأ لعفاريت الجنِّ، فضلاً عن غيرهم. وتخصيصُ الخطاب بالعفريت لأنه الذي تصدَّى لدعوى القدرة على الإتيان به من

---

(١) ١٩/ ٢٢٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٥.

(٤) ذكره السهيلي في التعريف والإعلام ص١٢٨ عن النقاش، ثم تعقبه بقوله: وهذا لا يصح البتة؛ لأن ضبة هو ابن أد بن طابخة واسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدٍّ، ومعدٌّ كان في زمان بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان بزمن طويل، فإذا لم يكن معد في عهد سليمان فكيف ضبة بن أد، وهو بعده بخمسة آباء.

بينهم، وجَعْلُه لكلِّ أحدٍ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء:٣] غيرُ ظاهر بالنسبة إلى ما ذكر.

وآثر هذا القول الإمامُ، وقال: إنه أقربُ لوجوهٍ:

الأول: أنَّ الموصول موضوعٌ في اللغة لشخصٍ معيَّنٍ بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب، والشخصُ المعلومُ بأنَّ عنده علمُ الكتاب هو سليمان، وقد تقدَّم في هذه السورة ما يُستأنس به لذلك، فوجب إرادتُه وصَرْفُ اللفظ إليه، وآصف وإن شاركه في مضمون الصلة لكن هو فيه أتمُّ لأنه نبيٌّ، وهو أعلم بالكتاب من أمته.

الثاني: أنَّ إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجةٌ عاليةٌ، فلو حصلت لأحدٍ من أمته دونه لاقتضى تفضيلَ ذلك عليه عليه السلام، وأنه غير جائز.

الثالث: أنه لو افتقر في إحضاره إلى أحدٍ من أمته لاقْتضَى قصورَ حاله في أعين الناس.

الرابع: أن ظاهر قوله عليه السلام فيما بعد: «هذا من فَضْلِ ربّي» إلخ يقتضي أنَّ ذلك الخارق قد أظهره الله تعالى بدعائه عليه السلام[١]. اهـ، وللمناقشة فيه مجال.

واعتَرضَ على هذا القول بعضُهم بأنَّ الخطاب في «آتيك» يأباه، فإنَّ حقَّ الكلام عليه أن يقال: أنا آتي به قبل أن يرتَّد إلى الشخص طرفُه مثلاً، وقد علمتَ دَفْعَه. وبأنَّ المناسب أن يقال فيما بعد: فلمَّا أتَى به، دون «فلما رآه» إلخ. وأجيب عن هذا بأنَّ قوله ذاك للإشارة إلى أنه لا حولَ ولا قوةَ له فيه.

ولعل الأظهر أنَّ القائل أحدُ أتباعه، ولا يلزمُ من ذلك أنه عليه السلام لم يكن قادراً على الإتيان به كذلك، فإنَّ عادة الملوك تكليفُ أتباعهم بمصالحَ لهم لا يُعْجِزُهم فعلُها بأنفسهم، فليكن ما نحن فيه جارياً على هذه العادة، ولا يضرُّ في ذلك كونُ الغرض ممَّا يتمُّ بالقول وهو الدعاء ولا يحتاج إلى إعمال البدن وإتعابه، كما لا يخفى.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٧-١٩٨.

وفي «فصوص الحكم»: كان ذلك على يد بعض أصحاب سليمان عليه السلام؛ ليكون أعظم لسليمان في نفوس الحاضرين.

وقال القيصريُّ[(١)]: كان سليمان قطبَ وقته ومتصرِّفاً وخليفةً على العالم، وكان آصف وزيرَه، وكان كاملاً، وخوارقُ العادات قلما تَصْدُر من الأقطاب والخلفاء، بل من ورَّاثهم وخلفائهم؛ لقيامهم بالعبودية التامة، واتِّصافهم بالفقر الكليِّ، فلا يتصرَّفون لأنفسهم في شيءٍ، ومن منن الله تعالى عليهم أن يرزقهم صحبة العلماء الأمناء يحملون منهم أثقالهم وينفِّذون أحكامهم وأقوالهم. اهـ، وما في الفصوص أقربُ لمشرب أمثالنا، على أنَّ ما ذُكر لا يخلو عن بحثٍ على مشرب القوم أيضاً.

وفي «مجمع البيان»: روى العياشيُّ بإسناده قال: الْتَقَى موسى بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم، فسأله عن مسائل منها: هل كان سليمانُ محتاجاً إلى علم آصف؟ فلم يُجب حتى سأل أخاه علي بن محمد، فقال: اكتب له: لم يَعْجز سليمانُ عن معرفة ما عرف آصف، لكنه عليه السلام أحبَّ أن يعرِّف أمتَه من الجنِّ والإنس أنه الحُجَّةُ من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمرِ الله ففهَّمه الله تعالى ذلك لئلَّا يُختلف في إمامته، كما فهَّم سليمان في حياة داود لتُعرَفَ إمامتهُ من بعده، لتأكيد الحُجَّة على الخَلْق[(٢)]. اهـ، وهو كما ترى.

والمراد بالكتاب: الجنسُ المنتظِمُ لجميع الكتب المنزلة. وقيل: اللوح المحفوظ، وكونُ المراد به ذلك على جميع الأقوال السابقة في الموصول بعيد جدّاً. وقيل: المراد به: الذي أُرسل إلى بلقيس.

و«من» ابتدائية، وتنكيرُ «عِلْم» للتفخيم والرمزِ إلى أنه علمٌ غيرُ معهود؛ قيل: كان ذلك: العِلْمُ باسم الله تعالى الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وقد دعا ذلك العالِمُ به فحصل غرضُه، وهو: يا حيُّ يا قيُّوم. وقيل: يا ذا الجلال والإكرام. وقيل: الله الرحمن. وقيل: هو بالعبرانية: آهيا شراهيا.

---

(١) هو شرف الدين داود بن محمود القيصري المتوفى سنة (٧٥١هـ)، له: شرح التائية لابن الفارض، ومطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم. كشف الظنون ١/ ٢٦٦ و٢/ ١٧٢٠.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٩-٢٣٠.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الزهريِّ أنه دعا بقوله: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ إلهًا واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها[1].

والطرفُ: تحريكُ الأجفان وفتحُها للنظر إلى شيءٍ، ثم تجوّز به عن النظر. وارتدادُه انقطاعه بانضمام الأجفان، ولكونه أمراً طبيعيّاً غيرَ منوطٍ بالقَصْدِ أُوثر الارتدادُ على الرَّدِّ، فالمعنى: آتيك به قبل أن ينضم جفنُ عينك بعد فتحه.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التجوُّز في الطرف؛ إذ المراد: قبل ارتداد تحريك الأجفان بطبقها بعد فتحها، وفيه نظر.

والكلامُ جارٍ على حقيقته، وليس من باب التمثيل للسرعة، فقد روي أنَّ آصف قال لسليمان عليه السلام: مدَّ عينيك حتى ينتهي طَرْفُك، فمدَّ طَرْفَه فنظر نحو اليمن، فقبل أن يرتد إليه حضر العرش عنده.

وقيل: هو من باب التمثيل، فيحتمل أن يكون قد أتى به في مدة طلوع درجةٍ أو درجتين، أو نحو ذلك.

وعن ابن جبير وقتادة أنَّ الطَّرْفَ بمعنى المطروف، أي: مَن يقع إليه النظر، وأنَّ المعنى: قبل أن يصل إليك مَن يقع طَرْفُك عليه في أبعدِ ما ترى إذا نظرت أمامك. وهو كما ترى.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: فلما رأى سليمانُ عليه السلامُ العرشَ ساكناً عنده قارًّا على حاله التي كان عليها ﴿قَالَ﴾ تلقِّياً للنعمة بالشكر، جرياً على سَنَنِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام وخُلَّصِ عباد الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الإتيانُ بالعرش أو حضورُه بين يديَّ في هذه المدة القصيرة. وقيل: أي: التمكُّن من إحضاره بالواسطة أو بالذات ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: تفضُّلِه جلَّ شأنهُ عليَّ مِن غير استحقاقٍ ذاتيٍّ لي له، ولا عملٍ منّي يُوجِبُه عليه سبحانه وتعالى.

وفي الكلام حذف، أي: فأتاه به فرآه فلمَّا رآه.. إلخ، وحَذْفُ ما حُذِفَ للدلالة على كمال ظهوره، واستغنائه عن الإخبار به، وللإيذان بكمال سرعة الإتيان

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.

به، كأنه لم يقع بين الوعد به ورؤيته عليه السلام إياه شيءٌ ما أصلاً، وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده تأكيدٌ لهذا المعنى؛ لإيهامه أنه لم يتوسَّط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً، كأنه لم يزل موجوداً عنده. ف «مستقرّاً» منتصبٌ على الحال، و«عنده» متعلِّقٌ به، وهو على ما أشرنا إليه كونٌ خاصٌّ، ولذا ساغ ذكرُه. وظنَّ بعضهم أنه كونٌ عامٌّ فأَشْكَلَ عليهم ذكرُه مع قول جمهور النحاة: إنَّ متعلَّقَ الظرف إذا كان كوناً عامًّا وجب حذفهُ، فالتزم بعضُهم لذلك كونَ الظرف متعلِّقاً بـ «رآه» لا به. ومنهم مَن ذهب كابن مالكٍ إلى أنَّ حَذْفَ ذلك أغلبيٌّ وأنه قد يظهر، كما في هذه الآيةِ، وقوله:

لـك الـعـزُّ إنْ مـولاك عـزَّ وإنْ يَـهـنْ فأنت لدى بحبوحةِ الـهـون كـائنُ[1]

وأنت تعلم أنه يمكن اعتبارُ ما في البيت كوناً خاصّاً كالذي في الآية.

وفي كيفية وصول العرش إليه عليه السلام حتى رآه مستقرّاً عنده خلاف؛ فأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر عن ابن عباس أنه قال: لم يَجْرِ عرشُ صاحبة سبأ بين السماء والأرض، ولكن انشقَّت به الأرضُ فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان[2]. وإلى هذا ذهب مجاهدٌ وابنُ سابطٍ وغيرهما.

وقيل: نزل بين يدي سليمان عليه السلام من السماء.

وكان عليه السلام إذ ذاك في أرض الشام ـ على ما قيل ـ رجع إليها من صنعاء، وبينها وبين مأرب محلِّ العرش نحوٌ من مسافة شهرين. وعلى القول بأنه كان في صنعاء فالمسافةُ بين محلِّه ومحلِّ العرش نحو ثلاثة أيام.

وأيّاً ما كان فقَطْعُه المسافة الطويلة في الزمن القصير أمرٌ ممكنٌ، وقد أخبر بوقوعه الصادقُ فيجب قبوله. وقد اتفق البرُّ والفاجرُ على وقوع ما هو أعظمُ من ذلك، وهو قطعُ الشمس في طرفة عين آلافاً من الفراسخ، مع أنَّ نسبة عرش بلقيس إلى جرمها نسبةَ الذرة إلى الجبل.

(١) البحر ٧/ ٧٧، والمغني ص٥٨٢، وشرح ابن عقيل ١/ ٢١١.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٧٧، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٩.

وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه: إنَّ آصف تصرَّف في عين العرش، فأعدمه في موضعه وأوجده عند سليمان من حيث لا يشعر أحدٌ بذلك إلا مَن عرف الخلق الجديد الحاصل في كلِّ آنٍ، وكان زمانُ وجوده عينَ زمانِ عَدَمِه، وكلٌّ منهما في آنٍ، وكان عينُ قول آصف عينَ الفعل في الزمان، فإنَّ القول من الكامل بمنزلة «كن» من الله تعالى. ومسألةُ حصول العرش من أشكل المسائل، إلَّا عند مَن عرف ما ذكرناه من الإيجاد والإعدام، فما قَطَعَ العرشُ مسافةً، ولا زُوِيتْ له أرضٌ، ولا خَرَقَها. اهـ ملخَّصاً. وله تتمةٌ ستأتي إن شاء الله تعالى.

وما ذكره من أنه كان بالإعدام والإيجاد مما يجوز عندي وإن لم أقل بتجدُّد الجواهر تجدُّدَ الأعراضِ عند الأشعري، إلا أنه خلافُ ظاهرِ الآية. واستدلَّ بها على ثبوت الكرامات، وأنت تعلم أنَّ الاحتمال يسقط الاستدلال.

وعلَّل عليه السلام تفضُّلَه تعالى بذلك عليه بقوله: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ أي: ليعاملَني معاملةَ المبتلي، أي: المختبِر ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ على ذلك بأنْ أراه محضَ فَضْلِه تعالى من غير حولٍ من جهتي ولا قوةٍ، وأقُومَ بحقِّه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأنْ أجدَ لنفسي مدخلاً في البين، أو أقصِّرَ في إقامة مواجبه كما هو شأنُ سائر النعم الفائضة على العباد.

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن جُريجٍ أنَّ المعنى: ليبلوَني أأشكرُ إذا أتيتُ بالعرش أم أكفر إذا رأيتُ مَن هو أدنى منِّي في الدنيا أعلمَ مني(١). ونقل مثله في «البحر» عن ابن عباس(٢)، والظاهر عدمُ صحته.

وأبعدُ منه عن الصحة ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السديِّ أنه قال: لمَّا رآه مستقراً عنده جزع وقال: رجلٌ غيري أَقْدَرُ على ما عند الله عزَّ وجلَّ منِّي(٣). ولعل الحقَّ الجزمُ بكذب ذلك.

وجملة «أأشكر» إلخ في موضع نصبٍ على أنها مفعولٌ ثانٍ لفعل البلوى، وهو معلَّقٌ بالهمزة عنها إجراءً له مجرى العلم وإن لم يكن مرادفاً له.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧٤-٧٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٠٩، وهو عند الطبري من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس.

(٢) البحر ٧/ ٧٧.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٩.

وقيل: محلُّه النصب على البدل من الياء.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لنَفْعِها؛ لأنه يربطُ به العتيد[1]، ويستجلبُ المزيدَ، ويحطُّ به عن ذمته عبءَ الواجب، ويتخلَّصُ عن وَصْمَةِ الكفران.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ بتَرْكِ تعجيل العقوبة، والإنعامِ مع عدم الشكر أيضاً. والظاهر أنَّ «مَن» شرطيةٌ، والجملةُ المقرونةُ بالفاء جوابُ الشرط.

وجوِّز أن يكون الجواب محذوفاً دلَّ عليه ما قبله من قسيمه، والمذكورُ قائمٌ مقامه، أي: ومَن كفر فعَلَى نفسِه، أي: فضررُ كفرانه عليها. وتعقِّب بأنه لا يناسب قولَه: «كريم».

وجوِّز أيضاً أن تكون «مَن» موصولةً، ودخلت الفاء في الخبر لتضمُّنها معنى الشرط.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام، كرِّرت الحكايةُ مع كون المحكيِّ سابقاً ولاحقاً من كلامه عليه السلام تنبيهاً على ما بين السابق واللاحق من المخالفة؛ لِمَا أنَّ الأول من باب الشكر لله عزَّ وجلَّ والثاني أمرٌ لخدمه:

﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: اجعلوه بحيث لا يُعرف، ولا يكون ذلك إلَّا بتغييره عمَّا كان عليه من الهيئة والشكل، ولعل المراد التغيير في الجملة. روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنه كان بالزيادة فيه والنقصِ منه. وقيل: بنَزْعِ ما عليه من الجواهر. وقيل: بجعل أسفله أعلاه، ومقدَّمِه مؤخَّرَه. ولام «لها» للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، فيدلُّ على أنها المرادة خاصةً بالتنكير.

﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر، وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف[2].

---

(١) في (م): القيد، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٨٧. والعتيد: الحاضر المهيأ. القاموس (عتد).

(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٧٨.

﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفته، أو إلى الجواب اللائق بالمقام. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه السلام إذا رأت تقدُّم عرشها وقد خلَّفته مغلَّقةً عليه الأبواب، موكَّلةً عليه الحرَّاس والحجَّاب، وحكاه الطبرسيُّ عن الجبائي[١]. وفيه أنه لا يَظْهَرُ مدخليةُ التنكير في الإيمان.

﴿أَمْ تَكُونُ﴾ أي بالنسبة إلى عِلْمِنا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: إلى ما ذُكر من معرفة عَرْشِها، أو الجواب اللائق بالمقام، فإنَّ كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمراً مستمرّاً، لكنَّ كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومِه أمرٌ حادث يظهر بالاختبار.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ شروعٌ في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام، أي: فلما جاءت بلقيس سليمانَ وقد كان العرشُ منكَّراً بين يديه ﴿قِيلَ﴾ أي: من جهة سليمان، بالذات أو بالواسطة ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: أمثلُ هذا العرشِ الذي تَرَيْنَه عرشُك الذي تركتيه ببلادك؟

ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها، فيفوت ما هو المقصودُ من الأمر بالتنكير، من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبيَّن لديه عليه السلام حالُها، وقد ذُكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل.

وفي بعض الآثار أنَّ الجنَّ خافوا من أن يتزوَّجها فيُرْزَقَ منها ولداً يَحوزُ[٢] فطنةَ الإنس وخفَّة الجنِّ حيث كانت لها نسبةٌ إليهم، فيضبطهم ضبطاً قويّاً، فرمَوْها عنده بالجنون، وأنَّ رِجْليها كحوافر البهائم، فلذا اختبرها بهذا، وبما يكون سبباً للكشف عن ساقيها.

ومَن لم يقل بنسبتها إلى الجنِّ يقول: لعلها رماها حاسدٌ بذلك، فأراد عليه السلام اختبارها ليقف على حقيقة الحال.

ومنهم مَن يقول: ليس ذاك إلا ليقابلها بمثل ما فعلتْ هي، حيث نكَّرت الغلمانَ والجواريَ، وامتحنته عليه السلام بالدرَّة العذراء والجَزْعةِ المعوجَّة الثقبِ،

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٧.

(٢) في الأصل: فيحوز، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٤٨، والكلام منه.

وكونُ ذلك في عرشها الذي يَبعُدُ كلَّ البعد إحضارُه مع بُعْدِ المسافة وشدَّة محافظتها له أتمُّ وأقوى، ويتضمَّن أيضاً من إظهار المعجزة ما لا يخفى، وهذا عندي ألصقُ بالقلب من غيره.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ أجابت بما أنبأ عن كمالِ رجاحةِ عقلها، حيث لم تَجْزِمْ بأنه هو لاحتمال أن يكون مثلَه، بل أتت بـ «كأنَّ» الدالَّةِ كما قيل على غلبة الظنِّ في اتِّحاده معه مع الشكِّ في خلافه، وليست «كأنّ» هنا للدلالة على التشبيه كما هو الغالب فيها.

وذكر ابن المنير في «الانتصاف» ما يدلُّ على أنها تُفيد قوَّة الشَّبه، فقال: الحكمةُ في عدول بلقيس في الجواب عن: هكذا هو، المطابقِ للسؤال إلى «كأنه هو»: أنَّ «كأنه هو» عبارةُ مَن قَوِيَ عنده الشَّبَهُ حتى شكَّك نفسَه في التغاير بين الأمرين وكاد يقول: هو هو، وتلك حالُ بلقيس، وأمَّا: هكذا هو، فعبارةُ جازمٍ بتغايُرِ الأمرين، حاكمٍ بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلا تُطابِقُ حالها، فلذا عَدَلَتْ عنها إلى ما في النظم الجليل[1].

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ من تتمَّة كلامها على ما اختاره جمعٌ من المفسرين، كأنها استَشْعَرتْ مما شاهدته اختبارَ عقلها وإظهارَ معجزةٍ لها، ولمَّا كان الظاهر من السؤال هو الأول سارعتْ إلى الجواب بما أنبأ عن كمال رجاحة عقلها، ولمَّا كان إظهارُ المعجزة دون ذلك في الظهور ذكرت ما يتعلَّق به آخِراً، وهو قولُها: «وأوتينا» إلخ، وفيه دلالةٌ على كمال عقلها أيضاً، ومعناه: وأوتينا العلمَ بكمال قدرة الله تعالى وصحةِ نبوَّتِكَ من قَبْلِ هذه المعجزة، أو من قبل هذه الحالة، بما شاهدناه من أمر الهدهد، وما سمعناه من رسلنا إليك، من الآيات الدالَّة على ذلك، وكنَّا مؤمنين من ذلك الوقت، فلا حاجةَ إلى إظهار هذه المعجزة.

ولك أن تجعله من تتمة ما يتعلَّق بالاختبار، وحاصلهُ: لا حاجة إلى الاختبار لأني آمنتُ قبلُ، وهذا كافٍ في الدلالة على كمال عقلي.

---

(١) الانتصاف ٣/ ١٤٩-١٥٠.

وجوِّز أن يكون لبيانِ منشأ غلبة الظنِّ بأنّه عرشها، والداعي إلى حُسْنِ الأدب في محاورته عليه السلام، أي: وأوتينا العلم بإتيانك بالعرش من قَبْلِ الرؤية أو من قبل هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار، وكنَّا من ذلك الوقت مؤمنين.

والتعبيرُ بنون العظمة جارٍ على سَنَنِ تعبيرات الملوك، وفيه تعظيمٌ لأمر إسلامها، وليس ذاك لإرادةِ نفسها ومَن معها من قومها؛ إذ يبعده قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهو بيانٌ من جهته عزَّ وجلَّ لِمَا كان يمنعها من إظهار ما ادَّعتْ من الإسلام إلى الآن، أي: صدَّها عن إظهار ذلك يومَ أُوتيت العلم الذي يقتضيه عبادتُها القديمةُ للشمس، فـ «ما» مصدرية والمصدرُ فاعلُ «صَدَّ»، وجوِّز كونُها موصولةً واقعةً على الشمس، وهي فاعلٌ أيضاً، والإسناد مجازيٌّ على الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ تعليلٌ لسببية عبادتها المذكورة للصدِّ، أي: إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، فلذلك لم تكن قادرةً على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم، إلى أن حضرت بين يدي سليمان عليه السلام.

وقرأ سعيد بن جبير وابن أبي عبلة: «أنها» بفتح الهمزة[1] على تقدير لام التعليل، أي: لأنها، أو جَعْلِ المصدر بدلاً من فاعلِ «صدَّ» بدلَ اشتمالٍ.

وقيل: قوله تعالى: (وَأُوتِينَا) إلخ من كلام قوم سليمان عليه السلام، كأنهم لمَّا سمعوها أجابت السؤال بقولها: «كأنه هو»، قالوا: قد أصابت في جوابها فطبَّقتِ المَفْصِلَ[2]، وهي عاقلةٌ لبيبةٌ، وقد رُزِقَتِ الإسلام، وعَلِمتْ قدرةَ الله عزَّ وجلَّ وصحَّة النبوَّةِ بالآيات التي تقدَّمت، وبهذه الآية العجيبة من أمرِ عَرْشِها، وعطفوا على ذلك قولَهم: وأُوتينا العلمَ بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده سبحانه قبلَ عِلْمِها، ولم نَزَلْ على دين الإسلام، وكان هذا منهم شكراً لله تعالى

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٧٩.

(٢) المَفْصِل: طبق العظمين، أي: ملتقاهما، وأصل التطبيق: إصابة المفصل، وطبَّق فلان، أي أصاب سيفُه المفصل فأبان العضوَ، ويقال للبليغ من الرجال: قد طبَّق المَفْصِلَ فأغناك عن المفسر. النهاية والمعجم الوسيط (طبق)، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص٤٨.

على فضلهم عليها، وسَبْقِهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها، ويومئُ إلى هذا المطويِّ جَعْلُ عِلْمِهم وإسلامِهم قَبْلَها. وقوله تعالى: (وَصَدَّهَا) إلخ على هذا يحتمل أن يكون من تتمة كلام القوم، ويحتمل أن يكون ابتداءَ إخبارٍ من جهته عزَّ وجلَّ.

وعن مجاهد وزهير بن محمد أنَّ «وأوتينا» من كلام سليمان عليه السلام، وفي «وَصَدَّها» إلخ عليه أيضاً احتمالٌ.

ولا يخفى ما في جَعْلِ «وأوتينا» إلخ من كلام القوم أو من كلام سليمان عليه السلام من البعد والتكلُّف، وليس في ذلك جهةُ حُسْنٍ سوى اتِّساقِ الضمائر المؤنَّثة.

وقيل: إنَّ «وأوتينا» إلخ من تتمَّة كلامها، وقوله تعالى: (وَصَدَّهَا) إلخ ابتداءُ إخبارٍ من جهته تعالى لبيانِ حُسْنِ حالها، وسلامةِ إسلامها عن شَوْبِ الشرك، بجَعْلِ فاعلِ «صدَّها» ضميرَه عزَّ وجلَّ أو ضميرَ سليمان عليه السلام، و«ما» مصدريةٌ أو موصولةٌ قبلها حرفُ جرٍّ مقَّدرٍ، أي: صدَّها الله تعالى أو سليمانُ عن عبادتها من دون الله، أو عن الذي تعبده من دونه تعالى.

ونقل ذلك أبو حيان عن الطبريِّ وتعقَّبه بقوله: وهو ضعيفٌ لا يجوز إلّا في الشعر نحو قوله:

تــمــرُّون الــديــار ولــم تَــعُــوجُــوا[1]

وليس من مواضع حَذْفِ حرف الجر[2]. وأنت تعلم أنَّ المعنى مع هذا مما لا ينشرحُ له الصدر.

وأَبْعَدَ بعضهم كلَّ البعد فزعم أنَّ قوله تعالى: (وَصَدَّهَا) إلخ متصلٌ بقوله سبحانه: (أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) والواو فيه للحال، و«قد» مضمَرة. وفي

(١) وعجزه: كلامكم عليَّ إذاً حرامُ، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٠، واللسان (مرر)، والخزانة ٩/ ١٢١، وصدره في الديوان:

أتــمــضــون الــرســومَ ولا تُــحــيَّــى

(٢) البحر ٧/ ٧٩، وكلام الطبري في تفسيره ١٨/ ٨٠.

«البحر» أنه قولٌ مرغوبٌ عنه لطول الفصل بينهما[١]، ولأنَّ التقديم والتأخير لا يُذْهَبُ إليه إلَّا عند الضرورة[٢].

ولَعَمْري مَن أنْصفَ رأى أنَّ ما ذكر مما لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الله تعالى المجيد.

وأنا أقول بعد القيل والقال: إنَّ وجه رَبْطِ هذه الجمل مما يحتاج إلى تدقيق النظر، فليتأمل، والله تعالى الموفِّق.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قيل لها بعد الامتحان المذكور؟ فقيل: «قيل لها ادخلي» إلخ، ولم يعطف على قوله تعالى: (أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ) لئلا يفوتَ هذا المعنى. وجيء بـ «لها» هنا دون ما مرَّ لمكان أمرها.

و«الصرح»: القصرُ وكلُّ بناءٍ عالٍ، ومنه: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر:٣٦] وهو من التصريح: وهو الإعلان البالغ.

وقال مجاهد: «الصرح» هنا البِرْكةُ[٣]. وقال ابن عيسى: الصحن، وصرحةُ الدار ساحتُها.

ورُوي أنَّ سليمان عليه السلامُ أمر الجنَّ قبل قدومها فبنوا له على طريقها قصراً من زجاجٍ أبيضَ، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دوابِّ البحر السمكَ وغيرَه. وفي رواية: أنهم بنوا له صرحاً، وجعلوا له طوابيقَ من قواريرَ كأنها الماءُ، وجعلوا في باطن الطوابيق كلَّ ما يكون من الدوابِّ في البحر، ثم أطبقوه. وهذا أوفقُ بظاهر الآية. ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجنُّ والإنس.

وفعل ذلك امتحاناً لها أيضاً على ما قيل. وقيل: ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوَّته وثباتاً على الدين. وقيل: لأنَّ الجنَّ قالوا له عليه السلام: إنها شَعْراءُ الساقين، ورجْلُها كحافر الحمار، فأراد الكشف عن حقيقة الحال بذلك.

---

(١) في (م): بينها.
(٢) البحر ٧/ ٧٩.
(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٨٢ بلفظ: «الصرح»: بركة من ماء، ضرب عليها سليمان قوارير، ألبسها.

وقال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ما حاصله: إنه أراد أن ينبِّهها بالفعل على أنها صَدَقَتْ في قولها في العرش: «كأنه هو»، حيث إنه انعدم في سبأ ووُجد مثلهُ بين يديه، فجعل لها صرحاً في غاية اللطف والصفاء كأنه ماءٌ صافٍ وليس به، وهذا غايةُ الإنصاف منه عليه السلام. ولا أظنُّ الأمر كما قال، والله تعالى أعلم.

واستُدلَّ بالآية على القول بأنَّ أَمْرَها بدخول الصرح ليتوصَّل به إلى كشف حقيقة الحال على إباحة النظر قبل الخطبة، وفيه تفصيلٌ مذكورٌ في كتب الفقه.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: رأت صَحْنَه، بناءً على أنَّ الصَّرح بمعنى القصر ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ظنَّته ماءً كثيراً ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لئلَّا تبتلَّ أذيالُها، كما هو عادةُ مَن يريد الخوض في الماء.

وقرأ ابن كثير برواية قنبل: «سأقيها» بهمز ألفِ ساق[1] حملاً له على جمعه سُؤْق وأَسْؤُق، فإنه يطَّرد في الواو المضمومة هي أو ما قَبْلَها قَلْبَها همزةً، فانجرَّ ذلك بالتبعية إلى المفرد الذي في ضمنه.

وفي «البحر»[2]: حكى أبو عليٍّ[3] أنَّ أبا حيَّةَ النميريَّ كان يهمز كلَّ واوٍ قبلها ضمَّةٌ، وأنشد:

أحبُّ المؤقِدَيْنِ إليَّ مؤسى[4]

وفي «الكشف»: الظاهر أنَّ الهمز لغةٌ في «ساق»، ويشهد له هذه القراءة الثابتةَ في السبعة. وتعقِّب بأنه يأباه الاشتقاق. وأيًّا ما كان فقولُ مَن قال: إنَّ هذه القراءة لا تصحُّ، لا يصحُّ.

---

(١) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.
(٢) ٧/ ٨٠.
(٣) في الحجة ٥/ ٣٩٢.
(٤) البحر ٧/ ٨٠، والحجة ١/ ٢٣٩، و٥/ ٣٩٢، والخصائص لابن جني ٢/ ١٧٥. وعجزه: وجعدةُ لو أضاءهما الوقود، ورواية الحجة والخصائص: لحبُّ المؤقدان، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ٢٨٨ برواية: لحب الواقدان إليَّ موسى. قال الشارح: موسى ابنه، وجعدة ابنته.

﴿قَالَ﴾ أي: سليمان عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب. وقيل: القائلُ هو الذي أمرها بدخول الصَّرْحِ، وهو خلافُ الظاهر.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: ما حَسبته لجَّةً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: مملَّسٌ، ومنه الأمردُ للشاب الذي لا شعر في وجهه، وشجرةٌ مرداء: لا ورقَ عليها، ورملةٌ مرداء: لا تُنبِتُ شيئاً، والماردُ: المتعرِّي من الخير. ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ من الزجاج، وهو جمعُ قارورة.

﴿قَالَتْ﴾ حين عايَنَتْ هذا الأمرَ العظيم: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: بما كنتُ عليه من عبادة الشمس. وقيل: بظنِّي السوءَ بسليمان عليه السلام، حيث ظنَّتْ أنه يريد إغراقها في اللجَّة، وهو بعيد. ومثلُهُ ما قيل: أرادت: ظلمتُ نفسي بامتحاني سليمانَ حتى امتحنني لذلك بما أوجب كشفَ ساقيَّ بمرأى منه.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ تابعةً له مقيِّدةً، وما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل لإظهارِ معرفتها بألوهيته تعالى، وتفرُّده باستحقاق العبادة، وربوبيَّتِهِ لجميع الموجودات، التي من جملتها ما كانت تعبدُه قبل ذلك من الشمس، وكأنَّ هذا القولَ تجديدٌ لإسلامها على أتمِّ وجهٍ، وقد أخرجته مخرجاً لا أنانيةَ فيه ولا كبرَ أصلاً، كما لا يخفى.

واختلف في أمرها بعد الإسلام؛ فقيل: إنه عليه السلام تزوَّجها وأحبَّها وأقرَّها على ملكها، وأمر الجنَّ فبنوا لها سيلحين(١) وغُمْدَان، وكان يزورُها في الشهر مرةً، فيقيم عندها ثلاثةَ أيام، وولدتْ له.

وأخرج ابن عساكر عن مَسْلمةَ(٢) بنِ عبد الله بن ربعيٍّ أنه عليه السلام أمهرها بعلبك.

وذكر غير واحدٍ أنها حين كشفت عن ساقيها أبصر عليهما شعراً كثيراً، فكره أن

---

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٣٥: سَلْحين بفتح أوله وسكون ثانيه، ثم حاء مهملة مكسورة ثم ياء: حصن عظيم بأرض اليمن، ثم قال: وسيلحين بعد السين ياء: موضع قرب بغداد.

(٢) في الأصل و(م) والدر المنثور ٥/ ١١٢: سلمة، والمثبت من تاريخ ابن عساكر ٦٩/ ٦٧، وهو الصواب.

يتزوَّجها كذلك، فدعا الإنس فقال: ما يَذهَبُ بهذا؟ فقالوا: يا رسول الله المواسي. فقال: المواسي تقطع ساقي المرأة.

وفي رواية: أنه قيل لها ذلك، فقالت: لمْ يمسسني الحديد قطُّ. فكره سليمان المواسي وقال: إنها تقطع ساقيها. ثم دعا الجنَّ فقالوا مثل ذلك، ثم دعا الشياطين فوضعوا له النُّورة. قال ابن عباس: وكان ذلك اليومُ أولَ يومٍ رُئيت فيه النُّورة. وعن عكرمة: أنَّ أول من وضع النُّورةَ شياطينُ الإنس، وضعوها لبلقيس، وهو خلافُ المشهور.

ويُروَى أنَّ الحمَّامَ وضع يومئذ؛ وفي «تاريخ» البخاري عن أبي موسى الأشعريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ مَن صُنِعتْ له الحمَّاماتُ سليمان»(١). وأخرج الطبرانيُّ وابن عديٍّ في «الكامل» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عنه أيضاً قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أولُ من دخل الحمَّام سليمانُ، فلمَّا وجد حرَّه قال: أوَّه من عذاب الله تعالى»(٢).

وروي عن وهبٍ أنه قال: زعموا أنَّ بلقيس لمَّا أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أزَوِّجْكِه. فقالت: أمِثْلي يا نبيَّ الله تَنْكِحُ الرجال، وقد كان [لي] في قومي من الملك والسلطان ما كان؟ قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلَّا ذلك، وما ينبغي لك أن تُحرِّمي ما أحلَّ الله تعالى لك. فقالت: زوِّجني إن كان لابدَّ من ذلك ذا تُبَّع ملكَ هَمْدان. فزوَّجها إياه، ثم ردَّها إلى اليمن وسلَّط زوجها ذا تبَّع على اليمن، ودعا زوبعةَ أميرَ جنِّ اليمن فقال: اعمل لذي تبَّع

(١) التاريخ الكبير ١/ ٣٦٢ عن حسن بن صباح، عن ابراهيم بن مهدي، عن أبي حفص الأبار، عن إسماعيل بن عبد الرحمن، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه به. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) المعجم الأوسط (٤٦١)، والكامل ١/ ٢٨٣، والشعب (٧٧٧٨)، وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ١/ ٦٨ و٨٤، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٦٦) من طرق عن إبراهيم بن مهدي بالإسناد المذكور آنفاً. قال البيهقي: تفرد به إسماعيل بن عبد الرحمن الأزدي، قال البخاري: لا يتابع عليه، وقال مرة: فيه نظر. اهـ وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسماعيل أحاديثه منكرة، قال أبو بكر الخطيب: وإبراهيم بن مهدي فيه ضعف.

ما استعملك فيه. فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها حتى مات سليمان، فلما أن حال الحول وتبيَّن الجنُّ موته عليه السلام أقبل رجلٌ منهم فسلك تهامةَ حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجنِّ، إنَّ الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديَكم. فرفعوا أيديَهم وتفرَّقوا، وانقضى ملك ذي تبَّع وملكُ بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام(١).

وقال عون بن عبد الله: سأل رجل عبد الله بن عتبة: هل تزوَّج سليمان بلقيس؟ فقال: انتهى أمرُها إلى قولها: «أسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين» قيل: يعني: لا عِلْمَ لنا وراء ذلك.

والمشهورُ أنه عليه السلام تزوَّجها، وإليه ذهب جماعةٌ من أهل الأخبار؛ وأخرج البيهقيُّ في «الزهد» عن الأوزاعيِّ قال: كُسِرَ برجٌ من أبراج تدمر، فأصابوا فيه امرأةً حسناء دعجاء مدمجةً كأنَّ أعطافها طيُّ الطوامير، عليها عمامةٌ طولُها ثمانون ذراعاً، مكتوبٌ على طرف العمامة بالذهب: بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجةُ سليمان بن داود عليها السلام، ملكتُ من الدنيا كافرةً ومؤمنةً ما لم يملكه أحدٌ قبلي، ولا يملكه أحدٌ بعدي، صار مصيري إلى الموت فأقْصِروا يا طالبي الدنيا(٢). والله تعالى أعلم بصحة الخبر.

وكم في هذه القصة من أخبارٍ اللهُ تعالى أعلمُ بالصحيح منها، والقصةُ في نفسها عجيبةٌ، وقد اشتملت على أشياءَ خارقةٍ للعادة، بل يكاد العقل يُحيلها في أول وهلة.

وممَّا يُستغرَبُ ـ ولله تعالى فيه سرٌّ خفيٌّ ـ خفاءُ أمر بلقيس على سليمان عدَّةَ سنين ـ كما قاله غيرُ واحدٍ ـ مع أنَّ المسافة بينه وبينها لم تكن في غاية البعد، وقد سخَّر الله تعالى له من الجنِّ والشياطين والطير والريح ما سخر، وهذا أغربُ من

---

(١) عرائس المجالس للثعلبي ص٣٢٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٣، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١١٢، ولم نقف عليه في مطبوع الزهد، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٩/ ٧٨.

خفاءِ أمر يوسف على يعقوب عليهما السلام بمراتب، وسبحان مَن لا يَعْزبُ عن علمه مثقالُ ذرةٍ في السماوات وفي الأرض.

هذا وللصوفية في تطبيق ما في هذه القصة على ما في الأنفس كلام طويل، ولعل الأمر سهلٌ على مَن له أدنى ذوقٍ بعد الوقوف على بعض ما مرَّ من تطبيقاتهم ما في بعض القصص على ذلك، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ) مسوقٌ لِمَا سيق هو له، واللام واقعةٌ في جواب قسمٍ محذوف، أي: وبالله لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وإنما أقسم على ذلك اعتناء بشأن الحكم، و«صالحاً» بدلٌ من «أخاهم» أو عطفٌ بيانيٌّ.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرةٌ لِمَا في الإرسال من معنى القول دون حروفه. وجوِّز كونُها مصدريةً حُذف منها حرفُ الجر، أي: بأنْ، وقيل: لأنْ. ووصلُها بالأمر جائزٌ لا ضير فيه كما مر.

وقُرئ بضم النون إتباعاً لها للباء[1].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فاجأ إرسالنا تفرُّقُهم واختصامُهم، فآمن فريقٌ وكَفَر فريقٌ، وكان ما حكى الله تعالى في محلٍّ آخَرَ بقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ٧٥].

ف «إذا» فجائيةٌ والعاملُ فيها مقدَّرٌ، لا «يختصمون»، خلافاً لأبي البقاء لأنه صفةُ «فريقان» كما قال[2]. ومعمولُ الصفة لا يتقدَّم على الموصوف، وقيل: هذا حيث لا يكون المعمول ظرفاً. وضمير «يختصمون» لمجموع الفريقين، ولم يقل: يختصمان، للفاصلة، ويُوهم كلامُ بعضهم أنَّ الجملة خبرٌ ثانٍ، وهو كما ترى.

---

(١) هي قراءة نافع وابن كثير والكسائي وابن عامر وأبي جعفر وخلف. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٥.

(٢) الإملاء ٣/ ١٣٤-١٣٥، وفيه: «إذا» هنا للمفاجأة فهي مكان، و«هم» مبتدأ، و«فريقان» الخبر، و«يختصمون» صفة، وهي العاملة في «إذا».

و«هم» راجعٌ إلى «ثمود» لأنه اسمٌ للقبيلة. وقيل: إلى هؤلاء المذكورين ليشمل صالحاً عليه السلام، والفريقان حينئذٍ أحدُهما صالحٌ وحده وثانيهما قومُه. والحاملُ على هذا كما ذكره ابن عادل: العطفُ بالفاء؛ فإنها تُؤْذِنُ أنهم عقيبَ الإرسال بلا مهلةٍ صاروا فريقين، ولا يصيرُ قومه عليه السلام فريقين إلا بعد زمانٍ[1].

وفيه أنه يأباه قولُه تعالى: (قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ) وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه، على أنه يجوز كونُ الفاء لمجرَّد الترتيب.

ولعل فريق الكفرة أكثرُ، ولذا ناداهم بقوله: «يا قوم» كما حكي عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ لجَعْلِه في حكم الكلِّ، أي: قال عليه السلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتوِّ والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه السلام: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] متلطِّفاً بهم: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة التي تسوءُكم ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾ أي: التوبة، فتؤخِّرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون: إنْ وقع إيعاده تُبنا حينئذٍ، وإلا فنحن على ما نحن عليه. ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلَّا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بقبولها؛ إذ سنَّةُ الله تعالى عدمُ القبول عند النزول.

وقد خاطبهم عليه السلام على حَسَب تخمينهم وجهلهم في ذلك بأنَّ ما خمَّنوه من التوبة إذ ذاك فاسدةٌ، وأن استعجالهم ذلك خارجٌ من المعقول. والتقابلُ بين السيئة والحسنة بالمعنى الذي سمعت حاصلٌ من كون أحدهما حسناً والآخَرِ سيئاً.

وقيل: المراد بالسيئة تكذيبهم إياه عليه السلام وكفرُهم به، وبالحسنة تصديقُهم وإيمانهم، والمراد من قوله: «لم تستعجلون» إلخ لومُهم على المسارعة إلى تكذيبهم إياه وكفرِهم به، وحضُّهم على التوبة من ذلك بترك التكذيب والإيمان. وحاصلُه لومُهم على إيقاع التكذيب عند الدعوة دون التصديق، وحضُّهم على تَلَافي ذلك. وإيهامُ الكلام انتفاء اللوم على إيقاع التكذيب بعد التصديق مما لا يكاد يُلتفت إليه.

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٥/ ١٧٥.

ولا يخفى بعد طيِّ الكشح عن المناقشة فيما ذكر أنَّ المناسب لِمَا حكى الله تعالى عن القوم في سورة «الأعراف» ولِمَا جاء في الآثار هو المعنى الأول، ومن هنا ضعِّف ما روي عن مجاهد من تفسير الحسنة برحمة الله تعالى، لتُقابِلَ السيئة المفسَّرةَ بعقوبته عزَّ وجلَّ، ويكون المراد من استعجالهم بالعقوبة قبل الرحمة طلبَهم إياها دون الرحمة، فتأمل.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا﴾ أصلُه: تطيَّرنا، وقرئ به[1]، فأدغمت التاء في الطاء وزيدتْ همزةُ الوصل ليتأتَّى الابتداء. والتطيُّر: التشاؤم، عبَّر عنه بذلك لِمَا أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرُّون بطائر يَزْجُرونه، فإن مرَّ سانحاً بأنْ مرَّ من مَيَامِنِ الشخص إلى مياسره تيمَّنوا، وإن مرَّ بارحاً بأن مرَّ من المياسر إلى الميامن تشاءموا؛ لأنه لا يمكن للمارِّ به كذلك أن يرميه حتى ينحرف، فلمَّا نسبوا الخير والشر إلى الطائر استُعير لِمَا كان سبباً لهما من قَدَرِ الله تعالى وقسمته عزَّ وجل، أو من عمل العبد الذي هو سببُ الرحمة والنعمة. أي: تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ في دينك، حيث تتابَعَتْ علينا الشدائد ـ وقد كانوا قحطوا ـ ولم نَزَلْ في اختلافٍ وافتراق مذ اخترعتُم دينكم. وتشاؤمهم يحتمل أن يكون من المجموع، وأن يكون من كلٍّ من المتعاطفين.

﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ﴾ أي: سببُكم الذي منه ينالكم ما ينالُكم من الشر ﴿عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ وهو قَدَرُه سبحانه، أو عملُكم المكتوبُ عنده عزَّ وجل.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾ إضرابٌ من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يَحيقُ بهم إلى ذِكْرِ ما هو الداعي إليه، أي: بل أنتم قومٌ تُختَبرون بتعاقُبِ السرَّاء والضرَّاء، أو تعذَّبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرةَ.

وجاء «تفتنون» بتاء الخطاب على مراعاة «أنتم»، وهو الكثير في لسان العرب، ويجوز في مثل هذا التركيب: يفتنون، بياء الغيبة على مراعاة لفظ «قوم»، وهو قليلٌ في لسانهم.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: مدينةِ ثمود وقريتهم وهي الحجر ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ هو اسم

(١) الكشاف ٣/ ١٥١، والبحر ٧/ ٨٢.

جمع يُطلق على العصابة دون العشرة كما قال الراغب[(١)]، وفي «الكشاف»: هو من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة[(٢)]. وقيل: بل يقال إلى الأربعين، وليس بمقبول. وأصله على ما نُقل عن الكرمانيّ من الترهيط، وهو تعظيمُ اللُّقَم وشدَّةُ الأكل.

وقد أضيف العددُ إليه، وقد اختلف في جواز إضافته إلى اسم الجمع؛ فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس، وما ورد من الإضافة إليه فهو على سبيل الندور، وقد صرَّح سيبويه أنه لا يقال: ثلاثُ غَنَمٍ[(٣)].

وذهب قومٌ إلى أنه يجوز ذلك وينقاسُ، وهو مع ذلك قليل.

وفصَّل قوم بين أن يكون اسمُ الجمع[(٤)] للقليل كرَهطٍ ونَفَرٍ وذَوْدٍ، فيجوز أن يضاف إليه إجراءً له مجرى جمع القلَّة، أو للكثير، أو يُستعمل لهما، فلا يجوز إضافته إليه، بل إذا أريد تمييزه به جيء به مقروناً بـ «من» كـ : خمسةٍ من القوم، وقال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وهو قول المازنيِّ.

واختار غيرُ واحدٍ أنّ إضافة «تسعة» إلى «رهط» هاهنا باعتبار أنَّ «رهطاً» لكونه اسمَ جمعٍ للقليل في حكم أشخاص ونحوِه من جموع القلَّة، وهي يضاف إليها العدد، كتسعة أشخاصٍ، وتسع أنفُسٍ، وهذا معنى قولهم: إنَّ وقوع «رهط» تمييزاً لـ «تسعة» باعتبار المعنى، فكأنه قيل: تسعة أشخاص.

وقيل: أي: تسعةُ أنفُسٍ، وتأنيثُ العدد لأنَّ المذكور في النظم الكريم «رهط» وهو مذكَّر، فليس ذاك من غير الفصيح كقوله:

ثلاثةُ أنفسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ[(٥)]

---

(١) في مفرداته (رهط).

(٢) الكشاف ٣/ ١٥١.

(٣) الكتاب ٣/ ٥٦٢. ونقل المصنف كلامه وكلام الأخفش بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٨٣.

(٤) في (م): الجميع.

(٥) وعجزه: لقد جار الزمان على عيالي، والبيت للحطيئة، وهو في ديوانه ص٣٩٥، والكتاب ٣/ ٥٦٥، والخزانة ٧/ ٣٦٤. ورواية الديوان: ونحن ثلاثةٌ وثلاثُ ذودٍ.
قال البغدادي: أنشده سيبويه شاهداً على تأنيث ثلاثة أنفس، وكان القياس: ثلاث أنفس، لأن النفس مؤنثة، لكن أنّث لكثرة إطلاق النفس على الشخص.

نعم تقدير ما تقدَّم أسلمُ من المناقشة. وأمَّا ما قيل: أي: تسعةُ رجال، ففيه الغفلةُ عمَّا أشرنا إليه، ثم إنه ليس المراد أنَّ الرهط بمعنى الشخص أو بمعنى النفس، بل أنَّ التسعة من الأشخاص أو من الأنفس هي الرَّهْطُ، فليس المعدودُ بالتسعة ما دلَّ عليه الرهط من الجماعة ليكون هناك تسعُ جماعاتٍ لا تسعةُ أفراد.

وقال الإمام: الأقربُ أن يكون المراد: تسعة جَمْعٍ؛ إذ الظاهر من الرهط الجماعةُ، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم، لا لاختلاف النسب[1]. اهـ.

وقيل: كان هؤلاء التسعةُ رؤساءَ، مع كلٍّ واحدٍ منهم رَهْطٌ، ولذا قيل: «تسعة رهط» وأسماؤهم عن وهب: الهذيل بن عبد ربٍّ، وغنم بن غنم، ورياب[2] بن مهرج، [ومصدع بن مهرج]، وعمير بن كردبة، وعاصم بن مخرمة، وسبيط بن صدقة، وسمعان بن صفي، وقدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاةَ قومِ صالح ومن أبناء أشرافهم[3].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّ أسماءهم: دعمي، ودعيم، وهرمي، وهريم، ودواب، وصواب، ودياب، ومسطح، وقدار وهو الذي عقر الناقة[4].

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، إفساداً بحتاً لا يخالطه شيءٌ من الصلاح، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، أو: لا يصلحون شيئاً من الأشياء، والمراد أنَّ عادتهم المستمرةَ ذلك الإفساد كما يؤذِنُ به المضارع، والجملة في موضع الصفة لـ «رهط» أو لـ «تسعة».

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٠٣.

(٢) في (م): ودباب.

(٣) ذكره عن وهب الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٥١-١٥٢، والقرطبي ١٦/ ١٨٣، وما سلف بين حاصرتين منهما. قال السهيلي في التعريف والإعلام ص١٢٩: ذكر النقاش التسعة وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكن نذكره على رسم وجدناه في كتاب محمد بن حبيب [المسمى: المحبَّر، وكلامه فيه ص٣٥٧]. . .، ثم ذكر أسماءهم باختلافٍ عما روي عن وهب.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٠، باختلاف يسير.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ ببيانِ بعض[1] ما فعلوا من الفساد، أي: قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك على ما رُوي عن ابن عباس بعد أن عقروا الناقة وأنذرهم بالعذاب، وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ إلخ [هود: ٦٥].

﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمرٌ من التقاسمُ، أي: التحالُف، وقع مقولَ القول، وهو قول الجمهور.

وجوِّز أن يكون فعلاً ماضياً بدلاً من «قالوا»، أو حالاً من فاعله بتقديرِ «قد» أو بدونها، أي: قالوا متقاسمين، ومقولُ القول: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ إلخ، وجوَّز أبو حيان على هذا أن يكون «بالله» من جملة المقول[2].

والبَيَاتُ: مباغتةُ العدوِّ ومفاجأتهُ بالإيقاع به ليلاً وهو غافل. وأرادوا قتله عليه السلام وأهلَه ليلاً وهم غافلون. وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من آيين الملوك استراقُ الظَّفر[3].

وقرأ ابن أبي ليلى: «تقسَّموا» بغير ألف وتشديدِ السين[4]، والمعنى كما في قراءة الجمهور.

وقرأ الحسن وحمزة والكسائي: «لتُبيِّتُنَّه» بالتاء[5] على خطاب بعضهم لبعض.

وقرأ مجاهد وابن وثاب وطلحةُ والأعمش: «ليبيِّتُنَّه» بياء الغيبة[6]، و«تقاسموا» على هذه القراءة لا يصحُّ إلا أن يكون خبراً، بخلافه على[7] القراءتين الأوْلَيين فإنه

---

(١) في الأصل: لبعض، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٠، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ٨٤.
(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٥٢، وآيين وآئين كلمة فارسية معناها: عادة، سيرة، طبيعة، طبع، دأب، قانون، نظام، أسلوب...، وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٨٤ وفيه: ليس من عادة الملوك...
(٤) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٨٣.
(٥) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، وذكرها عن الحسن أبو حيان في البحر ٧/ ٨٤.
(٦) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٨٤.
(٧) في (م): عن.

يصحُّ أن يكون خبراً كما يصحُّ أن يكون أمراً. وذلك لأنَّ الأمر خطابٌ، والمقسمُ عليه بعده لو نظر إلى الخطاب وجب تاءُ الخطاب، ولو نظر إلى صيغة قولهم عند الحلف وجب النون، فأمَّا ياء الغائب فلا وجه له، وأما إذا جُعل خبراً فهو على الغائب، كما تقول: حلف ليَفْعَلَن.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لوليِّ صالح. والمراد به طالبُ ثأره من ذوي قرابته إذا قتل. وقرأ: «لتقولُن» بالتاء مَن قرأ «لتُبَيِّتُنَّه» كذلك. وقرأ «ليقولُنَّ» بياء الغيبة مَن قرأ بها فيما تقدَّم.

وقرأ حميد بن قيس الأولَ بياء الغيبة وهذا بالنون[١]، قيل: والمعنى على ذلك: قالوا متقاسمين بالله: ليبيتَنَّه قومٌ منَّا ثم لنقولنَّ جميعنا لوليه.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا هلاكهم، على أن «مهلك» مصدرٌ كمرجع، أو: مكانَ هلاكهم، على أنه للمكان، أو: زمانَ هلاكهم على أنه للزمان. والمراد نفيُ شهود الهلاك الواقع فيه. واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصداً للمبالغة، كأنهم قالوا: ما شهدنا ذلك فضلاً عن أن نتولَّى إهلاكهم، ويُعلم من ذلك نفيُ قتلهم صالحاً عليه السلام أيضاً لأنَّ مَن لم يقتل أتباعه كيف يقتله.

وقيل: في الكلام حذف، أي: ما شهدنا مهلكَ أهله ومهلكَه. واستظهره أبو حيان[٢] ثم قال: وحذفُ مثلِ هذا المعطوف جائزٌ في الفصيح كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] أي: والبرد، وقال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً   أبو حُجُرٍ إلَّا ليالٍ قلائلُ[٣]

أي: بين الخير وبيني. اهـ، وفيه ما لا يخفى.

وقيل: الضمير في «أهله» يعود على الوليّ، والمراد بأهل الوليّ صالحٌ وأهلُه.

---

(١) البحر ٧/ ٨٤.
(٢) في البحر ٧/ ٨٤.
(٣) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٩٠.

واعترض بأنه لو أريد أهلُ الوليّ لقيل: أهلِكَ، أو: أهلِكم[١].

ومُنع بأنَّ ذلك غيرُ لازم، فقد قرئ: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ [آل عمران: ١٢] بالخطاب والغيبة[٢]، ووجهُ ذلك ظاهرٌ. نعم رجوعُ الضمير إلى الوليِّ خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

وقرأ الجمهور: «مُهْلَكَ» بضم الميم وفتح اللام[٣] من أَهْلَكَ، وفيه الاحتمالات الثلاث. وقرأ أبو بكر: «مَهْلَكَ» بفتحهما على أنه مصدر.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عطف على «ما شهدنا» كما ذهب إليه الزجَّاج[٤]، والمعنى: ونحلف إنَّا لصادقون. وجوَّز أن تكون الواو للحال، أي: والحالُ إنَّا لصادقون فيما ذكرنا.

واستشكل ادِّعاؤهم الصدق في ذلك وهم عقلاء ينفرون عن الكذب ما أمكن. وأجيب بأنَّ حضور الأمر غيرُ مباشرته في العرف؛ لأنه لا يقال لمن قتل رجلاً: إنه حضر قتله، وإن كان الحضورُ لازماً للمباشرة، فحلفوا على المعنى العرفيِّ على العادة في الأيمان، وأَوْهَموا الخصم أنهم أرادوا معناه اللغويَّ، فهم صادقون غيرُ حانثين، وكونُهم من أهل التعارُفِ أيضاً لا يضرُّ، بل يفيد فائدةً تامةً.

وقال الزمخشريُّ: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيَّتوا صالحاً وبيَّتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: ما شهدنا مهلك أهله، فذكروا أحدهما، كانوا صادقين؛ لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدَهما[٥].

وتعقِّب[٦] بأنَّ مَن فعل أمرين وجَحَد أحدَهما لم يكن في كذبه شبهةٌ، وإنما تتمُّ الحيلةُ لو فعلوا أمراً واحداً وادُّعي عليهم فعلُ أمرين فجحدوا المجموع. ولذا لم

---

(١) في الأصل و(م): أهله، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٥١.
(٢) سلفت ٤/ ٥٢.
(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١. وهي قراءة العشرة سوى عاصم، فقد روى عنه حفص «مهلِك» بفتح الميم وكسر اللام، وستأتي رواية أبي بكر عنه.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ١٢٤.
(٥) الكشاف ٣/ ١٥٢.
(٦) في الانتصاف ٣/ ١٥٢.

يختلف العلماء في أنَّ من حلف: لا أضرب زيداً، فضرب زيداً وعَمْراً، كان حانثاً، بخلاف مَن حلف: لا أضرب زيداً وعَمْراً، ولا آكل رغيفين، فأكل أحدهما، فإنه محلُّ خلافٍ للعلماء في الحنث وعدمه.

والحقُّ أنَّ تبرئتهم من الكذب فيما ذكر غيرُ لازمةٍ حتى يتكلَّف لها[1]، وهم الذين كذبوا على الله تعالى ورسولِه عليه السلام، وارتكبوا ما هو أقبحُ من الكذب فيما ذكر، ومقصودُ الزمخشريِّ تأييدُ ما يزعمه هو وقومه من قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل بموافقة قوم صالح عليها، ولا يكاد يتمُّ له ذلك.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً غيرَ معهودٍ، أو جازينا مكرَهم من حيث لا يحتسبون.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ شروعٌ في بيانِ ما ترتَّب على ما باشروه من المكر، والظاهرُ أن «كيف» خبرٌ مُقدَّمٌ لـ «كان»، و«عاقبة» الاسم، أي: كان عاقبة مكرهم واقعةً على وجهٍ عجيب يُعتبر به، والجملة في محلِّ نصبٍ على أنها مفعولُ «انظر»، وهي معلَّقة لمكان الاستفهام، والمراد: تَفَكَّرْ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ في تأويل مصدرٍ وقع بدلاً من «عاقبة مكرهم»، أو خبر مبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ العاقبة، والجملةُ مبيِّنةٌ لِمَا في «عاقبة مكرهم» من الإبهام، أي: هو - أو هي - تدميرُنا وإهلاكُنا إياهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا منهم في مباشرة التبييت ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ بحيث لم يشذَّ منهم شاذٌّ. أو هو على تقدير الجارِّ، أي: لتدميرنا إياهم، أو بتدميرنا إياهم، ويكون ذلك تعليلاً لما ينبئُ عنه الأمر بالنظر في كيفية عاقبة أمرهم من الهول والفظاعة.

وجوَّز بعضُهم كونَه بدلاً من «كيف». وقال آخرون: لا يجوزُ ذلك؛ لأنَّ البدل عن الاستفهام يلزمُ فيه إعادةُ حرفه، كقولك: كيف زيدٌ أصحيحٌ أم مريض؟.

وجوِّز أن يكون هو الخبر لـ «كان»، وتكون «كيف» حينئذٍ حالاً والعاملُ فيها «كان» أو ما يدلُّ عليه الكلام من معنى الفعل.

---

(١) في الأصل: لهم.

ويجوزُ أن تكون «كان» تامةً، و«كيف» عليه حالٌ لا غير، والاحتمالاتُ الجائزة في «أنَّا دمَّرناهم» لا تخفى(١).

وقرأ الأكثر: «إنَّا» بكسر الهمزة(٢). فـ «كيف» خبرُ «كان»، و«عاقبة» اسمها، وجملة «إنَّا دمَّرناهم» استئنافٌ لتفسير العاقبة.

وجوّز أن تكون خبرَ مبتدأ محذوف؛ قال الخفاجي: الظاهرُ أنه الشأن أو ضميره، لا شيءٌ آخَرُ مما يحتاج للعائد ليُعترَضَ عليه بعدم العائد. ولا يَرِدُ عليه أنَّ ضمير الشأن المرفوع مَنَعَ كثيرٌ من النحويين حَذْفَه، فإنه غيرُ مسلَّمٍ(٣). ويجوز أن تكون «كان» تامةً و«كيف» حال كما تقدَّم.

ولم يجوِّز الجمهور كونَها ناقصةً والخبر جملة «إنا دمرناهم» لعدم الرابط. وقيل: يجوز، ويكفي للربط وجودُ ما يرجع إلى متعلَّق المبتدأ إذ رجوعُه إليه نفسِه غيرُ لازمٍ، وهو تكلُّفٌ وإنما يتمشى على مذهب الأخفش القائل: إذا قام بعض الجملة مقام مضافٍ إلى العائد اكتُفي به، وغيره من النحاة يأباه.

وجوَّز أبو حيان(٤) على كلتا القراءتين أن تكون «كان» زائدةً، و«عاقبة» مبتدأ، و«كيف» خبر مقدَّم له.

وقرأ أُبيّ: «أنْ دمَّرناهم»(٥) بـ «أنْ» التي من شأنها أن تنصب المضارع، ويجري في المصدر الاحتمالاتُ السابقة فيه على قراءة «أنَّا» بفتح الهمزة.

هذا وفي كيفية التدمير خلافٌ؛ فروي أنه كان لصالح عليه السلام مسجدٌ في الحجر في شعبٍ يصلِّي فيه، فقالوا: زعم صالحٌ أنه يفرغُ منَّا بعد ثلاثٍ، فنحن نفرغُ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه

(١) وهي الثلاث التي ذكرها المصنف أولاً، أي: كونه بدلاً، أو خبراً لمبتدأ محذوف، أو على تقدير الجارِّ، فيجوز مع هذه الأوجه الثلاثة أن تكون «كان» تامة.
(٢) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر. التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٥٢.
(٤) في البحر ٧/ ٨٦.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤، والبحر ٧/ ٨٦.

ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله تعالى صخرةً من الهضب حيالهم، فبادروا فطبقت عليهم فمَ الشعب، فلم يَدْرِ قومُهم أين هم، ولم يدروا ما فُعل بقومهم، وعذَّب الله تعالى كلاً منهم في مكانه ونجَّى صالحاً ومَن معه.

وقيل: جاؤوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله تعالى ملائكةً ملءَ دارِ صالح عليه السلام فرموهم بالحجارة يرونها ولا يرون رامياً وهلك سائر القوم بالصيحة.

وقيل: إنهم عزموا على تبييته عليه السلام وأهله، فأخبر الله تعالى بذلك صالحاً، فخرج عنهم، ثم أهلكهم بالصيحة وكان ذلك يومَ الأحد.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملةٌ مقرِّرةٌ لِمَا قبلها. وقولُه تعالى: ﴿خَاوِيَةًۢ﴾ أي: خاليةً أو ساقطةً متهدِّمةً أعاليها على أسافلها، كما روي عن ابن عباس ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: بسبب ظلمهم المذكور، حالٌ من «بيوتهم»، والعاملُ فيها معنى الإشارة.

وقرأ عيسى بن عمر: «خاويةٌ» بالرفع[1] على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي خاويةٌ، أو خبرٌ بعد خبرٍ لـ «تلك»، أو خبرٌ لها و«بيوتهم» بدلٌ.

و«بيوتُهم» هذه هي التي قال فيها ﷺ لأصحابه عام تبوك: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين» الحديث[2]. وهي بوادي القرى بين المدينة والشام.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من التدمير العجيب بظُلْمِهم ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرةً عظيمةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما من شأنه أن يُعلم من الأشياء، أو: لقومٍ يتَّصفون بالعلم. وقيل: لقوم يعلمون هذه القصة. وليس بشيء.

وفي هذه الآية ـ على ما قيل ـ دلالةٌ على الظلم يكون سبباً لخراب الدور؛ وروي عن ابن عباس أنه قال: أجدُ في كتاب الله تعالى أنَّ الظلم يخرِّبُ البيوت، وتلا هذه الآية. وفي التوراة: ابنَ آدم لا تظلم يخرب بيتك. قيل: وهو إشارةٌ إلى هلاك الظالم؛ إذ خرابُ بيته متعقِّبٌ هلاكَه.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٣، والبحر ٧/ ٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٦١)، والبخاري(٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولا يخفى أنَّ كون الظلم بمعنى الجور والتعدِّي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الأعصار، وكونُه بمعنى الكفر كذلك ليس كذلك، نعم لا يَبعدُ أن يكون على الكفرة يومٌ تخرَّبُ فيه بيوتُهم إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صالحاً ومَن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ من الكفر والمعاصي اتِّقاءً مستمرًّا، فلذا خُصُّوا بالنجاة. روي أنَّ الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أربعةَ آلافٍ، خرج بهم صالح إلى حضرموت، وحين دخلها مات ولذلك سميت بهذا الاسم، وبنى المؤمنون بها مدينةً يقال لها: حاضورا، وقد تقدَّم الكلام في ذلك[1]، فتذكَّر.

﴿وَلُوطًا﴾ منصوبٌ بمضمرٍ معطوفٍ على «أرسلنا» في صدر قصة صالح عليه السلام، داخلٍ معه في حيِّز القسم، أي: وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرفٌ للإرسال، على أنَّ المراد به أمرٌ ممتدٌّ وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال.

وجوِّز أن يكون منصوباً بإضمارِ: اذكر، معطوفاً على ما تقدَّم عطفَ قصةٍ على قصة، و«إذ» بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ. وليس بذاك.

وقيل: هو معطوفٌ على «صالحاً». وتعقِّب بأنه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ «صالحاً» بدلٌ أو عطفُ بيان لـ «أخاهم» وقد قيِّد بقيدٍ مقدَّمٍ عليه وهو «إلى ثمود»، فلو عطف عليه تقيَّد به، ولا يصحُّ لأنَّ لوطاً عليه السلام لم يرسَل إلى ثمود، وهو متعيِّنٌ إذا تقدَّم القيد بخلافِ ما لو تأخَّر.

وقيل: إنَّ تعيُّنه غيرُ مسلَّمٍ إذ يجوز عطفُه على مجموع القيد والمقيَّد، لكنه خلافُ المألوف في الخطابيات، وارتكابُ مثله تعسُّفٌ لا يليق.

وجوِّز أن يكون عطفاً على «الذين آمنوا».

وتعقِّب بأنه لا يناسبُ أساليبَ سَرْدِ القصص، مِن عَطْفِ إحدى القصتين على الأخرى لا على تتمة الأولى وذيلها كما لا يخفى.

---

(١) ١٧/١٦٧.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: أتفعلون الفعلةَ المتناهيةَ في القبح والسماجة، والاستفهامُ إنكاريٌّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ جملةٌ حاليةٌ من فاعل «تأتون» مفيدةٌ لتأكيد الإنكار، فإنَّ تعاطيَ القبيح من العالِم بقبحه أقبحُ وأشنعُ. و«تبصرون» من بَصَرِ القلب، أي: أتفعلونها والحالُ أنتم تعلمون علماً يقينيًّا كونَها كذلك.

ويجوز أن يكون من بَصَرِ العين، أي: وأنتم ترون وتشاهدون كونَها فاحشةً، على تنزيل ذلك ـ لظهوره ـ منزلةَ المحسوس. وقيل: مفعولُ «تبصرون» من المحسوسات حقيقةً، أي: وأنتم تبصرون آثارَ العصاةِ قبلكم، أو: وأنتم ينظرُ بعضكم بعضاً لا يستَتِرُ ولا يتحاشى من إظهار ذلك؛ لعدم اكتراثكم به. ووجهُ إفادة الجملة على الاحتمالين تأكيدَ الإنكار أيضاً ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنيةٌ للإنكار، وبيانٌ لِمَا يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام، وتحليةُ الجملة بحرفي التأكيد للإيذان بأنَّ مضمونها مما لا يصدَّقُ وقوعَه أحدٌ لكمال شناعته، وإيرادُ المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربية[1] التقبيح، وبيانِ اختصاصه ببني آدم.

وتعليلُ الإتيان بالشهوة تقبيحٌ على تقبيحٍ، لِمَا أنها ليست في محلِّها، وفيه إشارةٌ إلى أنهم مخطئون في محلِّها فعلاً، وفي قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ـ أي: متجاوزين النساءَ اللاتي هُنَّ محالُّ الشهوة ـ إشارةٌ إلى أنهم مخطئون فيه تركاً. ويُعلم مما ذكرنا أنَّ «شهوة» مفعولٌ له للإتيان، وجوِّز أن يكون حالاً.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: تفعلون فعلَ الجاهلين بقبح ذلك، أو تجهلون العاقبةَ. أو الجهلُ بمعنى السفاهةِ والمجون، أي: بل أنتم قومٌ سفهاءُ ماجنون، كذا في «الكشاف»، وأيًّا ما كان فلا ينافي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[2].

ولم يرتضِ ذلك الطيبيُّ، وزعم أنَّ كلمة الإضراب تأباه، ووجَّه الآية بأنه تعالى

---

(١) في (م): لتربيته.
(٢) الكشاف ٣/ ١٥٣.

لمَّا أنكر عليهم فعلَهم على الإجمال وسمَّاه فاحشةً، وقيَّده بالحال المقرِّرةِ لجهة الإشكال تتميماً للإنكار بقوله تعالى: (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)، أراد مزيدَ ذلك التوبيخ والإنكار، فكشف عن حقيقة تلك الفاحشة، وأشار سبحانه إلى ما أشار، ثم أَضْرَبَ عن الكلِّ بقوله سبحانه: «بل أنتم» إلخ، أي: كيف يقال لمن يرتكبُ هذه الفحشاءَ: وأنتم تعلمون، فأَوْلَى حرفَ الإضراب ضميرَ «أنتم» وجعلهم قوماً جاهلين، والتفتَ في «تجهلون» موبِّخاً معيِّراً. اهـ، وفيه نظر.

والقولُ بالالتفات هنا مما قاله غيره أيضاً، وهو التفاتٌ من الغيبة التي في «قوم» إلى الخطاب في «تجهلون». وتعقَّبه الفاضلُ السيالكوتي بأنه وهم، إذ ليس المراد بـ «قوم» قومَ لوطٍ، حتى يكون المعبَّر عنه في الأسلوبين واحداً كما هو شرطُ الالتفات، بل معنًى كلِّيٌّ حُمِلَ على قوم لوط عليه السلام.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ الخطاب فيه مع أنه صفةٌ لـ «قوم» ـ وهو اسم ظاهرٌ ـ من قبيل الغائب؛ لمراعاة المعنى؛ لأنه متَّحدٌ مع «أنتم» لحمله عليه.

وجَعَله غيرُ واحدٍ مما غلِّب فيه الخطاب. وأُورد عليه أنَّ في التغليب تجوُّزاً ولا تجوُّز هنا. وأجيب بأنَّ نحو «تجهلون» موضوعٌ للخطاب مع جماعةٍ لم يذكروا بلفظ غيبةٍ، وهنا ليس كذلك، فكيف لا يكون فيه تجوُّزٌ؟ وقيل: قولهم إنَّ في التغليب تجوُّزاً خارجٌ مخرج الغالب.

وقال الفاضل السيالكوتي: إنَّ قوله تعالى: (بَلْ أَنتُمْ) إلخ من المجاز باعتبار ما كان، فإن المخاطب في «تجهلون» باعتبارِ كون القوم مخاطبين في التعبير بـ «أنتم»، فلا يَرِدُ أنَّ اللفظ لم يستعمل فيه في غير ما وضع له ولا الهيئة التركيبية، ولم يسند الفعل إلى غير ما هو له فيكون هناك مجاز، فافهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: مَن اتَّبع دينه، وإخراجُه عليه السلام يُعلم من باب أَوْلَى. وقال بعض المحققين: المراد بـ «آل لوط» هو عليه السلام ومَن تَبِعَ دينه، كما يراد من «بني آدمَ» آدمُ وبنوه. وأيًّا ما كان فلا تدخل امرأتُه عليه السلام فيهم.

وقوله سبحانه: «إلا» إلخ، استثناءٌ مفرَّغٌ واقعٌ في موقع اسم «كان». وقرأ

الحسن وابن أبي إسحاق: «جوابُ» بالرفع[١]، فيكون ذاك واقعاً موقعَ الخبر، وقد مرَّ تحقيق الكلام في مثل هذا التركيب[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ بإضافة القرية إلى «كم» تهوينٌ لأمر الإخراج.

وقولُه جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ تعليلٌ للأمر على وجهٍ يتضمَّنُ الاستهزاء، أي: إنهم أناسٌ يزعمون التطهُّر والتنزُّه عن أفعالنا أو عن الأقذار، ويَعُدُّون فِعْلَنا قذراً، وهم متكلِّفون بإظهار ما ليس فيهم. والظاهرُ أنَّ هذا الجوابَ صدر عنهم في المرة الأخيرة من مراتب مواعظه عليه السلام بالأمر والنهي، لا أنه لم يصدر عنهم كلامٌ آخرُ غيرُه.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: بعد إهلاك القوم، فالفاء فصيحةٌ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا﴾ أي: قدَّرنا كونَها ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: الباقين في العذاب. وقدِّر المضافُ لأنَّ التقدير يتعلَّقُ بالفعل لا بالذات، وجاء في آيةٍ أخرى ما يقتضي ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

وقرأ أبو بكر: «قَدَرناها» بتخفيف الدال[٣].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ غيرَ معهودٍ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: فبئس مطر المنذرين مطرُهم، وقد مرَّ مثلُ هذا فارْجِعْ إلى ما ذكرناه عنده[٤].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ إثر ما قصَّ سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ قصص الأنبياء المذكورين وأخبارَهم الناطقةَ بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه سبحانه، وبما خصَّهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالَّة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم، وقد بيَّن على ألسنتهم صحةَ الإسلام والتوحيدِ، وبطلانَ الكفر والإشراك، وأنَّ مَن اقتدى بهم فقد اهتدى، ومَن أعرض عنهم فقد

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤١، والبحر ٧/ ٨٦.

(٢) ينظر ما سلف ٥/ ٥٠، والآية (٨٢) من سورة الأعراف.

(٣) التيسير ص١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٧٣) من سورة الشعراء.

تردَّى في مهاوي الرَّدَى، وشَرَحَ صدره الشريفَ ﷺ بما في تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية، ونوَّر قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضةِ من عالم القدس، وقرَّر بذلك فحوى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] أمره[1] ﷺ أن يحمده بأتمِّ وجهٍ على تلك النعم، ويسلِّم على كافة الأنبياء عليهم السلام، الذين من جملتهم مَن قصَّت أخبارُهم وشُرِحَتْ آثارهم؛ عرفاناً لفضلهم، وأداءً لحقِّ تقدُّمهم واجتهادهم في الدين، فالمرادُ بالعباد المصطفَيْنَ الأنبياءُ عليهم السلام؛ لدلالة المقام، وقولِه تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

وقيل: هذا أمرٌ له ﷺ بحمده تعالى على هلاك الهالكين من كفار الأمم، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين ﷺ. والسلامُ على غير الأنبياء عليهم السلام إذا لم يكن استقلالاً مما لا خلافَ في جوازه، ولعل المنصفَ لا يرتابُ في جوازه على عباد الله تعالى المؤمنين مطلقاً.

وقيل: أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بالحمد على ما خصَّه جلَّ وعلا به من رفع عذاب الاستئصال عن أمته، ومخالفتِهم لمن قبلهم ممن ذُكرت قصتُه من الأمم المستأصَلة بالعذاب، وبالسلام على الأنبياء الذين صبروا على مشاقِّ الرسالة، فالمراد بالمصطفين الأنبياءُ خاصةً.

وأخرج عبد بن حميد والبزَّارُ وابنُ جريرٍ وغيرُهم عن ابن عباس أنه قال فيهم: هم أصحابُ محمد ﷺ، اصطفاهم الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام[2]. وأخرج عبد بن حميد وابن جَريرٍ عن سفيان الثوريِّ أنه قال في «وسلام» إلخ: نزلت في أصحاب محمد ﷺ خاصةً[3]. وهذا ظاهرٌ في القول بجواز السلام على غير الأنبياء استقلالاً، كما هو مذهبُ الحنابلة وغيرهم.

---

(١) في الأصل و(م): أمر، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٣، والكلام منه.

(٢) البزار (٢٢٤٣ - كشف الأستار)، وتفسير الطبري ١٨/ ٩٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٠٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١١٣. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٧: فيه الحكم بن ظهير، وهو متروك.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١١٣.

والكلام على جميع هذه الأقوال متصلٌ بما قبله، وجعله الزمخشريُّ من باب الاقتضاب كأنه خطبةٌ مبتدأةٌ، حيث قال: أَمَرَ رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقةَ بالبراهين على وحدانيته تعالى وقدرته على كلِّ شيءٍ وحكمته ـ أعني قوله سبحانه: (لِلَّهِ) إلخ ـ وأن يستفتح بتحميده والسلامِ على أنبيائه والمصطفَيْنَ من عباده. وفيه تعليمٌ حَسَنٌ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميلٍ، وبعثٌ على التيمُّن بالذكرين والتبرُّكِ بهما، والاستظهارِ بمكانهما على قبول ما يُلقَى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلةَ التي يبغيها المُسْمِعُ، ولقد توارثت العلماءُ والخطباء والوُعَّاظ كابراً عن كابرٍ هذا الأدب، فحمدوا الله تعالى وصلَّوا على رسول الله ﷺ أمامَ كلِّ عِلْمٍ مُفادٍ، وقبل كلِّ موعظةٍ وتذكرةٍ، وفي مُفتَتَحِ كلِّ خطبةٍ، وتبعهم المتراسلون فأَجْرَوا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شَأنٌ[(١)]. انتهى، ولعل جَعْلَ ذلك تخلُّصاً من قصص الأنبياء عليهم السلام إلى ما جرى له ﷺ مع المشركين أَوْلَى.

وأبعدُ الأقوال القولُ باتِّصاله بما قبله، وجَعْلُ ذلك أمراً للوطٍ عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كَفَرةِ قومه، وأن يسلِّم على مَن اصطفاه بالعصمة عن الفواحش، والنجاةِ عن الهلاك = لعدم ملاءمته لِمَا بعده، واحتياجِه إلى تقديرِ: وقلنا له، وعزا هذا القولَ ابن عطية للفرَّاء، وقال: هذه عجمةٌ من الفرَّاء[(٢)].

والظاهر أنَّ «سلام» مبتدأ وما بعده خبرُه، والجملةُ معطوفةٌ على «الحمد لله» داخلةٌ معه في حيِّز القول. وقرأ أبو السمَّال: «[قلَ]الحمد لله» بفتح اللام[(٣)].

﴿ءَآللَّهُ﴾ بالمدِّ لقَلْبِ همزةِ الاستفهام ألفاً، والأصلُ: أألله ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾، والظاهرُ أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي: آلله الذي ذُكرت شؤونه العظيمةُ خيرٌ أم الذي يشركونه من الأصنام؟! و«خير» أفعلُ تفضيل،

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٦، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٥، والبحر ٧/ ٨٨، والدر المصون ٨/ ٦٢٩، واللباب ٢/ ١٨٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال ابن عطية: وكذلك في آخر السورة. يعني قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ﴾.

ومرجعُ الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته عزَّ وجلَّ، وتسفيهِ آرائهم الركيكةِ، والتهكُّمِ بهم؛ إذ من البيِّن أنْ ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبةُ خيرٍ حتى يمكن أن يوازَنَ بينه وبين مَن هو خيرٌ محضٌ.

وقيل: «خير» ليست للتفضيل، مثلُها في قولك: الصلاةُ خيرٌ، تعني خيراً من الخيور.

والمختارُ الأول، واستظهره أبو حيان، وقال: كثيراً ما يجيء هذا النوعُ من أفعل التفضيل حيث يُعلَمُ ويتحقَّق أنه لا شركةَ هناك، وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على الخطأ، ويقصد بالاستفهام في مثل ذلك إلزامُه الإقرارَ بحصر التفضيل في جانب واحدٍ وانتفائه عن الآخر.

واستظهر أيضاً كونَ المراد بالخيرية الخيريةَ في الذات، وقيل: الخيرية فيما يتعلَّق بها، وفي الكلام حذفٌ في موضعين، والتقدير: أعبادةُ الله تعالى خيرٌ أم عبادةُ ما يشركون؟! وقيل: «ما» مصدرية، والحذفُ في موضع واحد، والتقدير: أتوحيدُ الله خيرٌ أم إشراكُهم[1]؟! ولا داعي لجميع ذلك.

وأيًّا ما كان فضميرُ الغائب لقريشٍ ونحوِهم من المشركين. وقيل: لأولئك المهلَكين، وليس بشيءٍ.

وقرأ الأكثرون: «تشركون» بالتاء الفوقانية[2] على توجيه الخطاب لمن ذكرنا من الكفرة، وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم.

وجعلَ أبو البقاء هذه الجملةَ من جملة القول المأمور به[3]. وتعقِّب بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ إلخ فإنه صريحٌ في أنَّ التبكيت من قبله عزَّ وجل بالذات.

وحَمْلُه على أنه حكايةٌ منه عليه الصلاة والسلام لِمَا أمرَ به بعبارته[4] كما في

---

(١) البحر ٧/٨٨.

(٢) هي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبي جعفر. التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/٣٣٨.

(٣) الإملاء ٤/١٣٧.

(٤) في الأصل و(م): بعبادته، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/٢٩٣، والكلام منه.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣] = تعسُّفٌ ظاهرٌ من غير داعٍ إليه.

وفي بعض الآثار أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «بل اللهُ خيرٌ وأبقى، وأَجَلُّ وأكرمُ»[١].

و«أم» في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ منقطعةٌ، لا متَّصلةٌ كالسابقة. و«بل» المقدَّرةُ على القراءة الأولى ـ وهي قراءة الحسن وقتادة وعاصم وأبي عمرو ـ للإضراب والانتقالِ من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجهٍ أظهرَ منه لمزيد التأكيد والتشديد، وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكريرِ الإلزام كنظائرها الآتية، والهمزةُ لحملهم على الإقرار بالحقِّ الذي لا محيصَ لمن له أدنى تمييزٍ عن الإقرار به.

و«مَن» مبتدأ، خبرُه محذوفٌ مع «أم» المعادِلةِ للهمزة؛ تعويلاً على ما سبق في الاستفهام الأول، خلا أنَّ «تشركون» المقدَّرِ ها هنا بتاء الخطاب على القراءتين معاً، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية، والمعنى: أم مَن خَلَق قطري العلم الجسمانيِّ ومبدأي منافع ما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ التفاتٌ إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى؛ لتشديد التبكيت والإلزام، واللامُ تعليليةٌ، أي: وأنزل لأَجْلكم ومنفعتكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: نوعاً منه وهو المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ بمقتضَى الحكمة، لا أنَّ الإنبات موقوفٌ عليه عقلاً، وقيل: أي: أنبتنا عنده ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمعُ حديقةٍ، وهي كما في «البحر»: البستانُ سواءٌ أحاط به جدارٌ أم لا[٢]، وهو ظاهرُ إطلاق تفسير ابن عباس، حيث فسَّر الحدائقَ لابن الأزرق بالبساتين[٣] ولم يقيِّد.

(١) قطعة من حديث أخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٨٢) من طريق جابر الجعفي، عن أبي جعفر، عن أبيه علي بن الحسين مرفوعاً. وإسناده منقطع، وجابر الجعفي ضعيف عند الأكثرين، واتهمه بعضهم بالكذب. الميزان ١/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٢) البحر ٧/ ٨١.

(٣) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٥/ ١١٣.

وقال الزمخشريُّ: هي البستانُ عليه حائطٌ، من الإحداق وهو الإحاطةُ[1]. وهو مرويٌّ عن الضحاك.

وقال الراغب: هي قطعةٌ من الأرض ذاتُ ماءٍ، سمِّيت حديقةً تشبيهاً بحدقةِ العين في الهيئة وحصولِ الماء فيها[2].

ولعل الأظهر ما في «البحر»، وكأنَّ وجه تسمية البستان عليه حديقةً أنَّ من شأنها أن تُحدَقَ بالحيطان، أو تُصْرَفَ نحوها الأحداق وتَنْظُرَ إليها.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذاتَ حُسْنٍ ورونقٍ يبتهجُ به الناظر ويُسَرُّ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحَّ وما أمكن لكم ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ فضلاً عن خَلْقِ ثمرها وسائرِ صفاتها البديعة = خيرٌ[3] أم ما تشركون؟! وتقديرُ الخبر هكذا هو ما اختاره الزمخشريُّ[4] وتبعه غيره. وقال ابن عطية: يقدَّر الخبر: يُكْفَرُ بنعمته ويُشْرَكُ به، ونحو هذا في المعنى[5].

وقال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح»[6] له: ولا بدَّ من إضمارِ معادلٍ، وذلك المضمَرُ كالمنطوق لدلالة الفحوى عليه، والتقدير: أم مَن خلق السماوات والأرض كمن لم يخلق، وكذلك يقدَّر في أخواتها، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر هنا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧] انتهى. ولعل الأَوْلَى ما اختاره جارُ الله، وكذا يقال فيما بعدُ.

وقرأ الأعمش: «أَمَنْ» بالتخفيف[7]، على أنَّ الهمزة للاستفهام، و«مَن» بدلٌ من الاسم الجليل. وتقديمُ صلتي الإنزال على مفعوله لِمَا مرَّ مراراً من التشويق إلى المؤخَّر، والالتفاتُ إلى التكلُّم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل - بحكم

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٥.

(٢) مفردات الراغب (حدق).

(٣) قوله: خير، هو خبر «مَن» في قوله: أم مَن خلق قطري العالم...

(٤) في الكشاف ٣/ ١٥٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٦.

(٦) كما في البحر ٧/ ٨٩، والكلام منه.

(٧) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٢، والبحر ٧/ ٨٩.

المقابلة ـ بذاته تعالى، والإيذانِ بأنَّ إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لَها من الحسن البارع والبهاء الرائع، بماءٍ واحد = أمرٌ عظيم لا يكادُ يقدِرُ عليه إلا هو وحده عزَّ وجلَّ، ورشّح ذلك بقوله تعالى: (مَّا كَانَ لَكُمْ) إلخ سواءٌ كان صفةً لـ «حدائق» أو حالاً أو استئنافاً، وتوحيدُ وَصْفِها السابق أعني: «ذات بهجة» لِمَا أنَّ المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة، وهذا شائعٌ في جمع التكسير، كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥] وكذا الحال في ضمير «شجرها».

وقرأ ابن أبي عبلة: «ذوات» بالجمع، «بَهَجَةٍ» بفتح الهاء[1].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإلهٌ آخَرُ كائنٌ مع الله تعالى الذي ذُكر بعضُ أفعاله التي لا يكاد يقدِرُ عليها غيره حتى يتوهَّم جَعْلُه شريكاً له تعالى في العبادة، وهذا تبكيتٌ لهم بنفي الألوهية عمَّا يشركونه به عزَّ وجلَّ في ضمن النفي الكلِّيِّ على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد، فإنَّ أحداً ممن له أدنى تمييزٍ كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدرُ على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأساً، لا سيما بعد ملاحظة انتفاءِ أحكامها عما سواه عزَّ وجل، وكذا الحالُ في المواقع الأربعة الآتية.

وقيل: المراد نفيُ أن يكون معه تعالى إلهٌ آخَرُ في الخلق وما عُطِفَ عليه، لكنْ لا على أنَّ التبكيت بنفس ذلك النفي فقط، فإنهم لا ينكرونه حَسْبما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] بل بإشراكهم به تعالى ما يعترفون بعدم مشاركته له سبحانه فيما ذكر من لوازم الألوهية، كأنه قيل: أإلهٌ آخرُ مع الله في خواصِّ الألوهية حتى يُجعل شريكاً له تعالى في العبادة.

وقيل: المعنى: أغيرُه يُقْرَنُ به سبحانه ويُجعَلُ له شريكاً في العبادة مع تفرُّده جلَّ شأنُه بالخلق والتكوين، فالإنكارُ للتوبيخ والتبكيت مع تحقُّق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٦، والبحر ٧/ ٨٩.

ورجَّح [الأول][1] بأنه الأظهرُ الموافقُ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] والأوْفَى بحقِّ المقام؛ لإفادته نفيَ وجود إلهٍ آخَرَ معه تعالى رأساً، لا نَفْيَ معيَّته في الخلق وفروعه فقط.

وقرأ هشام عن ابن عامر: «أإله» بتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين[2].

وقرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير: «أإلهاً» بالنصب[3] على إضمار فعلٍ يناسب المقام، مثل: أتجعلون، أو: أتَدْعون، أو: أتُشْرِكون.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوءِ حالهم وحكايته لغيرهم، و«يعدلون» من العدول بمعنى الانحراف، أي: بل هم قوم عادتُهم العدولُ عن طريق الحقِّ بالكلية، والانحرافُ عن الاستقامة في كلِّ أمرٍ من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحقِّ الواضح الذي هو التوحيدُ، والعكوفِ على الباطل البيِّن الذي هو الإشراك.

وقيل: من العدل بمعنى المساواة، أي: يساوون به غيره تعالى من آلهتهم، ورُوي ذلك عن ابن زيد، والأولُ أنسبُ بما قبله. وقيل: الكلامُ عليه[4] خالٍ عن الفائدة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها بحيث يستقرُّ عليها الإنسان والدوابُّ بإبداء بعضها من الماء، ودَحْوِها وتسويتها حَسْبَما يدور عليه منافعُهم، فـ «قراراً» بمعنى مستقرًّا، لا بمعنى قارَّةً غيرَ مضطربةٍ كما زعم الطبرسيُّ[5]، فإن الفائدة على ذلك أتم، والجعلُ إن كان تصييريًّا فالمنصوبان مفعولان، وإلَّا فالثاني حالٌ مقدَّرةٌ.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٤، والكلام منه.

(٢) المشهور عن هشام في هذا الموضع هو تحقيق الهمزتين مع إدخالِ ألف بينهما وعدمِه. التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٠.

(٣) القراءة في الكشاف ٣/ ١٥٥، والبحر ٧/ ٨٩ دون نسبة، والمشهور عمن ذكر الرفع، ولم يقرأ أحد من العشرة بالنصب.

(٤) أي: على الثاني. تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٤.

(٥) في مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٩.

وجملة قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ إلخ ـ على ما قيل ـ بدلٌ من قوله سبحانه: (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلى آخر ما بعدها من الجمل الثلاث، وحكمُ الكلِّ واحدٌ.

وقال بعض الأجلَّة: الأظهر أنَّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجهٍ آخر داخلٍ في الإلزام بجهةٍ من الجهات، وإلى الإبدال ذهب صاحب «الكشاف»(١)، وسننقل إن شاء الله تعالى عن صاحب «الكشف»(٢) ما فيه الكشفُ عن وجهه.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ أي: أَوْساطَها، جمع خَلَلٍ، وأصلُه: الفرجةُ بين الشيئين، فهو ظرفٌ حلَّ محلَّ الحال من قوله تعالى: ﴿أَنْهَٰرًا﴾ وساغ ذلك مع كونه نكرةً لتقدُّم الحال، أو المفعول الثاني لـ «جعل»، و«أنهاراً» هو المفعولُ الأول.

والمراد بالأنهار ما يجري فيها، لا المحلُّ الذي هو الشق، أي: جعل خلالها أنهاراً جاريةً تنتفعون بها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: لصلاح أمرها ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ؛ فإنَّ لها مدخلاً عاديًّا اقتضته الحكمة في انكشاف المسكون منها وانحفاظها عن الميدِ بأهلها، وتكونُ المياه الممدَّةُ للأنهار المفضية لنضارتها في حضيضها، إلى غير ذلك.

وذكر بعضُهم في منفعة الجبال تكوُّنَ المعادن فيها، ونبع المنابع من حضيضها، ولم يتعرَّض لمنفعةِ مَنْعِها الأرضَ عن الحركة والميلان. وعلَّل تَرْكُ التعرُّضِ بأنه لو كان المقصود ذلك لذُكِرَ عقب جَعْلِ الأرض قراراً.

ومَن أَنْصَفَ رأى أنَّ مَنْعَ الجبالِ الأرضَ عن الحركة والميلانِ اللَّذيْن يُخرجان الأرض عن حيِّز الانتفاع، ويجعلان وجودها كعدمها، من أهم ما يُذكر هنا؛ لأنه مما به صلاحُ أمرها ورفعةُ شأنها. وذِكْرُ «لها» دون: فيها أو عليها، ظاهرٌ في أنَّ المراد ما هو من هذا القبيل من المنافع، فتأمَّل. وإرجاعُ ضمير «لها» للأنهار، ليكون المعنى: وجعل لإمدادها رواسيَ ينبعُ من حضيضها الماء فيمدُّها = لا يخفى ما فيه.

---

(١) ٣/ ١٥٥.
(٢) ص٣٢ من هذا الجزء.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: العذبِ والمِلْحِ؛ عن الضحاك. أو بَحْرَي فارس والروم، عن الحسن. أو بَحْرَيِ العراق والشام، عن السدي. أو بَحْرَي السماء والأرض، عن مجاهد. ﴿حَاجِزًا﴾ فاصلاً يمنع من الممازجة، وقد مرَّ الكلام في تحقيق ذلك فتذكَّر.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في الوجود، أو في إبداع هذه البدائع على ما مرَّ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: شيئاً من الأشياء عِلْماً معتدًّا به، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجتْه شدَّةٌ من الشدائد وألجأته إلى اللَّجَأ والضَّراعةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، فهو اسمُ مفعولٍ من الاضطرار الذي هو افتعالٌ من الضرورة، ويرجع إلى هذا تفسيرُ ابن عباس له بالمجهود، وتفسير السديِّ بالذي لا حولَ ولا قوَّةَ له. وقيل: المراد بذلك المذنِبُ إذا استغفر.

واللامُ فيه على ما قيل: للجنس، لا للاستغراق حتى يلزمَ إجابةُ كلِّ مضطرٍّ، وكم من مضطرٍّ لا يجاب.

وجوِّز حَمْلُه على الاستغراق لكنَّ الإجابة مقيَّدةٌ بالمشيئة، كما وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، ومع هذا كره النبيُّ ﷺ أن يقول الشخص: اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه سبحانه لا مُكْرِهَ له»(١). والمعتزلةُ يقيِّدونها بالعلم بالمصلحة؛ لإيجابهم رعايةَ المصالح عليه جلَّ وعلا.

وقال صاحب «الفرائد»: ما من مضطرٍّ دعا إلا أُجيب وأُعيد نفعُ دعائه إليه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وذلك أنَّ الدعاء طلبُ شيءٍ، فإن لم يُعْطَ ذلك الشيءَ بعينه يُعْطَ ما هو أجلُّ منه، أو إن لم يُعْطَ هذا الوقتَ يُعْطَ بعده. اهـ. وظاهرُه حَمْلُه على الاستغراق من دون تقييدٍ للإجابة، ولا يخفَى أنه إذا فسِّرت الإجابةُ بإعطاء السائل ما سأله حَسْبَما سأل لا بقَطْعِ سؤاله، سواءٌ كان بالإعطاء المذكورِ أم بغيره = لم يستقم ما ذكره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال العلَّامة الطيبي: التعريفُ للعهد؛ لأن سياق الكلام في المشركين، يدلُّ عليه الخطاب بقوله تعالى: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ)، والمراد التنبيهُ على أنهم عند اضطرارهم في نوازل الدهر وخطوبِ الزمان كانوا يلجؤون إلى الله تعالى دون الشركاء والأصنام، ويدلُّ على التنبيه قولُه تعالى: (أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) قال صاحب «المفتاح»: كانوا إذا حَزَبَهم أمرٌ دعوا الله تعالى دون أصنامهم[1]، فالمعنى: إذا حزبكم أمرٌ أو قارعةٌ من قوارع الدهر إلى أن تصيروا آيسين من الحياة مَن يجيبكم إلى كشفها ويجعلُكم بعد ذلك تتصرَّفون في البلاد كالخلفاء «أإله مع الله»، فلا يكون المضطرُّ عامًّا ولا الدعاء فإنه مخصوصٌ بمثل قضية الفلك، وقد أجيبوا إليه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ الآية [يونس: ٢٢] اهـ.

وأنت تعلم أنَّه بعيدٌ غايةَ البعد، ولعل الأولى الحملُ على الجنس والتقييدُ بالمشيئة، وهو سبحانه لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمةُ، والدعاء بشيءٍ من قبيل أحدِ الأسباب العادية له، فافهم.

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: يرفعُ عن الإنسان ما يعتريه من الأمر الذي يسوءُه، وقيل: الكشفُ أعمُّ من الدفع والرفع، وعطفُ هذه الجملة على ما قبلها من قَبيل عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ.

وقيل: المعنى: ويكشفُ سوءه، أي: المضطر، أو: يكشفُ عنه السوءَ، والعطفُ من قبيل عطف التفسير، فإنَّ إجابةَ المضطرِّ هي كشفُ السوء عنه الذي صار مضطرًّا بسببه. وهو كما ترى.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلفاءَ مَن قبلكم من الأمم في الأرض، بأن ورَّثكم سُكناها والتصرُّفَ فيها بعدهم. وقيل: المراد بالخلافة الملكُ والتسلُّطُ.

وقرأ الحسن: «ونجعلكم» بنون العظمة[2].

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي هذه شؤونُه ونعمُه تعالى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي:

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٧٢.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٧، والبحر ٧/ ٩٠.

تذكُّراً قليلاً ـ أو زماناً قليلاً ـ تتذكرون، ف «قليلاً» نصبٌ على المصدرية أو على الظرفية؛ لأنه صفةُ مصدرٍ أو ظرفٍ مقدَّرٍ، و«ما» مزيدةٌ على التقديرين لتأكيد معنى القلَّة التي أريد بها العدمُ أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى.

ومفعولُ «تذكَّرون» محذوفٌ للفاصلة؛ فقيل: التقدير: تذكَّرون نعمَه، وقيل: تذكَّرون مضمون ما ذكر من الكلام، وقيل: تذكَّرون ما مرَّ لكم من البلاء والسرور، ولعل الأَوْلَى نعمه المذكورة. وللإيذان بأنَّ المتذكَّر في غاية الوضوح بحيث لا يتوقَّف إلَّا على التوجُّه إليه كان التذييلُ بنفي التذكُّر.

وقرأ الحسن والأعمش وأبو عمرو: «يذَّكَّرون» بياء الغيبة[١]. وقرأ أبو حيوة: «تتذكَّرون» بتاءين[٢].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يرشدُكم في ظلمات الليالي في البرِّ والبحر بالنجوم ونحوها من العلامات، وإضافةُ الظلمات إلى البر والبحر للمُلابَسة وكونِها فيهما، وجوِّز أن يراد بالظلمات الطرقُ المشبهات[٣] مجازاً، فإنها كالظلمات في إيجاب الحيرة.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجملة[٤] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ نفيٌ لأَنْ يكون معه سبحانه إلهٌ آخرُ، وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ له. وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلَّةِ الحكم، أي: تعالى وتنزَّه بذاته المنفردة بالألوهية، المستتبعةِ لجميع صفات الكمال ونعوتِ الجلال والجمال، والمقتضيةِ لكون جميع المخلوقات مقهورةً تحت قدرته «عما يشركون» أي: عن وجود ما يشركونه به سبحانه بعنوان كونه إلهاً وشريكاً له تعالى، أو تعالى الله عن شركةِ أو مقارَنةِ ما يشركونه به

(١) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ عن أبي عمرو وهشام وروح، وذكرها عن الحسن والأعمش أبو حيان في البحر ٧/ ٩٠، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف: «تَذَكَّرون»، والباقون: «تَذَّكَّرون».

(٢) البحر ٧/ ٩٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: المشتبهات، كما في تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٤، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٥.

(٤) في سورة الأعراف، الآية (٥٧).

سبحانه. ويجوز أن تكون «ما» مصدريةً، أي: تعالى الله عن إشراكهم. وقرئ: «عما تشركون» بتاء الخطاب[1].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ أي: يُوْجِدُه مبتدئاً له ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يكرِّر إيجاده ويُرْجِعُه كما كان، وذلك بعد إهلاكه؛ ضرورةَ أنَّ الإعادة لا تُعقل إلا بعده، والظاهرُ أنَّ المراد بهذا ما يكون من الإعادة بالبعث بعد الموت، فـ «أل» في الخلق ليست للاستغراق؛ لأنَّ منه ما لا يعاد بالإجماع، ومنه ما في إعادته خلافٌ بين المسلمين، وتفصيلُه في محلِّه.

واستشكل الحملُ على الإعادة بالبعث بأنَّ الكلام مع المشركين وأكثرُهم منكرون لذلك، فكيف يحمل الكلامُ عليه، ويخاطبون به خطابَ المعترف؟

وأجيب بأنَّ تلك الإعادة لوضوح براهينها جُعلوا كأنهم معترفون بها، لتمكُّنهم من معرفتها، فلم يبق لهم عذرٌ في الإنكار. وقيل: إنَّ منهم مَن اعترف بها، والكلامُ بالنسبة إليه، وليس بذاك.

وأما تجويزُ كون «أل» للجنس، وأنَّ المراد بالبدء والإعادة ما يشاهَد في عالم الكون والفساد من إنشاء بعض الأشياء، وإهلاكِها ثم إنشاءِ أمثالها، وذلك مما لا ينكره المشركون المنكرون للإعادة بعد الموت = فليس بشيءٍ أصلاً كما لا يخفى.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بأسبابٍ سماويةٍ وأرضيةٍ قد رتَّبها على ترتيبٍ بديعٍ تقتضيه الحكمةُ التي عليها بُني أمرُ التكوين ﴿أَءِلَٰهٌ﴾ آخَرُ موجودٌ ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ حتى يُجعل شريكاً له سبحانه في العبادة.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيتٍ، أي: هاتوا برهاناً عقليًّا أو نقليًّا يدلُّ على أنَّ معه عزَّ وجلَّ إلهاً.

وقيل: أي: هاتوا برهاناً على أنَّ غيره تعالى يقدِرُ على شيءٍ مما ذكر من أفعاله عزَّ وجلَّ.

---

(١) البحر ٧/ ٩٠.

وتعقِّب بأنَّ المشركين لا يدَّعون ذلك صريحاً، ولا يلتزمون كونَه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة، فمطالبتُهم بالبرهان عليه لا على صريحِ دعواهم مما لا وَجْهَ له.

وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكُّم بهم، لما فيها من إيهامِ أنَّ لهم برهاناً، وأنَّى لهم ذلك.

وقيل: إنَّ الإضافة لزيادة التبكيت، كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تَعدُّونه أنتم أيها الخصوم برهاناً يدلُّ على ذلك وإن لم نَعدَّه نحن ولا أحدٌ من ذوي العقول كذلك، ومع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ أي: في تلك الدعوى، واستدلَّ به على أنَّ الدعوى لا تُقبل ما لم تنوَّر بالبرهان.

هذا وفي «الكشف»: أنَّ مبنى هذه الآيات الترقِّي؛ لأنَّ الكلام في إثباتِ أنْ لا خيريةَ في الأصنام مع أنَّ كلَّ خيرٍ منه تبارك وتعالى، فأَجْملَ أولاً بذِكْرِ اسمه سبحانه الجامع في قوله تعالى: «أإله»، ثم أخذ في المفصَّل، فجعل خَلْقَ السماوات والأرض تمهيداً لإنزال الماء وإنباتِ الحدائق، لا بل للأخير، يدلُّ عليه الالتفاتُ هنالك والتأكيدُ بقوله تعالى: (مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا)، كأنه يذكر سبحانه ما فيها من المنافع الكثيرة لوناً وطعماً ورائحةً واسترواحَ ظلٍّ، ولمَّا أثبت أنه فِعْلُه الخاصُّ أنكر أن يكون له شريكٌ، وجَعَلَهم عادلين عن منهج الصواب، أو عادلين به سبحانه مَن لا يستحقُّ، والأول أظهر.

ثم ترقَّى منه إلى ما هو أكثرُ لهم خيراً وأظهرُ في نفعهم، مِن جَعْلِ الأرض قراراً وما عقبه، فذكَر جلَّ وعلا ما لا يتمُّ الإنباتُ المذكورُ إلَّا به، مع منافعَ يتصاغَرُ لديها منفعةُ الإنبات، وعقَّبه بجهلهم المطلَقِ المنتِجِ للعدول المذكور، وأسوأ منه وأسوأ.

ثم بالغ في الترقِّي، فذكر ما هو لصيقٌ بهم دون واسطةٍ من دفعٍ أو نفعٍ، فَخصَّ إجابتَهم عند الاضطرار، وعمَّ بكشف السوء والمضارِّ، هذا فيما يرجع إلى دفع المحذور، وإقامتَهم خلفاء في الأرض ينتفعون بها وبما فيها كما أحبُّوا، وهذا أتم

من الأَوَّلَيْنِ وأعمُّ وأجلُّ موقعاً وأهمُّ، ولهذا فَصَلَ بعدم التذكُّر وبولغ فيه تلك المبالغات.

وأما ذِكْرُ الهداية في ظلمات البرِّ والبحر، وذِكْرُ إرسال الرياح المبشِّرة استطراداً لمناسبة حديثِ الرياح مع الهداية في البحر، فمِن متمِّمات الخلافة وإجابةِ المضطرِّ وكَشْفِ السوء، فافهم. ونبَّه على هذا بأنه فَصَلَ بقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم ختم ذلك كلَّه بالإضراب عن هذا الأسلوب بتذكير نعمتي الإيجاد والإعادة، فكلُّ نعمةٍ دونهما؛ لتوقُّفِ النعم الدنيوية والأخروية عليها، وعقَّبه بإجمالٍ يتضمَّنُ جميع ما عدَّده أولاً وزيادةً، أعني: رِزْقَهم من السماء والأرض، وأدمج في تأخيره أنه دون النعمتين، ولهذا بكَّتهم بطلب البرهان فيما ليس، وسجَّل بكذبهم دلالةً على تعلُّقه بالكلِّ، وأنَّ هذه الخاتمةَ ختامُ مسكي، والمُعْرِضُ عن تشامِّ نفحاته مسكي، وعن هذا التقرير ظهر وجهُ الإبدال مكشوفَ النقاب، والحمدُ لله تعالى المنعِمِ الوهَّاب. اهـ.

وفي «غرة التنزيل» للراغب ما يؤيِّده، وقد لخَّصه الطيبيُّ في «شرح الكشاف»، والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بعد ما تحقَّق تفرُّدُهُ تعالى بالألوهية ببيانِ اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة، والرحمةِ الشاملة العامَّة، عقَّب بذكر ما لا ينفكُّ عنه، وهو اختصاصُه تعالى بعلم الغيب، تكميلاً لِمَا قبله وتمهيداً لِمَا بعده من أمر البعث.

وفي «البحر» قيل: سأل الكفار عن وقت القيامة ـ التي وُعدوها ـ الرسولَ ﷺ، وألحُّوا عليه عليه الصلاة والسلام، فنزل قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ الآية[1]، فمناسبتُها على هذا لِمَا قبلها من قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أتمُّ مناسبة.

والظاهرُ المتبادر إلى الذهن أنَّ «مَن» فاعلُ «يعلم»، وهو موصولٌ أو موصوف، و«الغيب» مفعولُه، والاسمُ الجليل مرفوعٌ على البدلية من «مَن»، والاستثناءُ على

(١) البحر ٧/ ٩١.

ما قيل منقطعٌ تحقيقاً متَّصلٌ تأويلاً، على حدِّ ما في قول الراجز:

وبـلـدةٍ لـيـس بـهـا أنـيـسُ
إلا الـيـعـافـيـرُ وإلا الـعـيـسُ[١]

بناءً على إدخال اليعافير في الأنيس بضَرْبٍ من التأويل، فيفيد المبالغةَ في نفي علم الغيب عمَّن في السماوات والأرض بتعليق علمهم إياه بما هو بيِّنُ الاستحالة من كونه تعالى منهم، كأنه قيل: إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم مَن يعلم الغيب، يعني أنَّ استحالةَ علمهم الغيبَ كاستحالة أن يكون الله تعالى منهم، ونظيرُ هذا مما لا استثناء فيه قوله:

تـحـيـةُ بـيـنـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[٢]

وقيل: هو منقطعٌ على حدِّ الاستثناء في قوله:

عشيةَ ما تُغني الرماحُ مكانَها ولا النَّبلُ إلَّا المَشْرَفيُّ المصمِّمُ[٣]

يعني أنه من إتْباع أحد المتباينَيْنِ الآخَرَ، نحو: ما أتاني زيدٌ إلا عمرو، وما أعانه إخوانُكم إلا إخوانُه، وقد ذكرهما سيبويه[٤]، وذكر ابنُ مالك أنَّ الأصل فيهما: ما أتاني أحدٌ إلَّا عمرو، وما أعانه أحدٌ إلا إخوانه، فجعل مكان أحد بعضَ مدلوله وهو زيدٌ وإخوانُكم، ولو لم يذكر الدخلاء فيمَن نفى عنه الإتيان والإعانة، ولكن ذكرا توكيداً لقسطهما من النفي دفعاً لتوهُّم المخاطَب أنَّ المتكلِّم لم يخطر له هذا الذي أكّد به، فذكر تأكيداً، وعليه يكون الأصل في الآية: لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله، فحذف «أحد» وجُعل مكانه بعضُ مدلوله، وهو «من في السماوات والأرض» والبعضُ الآخر مَن ليس فيهما، ويكفي في كونه مدلولاً له صدقُه عليه، ولا يجب في ذلك وجودُه في الخارج، فقد صرَّحوا أنَّ من الكلِّيِّ ما يمتنعُ وجود

---

(١) الرجز لجِران العَوْد النميري، وهو في ديوانه ص٩٧، والكتاب ٢/ ٣٢٢، وسلف ١٣/ ٢٦٣ و١٤/ ١٧٧.
(٢) وصدره: وخيل قد دلفت لها بخيلٍ، وسلف ٥/ ٦٤.
(٣) البيت لضرار بن الأزور، وهو في الكتاب ٢/ ٣٢٥، والكشاف ٣/ ١٥٦، وسلف ٦/ ٣٦٦.
(٤) في الكتاب ٢/ ٣٢٥.

بعض أفراده أو كلِّها في الخارج، على أنَّ من أجلَّة الإسلاميين مَن قال بوجود شيء غيرِ الله عزَّ وجلَّ، وليس في السماوات ولا في الأرض وهو الروحُ الأَمْرِيةُ؛ فإنها لا مكانَ لها عندهم، على نحو العقول المجرَّدة عند الفلاسفة.

وقال: إنَّ شرط الإتْباع في هذا النوع أن يستقيم حذفُ المستثنى منه، والاستغناء عنه بالمستثنى، فإن لم يوجد هذا الشرطُ تعيَّن النصبُ عند التميميِّ والحجازيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣] فإنَّ الاستغناء فيه بالمستثنى عما قبله ممتنعٌ إلا بتكلفٍ، وزعم المازنيُّ أنَّ إتباع المنقطع من تغليب العاقل على غيره، ويلزمُ عليه أن يختصَّ بأحد وشبهه(١)، وهو فاسدٌ ـ كما قال ابن خروف ـ لأنَّ ما يبدل منه في هذا الباب غير ما ذكر أكثرُ من أن يحصى. اهـ.

وكلام الزمخشريِّ(٢) يوهمُ صَدْرُه أنَّ الاستثناء هنا من قبيل الاستثناء في المثالين اللذين ذكرهما سيبويه، وفي البيت الذي ذكرناه قبيلهما، ويُفهِمُ عجزُه أنه من قبيل الاستثناء في الرجز السابق، وأنَّ الداعي إلى اختيار المذهب التميميِّ نكتةُ المبالغة التي سمعتَها، وقد صرَّحوا أنَّ إفادة تلك النكتة إنما تتأتَّى إذا جعل الاستثناء منقطعاً تحقيقاً متصلاً تأويلاً، ولعل الحقَّ أنه إذا أريد الدلالةُ على قوة النفي تعيَّن جَعْلُ الاستثناء نحوَ الاستثناء في قوله: وبلدة... إلخ، وإذا أريد الدلالةُ على عموم النفي تعيَّن جعلُه نحوَ الاستثناء في قولهم: ما أعانه إخوانكم إلا إخوانه، فتدبر.

وجوَّز كونُه متصلاً كما هو الأصلُ في الاستثناء، على أنَّ المراد بمن في السماوات والأرض مَن اطَّلع عليهما اطِّلاع الحاضر فيهما مجازاً مرسلاً أو استعارةً. وأيًّا ما كان فهو معنًى مجازيٌّ عامٌّ له تعالى شأنُه ولذوي العلم من خَلْقِه وهو المخلصُ من لزوم ارتكاب الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلَفِ في صحته، كما فعله بعضُ القائلين بالاتصال.

---

(١) ينظر التسهيل ص١٠٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ١٥٦.

وقيل: يعلَّق الجارُّ والمجرور على ذلك التقدير بنحوِ: يذكر، من الأفعال المنسوبة على الحقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين، لا بنحو: استقرَّ، مما لا يصحُّ نسبتُه إليه سبحانه على الحقيقة، أي: لا يعلم مَن يذكر في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله.

ويجوزُ تعليقُه بـ: استقرَّ أيضاً، إلا أنه يجعل مسنداً إلى مضافٍ حُذف وأقيم المضافُ إليه مقامه، أي: لا يعلم مَن استقرَّ ذِكْرُه في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، فحذف الفعل والمضاف واستتر الضميرُ لكونه مرفوعاً. وهذا وما قبله كما ترى.

واعترض حديثُ الاتصال بأنه يلزم عليه التسويةُ بينه تعالى وبين غيره في إطلاق لفظٍ واحدٍ، وهو أمرٌ مذمومٌ، فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائيُّ عن عدي بن حاتم أنَّ رجلاً خطب عند رسول الله ﷺ فقال: ومَن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئس خطيبُ القوم أنت، قل: ومَن يَعْصِ الله ورسوله»[(١)].

وأجيب بأنَّ ذلك مما يذمُّ إذا صدر من البشر، أمَّا إذا صدر منه تعالى فلا يذمُّ، على أنَّ كونه مما يذمُّ إذا صدر من البشر مطلقاً ممنوعٌ، فقد روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وَجَد بهنَّ طعم الإيمان: مَن كان الله تعالى ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» الحديث[(٢)]، ولعل مدار الذمِّ والمدح تَضمُّنُ ذلك نكتةً لطيفةً وعدمُ تضمُّنِه إياها، وقد قيل في حديث أنس: النكتة في تثنية الضمير الإيماءُ إلى أنَّ المعتبر هو المجموعُ المركَّب من المحبَّتين، والنكتةُ في إفراده في حديث عديٍّ الإشعارُ بأنَّ كلًّا من العصيانين مستقلٌّ باستلزام الغواية. وقد مرَّ الكلام في هذا المَبْحَثِ[(٣)] فتذكَّر.

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٠)، وسنن أبي داود (١٠٩٩)، وسنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٩٠. وسلف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الكهف.

(٢) صحيح البخاري (١٦)، وصحيح مسلم (٤٣)، وسنن الترمذي (٢٦٢٤)، وسنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٩٤، وهو عند أحمد (١٢٠٠٢). وسلف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الكهف.

(٣) عند تفسير الآية (٨٢) من سورة الكهف.

وجوِّز أن يُعرَبَ «مَن» مفعول «يعلم»، و«الغيب» بدل اشتمالٍ منه، والاسمُ الجليل فاعل «يعلم»، ويكون استثناءً مفرَّغاً، أي: لا يعلمُ غيبَ مَن في السماوات والأرض إلا الله، ولا يخفى بعدُه.

والغيبُ في الأصل مصدرُ غابت الشمس وغيرُها: إذا اسْتَتَرتْ عن العين. واستُعمل في الشيء الغائب الذي لم تُنصَبْ له قرينةٌ، وكونُ ذلك غيباً باعتباره بالناس ونحوِهم لا بالله عزَّ وجل، فإنه سبحانه لا يغيب عنه تعالى شيءٌ، لكن لا يجوز أن يقال: إنه جلَّ وعلا لا يعلمُ الغيب، قصداً إلى أنه لا غيبَ بالنسبة إليه ليقال يعلمه، وقد شنَّع الشيخ أحمد الفاروقيُّ السرهنديُّ المشهورُ بالإمام الرَّبانيِّ في «مكتوباته» على مَن قال ذلك قاصداً ما ذكر أتمَّ تشنيعٍ[1]، كما هو عادتُه، جزاه الله تعالى خيراً فيمَن لم يتأدَّبْ بآداب الشريعة الغرَّاء.

والظاهر عموم «الغيب»، وقيل: المراد به الساعة. وقيل: ما يُضْمِره أهل السماوات والأرض في قلوبهم.

وقيل: المراد جنسُ الغيب، ويلزمُ من نفي عِلْم جنسه عن غيره عزَّ وجلَّ نفيُ عِلْم كلِّ فردٍ من أفراده عن ذلك الغير. ولا يضرُّ في ذلك أنَّ الآية لا تدلُّ حينئذٍ على ثبوت علم كلِّ غيبٍ له عزَّ وجَلَّ، بل قصارى ما تدلُّ عليه ثبوتُ علم جنس الغيب له سبحانه؛ لأنه المنفيُّ صريحاً عن المستثنى منه، ولا يلزم من ثبوت علم هذا الجنس ثبوتُ علم كلِّ فردٍ من أفراده = لأنها لم تُسَقْ للاستدلال بها على ذلك، وكم وكم من دليل عقليٍّ ونقليٍّ يدلُّ عليه.

وتعقِّب بأنَّ الغيب من حيث إنه غيبٌ لا يتفاوتُ، فمتى ثبت العلم ببعض أفراده ثبت العلم بجميعها دفعاً للزوم الترجيح بلا مرجِّحٍ. فتأمل.

واختار بعضهم الاستغراق، أي: لا يعلم مَن في السماوات والأرض كلَّ غيبٍ إلَّا الله فإنه سبحانه يعلم كلَّ غيبٍ؛ لأنه الأوفق بالمقام.

واعترض بأنه يلزم أن يكون من أهل السماوات والأرض مَن يعلم بعض

(١) مكتوبات الإمام الرباني للشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ١/١٠٦-١٠٧، المكتوب رقم (١٠٠).

الغيوب، وظاهرُ كلام كثيرٍ من الأجلّة يأبى ذلك، ويؤيِّده ما أخرجه الشيخان والترمذيُّ والنسائيُّ وأحمدُ وجماعةٌ من المحدِّثين من حديث مسروقٍ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَن زعمَ أنَّ محمداً ﷺ يخبر الناس بما يكون في غدٍ ـ وفي بعض الروايات: يعلم ما في غدٍ ـ فقد أعْظَمَ على الله تعالى الفريةَ، واللهُ تعالى يقول: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ)[1].

وجوَّز بعضهم أن يكون منهم مَن يعلمُ بعضَ الغيوب، ففي «بيانِ قواطع الإسلام» تأليف العلَّامة ابن حجر بعد الردِّ على مَن أكْفَرَ مَن قيل له: أتعلم الغيب؟ فقال: نعم. لأنَّ فيما قاله تكذيبُ النصِّ، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] ما نصُّه: وعلى كلٍّ فالخواصُّ يجوز أن يعلموا الغيبَ في قضية أو قضايا كما وقع لكثيرٍ منهم واشْتَهر، والذي اخْتَصَّ به تعالى إنما هو علمُ الجميع وعلمُ مفاتح الغيب المشارِ إليها بقوله تعالى: (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ) الآية، وينتجُ من هذا التقرير أنَّ مَن ادَّعى علم الغيب في قضيةٍ أو قضايا لا يكفَّر، وهو محملُ ما في «الروضة»، ومَن ادَّعى علمه في سائر القضايا يكفَّر، وهو محملُ ما في أصلها، إلَّا أن عبارته لمَّا كانت مطلقةً تشمل هذا وغيره ساغ للنوويِّ الاعتراضُ عليه، فإن أَطْلَقَ فلم يُرِدْ شيئاً فالأوجهُ ما اقتضاه كلام النوويِّ من عدم الكفر[2]. انتهى.

ولعل الحقَّ أن يقال: إنَّ علم الغيب المنفيَّ عن غيره جلَّ وعلا هو ما كان للشخص لذاته، أي: بلا واسطةٍ في ثبوته له، وهذا ممَّا لا يُعقَلُ لأحدٍ من أهل السماوات والأرض لمكانِ الإمكان فيهم ذاتاً وصفةً، وهو يأبى ثبوتَ شيءٍ لهم بلا واسطة، ولعل في التعبير عن المستثنى منه بـ «مَن في السماوات والأرض» إشارةٌ إلى علَّةِ الحكم، وما وقع للخواصِّ ليس من هذا العلم المنفيِّ في شيءٍ، ضرورةَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٥)، وصحيح مسلم (١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٠٦٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٤٤)، ومسند أحمد (٢٤٢٢٧)، وجاء عند أحمد والبخاري ذكر الآية الأخيرة من سورة لقمان بدل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام على هامش الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٧٢-٧٣.

أنه من الواجب عزَّ وجلَّ أفاضه عليهم بوجهٍ من وجوه الإفاضة، فلا يقال: إنهم علموا الغيب بذلك المعنى، ومَن قاله كَفَر قطعاً. وإنما يقال: إنهم أُظْهِروا أو أُطْلِعوا ـ بالبناء للمفعول ـ على الغيب، أو نحو ذلك مما يُفْهِمُ الواسطة في ثبوت العلم لهم، ويؤيِّد ما ذكر أنه لم يَجِئ في القرآن الكريم نسبةُ علم الغيب إلى غيره تعالى أصلاً، وجاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسولٍ.

لا يقال: يجوزُ على هذا أن يقال: أُعلم فلانٌ الغيب ـ بالبناء للمفعول أيضاً ـ على معنى أنَّ الله تعالى أعلمه وعرَّفه ذلك بطريقٍ من طرق الإعلام والتعريف، ومتى جاز هذا جاز أن يقال: عَلِمَ فلانٌ الغيبَ، بقَصْدِ نسبةِ علمه الحاصلِ من إعلامه إليه = لأنَّا نقول: لا كلامَ في جواز «أُعلم» بالبناء للمفعول، وإنما الكلامُ في قولك: ومتى جاز هذا جاز أن يقال.. إلخ، فنقول: إنْ أريد بالجواز في تالي الشرطية الجوازُ معنًى ـ أي: الصحةُ من حيث المعنى ـ فمسلَّمٌ، لكن ليس كلُّ ما جاز معنًى بهذا المعنى جاز شرعاً استعمالُه، وإن أريد الجواز شرعاً بمعنى عدم المنع من استعماله فهو ممنوعٌ، لِمَا فيه من الإيهام والمُصادمةِ لظواهر الآيات كآية: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وغيرها؛ وقد سمعتَ عن الإمام الربانيِّ قدِّس سرُّه النورانيُّ أنه حطَّ كلَّ الحطِّ على مَن قال: اللهُ سبحانه لا يعلم الغيب، متأوِّلاً له بما تقدَّم؛ لما فيه من المصادمة للنصوص القرآنية وغيرها، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه، وقد شنَّعوا أيضاً على مَن قال: أَكْرهُ الحقَّ وأُحِبُّ الفتنةَ وأَفرُّ من الرحمة. مريداً بالحق الموتَ، وبالفتنة المال أو الولد، وبالرحمة المطر؛ لما في ظاهره من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى. نعم لا يكفَّر قائلُ ذلك بذلك القصد، ويلزمُه التعزيرُ كيلا يعود إلى قوله.

ثم إنَّ عِلْمَ غيرِ الغيب من المحسوسات والمعقولات وإنْ كان لا يَثْبُتُ لشيءٍ من الممكنات بلا واسطةٍ في الثبوت أيضاً، إلا أنه في نسبته لشيءٍ منها لم يُعتبَر إلَّا اتِّصافه به غيرَ مقيَّدٍ بنفي تلك الواسطة؛ لِمَا أنه يَرِدْ حَصْرُ ذلك العلم به عزَّ وجل ونفيُه عمن سواه جلَّ وعلا، بل صرَّح في مواضعَ أكثرَ من أنْ تُحصى بنسبته إلى غيره سبحانه، ولو ورد فيه ما ورد في علم الغيب لالْتُزِمَ فيه ما الْتُزِمَ فيه.

وعلى ما تقرَّر لا يكونُ علمُ العقول بما لم يكن بعدُ من الحوادث على ما يزعمه الفلاسفةُ من علم الغيب، بل هو لو سلِّم علمٌ حصل لهم من الفيَّاض المطلَق جلَّ شأنُه بطريقٍ من الطرق التي تقتضيها الحكمةُ، فلا ينبغي أن يقال فيهم: إنهم عالمون بالغيب، وقائله إمَّا كافرٌ أو مسلم آثمٌ.

وكذا يقال في علم بعض المرتاضين من المسلمين الصوفية والكفرةِ الجوكيةِ[1]، فإنَّ كلَّ ما يحصل لهم من ذلك فإنما هو بطريق الفيض، ومراتبُه وأحوالُه لا تحصى، والتأهُّل له قد يكون فطريًّا، وقد يكون كَسْبِيًّا، وطرق اكتسابه متشعِّبةٌ لا تكاد تُسْتَقْصَى، وإفاضةُ ذلك على كفرةِ المرتاضين وإن أَشْبَهتْ إفاضتَه على المؤمنين المتَّقين، إلَّا أنَّ بين الأمرين فَرْقاً عظيماً عند المحققين. وقد ذكر بعضُ المتصوِّفة أنه ما من حقٍّ إلا وقد جُعل له باطلٌ يُشْبِهُه؛ لأنَّ الدار دارُ فتنةٍ، وأكثر ما فيها محنةٌ.

ويلحقُ بعلم المرتاضين من الجوكية علمُ بعض المتصوِّفة المنسوبين إلى الإسلام، المهمِلينَ أكثر أحكامه الواجبةِ عليهم، المنهمكين في ارتكاب المحظورات في نهارهم وليلهم، فلا ينبغي اعتقادُ أنَّ ذلك كرامةٌ بل هو نقمةٌ مفضيةٌ إلى حسرةٍ وندامةٍ.

وأمَّا علم النجوميِّ بالحوادث الكونية حسبما يزعمه فليس من هذا القبيل؛ لأنَّ تلك الحوادثَ التي يُخبِرُ بها ليست من الغيب بالمعنى الذي ذكرناه؛ إذ هي وإن كانت غائبةً عنَّا إلا أنها ـ على زَعْمِه ـ مما نصبَ لها قرينة من الأوضاع الفلكية والنسب النجومية، من الاقتران والتثليث والتسديس والمقابلة ونحو ذلك، وعلمُه بدلالة القرائن التي يزعمها ناشئٌ من التجربة، وما تقتضيه طبائعُ النجوم والبروج التي دلَّ عليها بزَعْمِه اختلافُ الآثار في عالم الكون والفساد، فلا أرى العلمَ بها إلا كعِلْمِ الطبيب الحاذقِ إذا رأى صفراويًّا مثلاً عَلِمَ رتبةَ مزاجه وحقَّقها يأكل مقداراً معيَّناً من العسل أنه يعتريه بعد ساعة أو ساعتين كذا وكذا من الألم، وإطلاقُ علم الغيب على ذلك فيه ما فيه. وإن أبيتَ إلَّا تسميةَ ذلك غيباً فالعلمُ به لكونه بواسطة الأسباب لا يكون من علم الغيب المنفيِّ عن غيره تعالى في شيءٍ، وكذا

(١) طائفة من البراهمة يقولون بتناسخ الأرواح. تاج العروس (جوك).

كلُّ علم بخفيٍّ حصل بواسطة سببٍ من الأسباب، كعلمنا بالله تعالى وصفاته العلية، وعلمنا بالجنة والنار ونحو ذلك.

على أنك إذا أنصفتَ تعلمُ أنَّ ما عند النجوميِّ ونحوِه ليس علماً حقيقيًّا، وإنما هو ظنٌّ وتخمينٌ مبنيٌّ على ما هو أَوْهَنُ من بيت العنكبوت كما سنحقِّقُ ذلك بما لا مزيدَ عليه في محلِّه اللائقِ به إن شاء الله تعالى(١). وأقوى ما عنده معرفةُ زَمَني الكسوفِ والخسوفِ وأزمنةِ تحقُّق النسب المخصوصة بين الكواكب، وهي ناشئةٌ من معرفة مقادير الحركات للكواكب والأفلاك الكلِّية والجزئية، وهي أمورٌ محسوسةٌ تُدْرَكُ بالأرصاد والآلات المعمولة لذلك.

وبالجملة: علمُ الغيب بلا واسطةٍ كلًّا أو بعضاً مخصوصٌ بالله جلَّ وعلا، لا يعلمه أحدٌ من الخلق أصلاً، ومتى اعتُبر فيه نفيُ الواسطة بالكلِّية تعيَّن أن يكون من مقتضيات الذات، فلا يتحقَّق فيه تفاوتٌ بين غيبٍ وغيبٍ، فلا بأس بحمل «أل» في الغيب على الجنس، ومتى حُملت على الاستغراق فاللائقُ أن لا يعتبر في الآية سلبُ العموم، بل يعتبر عمومُ السلب، ويلتزمُ أنَّ القاعدة أغلبيةٌ. وكذا يقال في السلب والعموم في جانب الفاعل، فتأمل فهذا ما عندي، ولعل ما عندك خيرٌ منه، والله تعالى أعلم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ أي: متى يُنْشَرون من القبور مع كونه مما لا بدَّ لهم منه، ومن أهم الأمور عندهم، فـ «أيان» اسمُ استفهامٍ عن الزمان، ولذا قيل: إنَّ أصلها أيّ آنٍ، أي: أيّ زمانٍ، وإن كان المعروفُ خلافَه، وهي معمولة لـ «يبعثون» والجملةُ في موضع النصب بـ «يشعرون»، وعلِّقت «يشعرون» لمكان الاستفهام.

وضميرُ الجمع للكفرة وإن كان عدمُ الشعور بما ذُكر عامًّا؛ لئلا يلزم التفكيكُ بينه وبين ما يذكر بعدُ من الضمائر الخاصة بهم قطعاً. وقيل: الكلُّ لـ «مَن» وإسنادُ خواصِّ الكفرة إلى الجميع من قبيل: بنو فلانٍ فعلوا كذا، والفاعلُ بعضٌ منهم، وفيه بحث.

وقرأ السلميُّ: «إيان» بكسر الهمزة(٢)، وهي لغة بني سليم.

---

(١) ينظر ما سيأتي ٢٣/ ٩٠-٩١.
(٢) المحتسب ٢/ ١٤٢، والبحر ٧/ ٩٢.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ إضرابٌ عمَّا تقدَّم على وجهٍ يفيدُ تأكيدَه وتقريرَه، وأصل «ادَّارَكَ»: تَدَارَكَ، فأُدغمت التاء في الدال فسكنتْ، فاجتُلبت همزةُ الوصل. وهو من تَدَارَكَ بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك، وهو مرادُ مَن فسَّر التدارُكَ هنا بالاضمحلال والفناء، وإلا فأصلُ التدارُك التتابُعُ والتلاحُقُ مطلقاً. و«في الآخرة» متعلِّقٌ بـ «علمهم»، والعلمُ يتعدَّى بـ «في» كما يتعدَّى بالباء، وهي حينئذٍ بمعنى الباء كما نصَّ عليه الفرَّاء وابنُ عطية[1] وغيرُهما. والمعنى: بل تَتَابعَ علمُهم في شأن الآخرة التي ما ذُكر من البعث حالٌ من أحوالها حتى انقطع وفني ولم يبقَ لهم علمٌ بشيءٍ مما سيكون فيها قطعاً مع توفُّر أسبابه، فهو ترقٍّ عن وصفهم بجهلٍ فاحشٍ إلى وصفهم بجهل أفحشَ.

وليس تدارُكُ علمِهم بذلك على معنى أنه كان لهم علمٌ به على الحقيقة فانتفى شيئاً فشيئاً، بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلةَ نَفْسِه، وإجراءِ تساقُطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابُعها إلى الانقطاع.

وجوِّز أن يكون الكلام على تقديرِ مضافٍ، أي: ادَّارك أسبابُ علمهم، والتدارُكُ مجازٌ عما ذكر من التساقُط.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن عدم علمهم بها إلى ما هو أفحشُ منه على نحو ما مرَّ، وهو حيرتُهم في ذلك، أي: بل هم في شكٍّ عظيم من نفس الآخرة وتحقُّقها كمن تحيَّر في أمر لا يجد عليه دليلاً، فضلاً عن الأمور التي ستقع فيها.

وقوله سبحانه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ إضرابٌ وانتقال عن وصفهم بكونهم شاكِّين إلى وَصْفِهم بما هو أفظعُ منه، وهو كونُهم عُمياً قد اختلَّتْ بصائرهم بالكلِّية بحيث لا يكادون يدركون طريقَ العلم بها، وهو الدلائلُ الدالَّةُ على أنها كائنةٌ لا محالةَ. فالمراد: عَمُونَ عن دلائلها، أو: عمون عن كلِّ ما يوصلهم إلى الحقِّ ويدخل فيه دلائلها دخولاً أوَّليًا. و«منها» متعلِّقٌ بـ «عمون» قدِّم عليه رعايةً

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨.

للفواصل، ولعل تَعْدِيتَه بـ «من» دون «عن» لجَعْلِ الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، والكفرُ بالعاقبة والجزاء يدعُ الشخصَ عاكفاً على تحصيل مصالح بطنه وفرجه لا يتدبَّر ولا يتبصَّر فيما عدا ذلك.

وجوّز أن يكون «ادَّارك» بمعنى استَحْكَم وتكامَلَ، ووصفُهم باستحكام علمهم بذلك وتكامُله من باب التهكُّم بهم، كما تقول لأَجْهَلِ الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزء، ومآلُ التهكُّم المذكور نفيُ علمهم بذلك، كما في الوجه السابق، لكنْ على الوجهِ الأبلغ. والإضرابان من باب الترقِّي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع نحو ما تقدم، وهو وجهٌ حسنٌ، ويشعرُ كلامُ بعض المحققين بترجيحه على ما ذكرنا أولاً.

وجوّز أيضاً أن يكون المراد بالادِّراك: الاستحكامَ، لكن على معنى: استَحْكَم أسبابُ علمهم بأنَّ القيامة كائنةٌ لا محالةَ من الآيات القاطعة والحجج الساطعة، وتمكَّنوا من المعرفة فَضْلَ تمكُّنٍ وهم جاهلون في ذلك. وفيه أنَّ دلالة النظم الكريم على إرادةِ: وهم جاهلون، ليست بواضحةٍ.

وقال الكرمانيُّ(١): التدارُكُ: التتابع، والمراد بالعلم هنا الحُكْمُ والقولُ، والمعنى: بل تتابع منهم القولُ والحكْمُ في الآخرة وكثر منهم الخوضُ فيها؛ فنفاها بعضُهم، وشك فيها بعضُهم، واستبعدها بعضُهم. وفيه ما فيه.

وقيل: إنَّ «في الآخرة» متعلِّقٌ بـ «ادَّارك»، وإليه ذهب الزجَّاج والطبرسيُّ(٢)، واقتضته بعضُ الآثار المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى على هذا عند بعضهم: بل استَحْكم في الآخرة علمُهم بما جهلوه في الدنيا، حيث رأوا ذلك عياناً، وكان الظاهرُ: يدَّارَكُ، بصيغة الاستقبال إلَّا أنه عبّر بصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع.

وقيل: التدارُكُ عليه من تَدَارَكْتُ أمرَ فلانٍ: إذا تلافيته، ومفعولُه هنا محذوفٌ، أي: بل تَدَارَكَ في الآخرة عِلمُهم ما جهلوه في الدنيا، أي: تلافاه، وحاصلُ

---

(١) كما في البحر ٧/ ٩٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢٧، ومجمع البيان ٢٠/ ٢٤٤-٢٤٥.

المعنى: بل علموا ذلك في الآخرة حين لم ينفعهم العلم، والتعبيرُ بصيغة الماضي على ما علمتَ.

ولا يخفَى أنَّ في وجه ترتيب الإضرابات الثلاث حَسبَ ما في النظم الكريم على هذين الوجهين خفاءً، فتدبَّر.

وقرأ أبيٌّ: «أم تَدَارك» على الأصل، وجعل «أم» بدل «بل»[١].

وقرأ سليمان بن يسار: «بلَ ادَّرَكَ» بنقل حركة الهمزة إلى اللام وشدِّ الدال بناء على وزنه افتعل، فأدغم الدال وهي فاءُ الكلمة في التاء بعد قَلْبِها دالاً فصار فيه قلبُ الثاني للأول، كما في قولهم: اثَّرَدَ، وأصله: اثْتَرَدَ من الثَّرْد، والهمزةُ المحذوفةُ المنقولُ حركتُها إلى اللام هي همزةُ الاستفهام أُدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألفُ الوصل، ثم انحذفت هي وأُلْقِيتْ حركتُها على لام «بل»[٢].

وقرأ أبو رجاء والأعرجُ وشيبةُ وطلحةُ وتوبةُ العنبريُّ كذلك، إلا أنهم كسروا لام «بل»، وروي ذلك عن ابن عياش[٣] وعاصمٍ والأعمش.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل مكة: «بل أَدْرَكَ»[٤] على وزن أَفْعَلَ بمعنى تَفَاعَلَ، ورويت عن أبي بكر عن عاصم[٥].

وقرأ عبد الله في رواية، وابن عباس في رواية أبي حيوة وغيرِه عنه، والحسن

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢، والكلام منه.

(٢) البحر ٧/ ٩٢، وتعقبه السمين في الدر ٨/ ٦٣٥ بأن هذا ليس مما قلب فيه الثاني للأول، بل لكون الدال فاء، وتاء الافتعال تبدل دالاً بعد أحرفٍ منها الدال. اهـ. والقراءة ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٢.

(٣) كتب فوقها في الأصل: صح، وجاء بدلاً منها في البحر (والكلام منه): عباس، ومثله في الدر المصون ٨/ ٦٣٦، وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ١٤٢ عن الحسن، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٠ عن الحسن والأعرج.

(٤) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٢٣٩، وهي قراءة يعقوب أيضاً، وقرأ باقي العشرة: «ادَّارك» وما عدا هاتين القراءتين كله في الشاذ.

(٥) البحر ٧/ ٩٢، والمشهور عن عاصم: «ادَّارك» كما أسلفنا.

وقتادة وابن محيصن: «بل آدْرَكَ» بمدَّة بعد همزة الاستفهام[١]، وأصله أأدْرَكَ فقُلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهةَ الجمع بين همزتين.

وأنكر أبو عمرو بن العلاء[٢] هذه الرواية. وقال أبو حاتم: لا يجوزُ الاستفهامُ بعد «بل» لأنَّ «بل» للإيجاب، والاستفهامُ في هذا الموضع إنكارٌ بمعنى: لم يكن، كما في قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] أي: لم يشهدوا خلْقَهم، فلا يصحُّ وقوعُهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار[٣]. اهـ.

وقد أجاز بعض المتأخِّرين ـ كما قال أبو حيان ـ الاستفهامَ بعد «بل» وشِبْهِه بقول القائل: أخبزاً أكلتَ، بل أماءً شربتَ، على تَرْكِ الكلام الأول والأَخْذِ في الثاني[٤].

وقرأ مجاهد: «أمْ أدركَ»، جَعَلَ «أم» بدل «بل»، و«أدرك» على وزن أفعل[٥].

وقرأ ابن عباس في روايةٍ أيضاً: «بلْ أدَّارك» بهمزةٍ داخلةٍ على «ادَّارَكَ»، فتسقطُ همزةُ الوصلِ المجتلَبةُ لأجْلِ الإدغام والنطق بالساكن[٦].

وقرأ ابن مسعود أيضاً: «بل أَأَدْرَكَ» بهمزتين[٧]، همزةِ الاستفهام وهمزة أَفْعَلَ.

وقرأ الحسن أيضاً والأعرج: «بل أدَّرك» بهمزةٍ، وإدغام فاء الكلمة وهي الدال في تاء[٨] افتعل بعد صيرورة التاء دالاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٢، والبحر ٧/ ٩٢، والكلام منه.

(٢) في الأصل: أبو بكر بن العلاء، وفي(م): أبو بكر بن أبي العلاء، والمثبت من البحر، وهو الصواب.

(٣) البحر ٧/ ٩٢، والدر المصون ٨/ ٦٣٦. قال السمين: وفي منع هذا نظر؛ لأن «بل» لإضراب الانتقال، فقد أضرب عن الكلام الأول وأخذ في استفهام ثانٍ، وكيف ينكر هذا والنحويون يقدرون «أم» المنقطعة بـ «بل» والهمزة. وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) البحر ٧/ ٩٢. وقال السمين في الدر ٨/ ٦٣٦: وعجبت من الشيخ كيف قال هذا، فتخصيصه ببعض المتأخرين يؤذن أن المتقدمين وبعض المتأخرين يمنعه، وليس كذلك كما حكيتُ عنهم في «أم» المنقطعة.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢.

(٦) البحر ٧/ ٩٢.

(٧) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢.

(٨) في الأصل و(م): فاء، والمثبت من البحر ٧/ ٩٢، وهو الصواب.

وقرأ ورشٌ في روايةٍ: «بلَ ادْرَكَ» بحذف همزة «أَدْرَكَ»، ونقلِ حركتها إلى اللام[1].

وقرأ ابن عباس أيضاً: «بلى أدرك» بحرف الإيجاب الذي يُوجب به المستفهم المنفي[2].

وقرئ[3]: «بل آأدرك»[4] بألف بين همزتين.

فهذه عدَّةُ قراءاتٍ، فما فيه منها استفهامٌ صريحٌ أو مضمَّنٌ فهو إنكارٌ ونفيٌ، وما فيه «بلى» فقد قال فيه أبو حاتم: إن كان «بلى» جواباً لكلامٍ تقدَّم جاز أن يستأنف بعده، كأنَّ قوماً أنكروا ما تقدَّم من القدرة فقيل لهم: بلى، إيجاباً لِمَا نَفَوْا، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بمعنى: أم هم في شكٍّ منها؛ لأنَّ حروف العطف قد تتناوب، وكفَّ عن الجملتين بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. اهـ، يعني أنَّ المعنى: أَدَّرك علمهم بالآخرة أم شكُّوا؟ فـ «بل» بمعنى: «أم» عودل بها الهمزة. وتعقَّبه في «البحر»[5] بأنَّ جَعْلَ «بل» بمعنى «أم» ومعادلتها لهمزة الاستفهام ضعيفٌ جدًّا.

وقال بعض المحقِّقين: ما فيه «بلى» فإثباتٌ لشعورهم وتفسيرٌ له بالإدراك على وجه التهكُّم الذي هو أبلغُ وجوه النفي والإنكار، وما بعده من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ إضرابٌ عن التفسير مبالغةً في النفي ودلالةً على أنَّ شعورهم بها أنهم شاكُّون فيها بل أنهم منها عمون، فهو على منوال:

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٢.

(٢) البحر ٧/ ٩٢، وقد اختلفت المصادر فيما بعد «بلى»؛ ففي الكشاف ٣/ ١٥٦: «بلى أَدْرك» و«بلى أَأَدْرَك». ونصَّ القرطبي على أنها: «أَدَّارك» بهمزة قطع، والدالُ مشدَّدة وألفٌ بعدها. وكذا أخرجها الطبري ١٨/ ١٠٧ عن ابن عباس، وفي الدر المصون ٦/ ٦٣٧: «بلى آأدرك» بألف بين الهمزتين.

(٣) في (م): وقرأ، والمثبت من الأصل والبحر.

(٤) وقعت في الأصل و(م) بألف بعد الدال، والمثبت من الكشاف ٣/ ١٥٦، والبحر ٧/ ٩٢، والكلام منه.

(٥) ٧/ ٩٣، وما قبله منه.

تـحـيـةُ بـيـنـهـم ضَـرْبٌ وجـيـع[1]

أو ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم على أنَّ الإضراب إبطاليٌّ، فافهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ كالبيان لجهلهم بالآخرة وعَمَاهُم منها، ووضع الموصول موضع ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز صلته، والإشعار بعلَّة حكمهم الباطل الذي تضمَّنه مقولُ القول.

و«إذا» ظرفٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه «مخرجون»، أي: أنُخْرَجُ إذا كنَّا تراباً. ولا مساغَ لأنْ يكون ظرفاً لـ «مُخْرجون»؛ لأنَّ كلًّا من الهمزة و«إنَّ» واللام ـ على ما قيل ـ مانعةٌ مِن عَمَلِ ما بعدَها فيما قبلها، فكيف بها إذا اجتمعت؟ ولم يَعْتبِر بعضهم اللامَ مانعةً، بناءً على ما قرِّر في النحوِ من جواز تقدُّم معمولِ خبرِ «إنَّ» المقرُونِ باللام عليه، نحو: إنَّ زيداً طعامَك لآكِلٌ، ويكفي حينئذ مانعان، وأظنُّ أنَّ مَن قال: يُتوسَّعُ في الظروف ما لا يتوسَّعُ في غيرها، لا يقول باطِّراد الحكم في مثل هذا الموضع.

ومرادُهم بالإخراج: الإخراجُ من القبور، وجوِّز أن يكون الإخراجَ من حال الفناء إلى الحياة، والأول هو الظاهر. وتقييدُ الإخراج بوقت كونهم تراباً ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذٍ فقط، فإنهم منكِرون للإحياء بعد الموت مطلقاً وإنْ كان البدنُ على حاله، بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالةٍ منافيةٍ له بزعمهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ عطفٌ على اسم «كان»، واستُغني بالفَصْلِ بالخبر عن الفصل بالتأكيد، وتكريرُ الهمزة في «أئنا» للمبالغة والتشديد في الإنكار، وتحليةُ الجملة بـ «إنَّ» واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم، فإنَّ تقديم الهمزة لأصالتها في الصدارة. والضمير في «أئنا» لهم ولآبائهم؛ لأنَّ الكون تراباً قد تناولهم وآباءهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «أيذا» و«أينَّا» بالجمع بين الاستفهامين وقَلْبِ الثانية

---

(١) وصدره: وخيل قد دلفت لها بخيلٍ، وسلف ٥/ ٦٤. والكلام من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٦.

ياء، وفَصَل بينهما بألفٍ أبو عمرو[1]. وقرأ نافع «إذا» بهمزة واحدة مكسورة، فهمزةُ الاستفهام مقدَّرةٌ مع الفعل المقدَّر؛ لأنَّ المعنى ليس على الخبر، و«آينا» بهمزة الاستفهام وقَلْبِ الثانية ياءً وبينهما مَدَّةٌ[2]. وقرأ آخرون: «آئذا» باستفهامٍ ممدودٍ «إننا» بنونين من غير استفهام[3].

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: الإخراجَ المذكورَ ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ وَعْدِ محمدٍ ﷺ، وتقديمُ الموعود على «نحن» هنا للدلالة على أنه هو الذي تُعمِّد بالكلام وقُصِدَ به، حتى كأنَّ ما سواه مطرحٌ وعلاوةٌ له، كما يُنْبئُ عن ذلك ذِكْرُ ما صَدَرَ منهم أنفسِهم مؤكَّداً مقرَّراً مكرَّراً، وتأخيره عنه في آية سورة «المؤمنين» لرعاية الأصل، ولا مقتضيَ للعدول إذ لم يذكر هناك سوى اتِّباعهم أسلافَهم في الكفر وإنكار البعث من غير نعيٍ ذلك عليهم.

والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير الإنكار، وتصديرُها بالقسم لمزيد التأكيد، وقولُه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقريرٌ إثر تقريرٍ.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ بسببِ تكذيبهم الرسلَ عليهم الصلاة والسلام فيما دَعَوْهم إليه من الإيمان بالله عزَّ وجلَّ وحده، وباليوم الآخِرِ الذي تنكرونه، فإنَّ في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفايةٌ لأولي الأبصار. وفي التعبير عن المكذِّبين بالمجرمين الأعمِّ منه بحسب المفهوم لطفٌ بالمؤمنين في ترْكِ الجرائم لِمَا فيه من إرشادهم إلى أنَّ الجرم مطلقاً مبغوضٌ لله عز وجل.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ أي: في حرجِ صدرٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: من مكرهم، فإنَّ الله تعالى يعصمُك من

---

(١) التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٠. وقرأ رويس كابن كثير.

(٢) هي رواية قالون عن نافع، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر من العشرة، ورواية ورش عن نافع: «أيِنَّا» بدون ألف.

(٣) وهي قراءة هشام، ومثله قرأ ابن ذكوان والكسائي لكن من غير مدٍّ في الاستفهام. وقرأ الباقون: «أئذا» و«أئنا». ونقل المصنف جميع هذه القراءات عن البحر ٣/ ٩٤، وينظر التيسير ص٣٢ و١٦٢، والنشر ١/ ٣٦٩-٣٧٤.

الناس. وقرأ ابن كثير: «ضِيق» بكسر الضاد[1]، وهو مصدرٌ أيضاً. وجوِّز أن يكون مفتوحَ الضاد مخفَّفاً من ضيِّقٍ، وقد قرئ كذلك[2]، أي: لا تكن في أمرٍ ضيقٍ، وكره أبو عليٍّ[3] كونَ ذلك مخفَّفاً مما ذُكر؛ لأنه يقتضي حذفَ الموصوف وإقامةَ الصفة مقامه، وليس من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطِّراد، وفيه بحث.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: العذابُ العاجلُ الموعود، وكأنهم فهموا وَعْدَهم بالعذاب من الأمر بالسير والنظرِ في عاقبة أمثالهم المكذِّبين، ويُعلم منه وجهُ التعبير[4] بـ «يقولون»، وعدم إجرائه على سَنَنِ ما قبله، أعني: «وقال الذين كفروا».

وسؤالُهم عن وقت إتيان هذا العذاب على سبيل الاستهزاء والإنكار، ولذا قالوا: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ عانين: إن كنتم صادقين في إخباركم بإتيانه فبيِّنوا لنا وقته، والجمعُ باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أصلُ معنى «ردف»: تَبِعَ، والمراد به هنا لَحِقَ ووَصَلَ، وهو ممَّا يتعدَّى بنفسه وباللام كـ: نَصَحَ.

وقيل: اللامُ مزيدةٌ لتأكيدِ وصول الفعل إلى المفعول به، كما زيدت الباءُ لذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقيل: إنَّ اللام لتضمين «ردف» معنى: دنا، وهو يتعدَّى باللام كما يتعدَّى بـ «من» و«إلى»، كما في «الأساس»[5]، ولتضمينه ذلك عدِّي بـ «مِن» في قوله:

فلمَّا رَدِفْنا من عميرٍ وصحبه تولَّوا سراعاً والمنيةُ تُعْنِق[6]

---

(١) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٩٨، وينظر الكشاف ٣/ ١٥٨، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٧.
(٣) في الحجة ٥/ ٤٠٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٩٥.
(٤) في (م): للتعبير.
(٥) مادة (دنو)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ٥٧.
(٦) الكشاف ٣/ ١٥٨، والبحر ٧/ ٩٥، والدر المصون ٨/ ٦٣٩ دون نسبة. تُعْنِقُ، أي: تسرع. المعجم الوسيط (عنق).

وقيل: اللامُ داخلةٌ على المفعول لأجله، والمفعولُ به الذي يتعدَّى إليه الفعلُ بنفسه محذوفٌ، أي: رَدِفَ الخلقَ لأجلكم، ولا يخفى ضعفُه.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ عند «رَدِفَ» على أنَّ فاعله ضميرٌ يعود على الوعد، ثم استأنف بقوله تعالى: (لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) على أنَّ «بعض» مبتدأ، و«لكم» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً له، ولا يخفى ما فيه من التفكيك للكلام، والخروجِ عن الظاهر لغيرِ داعٍ لفظيٍّ ولا معنويٍّ.

والمعنى: قل: عسى أن يكون لحِقَكم ووصل إليكم بعضُ الذي تستعجلون حلولَه، وتطلبونه وقتاً فوقتاً، والمرادُ بهذا البعض عذابُ يوم بدر. وقيل: عذاب القبر، وليس بذاك. ونسبةُ استعجالِ ذلك إليهم بناءً على ما يقتضيه ما هم عليه من التكذيب والاستهزاء، وإلا فلا استعجال منهم حقيقةً.

والترجِّي المفهومُ من «عسى»، قيل: راجعٌ إلى العباد. وقال الزمخشريُّ[1]: إنَّ «عسى» و«لعل» و«سوف» في وعد الملوك ووعيدِهم تدلُّ على صدق الأمر وجدِّه، وما لا مجال للشكِّ بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقَهرهم وغلبتهم، ووثوقِهم بأنَّ عدوَّهم لا يفوتُهم، وأنَّ الرمزة إلى الأغراض كافيةٌ من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعدُ الله تعالى ووعيدُه سبحانه. اهـ.

وعليه ففي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ، ولا يخفى حُسْنُ ذلك. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسى أن يردفكم.. إلخ؛ لكونه أدلَّ على تحقُّق الوعد.

وقرأ ابن هرمز: «رَدَفَ» بفتح الدال[2]، وهو لغة فيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لذو إفضالٍ وإنعامٍ كثيرٍ على كافة الناس، ومن جملة إفضاله عزَّ وجل وإنعامه تعالى تأخيرُ عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: لا يشكرونه جلَّ وعلا على إفضاله سبحانه عليهم، ومنهم هؤلاء.

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٥٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٣، والبحر ٧/ ٩٥.

وقيل: لا يعرفون حقَّ فضله تعالى عليهم، تعبيراً عن انتفاء معرفتهم ذلك بانتفاء ما يترتَّبُ عليها من الشكر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: ما تخفيه من الأسرار التي من جملتها عداوتُك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾ أي: وما يُظْهِرونه من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما حكي عنهم، فليس تأخيرُ عقوبتهم لخفاء حالهم عليه سبحانه، أو فيجازيهم على ذلك، وفعلُ القلب إذا كان مثلَ الحبِّ والبغض، والتصديقِ والتكذيب، والعزمِ المصمِّم على طاعة أو معصية، فهو مما يُجازَى عليه.

وفي الآية إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غير ما حُكي عنهم. وتقديم الإكنان[1] ليظهر المراد من استواءِ الخفيِّ والظاهر في علمه جلَّ وعلا، أو لأنَّ مضمَراتِ الصدور سببٌ لِمَا يَظْهرُ على الجوارح، وإلى الرمز إلى فساد صدورهم التي هي المبدأ لسائر أفعالهم أُوثِرَ ما عليه النظمُ الكريم على أن يقال: وإنَّ ربَّك ليعلم ما يكنُّون وما يعلنون.

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن السميفع: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف[2]، من كنَّ الشيءَ: سَتَره وأخفاه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من شيءٍ خفيٍّ ثابتِ الخفاء فيهما، على أنَّ «غائبة» صفةٌ غلبتْ في هذا المعنى فكثُر عدمُ إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت وإن لم تُنْقَلْ إلى الاسمية كمؤمن وكافر، فتاؤها ليست للتأنيث إذ لم يلاحَظْ لها موصوفٌ تجري عليه، كالراوية للرجل الكثيرِ الروايةِ، فهي تاءُ مبالغةٍ. ويجوز أن تكون صفةً منقولةً إلى الاسمية سمِّي بها ما يغيبُ ويَخْفَى، والتاء فيها للنقل كما في «الفاتحة»، والفرقُ بين المغلَّب والمنقول ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ أنَّ الأول يجوز إجراؤه على موصوف مذكَّرٍ بخلاف الثاني[3].

والظاهر عمومُ الغائبة، أي: ما من غائبةٍ كائنةٍ ما كانت ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝﴾

(١) في (م): الاكتنان.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٣، والبحر ٧/ ٩٥.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٥٧.

أي: بيِّنٍ، أو مُبينٍ لِمَا فيه لمن يطالعُه وينظر فيه من الملائكة عليهم السلام، وهو اللوح المحفوظ، واشتماله على ذلك إن كان متناهياً لا إشكال فيه، وإن كان غيرَ متناهٍ ففيه إشكالٌ ظاهرٌ ضرورةَ قيام الدليل على تناهي الأبعاد واستحالةِ وجودِ ما لا يتناهَى، ولعل وجود الأشياء الغيرِ المتناهية في علم الله تعالى في اللوح المحفوظ على نحو ما يزعمونه من وجود الحوادث في الجفر الجامع[1]، وإن لم يكن ذلك حذوَ القذَّة بالقذَّة.

وقيل: المراد بالكتاب المبين علمُه تعالى الأزليُّ الذي هو مبدأٌ لإظهار الأشياء بالإرادة والقدرة. وقيل: حكمه سبحانه الأزليُّ. وإطلاقُ الكتاب على ما ذكر من باب الاستعارة، ولا يخفى ما في ذلك.

وقيل: المراد به القرآن، واشتمالُه على كلِّ غائبةٍ على نحو ما ذكرنا في اشتمال اللوح المحفوظ عليه، وقد ذُكر أنَّ بعض العارفين استخرج من «الفاتحة» أسماءَ السلاطين العثمانية، ومُدَدَ سَلْطَنتهم إلى آخر مَن يَتَسَلْطَن منهم، أدام الله تعالى ملكهم إلى يوم الدِّين، ووفَّقهم لِمَا فيه صلاحُ المسلمين. وذكر بعضُهم في هذا الوجه أنه مناسبٌ لِمَا بعدُ من وصف القرآن، وفيه ما فيه.

وقال الحسن: الغائبة هو يومُ القيامة وأهوالها[2].

وقال صاحب «الغُنيان»[3]: الحوادث والنوازل. وقيل: أعمال العباد. وقيل: ما غاب من عذاب السماء والأرض.

والعمومُ أولى، ورُوي ذلك عن ابن عباس؛ فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: يقول سبحانه: ما من شيءٍ في السماء والأرض

---

(١) هو كتاب يزعم الشيعة أن جعفراً الصادق ﷺ كتب فيه لهم كل ما يحتاجون إلى عمله، وكلّ ما يكون إلى يوم القيامة، وهو زعم باطل. ينظر مجموع الفتاوى ٤/ ٧٨-٧٩، وأبجد العلوم ٢/ ٢١٤-٢١٦، ومجلة المنار ٤/ ٦٠ للسيد رشيد رضا.

(٢) في الأصل: وأحوالها، والمثبت من (م) والبحر ٧/ ٩٥، والكلام منه.

(٣) كما في البحر ٧/ ٩٥، والغنيان في تفسير القرآن لبشير بن حامد بن سليمان، أبو النعمان، نجم الدين الزينبي الهاشمي، الجعفري الشافعي، التبريزي الصوفي، المتوفى سنة (٦٤٦هـ). السير ٢٣/ ٢٥٥، والأعلام ٢/ ٥٦.

سرًّا وعلانيةً إلا يعلمه سبحانه وتعالى[(١)]. وأخذ منه بعضُهم حَمْلَ الكتاب على العلم الأزليِّ، وفيه نظرٌ؛ لجوازِ أن يكون قد جعل كونَ ذلك في كتابٍ مبين كنايةً عن علمه تعالى به.

وذهب أبو حيان إلى أنه رضي الله عنه اعتبر في الآية حَذْفَ أحدِ المتقابلَيْنِ اكتفاءً بالآخر[(٢)]. وكلامُه رضي الله عنه محتملٌ لذلك.

ويحتمل أنه ذكر العلانية في بيان المعنى لأنَّ مَن عَلِمَ السرَّ عَلِمَ العلانيةَ من باب أَوْلَى. ويحتمِلُ أنَّ ذلك لأنه ما من علانيةٍ إلا وهي غيبٌ بالنسبة إلى بعض الأشخاص، فيكون قد أشار رضي الله عنه ببيان المعنى وذِكْرِ السرِّ والعلانية فيه إلى أنَّ المراد بـ «غائبة» في الآية ما يشملهما[(٣)]، وهو ما اتَّصف بالغيبة أعمّ من أن تكون مطلقةً أو إضافيةً، كذا قيل، فتدبَّر.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ لـمَّا ذكر سبحانه ما يتعلَّق بالمبدأ والمَعَادِ ذكر تعالى ما يتعلَّق بالنبوَّة؛ فإنَّ القرآن أعظمُ ما تَثبُتُ به نبوَّةُ نبيِّنا ﷺ، فذكر جلَّ وعلا أنه يقصُّ على بني إسرائيل ـ والمراد بهم كما رُوي عن قتادةَ: اليهودُ والنصارى ـ أكثرَ ما تجدَّد واستمرَّ اختلافُهم فيه على وجهه، ويبيِّنُ لهم حقيقةَ الأمر فيه، وذلك مما يقتضي إسلامَهم لو تأمَّلوا وأنصفوا، لكنهم لم يفعلوا وكابَروا مثلَكم أيها المشركون.

ومما اختلفوا فيه أمرُ المسيح عليه السلام؛ فمِن قائل: هو الله تعالى. ومِن قائل: ابنُ الله سبحانه. ومن قائل: ثالثُ ثلاثةٍ. ومن قائل: هو نبيٌّ كغيره من الأنبياء عليهم السلام. ومن قائل: هو ـ وحاشاه ـ كاذبٌ في دعواه النبوَّة، ويَنْسِبُ مريم فيه إلى ما هي منزَّهةٌ عنه رضي الله عنها، وهم اليهود الذين كذَّبوه.

وأمرُ النبيِّ المبشَّر به في التوراة، فمن قائل: هو يوشع عليه السلام. ومن قائل: هو عيسى عليه السلام. ومن قائل: إنه لم يأتِ إلى الآن وسيأتي آخرَ الزمان.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩١٩.

(٢) البحر ٧/ ٩٥.

(٣) في الأصل: يشملها.

ومما اختلفوا فيه أمرُ الخنزير؛ فقالت اليهود بحرمة أكله، وقالت النصارى بحِلِّه، إلى غير ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ على الإطلاق، فيدخلُ فيهم مَن آمن من بني إسرائيل دخولاً أوَّليًّا، وتخصيصُ المؤمنين بهم كما فعل بعضهم خلافُ الظاهر، وتخصيصُ المؤمنين بالذكر مع أنه رحمةٌ للعالمين لأنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل الذين اختلفوا، أو بين المؤمنين وبين الناس ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ قيل: أي: بحكمته جلَّ شأنُه، ويدلُّ عليه قراءةُ جناح بن حبيش: «بحِكَمِه» بكَسْرِ الحاء وفَتْحِ الكاف جمع حكمةٍ مضاف إلى ضميره تعالى[1].

وقيل: المراد بالحُكْمِ: المحكومُ به، إطلاقاً للمصدر على اسم المفعول، والمرادُ بالمحكوم به الحقُّ والعدل.

وعلى الوجهين لم يبق على المعنى المصدريِّ، والداعي لذلك أنَّ «يقضي» بمعنى يحكم، فلو بقي الحكم على المعنى المصدريِّ لصار الكلام نحوَ قولك: زيدٌ يضَرِبُ بضَرْبِه، وهو لا يقال مثلُه في كلامٍ عربيٍّ.

وأورد عليه أنه يصحُّ أن يقال ذلك على معنى: يضْرِبُ بضَرْبِه المعروف بالشدة مثلاً، فالمعنى هنا: يحكم بحُكْمِه المعروفِ بملابَسةِ الحق، أو يحكم بحُكْمِ نَفْسِه تعالى لا بحكم غيره ـ عزَّ شأنُه ـ كالبشر.

وقيل عليه: ليس المانعُ لصحة مثلِ هذا القول إضافةَ المصدر إلى ضمير الفاعل، فإنه لا كلام في صحته، كإضافته إلى ضمير المفعول في: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩] إنما المانع دخولُ الباء على المصدر المؤكِّد. ثم إنَّ المعنى الأولَ يوهمُ أنَّ له سبحانه حكماً غيرَ معروفٍ بملابسة الحق، والثاني إنما يَظهر لو قدَّم «بحُكْمِه».

وفيه أنه على ما ذكر ليس بمصدرٍ مؤكِّدٍ، وعدمُ الجواز في المصدر النوعيِّ لاسيما إذا كان من غير لَفْظِه ليس بمسلَّم. وأيضاً الظاهرُ أنَّ المانع بزَعْمِ المؤوِّل

---

(١) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ٩٦.

لزومُ اللَّغْوِيَّةِ لو لم يؤوّل بما ذكر، والأَوْلَى إبقاؤه على المصدرية، وجَعْلُ الإضافة للعهد، وكونُ المعنى كما قال المُورِدُ: يَحْكُم بحُكْمِه المعروفِ بملابسةِ الحقِّ. وأمرُ التوهُّم على طرف الثُّمام.

وأيًّا ما كان فالضميرُ المجرورُ عائدٌ على الربِّ سبحانه، وعَوْدُه على القرآن على أنَّ المعنى: يَحْكُم بالحُكْمِ الذي يتضمَّنه القرآن واشتمل عليه من إثابة المحقِّ وتعذيبِ المُبْطِلِ، وحينئذٍ لا يحتاج إلى كثرة القيل والقال = لا يخفى ما فيه من القيل والقال على مَن له أدنى تمييزٍ بأساليب المقال.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُرَدُّ حُكْمُه سبحانه وقضاؤه جلَّ جلالُه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضي به.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لترتيب الأمر على ما ذكر من شؤونه عزَّ جلَّ، فإنَّها موجبةٌ للتوكُّل عليه تعالى، وداعيةٌ إلى الأمر به، وفي ذكره تعالى بالاسم الجامع تأييدٌ لذلك، أي: فتوكَّل على الله الذي هذا شأنُه، فإنه يوجب على كلِّ أحدٍ أن يتوكَّل عليه ويفوِّضَ جميعَ أموره إليه جلَّ وعلا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ تعليلٌ صريحٌ للتوكُّل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحقِّ البيِّن، أو الفاصلِ بينه وبين الباطل، أو بين المحقِّ والمُبْطِلِ، فإنَّ كونه ﷺ كذلك مما يوجبُ الوثوقَ بحفظه تعالى ونُصْرتِه وتأييدِه لا محالة.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلخ تعليلٌ آخَرُ للتوكُّل الذي هو عبارةٌ عن التبتُّل إلى الله تعالى وتفويضِ الأمر إليه سبحانه، والإعراضِ عن التشبُّث بما سواه.

وقد علَّل أوَّلاً بما يوجبُه من جهته تعالى، أعني قضاءَه عزَّ وجلَّ بالحقِّ وعزَّتَه وعِلْمَه تبارك وتعالى، وثانياً بما يوجبُه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين، أعني كونَه ﷺ على الحقِّ، ومن جهته تعالى على الوجه الآخر، أعني إعانتَه تعالى وتأييدَه تعالى للمحقِّ، ثم علّل ثالثاً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبُّث بما سواه تعالى؛ فإنَّ كونهم كالموتى والصمِّ

والعُمْي موجبٌ لقَطْعِ الطَّمَعِ عن مُشايَعَتِهم ومُعاضَدَتِهم رأساً، وداعٍ إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعنيُّ بالتوكُّل عليه جلَّ شأنه.

وجوِّز أن يكون قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ) إلخ استئنافاً بيانيًّا وقع جواباً لسؤالٍ نشأ مما قبله، أعني «إنك على الحقِّ المبين» كأنه قيل: ما بالُهم غير مؤمنين بمن هو على الحقِّ المبين؟ فقيل: «إنك لا تسمع الموتى» إلخ. وتعقِّب بأنه يأباه السياق. واعتُرض بالمنع.

وإنما شبِّهوا بالموتى ـ على ما قيل ـ لعدم تأثُّرِهم بما يُتْلَى عليهم من القوارع، وإطلاقُ الإسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيءٍ من المسموعات.

وقيل: لعل المراد تشبيهُ قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور، فإنَّ القلب مشعرٌ من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة، ثم بين بطلان مشعري الأذن والعين، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩] وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصمِّ والعمي مزيدُ مَزِيَّةٍ. وكأنه لهذا قال في «البحر»[(١)]: أي: موتَى القلوب. أو شبِّهوا بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يُتلى عليهم، فقدَّم احتمالُ نسبة الموت إلى قلوبهم.

وتعقِّب[(٢)] بأنَّ ما ذُكر تخيُّلٌ باردٌ؛ لأنَّ القلب يوصف بالفِقْهِ والفَهْمِ لا السَّمْعِ، وما ذكر أولاً من أنهم أنفسَهم شبِّهوا بالموتى هو الظاهر، ووجهُه أنه على طريق التسليم والنظر لأحوالهم، كأنه قيل: كيف تُسمعهم الإرشاد إلى طريق الحق وهم موتَى؟ وهذا بالنظر لأوَّل الدعوة، ولو أحييناهم لم يُفِدْ أيضاً لأنهم صمٌّ وقد ولَّوا مُدْبِرين، وهذا بالنظر لحالهم بعد التبليغ البليغ ونفرتهم عنه، ثم إنَّا لو أسمعناهم أيضاً فهم عميٌ لا يهتدون إلى العمل بما يسمعون، وهذا خاتمةُ أمرهم، ويعلم من هذا ما في ذلك من مزيدِ المزيةِ الخالية عن التكلُّف.

---

(١) ٩٦/٧.

(٢) كما في حاشية الشهاب ٥٨/٧.

وجوَّز أن يكون التشبيه لطوائفَ على مراتبهم في الضلال، فمنهم مَن هو كالميت، ومَن هو كالأصم، ومَن هو كالأعمى، وهو وإن كان وجهاً خفيفَ المؤنة، إلَّا أنه خلافُ الظاهر أيضاً.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقييدُ النفي بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لتتميم التشبيه وتأكيدِ النفي؛ فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحقِّ مُعْرِضون عن الداعي مولُّون على أدبارهم، ولا ريبَ في أنَّ الأصمَّ لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه، ومثله في التتميم قولُ امرئ القيس:

حملتُ رُدينيًّا كأنَّ سِنانَه سَنَا لَهبٍ لم يتَّصِلْ بدخانِ[1]

وقرأ ابن كثير: «لا يَسمَع الصمُّ الدعاء» بالياء التحتانية وفتح الميم ورفع «الصُّمّ»[2].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: وما أنت بصارفِ العمي عن ضلالتهم، هادياً لهم هدايةً مُوْصِلةً إلى المطلوب، لفَقْدِ الشرط العاديِّ للاهتداء وهو البصر. و«عن» متعلِّقةٌ بالهداية باعتبار تضمُّنها معنى الصرف كما أشرنا إليه. وجوَّز أبو البقاء أن تُعلَّق بـ «العُمْي»، ويكون المعنى أنَّ العَمَى صَدَرَ عن ضلالتهم[3]، وفيه بعدٌ. وإيرادُ الجملة الاسمية للمبالغة في نفي الهداية.

وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوة: «بهادٍ» بالتنوين «العُمْيَ» بالنصب[4].

وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثَّاب وابن يعمر وحمزة: «تهدي» مضارع هدى «العُمْيَ» بالنصب[5].

---

(١) البيت لامرئ القيس في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٥٣، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٢٠٠، ومعاهد التنصيص للعباسي ٢/ ٩٢، وهو في ملحق الديوان ص٤٧٧. ونسبه المفضل في المفضليات ص٢٥٩، والآمدي في المؤتلف والمختلف ص١١٤ لعَمِيرة بن جُعَل، وفيهما: جمعت ردينيًّا. . .

(٢) التيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٩.

(٣) الإملاء ٣/ ١٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ٩٦، والكلام منه.

(٥) التيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٩ عن حمزة، والكلام من البحر ٧/ ٩٦.

وقرأ ابن مسعود: «وما إنْ تهتدي» بزيادة «إنْ» بعد «ما»، كما في قول امرئ القيس:

حلفتُ لها بالله حلفةَ فاجرٍ لناموا فما إنْ من حديثٍ ولا صالِ[١]

و«تهتدي» مضارع اهتدى، و«العميُ» بالرفع[٢].

﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أي: ما تُسْمِعُ إسماعاً يُجدي السامعَ نفعاً ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: مَن شأنُهم الإيمانُ بها، وهم الذين ليسوا مَوْتَى ولا صمًّا ولا عمياً.

وقال بعض الأجلَّة: أي: إلا مَن هو في علم الله تعالى كذلك.

واعتُرض بأنَّ صيغة الاستقبال وإن صحَّت باعتبار تعلُّق العلم فيما لا يزال إلَّا أنَّ المناسب صيغةُ المضيِّ. واختار المعترِضُ أنَّ المعنى: إلا الذين يصدِّقون أنَّ القرآن كلام الله تعالى؛ إذ حينئذٍ تَثْبُتُ نبوَّتُه ﷺ، فيُقْبَلُ قولُه ويُجدي إسماعُه نفعاً.

وتعقِّب بأنه ينتقض الحصرُ بالمصدِّقين في الاستقبال إن كانت الصيغة للحال، وبالمصدِّقين في الحال إن كانت للاستقبال، وإذا دفع لزومُ الانتقاض بجعلها لهما لزم استعمالُ المشترك في معنييه معاً، أو الجمعُ بين الحقيقة والمجاز.

وأجيب بأنَّ المراد الحال، ويدخل غيرُه فيه بدلالة النصِّ من غير تكلُّفٍ[٣].

وقال بعض المحققين: قد يراد بالمضارع الاستقبالُ الشاملُ لجميع الأزمنة، فإنَّ الاستقبال كما يكون بالنظر لزمان الحكم والتكلُّمِ على ما حقِّق في الأصول يجوز أن يكون بالنظر إلى عِلْمِ القائل أيضاً، فيشمل «مَن يؤمن» هنا مَن آمن حالاً، كما يشمل مَن يؤمن استقبالاً، فلا غبار في المعنى الذي اختاره ذلك المعترِضُ من هذه الحيثية.

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٣٢، والخزانة ١٠/ ٧١. وقال البغدادي: «إن» زائدة مؤكِّدة للنفي، وكذلك «من».

(٢) البحر ٧/ ٩٦، وهي في القراءات الشاذة ص١١٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٢٠-٢٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠، والكشاف ٣/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٠٧ بلفظ: «وما إن تهدي العميَ».

(٣) في (م): تكليف.

نعم قيل: إنَّ فيه شِبْهَ تحصيلِ الحاصل؛ لأنَّ التصديق بالقرآن هو استماعُه النافعُ، ولعلَ مَن عَدَلَ عنه إنما عَدَلَ لذلك، ولم يعبأ بالمغايرة بين ذينك الأمرين الظاهرةِ بعد النظر الصحيح.

والحقُّ أنَّ ما ذُكر من شِبْهِ تحصيل الحاصل على طرف الثمام؛ لظهورِ الفرق بين الإسماع المراد في الآية والتصديقِ بأنَّ القرآن كلامُ الله تعالى كما لا يخفى.

وجوِّز أن يراد بالآيات المعجزاتُ التي أظهرها الله تعالى على يده عليه الصلاة والسلام، الشاملةُ للآيات التنزيلية والتكوينية، وأن يراد بها الآياتُ التكوينية فقط، والإيمانُ بها التصديقُ بكونها آياتِ الله تعالى وليست من السحر، وإذا أريد بالإسماع النافع على هذا إسماعُ الآيات التنزيلية ليؤتَى بما تضمَّنته من الاعتقادات والأعمال، كان الكلام أبعدَ وأبعدَ من أن يكون فيه شِبْهُ تحصيل الحاصل، إلا أنَّ ذلك لا يخلو عن شيءٍ.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ إيرادَ الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قُربها، بأن يقال: إنْ تهدي إلا مَن يؤمن.. إلخ، لِمَا أنَّ طريق الهداية هو إسماعُ الآيات التنزيلية[1]، فافهم.

وقوله تعالى: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ قيل: تعليلٌ لإيمانهم بها، كأنه قيل: فإنهم منقادون للحقِّ في كلِّ وقت. وقيل: مخلصون لله تعالى، من قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. وقيل: هو تعليلٌ لِمَا يدلُّ عليه الكلام من أنهم يسمعون إسماعاً نافعاً لهم. وفي توحيد الضمير تارةً وجَمْعِه أخرى رعايةٌ لِلَفْظِ «مَن» ومعناها.

واستدلَّ بقوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) على أنَّ الميت لا يسمعُ كلامَ الناس مطلقاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في ذلك في سورة «الروم»[2] على أتمِّ وجهٍ.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٠.
(٢) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بيانٌ لِمَا أشير إليه بقوله تعالى: (بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها، والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه قيامُها وحصولُها، عبَّر عن ذلك به للإيذان بشدَّة وَقْعِها وتأثيرها، وإسنادُه إلى القول لِمَا أنَّ المراد بيانُ وقوعها من حيث إنها مصداقٌ للقول الناطق بمجيئها، وقد أريد بالوقوع دنوُّه واقترابُه كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] ففيه مجازُ المشارَفة، أي: إذا دنا وقوعُ مدلولِ القول المذكورِ الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقه ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك على ما أخرج ابن مردويه[1] من حديث أبي سعيد الخدريِّ مرفوعاً، وهو وجماعةٌ عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً[2]، حين يُتْرَكُ الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: أَكْثِروا الطَّوَافَ بالبيت من قبل أن يُرفَع ويَنْسَى الناس مكانه، وأَكْثِروا تلاوةَ القرآن من قبل أن يُرفع. قيل: وكيف يُرفع ما في صدور الرجال؟ قال: يُسْرَى عليهم ليلاً فيصبحون منه فقراء، وينسون قولَ: لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارِهم، فذلك حين يقع القول عليهم[3]. وهذا ظاهرٌ في أنَّ خروج الدابة حين لا يبقى في الأرض خيرٌ، ويقتضي ذلك أن يكون بعد موت عيسى والمهديِّ وأتباعهما عليهم السلام، وسيأتي إن شاء الله تعالى من الأخبار ما هو ناطقٌ بأنها تخرج وعيسى يطوفُ بالبيت ومعه المسلمون.

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١١٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٥، والطبري ١٨/ ١٢٠، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢١، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١١٥.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٢، وأخرجه أيضاً الدارمي (٣٣٤١)، كلاهما من طريق موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم، عن ناجية بن عبد الله بن عتبة، عن أبيه، عن عبد الله. وهذا إسناد ضعيف لضعف موسى بن عبيدة. وأخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٠)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤، وسعيد بن منصور (٩٧- تفسير)، والحاكم ٤/ ٥٠٤ من طريق عبد العزيز بن رفيع، عن شداد بن معقل، عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه دون قوله: فذلك حين...، وفيه بدلاً منه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية [الإسراء:٨٦].

وأخرج نعيم بن حماد عن وهب بن منبِّهٍ قال: أولُ الآيات الروم، والثانية الدجَّال، والثالثة يأجوج ومأجوج، والرابعة عيسى، والخامسة الدخان، والسادسة الدابة[١]. وصوَّب السفارينيُّ أنها قبل الدخان.

والحقُّ أنها تخرج وفي الناس مؤمنٌ وكافر، فالظاهرُ أنَّ الخبر المذكور عن ابن مسعود غيرُ صحيح، ويدلُّ على ما ذكرنا من الحقِّ ما أخرج أحمد والطيالسيُّ ونعيم بنُ حمادٍ وعبد بنُ حُميدٍ والترمذيُّ وحسَّنه وابنُ ماجه وابن جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرجُ دابَّةُ الأرض ومعها عصا موسى وخاتمُ سليمان عليهما السلام، فتجلو[٢] وجه المؤمن بالخاتم، وتَخْطِمُ أنفَ الكافر بالعصا، حتى يجتمع الناس على الخِوَانِ يُعْرَفُ المؤمنُ من الكافر»[٣].

وقد اختلفت الروايات فيها اختلافاً كثيراً؛ فحكى أبو حيان في «البحر»، والدميري في «حياة الحيوان» رواية أنه يخرجُ في كلِّ بلدٍ دابةٌ مما هو مبثوثٌ[٤] نوعُها في الأرض، فليست دابةً واحدةً[٥]. وعليه يراد بـ «دابة» الجنسُ الصادقُ بالمتعدِّد.

وأكثر الروايات أنها دابةٌ واحدة، وهو الصحيحُ.

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (١٨٥٣).

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): قال الطيبي: أهل الحديث يروونه بالحاء المهملة وفتح اللام والهمز، من حلأتُ الأديم: إذا قشرته، وفي «الكشاف» وكذا في «المطلع»: بالجيم، من جلوتُ السيف: إذا صقلته. اهـ منه.

(٣) مسند أحمد (٧٩٣٧)، ومسند الطيالسي (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه (٤٠٦٦)، وسنن الترمذي (٣١٨٧)، والفتن لنعيم بن حماد (١٨٦١)، وتفسير الطبري ١٨/ ١٢٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٣، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي السيوطي في الدر ٥/ ١١٦ وعنه نقل المصنف. قال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. ورواية أحمد وابن ماجه: فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتخطم أنف الكافر بالخاتم، وكذا في رواية الترمذي والطبري. إلا أن فيهما: تختم، بدل: تخطم. قال السندي في شرح سنن ابن ماجه ٢/ ٥٠٤: تخطم كتضرب لفظاً ومعنًى، وقال السيوطي: أي: تسمه.

(٤) في الأصل: مثبوت.

(٥) البحر ٧/ ٩٦، وحياة الحيوان ١/ ٣٢٣.

وفي التعبير[١] عنها باسم الجنس، وتأكيدِ إبهامه بالتنوين الدالِّ على التفخيم، من الدلالة على غرابة شأنها وخروجِ أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى.

وعلى كونها واحدةً اختُلف فيها أيضاً؛ فقيل: هي من الإنس، واستُؤنس له بما رَوَى محمد بن كعب القرظيُّ قال: سئل عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه عن الدابَّة فقال: أمَا واللهِ إنها ليست بدابةٍ لها ذَنَبٌ، ولكن لها لحية[٢].

وفي «الميزان» للذهبي عن جابر الجعفي ـ وهو كذَّاب؛ قال أبو حنيفة: ما لقيتُ أكذَب منه ـ أنه كان يقول: هي من الإنس، وأنها عليٌّ نفسُه كرم الله تعالى وجهه[٣]. وعلى ذلك جمعٌ من إخوانه الشيعة، ولهم في ذلك رواياتٌ:

منها ما رواه علي بن إبراهيم في «تفسيره» عن أبي عبد الله ﷺ قال: قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان، آية في كتاب الله تعالى أفسدتْ قلبي. قال عمار: وأيَّة آيةٍ هي؟ فقال: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةَ، فأيَّة دابةٍ هذه؟ قال عمار: والله ما أجلسُ ولا آكلُ ولا أشربُ حتى أُريكَها. فجاء عمارٌ مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وهو يأكلُ تمراً وزبداً، فقال: يا أبا اليقظان، هلمَّ. فجلس عمار يأكل معه، فتعجَّب الرجل منه، فلما قام عمار قال الرجل: سبحان الله! حلفتَ أنك لا تجلسُ ولا تأكل ولا تشربُ حتى تُرينيها. قال عمار: قد أريتُكَها إن كنتَ تعقل[٤].

وروى العياشيُّ هذه القصة بعينها عن أبي ذرٍّ أيضاً[٥].

وكلُّ ما يروونه في ذلك كذبٌ صريح، وفيه القولُ بالرجعة التي لا ينتهضُ لهم عليها دليل[٦]. وفي بعض الآثار ما يعارِضُ ما ذكر، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن

---

(١) في الأصل و(م): فالتعبير، بدل: وفي التعبير، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠١، والكلام منه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٤.

(٣) الميزان ١/ ٣٨٠ و٣٨٤.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ٢٥٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) أخرج ابن سعد ٣/ ٣٩ عن الحسن بن عليٍّ أنه قيل له: إن ناساً من شيعة أبي الحسن عليٍّ =

النزَّال بن سَبْرَة قال: قيل لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: إنَّ ناساً يزعمون أنك دابةُ الأرض؟ فقال: والله إنَّ لدابة الأرض لَرِيشاً وزغباً، ومالي ريشٌ ولا زغبٌ، وإنَّ لها لحافراً ومالي من حافرٍ، وإنها لتخرج من حفز الفرس الجواد ثلاثاً، وما خرج ثلثُها[١].

والمشهور ـ وهو الحقُّ ـ أنها دابةٌ ليست من نوع الإنسان، فقيل: هي الثعبان الذي كان في جوف الكعبة واختطفته العقاب حين أرادت قريشٌ بناء البيت الحرام فمنعهم، وأن العقاب التي اختطفته ألقته بالحَجُون فالتقمته الأرض. وذكر ذلك الدميريُّ عن ابن عباس[٢].

والأكثرون على أنها غيرُها؛ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الزبير[٣] أنه وصف الدابة فقال: رأسُها رأسُ ثورٍ، وعينُها عينُ خنزير، وأذنُها أذنُ فيلٍ، وقرنُها قرنُ أُيَّل، وعنُقها عنقُ نعامةٍ، وصدرُها صدرُ أسدٍ، ولونُها لونُ نمر، وخاصرتُها خاصرةُ هرةٍ، وذَنَبها ذنبُ كبش، وقوائمها قوائم بعيرٍ، بين كلِّ مفصلين اثنا عشر ذراعاً. زاد ابن جرير[٤]: بذراع آدم عليه السلام. ونقل السفارينيُّ عن كعب أنه قال: صوتُها صوتُ حمار. وأخرج ابن المنذر[٥] عن ابن عباس أنه قال: الدابةُ مؤلَّفةٌ ذاتُ زغبٍ وريشٍ، فيها من ألوان الدوابِّ كلِّها، وفيها من كلِّ أمَّةٍ سِيما، وسيماها من هذه الأمة أنها تتكلَّم بلسانٍ عربيٍّ مُبين.

= يزعمون أنه دابة الأرض، وأنه سيبعث قبل يوم القيامة. فقال: كذبوا، ليس أولئك شيعته، أولئك أعداؤه، لو علمنا ذلك ما قسمنا ميراثه، ولا أنكحنا نساءه.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٥، والدر المنثور ٥/ ١١٧، وفيهما: وإنها لتخرج من حفر الفرس الجواد ثلاثاً وما خرج ثلثاها.

(٢) حياة الحيوان ١/ ٣٢٣.

(٣) في الأصل و(م): ابن الزبير، والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٤، والدر المنثور ٥/ ١١٧، وعنه نقل المصنف، ومثله في تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٥، وزاد المسير ٦/ ١٩٠. وينظر تهذيب الكمال ١٨/ ٣٤٣.

(٤) كذا في الأصل و(م)، ولم نقف عليه عند الطبري، ولعل الصواب: الزمخشري، وهذه الزيادة في الكشاف ٣/ ١٦٠.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١١٧.

وعن أبي هريرةَ أنه قال: فيها من كلِّ لونٍ، وما بين قرنيها فرسخٌ للراكب[١].

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّ لها عنقاً مشرفاً يراها مَن بالمشرق كما يراها مَن بالمغرب، ولها وجهٌ كوجه الإنسان ومنقارٌ كمنقار الطير، ذاتُ وَبَرٍ وزغبٍ.

وعن وهبٍ: وجهُها وجهُ رجلٍ، وسائرُ خَلْقِها كخَلْقِ الطير. وصرّح في بعض الروايات بأنَّ لها جناحين. وذكر بعضُهم أن طولها ستُّون ذراعاً.

واختُلف في محلِّ خروجها؛ فقيل: المسجد الحرام، لِمَا أخرج ابن جريرٍ عن حذيفة بن اليمان قال: ذَكَر رسول الله ﷺ الدابَّة، فقال حذيفة: يا رسول الله، من أين تخرجُ؟ قال: «من أعظم المساجد حرمةً على الله تعالى، بينما عيسى عليه السلام يطوفُ بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضطربُ الأرض من تحتهم، تُحرِّكُ القنديل، وينشقُّ الصَّفا مما يلي المسجد، فتخرج الدابَّةُ من الصفا، أول ما يبدو رأسها ملمَّعةً ذاتَ وبرٍ وريش، لن يدركها طالبٌ ولن يفوتَها هاربٌ، تَسِمُ الناس مؤمنٌ وكافرٌ، أمَّا المؤمنُ فيُرى وجهُه كأنه كوكبٌ درِّيٌّ، وتكتب بين عينيه: مؤمن، وأما الكافرُ فتنكُتُ بين عينيه نكتةً سوداء وتكتب: كافر»[٢]. وأخرج ابن أبي شيبة والخطيب في «تالي التخليص» عن ابن عمر قال: تخرجُ الدابَّةُ من جبل جياد في أيام التشريق والناسُ بمنى[٣].

وأخرج ابن مردويه والبيهقيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابةُ الأرض من جياد، فيبلغ صَدْرُها الركنَ ولم يخرج ذَنَبُها بعدُ، وهي دابةٌ ذاتُ وبرٍ وقوائم»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٥.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٤-١٢٥. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: إسناده لا يصح. اهـ. قلنا: في إسناده روَّاد بن الجراح عن سفيان بن سعيد الثوري، قال الحافظ في التقريب: روَّاد بن الجراح صدوق اختلط بأخرة فترك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٦٧ و١٨١، وتالي تلخيص المتشابه ٢/ ٣٨٥.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١١٧، وأخرجه أيضاً الذهبي في الميزان ٣/ ٨٤-٨٥، وهو من طريق عقبة بن أبي الحسناء عن أبي هريرة، قال الذهبي: عقبة بن أبي الحسناء عن أبي هريرة مجهول.

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه»، وابن ماجه وابن مردويه عن بريدة ﷺ قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضعٍ بالبادية قريبٍ من مكة، فإذا أرضٌ يابسةٌ حولها رملٌ، فقال رسول الله ﷺ: «تخرجُ الدابةُ من هذا الموضع» فإذا شبرٌ في شبرٍ(١).

وجاء في بعض الروايات أنها تخرج من أقصى البادية، وفي بعضٍ من مدينة قوم لوط، وفي بعضٍ أنَّ لها ثلاثَ خرجاتٍ في الدهر: تخرجُ في أول خرجةٍ في أقصى اليمن منتشراً ذكرُها بالبادية، ولا يدخل ذكرُها القريةَ ـ يعني مكة ـ ثم تخرج خرجةً أخرى فيعلو ذكرها في البادية ويدخل القرية، ثم بينما الناس في أعظم المساجد حرمةً لم يَرُعْهم إلا وهي في ناحية المسجد من الركن الأسود وباب بني مخزوم، فيرفضُّ الناس عنها شتَّى، وتَثْبتُ عصابةٌ من المسلمين عرفوا أنهم لن يُعْجِزوا الله تعالى، فتنفُضُ عن رأسها الترابَ فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية(٢).

واختلف أيضاً في أنها هل تُخلَقُ يوم تخرج أو هي مخلوقةٌ الآن؟ فقيل: إنها تُخلَقُ يوم تُخْرُج.

وقيل: إنها مخلوقة الآن، لكن لم تؤمر بالخروج؛ واستدلَّ بما روي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو مُحْرِمٌ؛ وقال: إنَّ الدابة لتسمعُ قَرْعَ عصايَ هذه. وعليه مَن يقول: إنها الثعبان، ومَن يقول: إنها الجسَّاسة التي تتجسَّسُ الأخبارَ للدجال، كما هو المرويُّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وزعم بعضُهم أنها مخلوقةٌ في عهد الأنبياء المتقدِّمين عليهم السلام، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن: أنَّ موسى

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١١٧، والتاريخ الكبير ٣/ ١٦١، وسنن ابن ماجه (٤٠٦٧)، وفيه: فتر في شبر، وكذا أخرجه أحمد (٢٣٠٢٣)، وابن الجوزي في العلل (١٥٢٥). وهو من طريق خالد بن عبيد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه. قال ابن الجوزي: قال أبو حاتم بن حبان: خالد بن عبيد يروي عن أنس نسخة موضوعة، لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الطيالسي (١٠٦٩) عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً بإسنادين، الأول فيه راوٍ مبهم، والثاني فيه طلحة بن عمرو، وهو متروك كما في الميزان ٢/ ٣٤٠-٣٤٢. وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٨٤، والطبري ١٨/ ١٢٢-١٢٣، والحاكم ٤/ ٤٨٤ وصححه عن حذيفة ﷺ موقوفاً.

عليه السلام سأل ربَّه سبحانه أن يُرِيَه الدابةَ، فخرجت ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ تذهبُ في السماء لا يُرى واحدٌ من طرفيها، فرأى عليه السلام منظراً فَظيعاً فقال: يا ربِّ رُدَّها. فردَّها[1].

وجاء في حديثٍ أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»، والحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود: أنها إذا خرجتْ تقتلُ إبليس عليه اللعنةُ وهو ساجدٌ، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها[2]، وتحقُّق هلاكه عنده. والأخبارُ في هذه الدابة كثيرة.

وفي «البحر» أنهم اختلفوا في ماهيتها، وشكلها، ومحلِّ خروجها، وعددِ خروجها، ومقدارِ ما يخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً، فاطَّرَحْنا ذكره لأنَّ نقله تسويدٌ للورق بما لا يصحُّ وتضييعٌ لزمان نقله[3]. اهـ.

وهو كلامٌ حقٌّ وأنا إنما نقلتُ بعضَ ذلك دفعاً لشهوةِ مَن يحبُّ الاطِّلاع على شيءٍ من أخبارها صدقاً كان أو كذباً، وقد تصدَّى السفاريني في كتابه «البحور الزاخرة» للجَمْعِ بين بعض هذه الأخبارِ المتعارِضة، ولا أظنُّه أتى بشيءٍ.

ثم إنَّ الأخبار المذكورة أقربُها للقبول الخبر الذي حسَّنه الترمذيُّ، ومن الأخبار في هذا الباب ما صحَّحه الحاكم، وتصحيحُه محكومٌ عليه بين المحدِّثين بعدم الاعتبار. وقُصارى ما أقول في هذه الدابة: إنها دابةٌ عظيمةٌ ذاتُ قوائم، ليست من نوع الإنسان أصلاً، يُخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض.

وفي تقييد إخراجها بقوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نوعُ إشارةٍ ـ على ما قيل ـ إلى أنَّ خلْقَها ليس بطريق التوالُدِ، بل هو بطريقِ التولُّد، نحو خَلْقِ الحشرات.

وقيل: إنه للإشارة إلى تكوُّنها في جوف الأرض، فيكون في إخراجها من الأرض رمزٌ إلى ما يكون في الساعة التي أُخرجت هي بين يديها، من تشقُّق الأرض

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٦٦، والكلام من الدر المنثور ٥/١١٥.

(٢) الفتن (١٨٥٧)، والمستدرك ٤/٥٢١-٥٢٢ مطولاً من طريق ابن لهيعة، عن عبد الوهاب بن حسين، عن محمد بن ثابت البناني، عن أبيه، عن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ. قال الحاكم: عبد الوهاب بن حسين مجهول.

(٣) البحر ٧/٩٦-٩٧.

وخروجِ الناس من جوفها أحياءً كاملةً خلقتُهم. وفي هذا وما قبله ذهابٌ إلى تعلُّق «من الأرض» بـ «أخرجنا»، وهو الظاهرُ الذي ينبغي أن يعوَّل عليه، دون كونه متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «دابة»، أي: دابةً كائنةً من الأرض.

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ أي: تكلِّمهم بأنهم كانوا لا يتيقَّنون بآيات الله تعالى الناطقةِ بمجيء الساعة ومباديها، أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات.

وقيل: بآياته التي من جملتها خروجها بين يدي الساعة، وليس بذاك.

وإضافةُ الآيات إلى نون العظمة لأنها حكايةٌ منه تعالى لمعنى قولها لا لِعَيْنِ عبارتها. وقيل: لأنها حكايةٌ منها لقول الله عزَّ وجلَّ. وقيل: لاختصاصها به تعالى وأَثَرتِها عنده سبحانه، كما يقول بعض خواصِّ الملك: خيلُنا وبلادنا، وإنما الخيل والبلاد لمولاه. وقيل: هناك مضافٌ محذوف، أي: بآيات ربِّنا.

والظاهر أنَّ ضمير الجمع في «تكلمهم» للكفرة المنكِرينَ للبعث مطلقاً، لا للكفرة المحدَّثِ عنهم فيما سبق بخصوصهم، ضرورةَ أنهم ليسوا موجودين عند إخراج الدابة لتكلِّمهم، وتكليمُها إياهم وهم موتى بعيدٌ أو غيرُ معقول، والرجعةُ التي يعتقدها الشيعة لا نعتقدها، والآيةُ الآتية لا تدلُّ ـ كما يزعمون ـ عليها. ويسهِّل أمرَ ذلك أنه ليس مدار الحديث عنهم سوى ما هم عليه من الشرك والكفر بالآيات وإنكارِ البعث، وذلك موجودٌ فيهم وفي الكفرة الموجودين عند إخراج الدابة. ومثلُه ضميرا «عليهم» و«لهم». والمراد بـ «الناس» الكفرةُ الماضون مطلقاً، لا مشركو أهل مكة فقط، والمراد بإخبارها إياهم بذلك التحسُّرُ على ما فاتهم من الإيقان بما قَرُبَ وقوعُه، وظهور بطلان ما اعتقدوه فيه، ومؤاخذتهم على التكذيب به أشدَّ مؤاخذةٍ، وفي ذلك استدعاءٌ لأمثالهم إلى ترك ما هم عليه مما شاركوهم به من التكذيب وإنكارِ البعث. وجوِّز أن يراد بالناس مشركو أهل مكة، وأمرُ الإخبار على حاله.

وقيل: يجوز أن تكون الضمائر للناس لا للكفرة منهم خاصةً، ويرادُ بالناس إمَّا الكفرة المنكرون للبعث، والمراد بالإخبار التنفيرُ عما كانوا عليه من الإنكار ليثبُتَ المؤمنُ ويَرْتَدِع الكافر، وإما مشركو أهلِ مكة والمراد بالإخبار ذلك.

وقيل: المراد به التشنيعُ عليهم بين أحبَّائهم وأعدائهم، وكان بلسان الدابة ليكون أبلغَ؛ لِمَا فيه من ظهور خطئهم عندما لا يظنُّ إدراكه له فضلاً عن النطق به وإذاعتِه على سبيل التشنيع، وكان بين يدي الساعة ليردفه بلا كثيرِ فَصْلٍ ما يشبهه من شهادة الأعضاء عليهم، وهي أبعدُ وقوعاً من[1] تشنيع الدابة، وفي وقوعها بعده ما يشبه الترقِّي من العظيم إلى الأعظم.

وأيّد كون الضمائر للناس على الإطلاق، وأنَّ المراد بالناس المذكورِ في النظم الكريم أهلُ مكة، ما روي عن وهب أنَّ الدابة تُخبر كلَّ مَن تراه أنَّ أهل مكة كانوا بمحمدٍ ﷺ والقرآنِ لا يوقنون.

وقيل: ضميرا «عليهم» و«لهم» لمشركي أهل مكة المحدَّثِ عنهم فيما سبق، ومعنى «لهم»: لذمِّهم أو نحوه، وضمير «تكلِّمهم» للناس الموجودين عند الإخراج، أو للكفرة كذلك، والمراد بالناس المذكورِ في النظم الكريم أولئك المشركون.

وقيل غير ذلك، ولا يخفى عليك بأدنى تأمُّلٍ ما هو الأولى والأظهرُ في الآية من الأقوال.

وأيًّا ما كان فوصفُ الناس بعدم الإيقان بالآيات مع أنهم كانوا جاحدين لها للإيذان بأنه كان من حقِّهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحَّتها، وقد اتَّصفوا بنقيض ذلك.

وكونُ التكليم من الكلام هو الظاهر، ويؤيِّده قراءة أبيٍّ: «تُنبِّؤهم»[2]، وقراءةُ يحيى بن سلام: «تحدِّثهم»[3]. وقيل: هو من الكَلْم بمعنى الجَرْح، والتفعيلُ للتكثير، ويؤيِّده قراءةُ ابن عباس ومجاهدٍ وابنِ جبيرٍ وأبي زرعة والجحدريِّ وأبي حيوة وابن أبي عبلة: «تَكْلِمُهم» بفتح التاء وسكونِ الكاف وتخفيفِ اللام[4]. وقراءةُ بعضهم: «تجرحهم»[5] مكان: «تكلِّمهم».

---

(١) في (م): مع.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٥، والبحر ٧/ ٩٧.
(٣) البحر ٧/ ٩٧، وأخرجها الطبري ١٨/ ١٢٧ عن قتادة.
(٤) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٢١-٢٢٢، والبحر ٧/ ٩٧.
(٥) القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر ٧/ ٩٧.

وكأنه أريد بالجَرْح ما هو مقابل التعديل، ويرجعُ ذلك إلى معنى التشنيع، ورجوعُ الضمائرِ عليه إلى الكفرة المحدَّثِ عنهم فيما سبق مما لا غبار عليه. وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ إلخ بتقدير: بأنَّ الناس، والمعنى: تشنِّع عليهم بهذا الكلام، ويراد بالناس فيه أولئك المشنَّعُ عليهم، وظاهر الآية وقوعُه في كلامها بهذا اللفظ، ولعل فَهْمَ السامعين كونَ المراد به مشركي مكة وقتَ التشنيع بمعونة قرينةٍ تدلُّ على ذلك إذ ذاك، ويحتمل أن يكون الواقع فيه بدله: مشركي مكة أو نحوه، لكن جاء في الحكاية بلفظ «الناس»، والنكتة فيه على ما قيل: الإيماءُ إلى كثرتهم. وقيل: الرمزُ إلى مزيدِ قبح عدم الإيقان منهم. ويُعلم مما ذكر وجهُ العدول عن «أنهم» إلى «أنَّ الناس».

وجوِّز أن يكون بتقدير حرف التعليل، أي: لأنَّ الناس.. إلخ، وهو تعليلٌ من جهته تعالى لجرحها إياهم، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع كالضمائر السابقة إلى مشركي مكة.

وجوِّز أن تقدَّر الباء على أنها سببية[1].

وجوِّز أيضاً أن يكون المراد بالكلم الجرحَ بمعنى الوسم، فقد روي أنها تسمُ جبهةَ الكافر، وفي روايةٍ أخرى: أنها تَخْطِمُ[2] أنفه بعصا موسى عليه السلام التي معها. واختار بعضهم كونَ المراد به ما ذكر لِمَا في حديثٍ أخرجه نعيم بن حماد وابن مردويه عن [ابن] عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «ليس ذلك بحديثٍ ولا كلامٍ، ولكنه سمةٌ تسم مَن أمرها الله تعالى»[3].

وسأل أبو الجوزاء[4] ابنَ عباس رضي الله عنهما هل ما في الآية: تُكلِّمهم، أو: تَكْلِمهم؟

---

(١) أي: تخاطبهم أو تجرحهم بسبب انتفاء إيقانهم بآياتنا. البحر ٧/ ٩٧.

(٢) في (م): تحطم، وينظر ما سلف ص٦١ من هذا الجزء.

(٣) الفتن (١٨٦٩)، وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (٢٣٥٩)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١١٥، وما بين حاصرتين من المصادر. وهو من طريق محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر. وعبد الرحمن بن البيلماني ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، وابنه محمد بن عبد الرحمن ضعيف أيضاً، وقد اتهمه ابن عدي وابن حبان.

(٤) في الأصل و(م) والبحر ٧/ ١٩٧: الحوراء، والمثبت من تفسير القرطبي ١٦/ ١٢٤ وهو الصواب؛ قال أبو أحمد العسكري في تصحيفات المحدثين ٢/ ٦٧٨: باب ما يصحف من

فقال: كلُّ ذلك تفعلُ؛ تكلِّم المؤمنَ، وتَكْلِمُ الكافرَ تَجْرحُه.

والظاهرُ أنَّ الضمائر على تقديرِ أنْ يراد بالكَلْمِ الجرحُ والوسمُ راجعةٌ إلى الكفرة على الإطلاق دون المحدَّثِ عنهم فيما سبق؛ إذ لا معنى لوَسْمِها إياهم، ويتعيَّنُ أن يراد بالناس أولئك الكفرة الذين عادت عليهم الضمائرُ، ولعل المعنى: تَسِمُهم لأنهم كانوا في علمنا بآياتنا لا يوقنون.

وقرأ ابن مسعود: «بأنَّ»(١) وجُعلت مؤيِّدةً لكون التكليم من الكلام، وهو مبنيٌّ على الظاهر، وإلا فالباء تحتمل أن تكونَ للسببية فتلائمُ كونه من الكَلْم بمعنى الجرح.

وقرأ بعض السبعة: «إنَّ» بكسر الهمزة(٢)، وخرِّج على إضمار القول، أو إجراءِ التكليم من الكلام مجراه، أو على أنَّ الكلام استئنافٌ مسوقٌ من جهته سبحانه للتعليل، فتدبَّر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ بيانٌ إجماليٌّ لحال المكذِّبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها، و«يوم» منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ خُوطِبَ به نبيُّنا ﷺ، أي: اذكر يومَ، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ بيانُ سرِّه مراراً.

والمراد بهذا الحشر الحشرُ للتوبيخ والعذابِ بعد الحشر الكليِّ الشامل لكافةِ الخَلْقِ، وهو المذكورُ فيما بعدُ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ إلى آخره [الآية: ٨٧]، ولعل تقديم ما تضمَّن هذا على ما تضمَّن ذلك دون العكس مع أنَّ الترتيب الوقوعيَّ يقتضيه؛ للإيذان بأنَّ كلًّا مما تضمَّنه هذا وذاك من الأحوال طامَّةٌ كبرى، وداهيةٌ دهياءُ، حقيقةٌ بالتذكير على حيالها، ولو روعي الترتيبُ الوقوعيُّ

= أبي الحوراء وأبي الجوزاء: أبو الحوراء ربيعة بن شيبان السعدي روى عن الحسن بن علي، وأبو الجوزاء أوس بن عبد الله الرَّبَعي روى عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو وعائشة. والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٢٦ إلا أن السائل فيه لابن عباس هو أبو داود نفيع الأعمى، وهو متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

(١) القراءات الشاذة ص١١٠، والمحتسب ٢/ ١٤٥، والبحر ٧/ ٩٧.

(٢) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. التيسير ص١٦٩، وقرأ بها من العشرة خلف وأبو جعفر. النشر ٢/ ٣٣٨.

لربما تُوهِّم أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِرَ بذكرها كما مرَّ في سورة «البقرة»[١]، مع أنَّ الأنسب بذكرِ أنَّ الكفرة لا يوقنون بالآيات، المرادِ به أنهم يكذِّبون بها، أن يُذكر بعده ما تضمَّن التوبيخ منه عزَّ وجلَّ والتعذيبَ على ذلك التكذيب.

و«من» الثانيةُ بيانيةٌ جيء بها لبيان «فوجاً»، و«من» الأولى تبعيضية؛ لأنَّ كلَّ أمَّةٍ منقسمةٌ إلى مصدِّقٍ ومكذِّبٍ، أي: ويوم نجمعُ من كلِّ أمةٍ من أمم الأنبياء عليهم السلام أو من أهل كلِّ قرنٍ من القرون جماعةً كثيرةً مكذِّبةً بآياتنا. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة، وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعُدِ أطرافهم ما لا يخفى.

وقيل: «من» الثانية تبعيضية كالأولى، والمراد بالفوج جماعةٌ من الرؤساء المتبوعين للكفرة، وعن ابن عباس: أبو جهل والوليد بنُ المغيرة وشعبة بنُ ربيعة، يساقون بين يدي أهل مكة. وهكذا يُحشر قادةُ سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

وهذه الآيةُ من أشهر ما استَدلَّ بها الإمامية على الرجعة؛ قال الطبرسيُّ في تفسيره «مجمع البيان»[٢]: واستَدَلَّ بهذه الآية على صحة الرجعة مَن ذهب إلى ذلك من الإمامية، بأن قال: إنَّ دخول «من» في الكلام يوجب التبعيض، فدلَّ بذلك على أنه يُحشر قومٌ دون قوم، وليس ذلك صفةُ يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]، وقد تظاهرت الأخبارُ عن أئمة الهدى من آلِ محمدٍ ﷺ في أنَّ الله تعالى سيُعيد عند قيام المهديِّ قوماً ممن تقدَّم موتُهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، ويُعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعضَ ما يستحقُّونه من العقاب بالقتل على أيدي شيعته، أو الذلِّ والخزي بما يشاهدون من علوِّ كلمته، ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّ هذا مقدورٌ لله تعالى غيرُ مستحيلٍ في نفسه، وقد فعل الله تعالى ذلك في الأمم الخالية، ونطق القرآن بذلك في عدَّة مواضع مثل قصة عزير وغيره عليه السلام، وصحَّ عن النبيِّ ﷺ قوله: «سيكون في أمتي كلُّ ما كان في بني إسرائيل حَذْوَ النعل

(١) ١/ ٢٧٠.
(٢) ٢٠/ ٢٥١-٢٥٢.

بالنعل والقذَّةِ بالقذَّة، حتى لو أنَّ أحدهم دخل جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه»[١].

وتأوَّل جماعةٌ من الإمامية ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمرِ والنهي دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، وأوَّلوا الأخبار الواردة في ذلك لمَّا ظنُّوا أنَّ الرجعة تنافي التكليف، وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يُلْجِئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح، والتكليفُ يصحُّ معها كما يصحُّ مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة، كفَلْقِ البحر وقَلْبِ العصا ثعباناً وما أشبه ذلك، ولأن الرجعة لم تَثْبُتْ بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرَّقُ التأويل عليها، وإنَّما المعوَّل عليه في ذلك إجماعُ الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبارُ تعضدُه وتؤيِّدُه. انتهى.

وأقول: أولُ من قال بالرجعة عبد الله بن سبأ، ولكن خصَّها بالنبي ﷺ، وتبعه جابرٌ الجعفيُّ في أول المئة الثانية فقال برجعة الأمير كرم الله تعالى وجهه أيضاً، لكنْ لم يوقِّتها بوقتٍ، ولمَّا أتى القرنُ الثالث قرَّر أهلُه من الإمامية رجعةَ الأئمة كلِّهم وأعدائهم وعيَّنوا لذلك وقتَ ظهور المهديِّ، واستدلُّوا على ذلك بما رَوَوْه عن أئمَّة أهل البيت، والزيديَّةُ كافةً منكِرونَ لهذه الدعوى إنكاراً شديداً، وقد ردُّوها في كتبهم على وجهٍ مستوفًى بروايات عن أئمةِ أهل البيت أيضاً تُعارِض رواياتِ الإمامية.

والآية[٢] المذكورة هنا لا تدلُّ على الرجعة حسبما يزعمون، ولا أظنُّ أنَّ أحداً منهم يزعم دلالتها على ذلك، بل قصارى ما يقول: إنها تدلُّ على رجعة المكذِّبين أو رؤسائهم، فتكون دالَّةً على أصل الرجعة وصحتِها لا على الرجعةِ بالكيفية التي يذكرونها، وفي كلام الطبرسيِّ ما يشير إلى هذا.

وأنت تعلم أنه لا يكاد يصحُّ إرادةُ الرجعة إلى الدنيا من الآية لإفادتها أنَّ الحشر المذكور لتوبيخ المكذِّبين وتقريعهم من جهته عزَّ وجلَّ، بل ظاهرُ ما بعدُ

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (١١٨٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «لتتَّبعنَّ سَنَنَ بني إسرائيل شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع، حتى لو دخل رجل من بني إسرائيل جحر ضبٍّ لتبعتموهم فيه» وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي سعيد، والرواية الصحيحة: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر...» وهي عند أحمد (١١٨٠٠)، والبخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) في (م): والآيات.

يقتضي أنه تعالى بذاته يوبِّخهم ويقرِّعهم على تكذيبهم بآياته سبحانه، والمعروفُ من الآيات لمثل ذلك هو يومُ القيامة، مع أنها تفيدُ أيضاً وقوعَ العذاب عليهم واشتغالَهم به عن الجواب، ولم تُفِدْ موتَهم ورجوعَهم إلى ما هو أشدُّ منه وأبقى وهو عذابُ الآخرة الذي يقتضيه عظمُ جنايتهم، فالظاهرُ استمرارُ حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر، ولا يتسنَّى ذلك إلا إذا كان حشرَ يوم القيامة.

وربما يقال أيضاً: مما يأبى حَمْلَ الحشر المذكور على الرجعة أنَّ فيه راحةً لهم في الجملة حيث يفوتُ به ما كانوا فيه من عذاب البرزخ الذي هو للمكذِّبين كيفما كان أشدُّ من عذاب الدنيا، وفي ذلك إهمالٌ لِمَا يقتضيه عظمُ الجناية.

وأيضاً كيف تصحُّ إرادةُ الرجعة منها، وفي الآيات ما يأبى ذلك، منه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] فإنَّ آخر الآية ظاهرٌ في عدم الرجعة مطلقاً.

وكونُ الإحياء بعد الإماتة والإرجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له عزَّ وجل مما لا ينتطحُ فيه كبشان، إلا أنَّ الكلام في وقوعه، وأهلُ السنَّةِ ومَن وافقهم لا يقولون به ويمنعون إرادته من الآية، ويستندون في ذلك إلى آيات كثيرة.

والأخبارُ التي روتها الإمامية في هذا الباب قد كفتنا الزيديَّةُ مؤنةَ ردِّها، على أنَّ الطبرسيَّ أشار إلى أنها ليست أدلةً، وأنَّ التعويل ليس عليها، وإنما الدليلُ إجماعُ الإمامية، والتعويلُ ليس إلا عليه، وأنت تعلم أنَّ مدار حجِّيَّة الإجماع على المختار عندهم حصولُ الجزم بموافقة المعصوم، ولم يحصل للسنيِّ هذا الجزمُ من إجماعهم هذا، فلا ينتهضُ ذلك حجةً عليه، مع أنَّ له إجماعاً يخالفُه، وهو إجماعُ قومه على عدم الرجعة الكاشف عمَّا عليه سيِّدُ المعصومين ﷺ، وكلُّ ما تقوله الإمامية في هذا الإجماع يقول السنيُّ مثله في إجماعهم.

وما ذكر من قوله ﷺ: «سيكون في أمتي» الحديثَ[1] لا تُعلمُ صحتُه بهذا اللفظ، بل الظاهرُ عدمُ صحته، فإنه كان في بني إسرائيل ما لم يذكر أحدٌ أنه يكون

(١) سلف قريباً.

مثله في هذه الأمة، كنَتْقِ الجبل عليهم حين امتنعوا عن أَخْذِ ما آتاهم الله تعالى من الكتاب، والبقاءِ في التِّيْهِ أربعين سنةً حين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ونزولِ المنِّ والسلوى عليهم فيه، إلى غير ذلك. وبالجملة القولُ بالرجعة حَسْبَما تزعمُ الإمامية مما لا ينتهضُ عليه دليلٌ، وكم من آيةٍ في القرآن الكريم تأباه غيرُ قابلةٍ للتأويل، وكأنَّ ظُلْمةَ بُغْضِهم للصحابة ﷺ حالتْ بينهم وبين أن يحيطوا علماً بتلك الآيات، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الضلالات.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أي: اللهُ عزَّ وجلَّ موبِّخاً لهم على التكذيب، لا سائلاً سبحانه وتعالى سؤال استفسار؛ لاستحالته منه عزَّ وجل، وعدمِ وقوعِ الاستفسار عن الذنب يوم القيامة من غيره تعالى من الملائكة عليهم السلام ـ وإن كان ممكناً ـ على ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] على أحد التفسيرين. والالتفاتُ لتربية المهابة.

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ جملةٌ حاليةٌ مفيدةٌ لزيادة شناعة التكذيب وغايةِ قبحه، ومؤكِّدةٌ للإنكار والتوبيخ، أي: أكذَّبتم بها بادي الرأي غيرَ ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها، وأنَّها حقيقةٌ بالتصديق حتماً، وهذا ـ على ما قيل ـ ظاهرٌ في أنَّ المراد بالآيات فيما تقدَّم الآياتُ التنزيلية، لأنها المنطوِيَةُ على دلائل الصحة وشواهِدِها التي لم يحيطوا بها علماً مع وجوب أن يتأمَّلوا ويتدبَّروا فيها، لا نفسُ الساعة وما فيها.

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّ التكذيب يأبى بظاهره أن يراد بالآيات الآياتُ التكوينيةُ كالمعجزات ونحوِها؛ إذ ليس فيها نسبةٌ يتعلَّق بها ذلك، وإرادةُ الأعمِّ تستدعي اعتبارَ التغليب، وكونُ التكذيب بمعنى نفيِ دلالتها على المراد منها ـ كتصديق النبيِّ ﷺ في المعجزات ونحوه ـ في نحوها من آيات الأنفس والآفاق = خلافُ الظاهر، فالأولى إبقاؤه على الظاهر، وحَمْلُ الآيات على الآيات التنزيلية.

وقيل: هو معطوفٌ على «كذبتم» والهمزةُ لإنكار الجمع والتوبيخِ عليه، كأنه قيل: أجمعتُم بين التكذيب بآياتي وعدمِ التدبُّر فيها.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أم ماذا كنتم تعملون بها، على أنَّ المراد التبكيتُ، وأنهم لم يعملوا إلا التكذيب، وهو أحدُ وجهين ذكرهما الزمخشريُّ[(١)]. وقرَّره في «الكشف» بأنَّ «أم» متصلةٌ، والأصل: أكذَّبتُم بآياتي أم صدَّقتم، والمعادَلةُ بين الفعلين المتعلِّقين بالآيات، لكن جيءَ بالأول مجيء معلومٍ محقَّقٍ، وبالثاني لا على ذلك النهج تنبيهاً على انتفائه، كأنه قيل: أهو ما عُهِدَ من التكذيب أم حَدَثَ حادثٌ؟ ووجهُ الدلالة أنه جعل العديل مردَّداً فيه، فلم يجعل التصديق مثل التكذيب في الاستفهام عن حاله، بل إنما شكَّ في وجود معادل التكذيب، لأن قوله تعالى: (أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) يشملُ التكذيب المذكورَ أولاً وعديلَه الحقيقيَّ، وهذه قرينةٌ أنه لم يُجأْ بالاستفهام جهلاً بالحال، بل إنما أُريد التبكيتُ والإلزام على معنى: قل لي: ويحك إنْ حَدَثَ أمرٌ آخَرُ، بتًّا بالقول بأنه لم يحدثْ ما يضادُّ الأول، وإشعاراً بأنه إذا سئل عن الذي عَمِلَه لم يُجِبْ إلَّا بما قدَّم أولاً. ثم قال: وهذا وجهٌ لائحٌ، وإنما جاز دخول «أم» على «ما» الاستفهامية لهذه النكتة، فإنها خرجت عن حقيقة الاستفهام إلى البتِّ بالحكم، لا بالمعادل بل بالأول.

وثانيهما أنَّ المعنى: أمَا[(٢)] كان لكم عملٌ في الدنيا إلا الكفرَ والتكذيبَ بآيات الله تعالى «أم ماذا كنتم تعملون» من غير ذلك. وقرَّره في «الكشف» أيضاً بأنَّ «أم» على اتِّصالها، ولكنَّ المعادَلة بين التكذيب وكلِّ عملٍ غيرِه تعلَّق بالآيات أوْ لا، والإيرادُ على صيغة الاستفهام للنكتة السابقة، فدلَّ على أنه لم يكن لهم عملٌ إلا التكذيب والكفر كأنهم لم يُخلقوا إلا لذلك، فلأَجْلِه لم يعملوا غيره، وجَعَلَ سائرَ أعمالِهم ـ لاستمرار الكفر بهم ـ نفسَ الكفرِ أو كَلَا عملٍ.

ثم قال: وهذا وجهٌ وجيهٌ بالغٌ، ومنه ظهر أنَّ دخول «أم» على أسماء الاستفهام غيرُ منكَرٍ إذا خَرَجَتْ عن حقيقة الاستفهام، وهو منقاسٌ[(٣)] معنًى وإن كانت مراعاةُ

---

(١) في الكشاف ٣/ ١٦١.

(٢) في الأصل و(م): ما، والمثبت من الكشاف.

(٣) في (م): مقاس.

صورة الاستفهام أيضاً منقاسةً من حيث اللفظ، لكنهم يرجِّحون في نحوه جانبَ المعنى ولا يلتفتون لفت اللفظ. اهـ.

واختار أبو حيان[1] كون «أم» منقطعةً، فتقدَّر بـ «بل» وحدها، وهي للانتقال من توبيخٍ إلى توبيخ، وليس في ذلك شائبةٌ من دخول الاستفهام على الاستفهام، وما تقدَّم أبعدُ مغزًى.

و«ماذا» تحتمِلُ أن تكون بجملتها استفهاماً منصوبَ المحلِّ بخبر «كان» وهو «تعملون»، أو مرفوعةً على الابتداء والجملةُ بعده خبرُه والرابطُ محذوفٌ؛ أي: تعملونه.

وتحتمل أن تكون «ما» فيها استفهاماً، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي»، وهما مبتدأ وخبر، والجملةُ بعدُ صلةُ الموصول، والعائدُ إليه محذوفٌ.

وقرأ أبو حيوة: «أمَاذا» بتخفيف الميم[2]، وفيها دخولُ الاستفهام على الاستفهام، وقد سمعتَ وجهه.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حلَّ بهم العذابُ الذي هو مدلولُ القول الناطق بحلوله، وهو كبُّهم في النار ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبُهم بآيات الله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بحجَّةٍ لانتفائها عنهم بالكلِّية، وابتلائهم بما حلَّ بهم من العذاب الأليم.

وقيل: يُختم على أفواههم فلا يقدرون على النطق بشيءٍ أصلاً.

وفي «البحر»[3]: أنَّ انتفاء نُطْقِهم يكون في موطنٍ من مواطن القيامة، أو من فريقٍ من الناس؛ لأنَّ القرآن الكريم ناطقٌ بأنهم ينطقون في بعض المواطن بأعذارٍ، وما يرجون به النجاةَ من النار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ الرؤيةُ قلبيةٌ لا بصريةٌ؛ لأنَّ نفسَ الليل والنهار وإن كانا من المبصَراتِ لكنَّ جَعْلَهما كما ذكر من قبيل المعقولات، أي:

---

(١) في البحر ٧/ ٩٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧١، والبحر ٧/ ٩٩.

(٣) ٧/ ٩٩.

ألم يعلموا أنَّا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالقرار والنوم، قال بعض الرجّاز:

النـومُ راحـةُ الـقـوى الـحـسـيـة ‏ مـن حـركـاتٍ والـقـوى الـنـفـسـيـة[١]

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: ليبصِروا بما فيه من الإضاءة طرقَ التقلُّب في أمور معاشهم، فبولغ حيث جعل الإبصار الذي هو حالُ الناس حالاً له، ووَصْفاً من أوصافه التي جُعِلَ عليها بحيث لا ينفكُّ عنها، ولم يسلك في الليل هذا المسلك لِمَا أنَّ تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار في الإبصار.

والمشهور أنَّ في الآية صنعةَ الاحتباك، والتقدير: جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه والنهارَ مبصِراً لينتشروا فيه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جَعْلِهما كما وُصفا، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد درجته في الفضل ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فإنه يدلُّ على التوحيد، وتجويزِ الحشر، وبعثِ الرسل عليهم السلام؛ لأنَّ تعاقُبَ النور والظلمة على وجهٍ مخصوص غيرِ متعيِّنٍ بذاته لا يكون إلا بقدرةٍ قاهرةٍ ليست لِمَا أشركه المشركون، وأنَّ مَن قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادةٍ واحدةٍ[٢] قدر على إبدال الموت بالحياة في موادِّ الأبدان، وأنَّ مَن جعل الليل والنهار سببين لمنافعهم ومصالحهم لعله لا يخلُّ بما هو مناطُ جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم وهو بعثة الرسل عليهم السلام.

وفي «إرشاد العقل السليم»: «لآيات» عظيمةً كثيرةً «لقومٍ يؤمنون»، دالَّةً على صحة البعث وصِدْقِ الآيات الناطقة به دلالةً واضحةً، كيف لا وإنَّ مَن تأمَّل في تعاقُب الليل والنهار واختلافهما على وجوهٍ بديعةٍ مبنيَّةٍ على حِكَمٍ رائقةٍ تَحارُ في فهمها العقولُ ولا يحيطُ بها إلَّا علم الله جلَّ وعلا، وشاهَدَ في الآفاق تبدُّل ظلمة الليل المحاكيةِ للموت بضياءِ النهار المضاهي للحياة، وعايَنَ في نفسه

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٩٩.

(٢) في (م): واحد، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٥٩، والكلام منه.

تبدُّل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثلُ الحياة، قضى بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ الله تعالى يبعث مَن في القبور قضاءً متقَناً، وجَزَمَ بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجاً له ودليلاً يستدلُّ به على تحقُّقه، وأنَّ الآيات الناطقةَ به وبكون حال الليل والنهار برهاناً عليه وسائرَ الآياتِ كلّها حقٌّ نازلٌ من عند الله تعالى[١]. اهـ.

ولعل الأولَ أولى، لاسيما إذا ضمَّ إلى الاستدلال على جواز الحشر مشابهةُ النوم واليقظة للموت والحياة، لِمَا في هذا من خفاءِ الدلالة.

وتخصيصُ المؤمنين بالذكر لِمَا أنهم هم المنتفعون بالآيات، ووجهُ رَبْطِ هذه الآية بما قبلها أنها كالدليل على صحة ما تضمَّنته من الحشر.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ إما معطوفٌ على «يوم نحشر» منصوبٌ بناصبه، أو منصوبٌ بمضمَرٍ معطوفٍ على ذلك الناصب. والصورُ ـ على ما في «التذكرة» ـ قرنٌ من نور، وذكر البخاري عن مجاهد أنه كالبوق[٢].

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ يُنْفَخُ فيه»[٣].

والمشهور أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام؛ وذكر القرطبيُّ أنَّ الأمم مُجْمِعةٌ على ذلك، وهو مخلوقٌ اليوم، فقد أخرج الترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كيف أَنْعَمُ وصاحبُ الصور قد الْتقَمَ القرنَ واستمع الإِذْنَ متى يؤمر بالنفخ»؟! فكأنَّ ذلك ثَقُل على أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام لهم: «قولوا: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل»[٤].

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٣.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص١٧٨، وقول مجاهد في صحيح البخاري قبل الحديث (٦٥١٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٤٣٠) و(٣٢٤٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٥٠٧)، وأبو داود (٤٧٤٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) سنن الترمذي (٢٤٣١) و(٤٢٤٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (١١٠٣٩)، وابن حبان (٨٢٣). وينظر شواهده في حاشية المسند.

وروي أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما طَرَفَ[1] صاحب الصور مُذْ وكِّل به مستعدًّا بحذاء العرش مخافةَ أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتدَّ [إليه] طرفُه، كأن عينيه كوكبان درِّيّان»[2].

وجاء عن أبي هريرة من حديث مرفوع: «إنَّ عِظَمَ دارةٍ فيه كعرض السماوات والأرض»[3] وهذا مما يؤمَنُ به وتفوَّضُ كيفيتُه إلى علّام الغيوب.

وقيل: إنَّ الصور بسكون الواو بمعنى الصُّوَر بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة، وعليه أبو عبيدة[4].

والكلام في الوجهين على حقيقته، وقيل: في الكلام استعارةٌ تمثيلية، شبَّه هيئة انبعاث الموتى من القبور إلى المحشر إذا نُودوا بالقيام بهيئة قيام جيشٍ نُفِخَ لهم في المزمار المعروف، وسَيْرِهم إلى محلٍّ عُيِّنَ لهم.

والأولُ قولُ الأكثرين، وعليه المعوَّل؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨] ظاهرٌ في أنَّ الصُّوْر ليس جمعَ صورة وإلَّا لقال سبحانه: فيها، بدل «فيه». وارتكابُ التأويل بجعل الكلام من باب التمثيل ظاهرٌ في إنكار أن يكون هناك صُوْرٌ حقيقةً، وهو خلافُ ما نَطَقَتْ به الأحاديثُ الصِّحاح، وقد قال أبو الهيثم على ما نقل عنه القرطبيُّ في «تفسيره»: مَن أنكر أن يكون الصُّورُ قرناً فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان، وطلب لها تأويلات[5].

---

(١) في الأصل و(م): أطرق، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه الحاكم ٥/٤٥٨-٤٥٩، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢١٨٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٩٣)، وما بين حاصرتين من المصادر. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسن إسناده الحافظ في الفتح ١١/٣٦٨.

(٣) قطعة من حديث طويل جدًّا، أخرجه إسحاق بن راهويه (١٠)، والطبراني في الطوال (٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٨)، ووقع في الأصل و(م): دائرة، والمثبت من المصادر. قال ابن حجر في الفتح ١١/٣٦٨: مداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، وينظر تتمة كلامه ثمة، وكذلك كلام ابن كثير فيه عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام. وسيأتي مزيد كلام عليه ص٨٦ من هذا الجزء.

(٤) مجاز القرآن ١/١٩٦.

(٥) تفسير القرطبي ٨/ ٤٣٠، وذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة (صور)، وأبو الهيثم هو الرازي، اشتهر بكنيته.

وهذا النفخ قيل: المراد به النفخة الثانية، وإليه ذهب صاحب «الغنيان»(١)، واختاره العلَّامة أبو السعود وقال: الذي يستدعيه سياقُ النظم الكريم وسباقُه ذلك، وأنَّ المراد بالفزع في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما يعتري الكلَّ عند البعث والنشور من الرعب والتهيُّبِ الضروريَّيْنِ الجِبلِّيين بمشاهدةِ الأمور الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق.

ثم قال: وقيل: المراد بالنفخ هي النفخة الأولى، وبالفزع هو الذي يستتبع الموت لغاية شدة الهول، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨] فيختصُّ أثرها بمن كان حيًّا عند وقوعها دون مَن مات قبل ذلك من الأمم. وقيل: إنَّ المراد بهذه النفخة نفخةُ الفزع التي تكون قبل نفخة الصَّعق، التي أُريدَتْ بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص:١٥] وشنَّع على كِلَا القولين بما هو مذكورٌ في تفسيره(٢).

وقال العلَّامة الطيبيُّ: الحقُّ أنَّ المراد بقوله تعالى: (يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ) هو النفخةُ الأولى، وقولُه تعالى الآتي: (وَكُلٌّ) إلخ إشارةٌ إلى النفخة الثانية.

واعلم أنهم اختلفوا في عدد النفخات(٣)؛ فقيل: ثلاث: نفخةُ الصَّعقِ المذكورةُ في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ)، ونفخةُ البعث المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، ونفخةُ الفزع المذكورةُ في الآية المذكورة ها هنا، وهو اختيار ابن العربي. وقيل: اثنتان، ونفخةُ الفزع هي نفخةُ الصَّعْقِ؛ لأنَّ الأمرين: الفزعَ بمعنى الخوف والصَّعْقَ بمعنى الموت لازِمانِ لها(٤)، قال القرطبيُّ(٥): والسنَّةُ كحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وهو طويلٌ، منه مع حذفٍ: «ثم يُنْفَخُ في الصور.. فأولُ مَن يسمعُه رجلٌ يَلُوطُ حوضَه، فيُصْعَقُ، ثم

(١) كما في البحر ٧/ ٩٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٣) في الأصل و(م): النفخة، والمثبت من التذكرة ص١٨٤، والكلام منه.
(٤) أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه. التذكرة ص١٨٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢١٧.
(٥) في التذكرة ص١٨٤، والتفسير ١٦/ ٢١٧-٢١٨.

يُصْعقُ الناس.. ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون»[١] ـ تدلُّ على أنَّ النفخ مرتين لا ثلاثة وهو الصحيح، ونفخُ الفزع هو نفخُ الصعق بعينه؛ لاتحاد الاستثناء في آيتيهما.

وتعقِّب في الرسالة المسماة بـ: «شرح العشر في معشر الحشر» المنسوبةِ لابن الكمال، بأنه لا دلالةَ في الحديث على عدم النفخة الثالثة، غايتُه أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكتٌ عنها، ولا يلزمُ من ذلك عدمُها، وكذا لا دلالةَ في اتحاد الاستثناء في الآيتين أن يكون المذكور فيهما نفخةً واحدةً، وهذا ظاهر.

ثم قال: والصحيح عندي ما في القول الأول، من أنَّ نفخة الفزع غيرُ نفخة الصَّعْقِ؛ فإنَّ حديث الصحيحين: «لا تخيِّروني من بين الأنبياء، فإنَّ الناس يَصْعَقون يومَ القيامة، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفِيقُ، فإذا أنا بموسى عليه السلام آخِذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أَفاقَ قبلي أو جُزي بصَعقةِ الطور»[٢] صريحٌ في أنَّ الصعق يومَ القيامة، وأنْ لا موتَ فيه، فهو فزعٌ بلا موت، فمن قال: هي ثلاث نفخات: نفخةُ الفزع، ثم نفخةُ الصَّعْق وهو الموت، ثم نفخة البعث، فقد أصاب في التفرقةِ بين نفخة الفزع ونفخةِ الصّعْق إلَّا أنه لم يُصِبْ في زَعْمِه أنَّ نفخة الفزع قبل نفخة الصعق، كيف وقد دلَّ حديثُ الصحيحين المذكورُ على عموم حكم نفخة الفزع للأنبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفخة الصعق، أي: الموت، قال القاضي عياض[٣]: إنَّ نفخة الفزع بعد النشر حين تنشقُّ السماوات والأرض. فظهر أنَّ النفخات ثلاثٌ بل أربع: نفخةٌ يميتُ الله تعالى جميع الخلق بها كما جاء في الحديث، وعند ذلك ينادي سبحانه: لمن الملك اليوم، وينادي على ذلك قولُه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]. ونفخةُ البعث كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] ونفخةُ الصعق وهي نفخةُ الفزع بعينها، وقد سمعتَ آيتيهما. ونفخةٌ للإفاقة كما قال تعالى

(١) صحيح مسلم (٢٩٤٠).

(٢) صحيح البخاري (٤٦٣٨)، وصحيح مسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، واللفظ للبخاري، ولفظ مسلم: «فلا أدري أكان ممن صَعِقَ فأفاق قبلي أو اكتفى بصعقة الطور».

(٣) في إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/ ٣٥٧.

بعد ذكر نفخة الصعق: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وقد عرفتَ ما في زَعْم أنَّ نفخةَ الصعق هي نفخةُ الفزع بعينها، فتدبَّر. انتهى.

وتعقَّبه بعضُهم بأنه يلزم حينئذٍ على القول بالمغايرة بين نفخةِ الفزع ونفخة الصَّعْقِ أن تكون النفخاتُ خمساً، ولم نسمع متنفِّساً يقول بذلك. وأيضاً فيه القولُ بأنَّ نفخة الصعق بعد نفخة البعث، ويأباه قولُه ﷺ: «أنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرض، فأرفع رأسي فإذا موسى متعلِّقٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فما أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله تعالى»[١] فإنَّ انشقاق الأرض عنه ﷺ بعد نفخة البعث لا محالةَ، فإذا عقبه رفعُ رأسه عليه الصلاة والسلام، ومفاجأةُ كونِ موسى عليه السلام متعلِّقاً بقائمةٍ من قوائم العرش، فأين نفخةُ الصعق؟

ولا يخفى أنَّ كون النفخات خمساً لم يُسمع هو الغالبُ على الظنِّ، ويتوقَّفُ قبولُ ما ذكره ثانياً على صحة ما ذكره من الخبر. ولعل القائل بما تقدَّم من وراء المنع.

وقيل: الأظهر أنَّ النفخات ثلاثٌ: الأولى نفخةُ الصَّعْقِ بمعنى الموت ـ كما هو أحد معنييه ـ المدلولُ عليها بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والثانية نفخةُ البعث المدلولُ عليها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والثالثةُ نفخةُ الفزع المدلولُ عليها بما هنا، وهي على ما سمعتَ عن القاضي عياض بعد النشر حين تنشقُّ السماوات والأرض.

وأصله كما قال الراغب: انقباضٌ ونِفَارٌ يعتري الشخصَ من الشيء المخيف[٢]. والمرادُ به الرعب الشديد، ولعل الصَّعْقَ المذكور في حديث

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الحليمي في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٣١، وعنه القرطبي في التذكرة ص١٦٧، وأخرجه ابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما في فتح الباري ٦/ ٤٤٥ بلفظ: «أنا أول مَن تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأنفض التراب عن رأسي، فآتي قائمة العرش، فأجد موسى قائماً عندها، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله».

(٢) مفردات الراغب (فزع).

الصحيحين هو غشيٌ يترتَّبُ عليه بلا واسطةٍ وعلى النفخ بواسطته، وقد نصَّ في «الأساس» على هذا المعنى له، قال: يقال: صَعِقَ الرجلُ، إذا غُشي عليه من هدَّةٍ أو صوتٍ شديد يسمعه[١]. ويدلُّ على أنه بمعنى الغَشْي قولُه عليه الصلاة والسلام: «فأكونُ أولَ مَن يُفيق»؛ لأنَّ الإفاقة إنما تكون من الغشي دون الموت، ولم يعبّر هنا بالصعق مراداً به الغشيُ المذكور في الحديث لئلَّا يُتَوَهَّم إرادةُ معنى الموت منه لخلوِّه هنا عن القرينة التي في الحديث واقترانه بما يلائم ذلك.

وقد يُختار ما هو المشهورُ من أنَّ النفخة اثنتان، ويجاب عما يُشْعِرُ بالزيادة، فالنفخةُ الأولى نفخةُ الصَّعق بمعنى الموت بحالٍ هائلة، فَبِها يموتُ مَن في السماوات والأرض من الأحياء قبيل ذلك إلَّا مَن شاء الله تعالى، ويدلُّ عليها آيةُ: (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ) إلخ، والنفخةُ الثانية نفخةُ البعث المدلولُ عليها بآية: (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) وبينهما في المشهور أربعون سنة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «أربعون» بدون ذكر التمييز، فقيل: أربعون يوماً؟ فقال أبو هريرة: أبَيْتُ، فقيل: أربعون شهراً؟ فقال: أَبَيْتُ، فقيل: أربعون سنة؟ فقال: أبيتُ[٢]. ونفخةُ الفزع بمعنى الرعب والخوفِ هي هذه النفخةُ بعينها، ووَجْهُ ذلك أنه ينفخ في الصور للبعث فيبعث الخلقُ ويُنشرون، فإذا تحقَّقوا يومَ القيامة وشاهدوا آثار عظمةِ الله تعالى فزعوا ورعبوا إلا مَن شاء الله تعالى، وترتُّب الفزعُ على النفخ بالفاء للإشارة إلى قلَّة الزمان الفاصل لسرعة تحقُّقهم ومشاهدتهم ما ذكر، والإضافة في قولنا: نفخة البعث، وقولنا: نفخةُ الفزع، من إضافة السبب إلى المسبَّب، إلا أنَّ سببية النفخ للبعث بلا واسطةٍ، وسببيتُه للفزع بواسطة، وحديث الصحيحين: «لا تخيِّروني من بين الأنبياء فإنَّ الناس يصعقون يومَ القيامة» إلخ ليس فيه سوى إثبات الصَّعقِ بمعنى الغشي كما يرشدُ إليه ذكرُ الإفاقة للناس يومَ القيامة، ولا تعرُّضَ له لنفخٍ يترتَّبُ عليه ذلك، نعم التعبيرُ بالصَّعق على ما ذكروا في معناه يقتضي أن يكون هناك هدَّةٌ أو صوتٌ شديد يسمعُه مَن يَسْمَعهُ فيُغْشَى عليه، إلا أنه لا يعيِّن النفخَ؛ لجواز أن يكون ذلك من صوتٍ حادثٍ من

(١) أساس البلاغة (صعق).
(٢) صحيح البخاري (٤٨١٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥).

انشقاق السماوات الكائنِ بعد البعث، والفزع من يوم القيامة وما شاهدوا من أهواله.

ومنع بعضُهم اقتضاءه ذلك لجواز أن يراد به الغشيُ لحدوث أمرٍ عظيم من أمور يوم القيامة غير النفخ. وقيل: هو من فروع النفخ للبعث، وذلك أنه ينفخ فتبعث الخلائق، فيتحقَّقون ما يتحقَّقون، ويشاهدون ما يشاهدون، فيفزعون فيُغْشَى عليهم إلا ما شاء الله تعالى، وحديثُ الصحيحين مما لا يأبى ذلك، واحتياجُ الإفاقة لنفخةٍ أخرى في حيِّز المنع.

وقيل في بيان اتِّحاد نفخةِ البعث ونفخةِ الفزع: إنَّ المراد بالفزع الإجابةُ والإسراعُ للقيام لربِّ العالمين، وقد صرَّحت الآياتُ بإسراع الناس عند البعث، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، ولا يخفى بعدُه، واحتياجُ توجيه الاستثناء بعدُ عليه إلى تكلُّفٍ، فالأَوْلَى أن يوجَّه الاتِّحاد بما سبق، فتأمَّل.

وإيرادُ صيغة الماضي مع كون المعطوف [عليه][1] أعني «ينفخ» مضارعاً للدلالة على تحقُّق الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ [هود: ٩٨].

ووَجْهُ تأخيرِ بيان الأحوال الواقعة في ابتداء هذه النفخة عن بيان ما يقع بعدُ من حشر المكذِّبين قد تقدَّم الكلام فيه[2]، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ متصلٌ كما هو الظاهرُ من «مَن»، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ، أي: إلا من شاءَ اللهُ تعالى أنْ لا يَفْزَعَ. والمراد بذلك على ما قيل: مَن جاء بالحسنة؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وتعقِّب بأنَّ الفزع في تلك الآية غيرُ الفزع المراد من قوله سبحانه: (فَفَزِعَ) إلخ، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٣، والكلام منه.
(٢) ص٧٠-٧١ من هذا الجزء.

واختَلف الذين حملوا النفخ هنا على النفخة الأولى التي تكون للصعق ـ أي: الموت ـ في تعيينهم؛ فقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وروي ذلك عن مقاتل والسديِّ. وقال الضحاك: هم الوِلْدانُ، والحورُ العينُ، وخَزَنَةُ الجنة، وحَمَلةُ العرش. وحَكَى بعضُهم هذين القولين في المراد بالمستثنى على تقديرِ أن يراد بالنفخ النفخةُ الثانية، وبالفزع الخوفُ والرعب.

وأَوْرِدَ عليهما أنَّ حملة العرش ليسوا من سكَّان السماوات والأرض لأنَّ السماوات في داخل الكرسيِّ، ونسبتها إليه نسبةُ حلقةٍ في فلاة، ونسبةُ الكرسيِّ إلى العرش كهذه النسبة أيضاً، فكيف يكون حملتُه في السماوات. وكذا الولدانُ والحورُ وخَزَنةُ الجنة؛ لأنَّ هؤلاء كلّهم في الجنة، والجنانُ جميعُها فوق السماوات ودون العرش على ما أفصح عنه قوله ﷺ: «سقفُ الجنة عرشُ الرحمن»[1] فما فيها من الولدان والحور والخزنة لا يصحُّ استثناؤهم ممن في السماوات والأرض، وأمَّا جبرائيل ومَن معه من الملائكة المقرَّبين عليهم السلام فهم من الصافِّين المسبِّحين حول العرش، وإذا كان العرشُ فوق السماوات لا يمكن أن يكون الاصطفافُ حوله في السماوات.

وأجيب بأنه يجوز أن يراد بالسماوات ما يعمُّ العرش والكرسيَّ وغيرَهما من الأجرام العلوية، فإنه الأليقُ بالمقام، وقد شاع استعمالُ «مَن في السماوات والأرض» عند إرادة الإحاطة والشمول.

وقيل: لا مانع من حَمْل السماوات على السماوات السبع، والتزامِ كون الاستثناء على القولين المذكورين منقطعاً، ولا يخفى ما فيه.

وعَدَّ بعضُهم ممن استُثني موسى عليه السلام، وأنت تعلم أنه لا يكاد يصحُّ إلَّا إذا أريد بالفزع الصعقُ يومَ القيامة بعد النفخة الثانية، أمَّا إذا أريدَ به ما يكونُ في الدنيا عند النفخة الأولى فلا، على أنَّ عَدَّه عليه السلام ممن لا يُصْعَقُ يومَ القيامة بعد قوله ﷺ في حديث الصحيحين السابق: «فلا أدري أفاق قبلي أو جُزي بصعقة

(١) الحديث بهذا اللفظ في مسند الفردوس للديلمي ٢/ ٣٣٨ عن أنس، وفي الباب عن أبي هريرة عند أحمد (٨٤١٩)، وفيه: «... فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس الأعلى فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن...».

الطور» يحتاجُ إلى خبرٍ صحيحٍ واردٍ بعد ذلك.

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنهم الشهداء عند ربِّهم يُرْزَقون(١)، وصحَّحه القاضي أبو بكر بن العربي كما قال القرطبيُّ(٢)، وبه ردَّ على مَن زعم أنه لم يَرِدْ في تعيينهم خبرٌ صحيحٌ، وإلى ذلك ذهب ابنُ جبيرٍ، ولفظه: هم الشهداء متقلِّدو السيوف حولَ العرش(٣). وكذا ذهب إليه الحليميُّ(٤) وقال: هو مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم ضعَّف غيره من الأقوال. وقد ذكره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، إلا أنَّ بعضهم ذكره في تفسير «مَن شاء الله» في آية الصعق، وبعضٌ آخَرُ ذكره في تفسيره في آية الفزع، فتدبَّر.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلٌّ واحدٍ من الفازعين المبعوثين عند النفخة ﴿أَتَوْهُ﴾ أي: حضروا الموقفَ بين يدي ربِّ العزَّة جلَّ جلالُه للسؤال والجواب والمناقشة والحساب. وقيل: أي: رجعوا إلى أمره تعالى وانقادوا.

وضميرُ الجمع باعتبار معنى «كل»، وقرأ قتادةُ: «أتاه»(٥) فعلاً ماضياً مسنداً لضمير «كل» على لَفْظِها. وقرأ أكثر السبعة: «آتوه» اسم فاعل(٦).

﴿دَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ أي: أذلَّاء. وقرأ الحسن والأعمش: «دَخِرين» بغير ألف(٧)، وهو على القراءتين نصبٌ على الحال من ضمير «كل».

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة الطويل الذي سلف تخريجه ص٧٩ من هذا الجزء، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) في تفسيره ١٦/ ٢١٩. وقد ضعف هذا الحديث البيهقي وعبد الحق، وقال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨-٣٦٩: مدار إسناده على إسماعيل بن رافع، وقد اضطرب في سنده مع ضعفه... وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في سراجه، وتبعه القرطبي في التذكرة، وقول عبد الحق في تضعيفه أولى، وضعَّفه قبله البيهقي.

(٣) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٤٩.

(٤) في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة القرطبي في التذكرة ص١٦٧.

(٥) القراءات الشاذة ص١١١، والمحتسب ٢/ ١٤٥، والبحر ٧/ ١٠٠.

(٦) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٩، وقرأ «أتوه» من السبعة حمزة وعاصم في رواية حفص، ومن العشرة خلف.

(٧) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٠.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ عطفٌ على «ينفخ» داخلٌ في حكم التذكير، و«ترى» من رؤية العين، وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ثابتةً في أماكنها لا تتحرَّك، حالٌ من فاعل «ترى»، أو من مفعوله، وجوِّز أن يكون بدلاً من سابقه.

وقوله عز وجل: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حالٌ من ضمير «الجبال» في «تحسبها»، وجوِّز أن يكون حالاً من ضميرها في «جامدة»، ومنعه أبو البقاء لاستلزامه أن تكون جامدةً ومارةً في وقت واحد[(١)].

أي: وترى الجبال رأيَ العين ساكنةً والحالُ أنها تمرُّ في الجوِّ مرَّ السحاب التي تسيِّرها الرياح سيراً حثيثاً، وذلك أنَّ الأجرام المجتمعةَ المتكاثرةَ العدد على وجه الالتصاق إذا تحرَّكت نحو سَمْتٍ لا تكاد تَبينُ حركتُها، وعليه قولُ النابغة الجعديِّ في وصفِ جيشٍ:

بأَرْعَنَ مثلِ الطود تحسبُ أنهم ... وقوفٌ لحاجٍ والركابُ تُهَمْلِجُ[(٢)]

وقيل: شبَّه مرَّها بمرِّ السحاب في كونها تسير سيراً وسطاً، كما قال الأعشى:

كأنَّ مشيتها من بيتِ جارتها ... مرُّ السحائب لا ريثٌ ولا عجل[(٣)]

والمشهورُ في وجه الشبه السرعةُ وأن منشأ الحسبان المذكور ما سمعتَ.

وقيل: إنَّ حسبان الرائي إياها جامدةً مع مرورها لهول ذلك اليوم، فليس له ثبوتُ ذهنٍ في الفكر في ذلك حتى يتحقَّق كونَها جامدةً. وليس بذاك.

وقد أدمج في التشبيه المذكور تشبيهَ حالِ الجبال بحال السحاب في تَخَلْخُلِ الأجزاء وانتفاشها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. واختلف في وقت هذا، ففي «إرشاد العقل السليم»[(٤)]: أنه مما يقع

---

(١) الإملاء ٤/ ١٤٢.

(٢) ديوان النابغة الجعدي ص١٨٧، والمعاني الكبير ٢/ ٨٩١، والكشاف ٣/ ١٦٢. قال ابن قتيبة: أرعن جيش كثير مثل رعن الجبل، والرعن أنف يتقدم من الجبل فينسلُّ في الأرض، والطود: الجبل، أي: من كثرتهم تحسب أنهم وقوف وركابهم تسير.

(٣) ديوان الأعشى ص١٤٤.

(٤) ٦/ ٣٠٤.

بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق، يبدِّلُ الله تعالى شأنُه الأرضَ غيرَ الأرضِ، ويغيِّر هيئتها، ويسيِّر الجبال عن مقارِّها على ما ذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها(١) أهلُ المحشر، وهي وإن اندكَّتْ وتصدَّعتْ عند النفخة الأولى لكنَّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨]، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فإن اتِّباع الداعي الذي هو إسرافيل وبروزَ الخلق لله تعالى لا يكونان إلا بعد النفخة الثانية، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧]: إنَّ صيغة الماضي في المعطوفِ مع كون المعطوف عليه مستقبلاً للدلالة على تقدُّم الحشر على التسيير والرؤية، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك. اهـ.

وقال بعضهم: إنه مما يقع عند النفخة الأولى، وذلك أنه ترجُف الأرض والجبال، ثم تنفصل الجبالُ عن الأرض وتسير في الجوِّ، ثم تسقط فتصير كثيباً مهيلاً، ثم هباءً منبثًّا، ويرشدُ إلى أنَّ هذه الصيرورةَ مما لا يترتَّب على الرجفة ولا تعقبها بلا مهلةٍ العطفُ بالواو دون الفاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، والتعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧] لتحقُّق الوقوع كما مرَّ آنفاً، واليوم في قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ) الآية، وقوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ) إلخ، يجوزُ أن يجعل اسماً للحين الواسع الذي يقع فيه ما يكون عند النفخة الأولى من النسف والتبديل وما يكون عند النفخة الثانية من اتِّباع الداعي والبروزِ لله تعالى الواحد القهَّار، وقد حُمل اليوم على ما يسعُ ما يكون عند النفختين في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨] وهذا كما تقولُ: جئتُه عامَ كذا، وإنما مجيئك في وقت من أوقاته.

---

(١) في الإرشاد: ليشاهدها.

وقد ذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ تبديل الأرض كالبروز بعد النفخة الثانية؛ لما في صحيح مسلم عن عائشة: قلتُ: يا رسول الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ فأين يكون الناس؟ قال: «على الصراط»[(١)].

وجاء في غير خبرٍ ما يدلُّ على أنه قبل النفخة الأولى. وجمع صاحب «الإفصاح» بين الأخبار بأنَّ التبديل يقع مرتين: مرةً قبل النفخة الأولى، وأخرى بعد النفخة الثانية[(٢)]. وحكى في «البحر» أنَّ أول الصفات ارتجاجُها، ثم صيرورتُها كالعهن المنفوش، ثم كالهباء بأن تتقطَّع بعد أن كانت كالعهن، ثم نَسْفُها بإرسال الرياح عليها، ثم تطييرُها بالريح في الجو كأنها غبارٌ، ثم كونُها سراباً[(٣)]. وهذا كلُّه على ما يقتضيه كلام السفاريني قبل النفخة الثانية، ومَن تتبَّع الأخبار وجدها ظاهرةً في ذلك، والآيةُ هنا تحتمل كونَ الرؤية المذكورة فيها قبل النفخة الثانية وكونها قبلها، فتأمَّل.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ الظاهرُ أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة السابقة، وهي جملةُ الحال، والعاملُ فيه ما دلَّتْ عليه من كون ذلك من صُنْعِه تعالى، فكأنه قيل: صَنَعَ اللهُ تعالى ذلك صنعاً، وهذا نحوُ: له عليَّ ألفٌ عرفاً، ويسمَّى في اصطلاحهم: المؤكِّد لنفسه، وإلى هذا ذهب الزجَّاج وأبو البقاء[(٤)].

وقال بعض المحققين[(٥)]: مؤكِّدٌ لمضمون ما قبله على أنه عبارةٌ عمَّا ذكر[(٦)] من النفخ في الصور وما ترتَّب عليه جميعاً، قُصد به التنبيهُ على عظم شأن تلك

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وهو عند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٢) ينظر التذكرة ص١٩٢. وصاحب الإفصاح كما ذكر القرطبي هو أبو الحسن شيث بن إبراهيم. وهو المعروف بابن الحاج القِنَاوي القفطي، نحوي لغوي عروضي، من تصانيفه: تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية الراعي، صنفه للملك الناصر صلاح الدين، وحَزُّ الغلاصم في إفحام المُخاصِم، توفي سنة (٥٩٨هـ). معجم الأدباء ١١/ ٢٧٧، وفوات الوفيات ٢/ ١٠٨.

(٣) البحر ٧/ ١٠٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٠، والإملاء ٤/ ١٤٢.

(٥) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ٣٠٥.

(٦) في الأصل: ذكرنا.

الأفاعيل وتهويل أمرها، والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلِّية من غير أن يكون فيه حكمةٌ، بل هي من قَبيل بدائع صُنْع الله تعالى المبنيَّةِ على أساس الحكمة المستَتْبِعة للغايات الجميلة التي لأَجْلها رتِّبت مقدِّماتُ الخلق ومبادي الإبداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يُعْرِبُ عنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أتقن خَلْقَه وسوَّاه على ما تقتضيه الحكمة. اهـ، وحُسْنُه ظاهر.

وقال الزمخشريُّ: هو من المصادر المؤكِّدة، إلا أنَّ مؤكَّدَه محذوفٌ، وهو الناصبُ لـ «يوم ينفخ»، والمعنى: ويوم ينفخ في الصور فكان كيت وكيت أثاب الله تعالى المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال سبحانه: «صُنْعَ الله»، يريد عزَّ وجلَّ به الإثابةَ والمعاقبة[1]، إلى آخر ما قال.

وهو يدلُّ على أنه فَرَضَ اليومَ ممتدًّا شاملاً لزمانِ النفختين وما بعدهما، وجَعَلَ المصدر مؤكِّداً لهذا المحذوف المدلولِ عليه بالتفصيل في قوله تعالى الآتي: (مَن جَآءَ) (وَمَن جَآءَ) وباستدعاء «يوم ينفخ» ناصباً، وفرَّع عليه ما فرَّع.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المصدر المؤكِّد لمضمون الجملة لا يجوز حَذْفُ جملته؛ لأنه منصوبٌ بفعلٍ من لفظه، فيجتمعُ حذفُ الفعل الناصب وحذفُ الجملة التي أكَّد مضمونُها بالمصدر، وذلك حذفٌ كثيرٌ مخلٌّ، ومَن تتبَّع مساق هذه المصادر التي تؤكِّد مضمونَ الجملة وَجَدَ الجمل مصرَّحاً بها لم يَرِدِ الحذفُ في شيءٍ منها؛ إذ الأصل أن لا يحذف المؤكَّد، إذ الحذفُ ينافي التأكيد؛ لأنه من حيث أكِّد معتنًى به، ومن حيث حُذِفَ غيرُ معتنًى به[2].

وكأنَّ الداعي له إلى العدول عن الظاهر على ما قيل أنَّ الصنع المتقَنَ لا يناسبُ تسيير الجبال ظاهراً، وأنت تعلم أنَّ هذا على طرف الثمام، نعم الأحسنُ جَعْلُه مؤكِّداً لمضمون ما ذُكر من النفخ في الصور وما بعده، وجيء به للتنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل على ما سمعتَه عن بعض المحققين.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٦٢.

(٢) البحر ٧/ ١٠١.

وقيل: هو منصوبٌ على الإغراء، بمعنى: انظروا صنعَ الله. وهو كما ترى.

واستُدلَّ بالآية على جواز إطلاق الصانع على الله عزَّ وجلَّ، وهو مبنيٌّ على مذهب مَن يرى أنَّ ورود الفعل كافٍ.

واستدلَّ بعضهم على الجواز المذكور بالخبر الصحيح: «إنَّ الله صانعُ كلِّ صانعٍ وصنعته»[(١)].

وتعقِّب بأنَّ الشرط أن لا يكون الواردُ على جهة المقابلة نحو ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] ـ خلافاً للحليميِّ على ما يقتضيه قولُه: يُستَحَبُّ لمن ألقى بذراً في أرض أن يقول: الله تعالى الزارعُ والمُنْبتُ والمبلِّغُ[(٢)] ـ وما في هذا الحديث من هذا القبيل.

وأيضاً ما في الخبر بالإضافة فلا يدلُّ على جواز الخالي عنها، ألا ترى أنَّ قوله ﷺ: «يا صاحبَ كلِّ نجوى أنت الصاحبُ في السفر»[(٣)] لم يأخذوا منه أنَّ الصاحب من غير قيدٍ من أسمائه تعالى، فكذا هو لا يؤخذُ منه أنَّ الصانع من غير قيدٍ من أسمائه تعالى، فتأمَّله.

ونحوُ هذا الاستدلالُ بخبرِ مسلم: «ليَعْزِمْ في الدعاء فإنَّ الله تعالى صانعٌ ما شاء لا مُكْرِهَ له»[(٤)] فإنَّ ما فيه من قبيل المضاف أو المقيَّد، والأَوْلَى الاستدلالُ بما صحَّ

(١) أخرجه بهذا اللفظ اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٩٤٢)، والذهبي في السير ١٢/ ١٢٧ من حديث حذيفة ﷺ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير كما في فيض القدير ٢/ ٢٣٨ ورمز له بالصحة. وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص٢٥، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات (٥٧٠) بلفظ: «إن الله يصنع...».
وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٥٨)، والبزار (٢١٦٠ ـ كشف)، والحاكم ١/ ٣١ و٣٢، وفيه عند ابن أبي عاصم والبزار: «خلق»، بدل: «يصنع» وعند الحاكم: «خالق». قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٣٣٣.

(٣) ذكره بهذا اللفظ المناوي في فيض القدير ٢/ ٢٣٨، والكلام منه، وأخرجه الحاكم ١/ ٥٤٤-٥٤٥ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مطولاً دون قوله: أنت الصاحب في السفر. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فإن رواته كلهم مدنيون ثقات.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٧٩): (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

في حديث الطبرانيِّ والحاكم: «اتقوا الله تعالى فإنَّ الله تعالى فاتحٌ لكم وصانعٌ»[١] ولا فرق بين المعرَّف والمنكَّر عند الفقهاء؛ لأنَّ تعريف المنكَّر لا يغيِّر معناه، ولذا يجوِّزون في تكبيرة الإحرام: الله أكبر.

واستدلَّ القاضي عبد الجبار[٢] بعموم قوله سبحانه: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ على أنَّ قبائح العبد ليست من خَلْقِه سبحانه، وإلا وَجَبَ وصفُها بأنها متقَنةٌ والإجماع مانعٌ منه.

وأجيب بأنَّ الآية مخصوصةٌ بغير الأعراض؛ لأنَّ الإتقان بمعنى الإحكام، وهو من أوصاف المركَّبات، ولو سُلِّم فوَصْفُ كلِّ الأعراض به ممنوعٌ، فما من عامٍّ إلا وقد خصَّ، ولو سلِّم فالإجماعُ المذكورُ ممنوعٌ بل هي متقنةٌ أيضاً، بمعنى أنَّ الحكمة اقتضتها.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ جَعَلَه بعضُ المحقِّقين تعليلاً لكون ما ذُكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى ببيانِ أنَّ علمه تعالى بظواهر أفعال المكلَّفين وبواطِنِها ممَّا يستدعي إظهارها وبيانَ كيفياتها على ما هي عليه من الحُسْن والسوء، وترتيبَ أَجْزِيتها[٣] عليها بعد بعثهم وحشرهم، وتسييرَ الجبال حَسْبَما نطق به التنزيل.

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ بيانٌ[٤] لِمَا أُشيرَ إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها[٥] عليها. وقال العلَّامة الطيبي: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾[٦] .. إلخ استئنافٌ وقع جواباً لقولِ مَن يسأل: فماذا يكون بعد هذه القوارع؟ فقيل: إنَّ الله خبيرٌ بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم، وفصَّل ذلك بقوله سبحانه: ﴿مَن جَآءَ﴾ إلخ.

---

(١) المعجم الكبير (٣٦٤٨)، والمستدرك ٣/ ٣٨٢-٣٨٣ من حديث خبّاب بن الأرَتّ ﷺ. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٢) كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٢٢٠.
(٣) في (م): أخيريتها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٥، والكلام منه.
(٤) في الأصل و(م): بياناً، والمثبت من تفسير أبي السعود.
(٥) في (م): أخيريتها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٦) في الأصل و(م): إن الله، والصواب ما أثبتناه.

والخطابُ في «تفعلون» لجميع المكلَّفين، وقرأ العَرَبيان وابن كثير: «يفعلون» بياء الغيبة[١].

والمراد بالحسنة على ما روي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن والنخعي وأبي صالح وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله.

ورَوَى عبد بن حميد وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر عن أبي هريرة[٢]، وأبو الشيخ وابنُ مردويه والديلميُّ عن كعب بن عُجْرة[٣]، أنَّ النبيَّ ﷺ فسَّرها بذلك. والمراد بهذه الشهادة التوحيدُ المقبول.

وقيل: المراد بالحسنة ما يتحقَّقُ بما ذُكر وغيره من الحسنات، وهو الظاهرُ نظراً إلى أنَّ اللام حقيقةٌ في الجنس. وقال بعضهم: الظاهرُ الأول؛ لأنَّ الظاهر حَمْلُ المطلَق على الكامل، وأكملُ جنسِ الحسنةِ التوحيدُ، ولو أريد العموم لكان الظاهرُ الإتيان بالنكرة، ويكفي في ترجيح الأول ذهابُ أكثر السلف إليه، وإذا صحَّ الحديثُ فيه لا يكاد يُعْدَلُ عنه. وكان النخعيُّ يحلف على ذلك ولا يستثني.

والظاهرُ أنَّ «خيراً» للتفضيل، وفَضْل الجزاء على الحسنة كائنةً ما كانت، قيل: باعتبارِ الأضعاف أو باعتبار الدوام. وزعم بعضُهم أن الكلام بتقديرِ مضافٍ، أي: خيرٌ من قَدْرِها، وهو كما ترى.

وقال بعض الأجلَّة: ثوابُ المعرفة النظرية والتوحيدِ الحاصل في الدنيا هي المعرفةُ الضروريةُ على أكمل الوجوه في الآخرة، والنظرُ إلى وجهه الكريم جلَّ جلالهُ، وذلك أشرف السعادات.

---

(١) التيسير ص١٦٩، والنشر ٢/ ٣٣٩ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر من رواية هشام، وهي قراءة يعقوب من العشرة، والعربيان هما: أبو عمرو البصري وابن عامر الشامي.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٩-١٤٠، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١١٨، ووقع في الأصل و(م): ابن مردويه، بدل: ابن المنذر، والمثبت من الدر. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه (١٩٢) و(٥٤٢).

(٣) الدر المنثور ٥/ ١١٨، وأخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٠/ ١٠٩-١١٠ من طريق مقاتل بن سليمان، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي إياس، عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ. ومقاتل بن سليمان قال عنه الحافظ في التقريب: كذَّبوه وهَجَروه.

وقيل: إنَّ «خيراً» ليس للتفضيل و«من» لابتداء الغاية، أي: فله خيرٌ من الخيور مبدؤه ومنشؤه منها، أي: من جهة الحسنة، وروي ذلك عن ابن عباسٍ والحسنِ وقتادةَ ومجاهدٍ وابنِ جُريجٍ وعكرمة.

﴿وَهُم﴾ أي: الذين جاؤوا بالحسنة ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ أي: فزعٍ عظيمٍ هائلٍ لا يُقادَرُ قدرُه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ منصوبٌ بقوله تعالى: ﴿ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وبه أيضاً يتعلَّق (مِّن فَزَعٍ)، والأمنُ يستعمل بالجارِّ وبدونه، كما في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]. وجوِّز أن يكون الظرفُ منصوباً بـ «فزع»، وأن يكون منصوباً بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: من فزعٍ كائنٍ في ذلك الوقت.

وقرأ العربيان وابن كثير، وإسماعيل بن جعفر عن نافع: «فزعِ يومِئذٍ» بإضافة «فزع» إلى «يوم»، وكَسْرِ ميم «يوم». وقرأ نافع في غير رواية إسماعيل كذلك إلا أنه فتح الميم[(١)] فَتْحَ بناءٍ لإضافة «يوم» إلى غيرِ متمكِّنٍ.

وتنوين «إذ» للتعويض عن جملة، والأَوْلَى على ما في «البحر» أن تكون الجملةُ المحذوفةُ المعوَّضُ هو عنها ما قَرُبَ من الظرف، أي: يوم إذ جاء بالحسنة. وجوِّز أن يكون التقدير: يوم إذ ينفخ في الصور، لا سيما إذا أريد بذلك النفخِ النفخةُ الثانية[(٢)]. واقتصر عليه شيخُ الإسلام، وفسَّر الفزع بالفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهورِ الحسنات والسيئات، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] وحَكَى عن الحسن أنَّ ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار، وعن ابن جُرَيْجٍ أنه حين يُذْبَح الموتُ ويُنادَى: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت[(٣)]. وهو كذلك في قراءة التنوين وقراءةِ الإضافة، ولا يراد به في القراءة الثانية جميعَ الأفزاع الحاصلة يومئذٍ، ومدارُ الإضافة كونُ ذلك أعظم الأفزاع وأكبرَها كأنَّ ما عداه ليس بفزعٍ بالنسبة إليه.

---

(١) وهو المشهور عنه، وبه قرأ الكوفيون وأبو جعفر، وقرأ الباقون بكسر الميم. وقرأ الكوفيون أيضاً «من فزعٍ» بالتنوين، والباقون بغير تنوين. التيسير ص١٧٠، والنشر ٢/ ٣٤٠.

(٢) البحر ٧/ ١٠٢.

(٣) خبر ذبح الموت بصورة كبش سلف ١٦/ ٨٩.

وقال تبعاً لغيره: إنَّ الفزع المدلولَ عليه بقوله تعالى: «ففزع» إلخ ليس إلا التهيُّبُ والرعبُ الحاصلُ في ابتداء الإحساس بالشيء الهائل، ولا يكاد يخلو منه أحدٌ بحكم الجِبِلَّة وإن كان آمناً من لحاق الضرر به[1].

وقال أبو عليٍّ[2]: يجوز أن يراد بالفزع في القراءتين فزعٌ واحد، وأن يراد به الكثرةُ لأنه مصدر، فإنْ أُريدَ الكثرةُ شمل كلَّ فزعٍ يكون في القيامة، وإن أُريدَ الواحدُ فهو الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾. وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تتمةُ الكلام[3] في الآية.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهو الشركُ، وبه فسَّرها مَن فسَّر الحسنة بشهادة أنْ لا إله إلا الله، وقد علمتَ مَن هم. وقيل: المراد بها ما يعمُّ الشركَ وغيره من السيئات. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: كبُّوا فيها على وجوههم منكوسين، فإسنادُ الكبِّ إلى الوجوه مجازيٌّ لأنه يقال: كبَّه وأكبَّه، إذا نكَّسه. وقيل: يجوز أن يراد بالوجوه الأنفسُ، كما أريدتْ بالأيدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أي: فكُبَّتْ أنفسهم في النار.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ على الالتفات للتشديد، أو على إضمار القول، أي: مقولاً لهم ذلك، فلا التفاتَ فيه لأنه في كلامٍ آخر، ومن شروط الالتفات اتحادُ الكلامين كما حقِّق في المعاني.

واستدل بعض المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصيةٌ كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ بقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ إلخ على أنَّ المؤمن العاصي لا يعذَّبُ يوم القيامة، وإلا لم يكن آمناً من فزعِ مشاهدةِ العذاب يومئذٍ، وهو خلافُ ما دلَّت عليه الآيةُ الكريمة.

وأجيب بمنع دخول المؤمن العاصي في عموم الآية؛ لأنَّ المراد بالحسنة الحسنةُ الكاملة، وهو الإيمان الذي لم تدنِّسْهُ معصيةٌ، وذلك غيرُ متحقِّقٍ فيه، أو

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٥.

(٢) في الحجة ٥/ ٤٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٠٢.

(٣) في (م): للكلام.

لأنَّ المتبادر المجيءُ بالحسنة غيرَ مشوبةٍ بسيئةٍ، وهو أيضاً غيرُ متحقِّقٍ فيه، ومَن تحقَّق فيه فهو آمنٌ من ذلك الفزع، بل لا يبعد أن يكون آمناً من كلِّ فزعٍ من أفزاع يوم القيامة.

وإن سلِّم الدخولُ قلنا: المرادُ بالفزع الآمنِ منه مَن جاء بالحسنة ما يكون حين يُذبَحُ الموت وينادي المنادي: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت، كما سمعتَ عن ابن جريج، أو حين تُطْبِقُ جهنَّمُ على أهلها فيفزعون كما روي عن الكلبي، وليس ذلك إلَّا بعد تكاملِ أهل الجنة دخولاً الجنة، والعذابُ الذي يكون لبعض عصاة المؤمنين إنما هو قبل ذلك، والآيةُ لا تدلُّ على نفيه بوجهٍ من الوجوه.

وأجاب بعضهم بأنه يجوزُ أن يكون المؤمن العاصي آمناً من فزع مشاهدة العذاب وإنْ عُذِّبَ؛ لعلمه بأنه لا يخلد، فيعدُّ عذابه كالمشاقِّ التي يتكلَّفها المحبُّ في طريق وصالِ المحبوب، وهذا في غاية السقوط كما لا يخفى.

واستدلَّ بعضُ المعتزلة بقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ إلخ على عدم الفرق بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن العاصي؛ لأنَّ «مَن جاء بالسيئة» يعمُّها، وقد أُثْبِتَ له الكبُّ على الوجوه في النار، فحيث كان ذلك بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود كان بالنسبة إلى المؤمن العاصي كذلك.

وأجيب بأنَّ المراد بالسيئة الإشراكُ كما روي تفسيرُها به عن أكثر سلف الأمة، فلا يدخل المؤمنُ العاصي فيمَن جاء بالسيئة، ولو سلِّم دخولُه بناءً على القول بعموم السيئة فلا نسلِّم أنَّ في الآية دلالةً على خلوده في النار، وكونُ الكبِّ في النار بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود لا يقتضي أن يكون بالنسبة إليه كذلك، فكثيراً ما يحكم على جماعةٍ بأمرٍ كلِّيٍّ ويكون الثابتُ لبعضهم نوعاً وللبعض الآخَرِ نوعاً آخَرَ منه، وهذا مما لا ريب فيه، ثم إنَّ الآية من باب الوعيد فيجري فيها على تقدير دخول المؤمن العاصي في عموم «مَن» ما قاله الأشاعرة في آيات الوعيد، فافهم وتأمَّل.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ استئنافٌ بتقديرِ «قل» قبله، وهو أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكفرة ذلك بعد ما بيِّن لهم

أحوال المبدأ والمعاد وشَرَحَ أحوالَ القيامة، إثارةً لهممهم بألطف وجهٍ إلى أن يشتغلوا بتدارُكِ أحوالهم وتحصيلِ ما ينفعهم، والتوجُّهِ نحو التدبُّر فيما قَرَعَ أسماعهم من الآيات الباهرة الكافيةِ في إرشادهم والشافيةِ لعللهم.

والبلدة على ما روي عن ابن عباس وقتادةَ وغيرِهما هي مكةُ المعظَّمة. وفي «تاريخ مكة»[١] أنها منًى، قال: حدثنا أبو يحيى بن أبي مَسَرَّة[٢]، عن خلَّاد بن يحيى، عن سفيان أنه قال: البلدة منًى، والعربُ تسمِّيها بلدةً إلى الآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية تفسيرَها بذلك أيضاً[٣].

وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ أكثر المفسِّرين على الأول، وتخصيصُها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلالِ مكانها، والتعرُّض لتحريمه تعالى إياها تشريفٌ لها بعد تشريفٍ، وتعظيمٌ إثرَ تعظيم، مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر وموجب الامتثال به كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣-٤] ومن الرمز إلى غاية شناعةِ ما فعلوا فيها، ألا ترى أنهم مع كونها محرَّمةً من أن تُنْتَهكَ حرمتُها باختلاء خلاها، وعَضْدِ شجرها، وتنفيرِ صيدها، وإرادةِ الإلحاد فيها، قد استمرُّوا فيها على تعاطي أفظع أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد، حيث تركوا عبادةَ ربِّها، ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

ولا تعارُضَ بين ما في الآية من نسبة تحريمها إليه عزَّ وجلَّ وما في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ إبراهيم عليه السلام حرَّم مكة وأنا حرَّمتُ المدينة»[٤] من نسبة تحريمها إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ ما هنا باعتبارِ أنه هو المحرِّم في الحقيقة، وما في الحديث باعتبارِ أنَّ إبراهيم عليه السلام مُظْهِرٌ لحُكْمه عزَّ شأنه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «التي»[٥] صفة للبلدة، وقراءة الجمهور أبلغُ في التعظيم، ففي «الكشف»

(١) للفاكهي (٢٥٥٩).
(٢) في الأصل: يحيى بن أبي ميسرة، وفي (م): يحيى بن ميسرة، والمثبت من تاريخ مكة، وهو الصواب.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٦.
(٤) أخرجه مسلم (١٣٦٢) من حديث جابر ﷺ.
(٥) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٢.

أنَّ إجراء الوصف على الربِّ تعالى شأنُه تعظيمٌ لشأن الوصف ولشأن ما يتعلَّق به الوصف، وزيادةُ اختصاصٍ له بمن أُجريَ عليه الوصف على سبيل الإدماج، وجَعْلُ ذلك كالمسلَّم المبرهَنِ، ولا كذلك لو وصفت البلدة بوصفٍ تخصيصاً أو مدحاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ـ أي: خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً، من غير أن يشاركه سبحانه شيءٌ في شيءٍ من ذلك ـ تحقيقٌ للحقِّ، وتنبيهٌ على أنَّ إفراد مكةَ بالإضافة لِمَا مرَّ من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات.

واستدلَّ به بعض الناس لجواز ما يقوله جَهَلَةُ المتصوِّفة: شيءٌ لله؛ لأنه في معنى: كلُّ شيءٍ لله عزَّ وجلَّ، نحو: تمرةٌ خيرٌ من جرادة(١)، وأنت تعلم أنهم لا يأتون به لإرادة ذلك، بل يقولون: شيء لله يا فلان، لبعض الأكابر من أهل القبور، إمَّا على معنى: أعطني شيئاً لوجه الله تعالى يا فلان، أو: أنت شيءٌ عظيم من آثار قدرة الله تعالى. وقد وجَّهه بذلك مَن لم يكفِّرهم به، وهو الحقُّ وإن كان في ظاهره على أول التوجيهين طلبُ شيءٍ ممن لا قدرةَ له على شيءٍ، نَعَم الأَوْلَى صيانةُ اللسان عن أمثال هذه الكلمات. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أَثْبُتَ على ما كنتُ عليه من كوني من جملة الثابتين على ملَّة الإسلام والتوحيد، أو(٢) الذين أسلموا وجوههم لله تعالى خالصةً، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أُواظبَ على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد؛ لكفايته في الهداية إلى طريق الرشاد.

وقيل: أي: أواظبَ على قراءته لينكشف لي حقائقُه الرائقة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً، فإنَّ المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الإلهية والأسرارِ القدسية، وقد حُكي أنه ﷺ قام ليلةً يصلِّي، فقرأ قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] فما زال يكرِّرها ويَظْهَرُ له من أسرارها ما يَظْهَرُ حتى طلع الفجر(٣).

---

(١) قطعة من خبر لابن عمر كما سيرد عند تفسير الآية (١٤) من سورة التكوير.

(٢) في تفسير أبي السعود ٦/ ٣٠٦ (والكلام منه): أي.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد(٢١٤٩٥)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٧٧، وابن ماجه (١٣٥٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وقيل: «أتلو» مِن تَلَاه: إذا تَبعه، أي: وأنْ أتَّبع القرآن، وهو خلافُ الظاهر.

ويؤيِّد ما ذكرناه أولاً من المعنى ما في حرف أبيٍّ كما أخرجه أبو عبيد وابن المنذر عن هارون: «واتلُ عليهم القرآن»(١). وحَكَى عنه في «البحر» أنه قرأ: «واتلُ هذا القرآن»(٢)، ولا تأييدَ فيه لِمَا ذكرنا.

وقرأ عبد الله: «وأن اتلُ» بغير واو أمراً من تلا(٣)، فجاز أن تكون «أنْ» مصدريةً وُصلت بالأمر، وجاز أن تكون مفسِّرةً على إضمار أُمرتُ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: بالإيمان بالقرآن، والعملِ بما فيه من الشرائع والأحكام. وقيل: أي: بالاتِّباع فيما ذكر من العبادة والإسلام، وتلاوة القرآن أو اتِّباعه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فإنما منافعُ اهتدائه تعود إليه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراضِ عنه، وقيل: بالمخالفة فيما ذكر، ﴿فَقُلْ﴾ أي: له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وقد خرجتُ عن عهدة الإنذار فليس عليَّ من وبالِ ضلالك شيءٌ وإنما هو عليك فقط، ويُعلم مما ذكرنا أنَّ جواب الشرط جملةُ القول وما في حيِّزه، والرابط المشترَطُ في مثله محذوفٌ، وقدَّره بعضهم بعدَ «المنذرين»، أي: من المنذرين إياه.

وجوَّز أبو حيان كونَ الجواب محذوفاً، أي: مَن ضلَّ فوبالُ ضلاله مختصٌّ به، وحُذف ذلك لدلالة جواب مُقابِله عليه(٤).

وجوَّز بعضهم كونَ الجملة بعدُ هي الجواب، ولكونها كنايةً تعريضيةً عما قدَّره أبو حيان لم تَحتَجْ إلى رابطٍ.

ثم إنَّ ظاهر التصريح بـ «قل» هنا يقتضي أن يكون «فمن اهتدى» إلخ من كلامه عزَّ وجلَّ، عقَّب به أمره ﷺ بأن يقول لهم ما قبله، ولا بُعْدَ في كونه من مقول

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٩ وعنه نقل المصنف، وجاء في فضائل القرآن: مروان، بدل: هارون.

(٢) البحر ٧/ ١٠٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١١١، والبحر ٧/ ١٠٢، والكلام منه.

(٤) البحر ٧/ ١٠٢.

القول المقدَّر قبل قوله تعالى: (إِنَّمَآ أُمِرْتُ) كما سمعتَ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أفاض عليَّ من نَعْمائِه التي من أجلِّها نعمةُ النبوَّةِ المستتبعةِ لفنون النعم الدينية والدنيوية، ووفَّقني لتحمُّل أعبائها وتبليغِ أحكامها بالآيات البيِّنةِ والبراهين النيِّرة.

وقولُه تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من جملة الكلام المأمور به، أي: قل سيُريكم آياته سبحانه ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: فتعرفون أنها آياتُ الله تعالى حيث لا تنفعكم المعرفة.

وقيل: أي: سيُريكم في الدنيا، والمراد بالآيات الدخان وما حلَّ بهم من نقمات الله تعالى، وعُدَّ منها قتلُ يوم بدرٍ، واعترافُ المقتولينَ بذلك بالفعل(١)، واعترافُ غيرهم بالقوة.

وقيل: هي خروجُ الدابة وسائرُ أشراط الساعة، والخطابُ لجنس الناس لا لمن في عهد النبوة.

وأخرج ابن أبي حاتم وجماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ المراد بالآيات الآياتُ الأنفُسِيةُ والآفاقية(٢)، فالآيةُ كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقيل: المراد بها معجزاتُ الرسول ﷺ، وإضافتُها إلى ضميره تعالى لأنها فِعْلُه عزَّ وجلَّ، أظهرها على يدِ رسوله عليه الصلاة والسلام للتصديق، والمراد بالمعرفة ما يجامِعُ الجحود.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهته سبحانه بطريق التذييل مقرِّرٌ لِمَا قبله متضمِّنٌ للوعد والوعيد، كما ينبئُ عنه إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ، وتخصيص الخطاب أوَّلاً به عليه الصلاة والسلام وتعميمُه ثانياً للكفرة تغليباً، أي: وما ربُّك بغافلٍ عما تعملُ أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازي كلًّا منكم بعمله لا محالة.

---

(١) في الأصل: الفعل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٦١، والكلام منه.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٧.

وقرأ الأكثر: «يعملون» بياء الغيبة[1]، فهو وعيدٌ محضٌ، والمعنى: وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالهم فسيعذبهم ألبتة فلا يحسبوا أنَّ تأخير عذابهم لغفلته سبحانه عن أعمالهم الموجبة له.

ومَن تأمَّل في الآيات ظهر له أنَّ هذه الخاتمة مما تُدْهِشُ العقول وتحيِّر الأفهامَ، ولله تعالى درُّ التنزيل، وماذا عسى يقال في كلام الملك العلَّام.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات ما قيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء القلب ﴿مَآءً﴾ هو ماء نظر الرحمة ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ من العلوم والمعاني والأسرار والحِكَم البالغة ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي: أصولَها؛ لِمَا أن العلوم الإلهية غيرُ اختياريةٍ، بل كلُّ علم ليس باختياريٍّ في نفسه وإلَّا لزم تقدُّم الشيء على نفسه، نعم هو اختياريٌّ باعتبار الأسباب.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أرض النفس ﴿قَرَارٗا﴾ في الجسد ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ من دواعي البشرية ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ من قوى البشرية والحواسِّ ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ بحرِ الروح وبحرِ النفس ﴿حَاجِزًاۗ﴾ وهو القلب.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ وهو المستعدُّ لشيء من الأشياء ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ بلسان الاستعداد، وطلب منه تعالى ما استعدَّ له. وقال بعضُهم: المضطرُّ: المستغرقُ في بحار شوقه تعالى.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ﴾ وهي النفسُ الناطقة والروح الإنسانيُّ ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض البشرية.

وعلى هذا النمط تكلَّموا في سائر الآيات، وساق الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه قولَه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ دليلاً على ما يدَّعيه من تجدُّد الجواهر كالأعراض عند الأشعريِّ، وعَدَم بقائها زمانين، ومَبْنَى ذلك عنده القولُ

(١) التيسير ص١٢٦، والنشر ٢/ ٢٦٢-٢٦٣ وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة وابن كثير وأبي عمرو وخلف.

بوحدة الوجود، وأنه سبحانه كلّ يومٍ هو في شأن، والكلامُ في صحة هذا المبنَى واستلزامِه للمدَّعَى لا يخفى على العارف، وأمَّا الاستدلالُ بهذه الآية لهذا المطلب فمن أمهات العجائب وأغربِ الغرائب، والله تعالى أعلم.